چورچ مارسیه

بلإد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطي

> ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل

راجعه واستخرج نصوصه الدکتور مصطفی ابو هیاف احمد

توزيع : منشأة المعارف بالاسكندرية



الهداءات ١٩٩٩ مـدهمام ح/ هصطفيي أبو خيون أستاخ التاريخ الإسلامي بجامعة عدمد الأول بالمغرب

بسي والله الرحمز الرجيم

مقدمة الترجمة

هذه دراسة فى تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامى منذ المنتح العربى حتى نهاية العصور الوسطى ، وقتاز بغزارة المادة وسعة الأفق والاستناد الى المصادر الوثيقة بالموضوع ، ومنها يتكشف للمرء تنوع النزعات والأهداف بين كل من بلاد المغرب وبلاد المشرق فيما يطلهه كل منهما من الآخر وما يمثله له ، طوال العصور الوسطى .

ونظراً لأهمية المرضوع الذى تناوله چوزج مارسيه بالدراسة ، والمنهج التاريخى الذى اتبعه ، إذ رغم اعتماد الباحث على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالمرضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، إلا أن منهجه التاريخى مكنه فى معظم الأحيان أن يكون محايداً ، لا تأثير لأراثه الشخصية ومعتقداته الدينية فيما تناول إلا قليلا نادرا . ولكن هذا كله لا يقلل من أهمية الكتاب وقيمته وفائدته للباحثين فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة ، وتاريخ بلاد المغرب بصفة خاصة . فهذا الكتاب يعلمنا بطريقة عملية كيفية استخدام منهج البحث التاريخى العلمى فى دراسة التاريخ ، ويقدم لنا درسا قيما فى صبر العلماء على معاناة البحث حتى يتملكوا أدواته ، ويتمكنوا من استيعاب أحداثه ، ثم يعرضونها بطريقة موضوعية أخاذة .

لذلك أسعدنى أن أتعاون مع زميلى الفاضل الأستاذ معمود عبد الصمد هيكل في ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، فهو له خبرة طويلة في تدريس

اللغة الفرنسية بالجامعات المصرية . بالإضافة إلى أن تخصصى في تاريخ المغرب والأندلس الذي سمح لى بمراجعة النصوص العربية المترجمة التى أوردها المؤلف على الأصول التى ذكرها فى لغتها الأصلية مراجعة دقيقة طلبا للدقة والضبط ، ولتكرن بين يدى الباحث بلغة العصر التى كتيت بها . وقد يرى القارئ فى بعض الأحيان ما يشبه التفكك فى العرض ، فمرجع ذلك الى أن الكتاب ، كتاب علمى يعنى بضبط الوقائع معللا أسهابها وعارضها ما يستنبط منها ، وهذا لا يمنع أن بعض فصول الكتاب قثل متعة ذهنية فى العرض والمنهج التاريخي الجدير بالاحتلاء .

ومؤلف الكتاب چورج مارسيه G. Marçais من خيرة الباحثين الذين توفروا على دراسة بلاد المغرب بحكم إقامته الطويلة بها ، وجلده المستمر على البحث في مختلف مرافق حياته وتاريخه ، حيث كان أستاذا بجامعة الجزائر كما شغل منصب مدير متحف ستيقان جسل بالجزائر التي جانب عضويته للمعهد الفرنسي .

ولقد تعددت مؤلفاته التاريخية والمعمارية الإسلامية أهمها (تاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر الميلادى) ، وتاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق في العصور الوسطي الذي بين يدي القارئ ، ومجموعة أخرى من الأبحاث التاريخية حول تاريخ المشرق . أما مؤلفاته المعمارية فأهمها (فن الإسلام) وهو يتناول الفن الإسلامي في حقوله المختلفة من العمارة الى الفتون والحرف والصناعات بصفة عامة . و (ملخص الفن الإسلامي) ويتناول العمارة في بلاد المغرب والأندلس بصفة خاصة .

ولقد اكتفينا بالترجمة وتحقيق النصوص ، وفضلنا عدم التدخل بالتعليق على كثير من الأراء التي وردت بالكتاب ، نظرا لظهور دراسات متعددة تتولى هذه المهمة مثل أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصرى

المرحدين وبنى مرين لمراجع هذه الترجمة ، واكتفينا بتوضيع بعض المسميات والمصطلحات التى قد تغيب عن ذهن القارئ والباحث وقد أشير إليها فى الحواشى بالرمز (*) ، حتى يستقيم المعنى وتتحقق الفائدة .

وأخيرا نرجو أن يسد هذا الكتاب فراغا في الدراسات المفرية التي ما زالت بكرا تحتاج فجهود الباحثين المخلصين ، ويجد الباحث المبتدئ في هذه الدراسة نعم الفائدة والمعين .

رما الترفيق إلا بالله .

الاسكندرية ١١ فبراير ١٩٩١ م .

دكتور

مصطفى أبو ضيف أحمد

توطئة

يشكل دخول العرب الرحل الى يلاد البربر في حوالى ١٥٠٠م (١٤٤ه) وهو ما يسمى عادة بالغزو الهلالى ، تاريخ البلاد خلال القرون الثمانية التى تفصل بين الفتح العربى للبلاد والاستقرار التركى . ويشكل هذا الحدث الموضوع الرئيسي لكتاب ضخم عن (تاريخ العرب في يلاد البربر من القرن المادى عشر الى القرن الرابع عشر الميلادى) والذى نشرته في ١٩١٣ م . لقد وجدت من الأفضل إعادته ودراسته بعد ثلاثين عاماً من العمل المتواصل ، ومع ذلك فالغزر الهلالى لن يعالج في هذا الكتاب بنفس الصورة ، ولن يشغل نفس المكان مثل سابقه . إذ أننى سوف أتناول الغزو نفسه باختصار شديد ، إذ ليس لدى ما أضيفه الى روايتى الأولى ، وعلى القارئ الراغب في معرفة التفاصيل الرجوع الى كتابى الأول . وبالإضافة الى ذلك لن يشغل الغزو الهلالى الباب الأول من هذا الكتاب بل سيشغل الجزء الثانى منه . إن هذا الغزو يوضح لنا أسباب فشل تطور الأحداث المعروض في الجزء الأول من الكتاب ، ويقدم الظروف الجديدة ببلاد المغرب التي يتناولها الجزء الثانى الثالث.

سوف تظهر نتائج الغزر الهلالى فى جميع المجالات ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية . ولن تنجر منطقة أو شعب فى شمال إفريقيا من نتائجه . ومع ذلك تراودنا الرغبة فى فهمه على أنه خدث خاص بشمال إفريقيا وهذا يقلل من دوافعه . لقد أثر فى أجزاء العالم الإسلامى

التى تجاور بلاد البربر ، فالغزاة العرب خرجوا من مصر وانتقل بعضهم أو سلالاتهم إلى الأندلس ، كما تأثرت البلاد الغير إسلامية المحيطة وخاصة أسبانيا المسيحية وصقلية بنتائج دخولهم إلى مسرح الأحداث أو بنتائج الأحداث المعاصرة . لقد أثر القرن الحادى عشر فى الواقع على مصير العالم الإسلامى ، كما أثر على تطوره الداخلى ، وعلى علاقاته مع النصرائية . فمن المهم ذكر هذا قبل بد، قراءة هذا الكتاب ، وكذلك ذكر هذا التزامن . إن نظرة بيانية للأحداث التى جرت فى نفس الوقت فى الأجزاء الأخرى للمالم بيانية للأحداث التى جرت فى نفس الوقت فى الأجزاء الأخرى للمالم الإسلامى ، بل وفي المجال المسيحى كذلك ، تسمع لنا بإعادة الأحداث التى أويها فى إطارها الزمنى ، وإبراز الروابط أو التشابد التى تساعد على فهمها بطريقة أفضل .

إذا كانت هناك كما يقال عن (تحولات التاريخ) عصور تتغير فيها ظروف حباة الدول والشعرب تغيراً عميقاً لظهور أبطال جدد على مسرح الأحداث ولتداخل عناصر جديدة ، فالقرن الحادى عشر الميلادى (هد) يعد واحداً من هذه التحولات بالنسبة للعالم الاسلامى . فالأحداث التى شاهدها أثرت على المشرق والمغرب . من بلاد فارس حتى أسبانيا ، والعالم المسيحى الذى كان لد نصيب ملحوظ فى هذه الانقلابات تأثر بها أيضاً ولكن فى وقبت لاحق .

نى المشرق شاهد القرن العاشر الميلادى (كه) وضعية شادة . فخلاقة العباسيين كانت قائمة ولكنها كانت وهمية . فمنذ عام ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) تكونت فى بغداد حول الخليفة العباسى الكسول سلالية من رؤمياء الديوان (قواد الجند) وأصبحت وصية على أمير المؤمنين . غير أن حماة الخلفاء العباسيين _ الرؤساء الروحانيون للاسلام السنى _ كانوا فارسيين تابهين للمذهب الشيعى الذى انتشر فى مصر مع للمذهب الشيعى الذى انتشر فى مصر مع الماطميين انتشر فى أسيا وكان على وشك أن يصبح الملهب الأيرانى للاسلام . هذا هو الوضع الذى قضى الأتراك عليه بظهورهم . هؤلاء الأتراك

رعاة رحل ـ جاءوا من أسيا الوسطى ـ وزحفوا الى ايسران ودخلوا بغداد فى ١٠٥٥ م (١٤٤٧ هـ) وخلصوا الخليفة العياسى من وصاية هؤلاء الشيعة البويهيين وورثوا مكانتهم . ليصبحوا رؤساء الجند الأقوياء ورغم أن الخليفة العباسى لم يستعد استقلاله أو نفوذه السابق إلا أن هناك شئ ما قد تغير .

فالأتراك هم مناصرى المذهب السنى، سيجددون السنة ويحاربون تهديد المذهب الشيعى ويستخدمون القوة الحربية الهائلة المتوافرة لديهم لتحقيق دورهم البطولى للدفاع عنه ويتجلى تأثير السنة في تنظيمات الدولة بتأسيس المدرسة التى كانت مركزاً للدعوة يلتف فيها الطلاب حول معلم مشهور وتطورت لتصبح مؤسسة رسمية وحلقة دروس يدعو لها الأتراك علماء مخلصين لسياستهم السنية . فهى أداة دعاية ضد الشيعة وبيوت علمية ذات مخلصين تتنافى فيها الأبحاث الخارجة عن التقاليد الدينية كالدراسات الدنيوية ذات الطابع والمنهج الاغريقى الذى استعاره الخلفاء العباسيين . هذه المعلوم ليس لها مكان في مناهج التعليم الخاصة بهذة المدارس التى انتشرت العلوم ليس لها مكان في مناهج التعليم الخاصة بهذة المدارس التى انتشرت في العراق ثم في سوريا ومنها اتجهت الى مصر والمغرب .

وبينما تمكن الاسلام السنى من محاربة البدع والفكر الشيعى في الداخل ، فقد أخذ اتباع سياسة التوسع في الخارج وساعد على ذلك _ إن صع القول _ طبيعة الأتراك ، فهو شعب محارب من الدرجة الأولى _ رحال فيما مضى _ متعود على الحيساة على حساب المدنيين المسالمين . والتنظيم الذي أدخله الأتراك في العالم الاسلامي هو نوع من الاقطاع الحربي وتطوير للطابع النصالي للاسلام . وسوف يعطون للجهاد دفعة كانت قد خبت منذ أكثر من قرنين . ففي ١٠٧١ م (٤٦٤ _ ٢٠٥ هـ) حاز الأتراك النصر المدوي على البيزنطين في موقعة ملازكرد حيث أسر الامبراطور البيزنطي ديوچين وسلمهم معظم أسيا الوسطى . فكانت القسطنطينية ترتعد من رؤية المسلمين معظم أسيا الوسطى . فكانت القسطنطينية ترتعد من رؤية المسلمين

معسكرين أمام أسوارها عما اضطر ميشيل السابع الى مناشدة الغرب للمساعدة لانقاذ الامبراطورية . ومن ناحية أخرى فاحتلال الاتراك لسوريا _ فلسطين جعل من الصعوبة زيارة المسيحيين للأماكن المقدسة التى كانت فيما مضى من المارسات العادية . فكان الحبجاج ضحية للابتزاز وسوء المعاملة ووصلت شكوى هؤلاء الحبجاج للبابا ادريان الثانى الذى دعا للتدخل المسيحى الضخم وفى ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) دخل الصليبيون القدس .

إذاً ففى المشرق أدى تدخل الأتراك الى سلوك الاسلام مسلكاً جديداً بدأت مراحله الأولى قبل نهاية القرن الثانى عشر . فقد قوى المذهب السنى وانطوى على نفسه مقاطعاً مغريات الفكر الوثنى معيسناً نفسه ضد البدع والهرطقات متحفزاً ضد العالم المسيحى . فتجدد الصراع بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى وكان رد الفعل مباشراً من جانب الغرب فقامت الحروب الصليبية رداً على الجهاد الاسلامى تلك هى محيزات التحولات التاريخية فى المشرق (قارة أسيا) .

أما في الطرف الآخر (الغربي) للبحر الأبيض المتوسط الاسلامي يشهد القرن الحادي عشر (٥ هـ) أيضاً ظهور أحداث ذات أهمية كبرى . ولن تخلو من تشابد مع تلك التي ذكرتاها بالمشرق .

فغى ١٠٣٠ م (٢٧١ هـ) اختفى آخر الخلفاء الأمويين فى الأندلس وعلى كل حال فى السنوات الأخيرة للقرن العاشر الميلادى (٤ هـ) لم تكن الخلافة إلا وهما ! خيال بدلاً من واقع ! فقد كان أواخر الأمويين في قرطبة لعبة بين أيدى رؤساء الديوان مثل العباسيين فى بغداد وذلك ابتداء من وصاية ابن أبى عامر وأبناء الأثنين من بعده . ومع ذلك فالعامريون كانوا يبقون على المنظرة والقرة الظاهرية حول من كان يحمل لقب أمير المؤمنين الى أن انهار كل شئ على أيديهم . وفتح سقوط هذه الخلافة بالأندلس عهداً من عدم

الوفاق ليستمر حتى ١٠٨٦ م (٤٧٩ ه.) هذا العصر يتميز بخواص جديدة في جميع المجالات :

- فالرحدة الصمية التي حققها عبد الرحمن الثالث في القرن العاشر الميلادي (٤ هـ) تحولت الى تجزؤ في السلطة السياسية .

معل السلطة الدينيوية للخلفاء والمكانة الدينية المعترف بها لهم سلطات محدودة لملوك الطوائف وتوع من التوازن بينهم سيؤول في عهد خلفائهم.

م أصبحت ثقافة وفتون قصور ملوك الطوائف أكثر علمانية فازدهر الشعر في أشبيلية وغرناطة ويلنسية إذ تناول حياة المتعة وأوهامها ، والحدائق والحب الدنيوى ولا تجد فيه أى احساس دينى ولا روح بطولية . ويبدو أن مسلمى أسبانيا فقدوا قوة مقاومتهم وحيوبتهم .

فى هذا العهد _ عهد ملوك الطوائف _ بدأ ينمو بتصميم متواصل إسترجاع السلطة لايدى المسيحيين اللين استفادوا من هذا الوضع المتدهور فمنذ عهد فرديناند الأول ملك ليون استردت المسيحية كل من قرطبة وطليطلة وأشبيلية وبلنسية ووجب على حكامها دفع أتاوة (جزبة) للكافر.

وهكذا نلاحظ أننا أمام وضع معاكس للوضع المتزامن لد فى أسيا ، فالنصرانية هنا فى وضع هجومى وود الفعل سيكون من الاسلام الافريقى . ومثلما دعا الامبراطور البيزنطى أمراء الفرب, المسيحيين لمقاومة التهديد الاسلامى مهدداً الغرب الاوربى بفقدان عرش الامبراطورية البيزنطية ، كذلك فى أسبانيا أرسل سلطان أشبيلية صرخة استفاثة مماثلة للمرابطين وحصل على مساعدتهم وكان المقابل ضياع إمارته .

هله الجرب المقنسة الماكسة (العكسية) قام بها المرابطون بقيادة يوسف

بن تاشفين الذى انتصر فى الزلاقة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) وكما فى المشرق فسوف تستمر الحرب التى شنت فى نهاية القرن الحادى عشر لمدة ٢٠٠ عام (وستزيد فى الأندلس ٥٠ عاما عنها فى الأرض المقدسة) ، ومع ذلك فالصراع بين الديانتين لازم ، وقوى التطور الداخلى للاسلام المغربى .

فالمرابطون ، وهم أصلاً بدو رحالة ، ستيون شديدو التدين وقد أصبحوا الآن أبطال المقيدة المهددة ، يتراءوا لنا _ ولكن بدرجة أقل _ كظل للأترال . بنضلهم استطاعت الديانة الاسلامية تقوية عقيدتها والدفاع عن نفسها والوقوف أمام الأعداء في الخارج والداخل ، لقد قاوموا التسيب في العادات واغرابات الثقافة الدنيوية في شبه الجزيرة للأيبيرية التي جاءوا لانقاذها . وبعد ١٠٠ عاما تقريبا استطاعت الأندلس أن تلين من صلابتهم وتهز قواهم النصف همجية فاضطروا لترك الساحة لحلفائهم المرحدين ليأتي مستقبلاً المرينيون ليحلوا بدورهم محل السابقين . الجهاد المقدس الذي نادي المرابطون به بغية في النصر سيحد من الآن فصاعداً الدور التاريخي للمغرب وستدوم هذه الحرب حتى استعادة المسيحيون شبه الجزيرة الأيبيرية بأكملها وما يقابلها من السواحل المغربية . لأن غزوات المسيحيين لسواحل بلاد البرير (شمال أفريقيا) وعمليات القراصئة أطالت تلك الحرب حتى فجر القرن التاسع عشر الميلادي .

إن تدخل المرابطين في أسبانيا في نهاية القرن الحادي عشر هو الذي وضع المغرب الاسلامي في مهب هذه الأقدار التاريخية الجديدة . هناك أحداث لاتقل أهمية كانت تحدث في نقطة أخرى من العالم الاسلامي في نفس الوقت المحدد للخول الأتراك بغداد ... وخروج المرابطين من الصحراء والاتجاه نحو الشمال.. هذه الأحداث هي موضوع دراستنا في هذا الكتاب .

ـ انفصال بلاد البربر الشرقى (الصفهاجيون) عن الخلافة الفاطمية

- بالقاهرة.
- _غزو العرب الرحل لبلاد المغرب نتيجة لهذا الانفصال .
- ــ احتياج هؤلاء العرب الرحل للبلاد التي غزوها .

لقد تأثرت وعلى الدوام حياة إفريقيا الشمالية بهذه الكارثة . والقرن الحادي عشر دمغ هذه البلاد - أكثر من أي مكان آخر - بانقطاع مع الماضي «وتحرل للتاريخ» وذلك في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية والمسائل الدينية التي تظهر بدون شك في المرتبة الاولى في أسيا كما في أسبانيا لا تخطر لأول وهلة على الأذهان ومع ذلك فعودة المذهب السنى لافريقية .. المعادى للشيعيين الفاطميين .. كان سبب الانفصال بين القيروان والقاهرة . ومن الآن قصاعداً يسود المذهب السنى كل بلاد البربر التي دفعت غاليا ثمن هذا التحرر . وبالرغم من المحن فقد قوى الإسلام أوضاعه ليصبح نضالياً وبذلك سيثير ردود الفعل المسيحية . وبعمد الانهيار الناتيج عن الغزو الهلالي ، أعاد امراء صنهاجة تنظيم سياستهم . فحولوا نشاطهم من الداخل نحو البحر أي نحو البلاد المسيحية للحوض الغربي للبحر المتوسط كنوع من التعويض عن الكوارث التي لحقت بهم في الداخل ، وقبل كل ذلك استجابة لطلب مسلمي صقلية للحفاظ على كيانهم من النورمان المسيحيين . فالنورمان الذين حكموا جنوب ايطاليا زحنوا على الجزيرة وتلاحقت الأحمدات ؛ وأستمولوا على مسيئا ١٠٦٠م (٢٥٢ هـ) وبالسرمو ١٠٧١م (١٠٤٤ هـ) وسرقسطة ١٠٨٥ م (٢٧٨ هـ) . وانتهى ضم الجزيرة بأكملها في عام ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) وفي العام السابق لقيت مالطة نفس المصير وبذلك فقد الاسلام السيطرة على البحر ، تلك السيطرة التي امتلكها الأكثر من قرنين وبدأ يشعر بالخطر في موطنه . بدأ المسيحيون في مهاجمة سواحل بلاد البربر الشرقية لتصبح بذلك خلاف ما كانت عليه منذ ٣٠٠ عام أرض

الحرب المتدسة . وعلى كل حال فهذه الغزوات كانت حملات عقاب أكثر منها عبليات غزو . اتحدت قرات چنوه وبيزا لتدمير قواعد القرصنة الاسلامية التى كانت تتزايد بالرغم من ذلك عاماً بعد عام ، فالقراصنة يبحرون من المهدية وبجابة وجربة لسلب الشاطئ المسيحى المقابل والاستيلاء على البواخر التجارية .

هذا التشاط البحرى للبربر والذي ازداد في القرن الحادي عشر ، ليس إلا امتداداً لهذه التصومة بين الاسلام والتصرائية .

لذلك وقعت أحداث ، في نفس القرن ، وبالتحديد خلال الخمسين هاماً الأخيرة منه ، تعتبر مستقلة عن بعضها ولكنها غيرت بعمق الحياة الداخلية لثلاث أقاليم من العالم الاسلامي تبعد عن بعضها البعض لأكثر من ألف كيلو متر ويتمركزوا الي حد ما على شواطئ البحر المترسط . هذه الأحداث غيرت الحياة الداخلية للدول والشعوب وأيضا علاقاتهم الخارجية بالعالم اللا اسلامي المحيط بهم ، وترى انه من العشروري التركيز على أن هذه الأحداث كما يبدو لا اتصال مهاشر بينها أو حدثت تتبجة لسبب مشترك حدد إنطلاقها في نفس الوقت الرقت . لذلك فاستقلالية هذه الاحداث يالمتابه والاشارة الي تشابهات أخرى .

وسبب هذه التطورات الثلاث المتوازية ليس افلاساً أو بتراً تخليفة واحد يل الثلاثة خلفاء كانوا يقتسمون آنذاك العالم الاسلامى وهم : _ الخليفة العباسى في بغداد والأموى في قرطبة والفاطمي في القاهرة . إذ أدى تنافسهم الى تأكيد ضعفاً عضالاً بالعالم الاسلامي . فوصاية الأتراك للعباسيين ، وتنهود الأمويين ، وانفسال الآتباع البربر عن الفاطميين ، ما هو إلا دلالات خطيرة لظهور أزمة نتج عنها وضع جديد . وقد أعفى هذا الوضع الجديد دكري الرحدة السياسية السابقة ، ولكند بعث في نفس الوقت العودة الى الرحدة

الروحية النسبية ، إذ نرى فى هذه المراكز الثلاث التى يبدو عليها التطور المستقل إنتصار المذهب السنى واستقرار إمتثالية صارمة توضح الاستعارة المستقبلية للمدرسة من المشرق الى المغرب انه نوع من الاصلاح الاسلامى العكسى الذى يظهر كرد فعل للبدع (اللاسنية ــ الحاد) والثقافة الوثنية .

إن تطور البلدان الثلاث فى نفس الاتجاه مصادقة ليس من السهل شرحها فالمجتمعات التي تثيرها أو المتحدة مصادقة فى إثارتها ، هذه المجتمعات لها نفس اسلوب الحياة .

هسله المجتمعات في أسيا كما في أفريقيا هي عشائر من الرعاة الرحل والمحاربين وينتمون لثلاث شعوب من أجناس مختلفة : أتراك سعرب بربر . هذه هي العوامل التي اختارها القدر التاريخي ، وفي وقت يبدو مصادفة ، فالقرن الحادي عشر هو ميعادهم ، والساعة التاريخية للبدو الرحل . إنهم قوة في خدمة عقيدة وتدخلت هذه القوة في عالم أقل نضالية منهم . فمهمة الأتراك والمرابطين هي إصلاح السنة أما الهلاليون فلن يكونوا إلا أداة عمياء للبدع مما جعل العرب الأصليين والعالم الاسلامي يأسف لتدخلهم لأنهم هدموا ولم يصلحوا شيئاً . ولكن الوضع ليس كذلك بالنسبة للأتراك والبربر الصحراويين ، فدورهم في ازدهار الحضارة وعظمتهم الحربية خصصت لهم مكانة مشرفة في تاريخ البلاد الاسلامية .

كما لا يمكن اغفال أسمهم فى تاريخ الشعوب المسيحية . فقد رأينا كيف أعطو وثبة عظيمة للجهاد المقدس فى أسيا وأسهانيا ، وكيف أولوه حرارة عقيدتهم التى أوصلتهم للاستشهاد ، ورأينا أيضا حماسهم الحربى ودغبتهم فى الغزوات المثمرة . حتى فى بلاد البربر الشرقية (أفريقية) حيث بقى العرب البدو بعيدين عن أى اهتمامات دينية فقد تلى تدخلهم تصاعد القتال مع مسيحي ما وراء البحار . بللك كانت المناطق الثلاث للعالم الاسلامى التى

ظهروا قيها ثلاث قواعد هجومية من الاسلام ضد العالم المسيحي.

وفى نفس الرقت أصبحت هذه المناطق الثلاث فى المستقبل القريب ثلاث محاور للحوار السلمى والتبادل المقيد . ومن ثم فأهمية هذه الفترة تعدت بكثير حدود المجال الاسلامى لأن الحرب المقدسة حملت الخصوم على التعارف بعد أن كانوا يجهلون بعضهم البعض . وسوف يستقيد كل منهم . رقم أنقد وقبل كل شئ من طرق حرب الآخر ومن فاعلية النماذج الحربية المؤثرة . بالاضافة الى نتائج من نوع آخر إذ سينجذب المسيحيون للحضارة الاسلامية المتلابة التي كانوا من قبل يكنون لها الاحتقار ويبدو أن الاقتباس كان عبر المحادر الثلاث في الأرض المقدسة (بالشام) وصقلية والأندلس حيث كانت المعادر التاريخية متشابهة نتيجة للتدهور المؤقت للمنافعين عن الاسلام .

لقد شعر هؤلاء المسيحيون بعد احتلالهم لبلاد كانت بالأمس للمسلمين بالثقافة الاسلامية خصوصاً وقد استمر بعض المسلمين في الاقامة بها تحت نيرهم ، ومرة أخرى نشاهد في ثلاث محاور دفعة واحدة انتقام المهزوم فارضا على المنتصر ذي الطباع الخشنة رفاهة عاداته وسحر فنه « عندما طاف بويوند " BOEMOND " فرنسا عند عودته من الشرق وزار المعابد واحداً تلو الآخر ليروى قصته الخيالية من فوق درجات المنبع ، ترك للكتائس زخائر وعهامات ليروى قصته الخيالية من فوق درجات المنبع ، ترك للكتائس زخائر وعهامات من الحرير للذكري (١) . هذه العبامات كانت غنيمة حرب وكانت مصنوعة من الأنسجة الشرقية الفاخرة جلبها معه هو وزملاء ليدثروا بها أجساد القديسين ولتبقى ضمن كنوز الكاتدرائيات . وكانت مزوقة (مزركشة) بأشكال حيوانات قلد بها نحاتونا أعمدة مبانينا في ذاك الوقت ، وتراودنا الرغية أن نرى مع

⁽¹⁾ E. MALE, L'ART RELIGIEUX DU XII^a SIECLE. EN FRANCE, P. 343.

EMILE MALE محاكاة هذه الأقمشة في تكوين زجاج نوافلنا الملونة . على كل حال فهذا الأثر الذي كان عارسه المشرق عن يُعد قام بتقوية حركة الاتصالات المباشرة بين العالم المسيحي والعالم الاسلامي . ففي صقلية كما في أسبانيا أدخل الغزو مناطق من أرض المسلمين في المجال المسيحي . وتلقت النصرانية المنتصرة ميراثأ حضاريا نقلته للبلاد الأوربية وأعطت لصورة المسلمين وتراثهم الديني المهزوم رنيناً ذا حجم غير متوقع . فغي صقلية نعرف ما كان عليه البلاط العجيب للملوك النورمإنديين والشغف الذي أظهرة هؤلاء الشماليون بالطراز الاسلامي وتعرف أيضاً من وصف المسافرين ، ومما لا يزال باتى في بارم في عهد روجار الثاني ROGER II ووليم الثاني -WIL-LIAM II إن زخرفة القصور والكنائس كانت الى حد كبير تقليداً للزخارف التي كانت تعمل في الماضي في قصور امراء المسلمين ومساجدهم ؛ هذا الفن المسيحي (النورماندي) هو عبارة عن مرحلة متطورة عن الفن الاسلامي . فمادة زخرفته مثل المربع الموضوع داخل زاوية وكل جانب منه به فص مستدير ظهر في القرن التاسع في مساكن العباسيين ببغداد أخذتها مصر في القرن الحادي عشر وازدهرت في القرن الثاني عشر في السقوف الصقلية لكنيسة القصر وأصبحت من آنذاك جزءاً من تراث المزخرفين المسيحيين . ستصل هذه المادة الزخرفية الى L'ILE DE FRANCE ، ونورماندي -NORMAN DIE وسيستعملها فننا القوطى في فرجة (مساحة) الكنانات في مداخل المباني وفي الفسيفساء المنير (الزجاج الملون) للوحاتنا الزجاجية الملونة وقد أظهر التحليل أن هناك أكثر من شكل اسلامي بل أكثر من تقنية (فنية) قد دخلت عالمنا الغربي من صقلية وإيطاليا الجنوبية .

وماذا يقال عن المنفذ الثالث الذي ينفتح من أسبانيا في أحضان البلاد السيحية-؟ هذا السؤال أتاح الفرصة لدراسات حديثة متعددة ولا تزال هناك

أكثر من نقطة يشوبها الغموض . فبعض الدلالات تسمع لنا بالتأكد ان التيارات بدأت في القرن الحادي عشر نتيجة الظروف التاريخية التي أنشأها استرداد المسيحية للسلطة ، كما يبدو مؤكدا أيضا أن الفن الذي تأسس في القرن الحادي عشر لخلفاء قرطبة هو الذي ألهم المعماريين في أوفيرنيا القرن الحادي عشر والازدهار للمحادي عشر والازدهار الفكري لقرطبة ، رغم كونه كان بدون شك مرموقاً في عصرها الذهبي ولكند لم يتماس مباشرة ، والملاحظ أن فرنسا لم تشعر به إلا بعد قرن .

عوضاً عن قرطبة التى لم يفتتحها قرناندو الثالث ، إلا سنة ١٧٣٦ م (٦٣٤ هـ) استطاعت طليطلة ـ التى ازدهر قيها نفس الفن والتى سقطت سنة ١٠٨٣ م (٢٧٦ هـ) تقديم نماذج لمشيدى الكنائس وتحتفظ هذه المدينة بمسجد معاصر للخلافة أصبح فيما بعد «كنيسة يسوع النور به فقد ضم حكام المدينة الجدد مسجد الدين المنافس لعبادتهم . والسمة الملحوظة لهذا المسجد الذى تحول الى كنيسة هو سقف صحته المكون من تسع عقود مضلعة والذى يوحد القبة مع تشابك (تداخل) الطاقات الكبيرة ليعطى شكل افريز من أسفل .

هذا المسجد هو على الأرجع بناية فارسية . ويحتفظ و المسجد الكبير » بقرطبة بنفس الحلية التى كانت مألوفة للمعماريين المسلمين والمستعربين في أسبانيا القرن العاشر . والفترة التى تشغلنا كانت شاهداً على الانتشار الملاهل لهذه الحلية وقد ذكر ايلى لامبرت ELIE LAMBERT ان هذا الانتشار لم يكن في أسبانيا المسيحية فحسب ، بل وفي جنوب وغرب فرنسا ، وفي عدة كنائس لبلاد الباسك BASQUE ولونجدوك LANGUDOC واكيتين كنائس لبلاد الباسك BASQUE ولونجدوك 1ANGUDOC واكيتين والمسجد الكبير» الذي شيده أحد المرابطين بتلمسان في ١٩٣٦ م (١٩٥٨)

ازدهر هذا الابداع الشرقى فى قرطبة الخلفاء وفى نفس الوقت فى بلاد البربر المغربى (الأقصى) وغربنا المسيحى . لم يكن الفن المسيحى والفن الاسلامى أكثر قربا من ذلك الوقت . ولم تكن علاقات المجتمعين المتنافسين وثيقة ونافعة للطرفين إلا فى زمن السيد الكمبيادور (رودريجو ديات دى بيبار) هذا القارس الأسبانى الذى حمل خدماته من ملك قشتالة « المسيحى » الى سلطان سرقسطة (المسلم) وفى آواخر أيامه فى قصره الخاص بهلنسية ، كان الشعراء العرب والأسبان على السواء يتغنون كل بلغته بالحب العذرى ويكرمون الأعمال البطولية للسيد الكمبيادور " CID CAMPEADOR "

الجزء الأول البربر تحت وحاية المشرق الفحل الأول

إستشراق البربر

أولاً : ما يمثله المغرب بالنسبة للمشرق وما ينتظر منه ؟! ثانياً : ما أخذه المغرب من المشرق

> أ _ إخضاع البربر ب _ الديانة الاسلامية ·

ج. التعريب

ثالثاً : رد نعل الخوارج

الفصل الأول

إستشراق البربر

عندما خضع شمال إفريقيا للغزو الهلالى الذى سنصف هنا نتائجه العديدة كانت هذه المنطقة ولمدة أربعة قرون جزء من العالم الاسلامى وكانت تعترف بسلطة خلفاء المشرق . كيف حدث استبدال الطاعة البيزنطية بالطاعة العربية واعتناق شعب معظمه مسيحى للإسلام ؟ ما هي العلاقات السياسية والثقافية التي ربطت البربر بحكامهم وبالمسلمين خلال هذه القرون الأربع على التوالى ؟ بوضع أنفسنا أولا موضع الطرفين خلال الخمس وعشرون عاماً التي تلت الغزو وجب علينا ذكر وإيضاح الآتى :

أولاً: ... ما يمثله المغرب بالنسبة للمشرق وما ينتظر منه .

ثانياً: ... ما عِثله المشرق بالنسبة للمغرب رما أخذه عنه .

أولاً: ما عِثله المغرب بالنسبة للمشرق

إذ بدا لمصير شمال إفريقيا أن تظهر أرضا تابعة ، وأن تقبل رؤساء دنيويين وروحانيين مقبلون من الخارج ، فالقدر الفريد لم يجعل لهذه القوى الخارجية إرساء أعمق السلطات وأرسخها في البلاد إلا على كره منها وتحت ضغط الظروف . فروما تخلصت من قرطاج ولم تأمل في تكوين مجال إفريقي واسع . كما لم تهتم فرنسا باستغلال النصر بعد الاستيلاء على الجزائر العاصمة واعتنقت بدون حماس فكرة احتلال محدود . وكذلك بدت للخليفه عمر فكرة

ضم البرير للإسلام على أنها مفامرة مروعة . وقد رفض عمر رفضا قاطعا طلب عمرو بن العاص حاكم مصر الذى استولى على طرابلس السماح له بالاندفاع نحو الغرب . فقد قال عمر لعمرو بن العاص : « لا أغزيها أحد من المسلمين ما حملت عينى الماء» (١) ففتح إقريقية يبدو لأمير المؤمنين مهمة خطرة أكثر منها نافعة .

فأمير المؤمنين سلمترف به على أنه مؤسس الإمبراطورية العربية وكان بدون منازع واحد من أصحاب ترسعها ومنظم غزواتها سيتشكك من هذه المنطقسة لأن بُمنها قسد يفقده السيطرة على الجيوش والقسادة . والأحاديث المغالي فيها نسبت له القول التالى : إن إفريقية وباب من أبواب جهنم ين (٢) .

هذا يجعلنا تواجد هذا الحكم المؤثر بالتأكيد المنسوب للرسول نفسه على أن إحدى أبواب الجنة موجودة بالتحديد في إفريقية (٣). ربا جاء هذا الحديث الذي لا يقل زورا عن الحديث الأول لليحول المصير السيئ المرتبط ببلاد البربر ويحث المؤمنين للاستشهاد فيها . لقد ظهر المغرب بالنسبة للمشرق على أنه الأرض المباركة للجهاد المقدس . وظهر ذلك في كثير من الأحاديث ومن المرجع

⁽۱) أنظر أبر العرب : طبقات علماء إقريقية وترنس تحقيق على الشابى وتعيم حسن الياقى .. تونس ١٩٦٨ م ص ١٧ ، التويرى تهاية الأرب في قترن الأدب ، القسم الخاص بإفريقية والأندلس وصقله ، تحقيق مصطفى أبر شيّف أحمد ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ص ١٧٩ .

⁽٢) أبو المرب ؛ طبقات هلماء إفريقية وتونس ص ٧٢ .

G. MARCAIS .. أبر العرب ؛ طبقات علماء إنريقية وترنس ص ٢ وما بعدها .. NOTE SUR LES RIBATS EN BERBERIE DANS les Mélanges RENÉ BASSET, PARIS , 1925 , II PP. 395 ss .

أنها لا ترجع الى فجر الإسلام ولم تختلق لتشجيع النقمة الأولى نحو المغرب.

ولكننا نعتقد أنها تندرج زمنيا وتدل على ما يسمى بالمتغيرات المعلاطة. فهناك حديث يعطينا صدى الغزوات الأولى في بلاد البربر . فمثلا : أرسل النبى جنودا في حملة وعند عودتهم أخبروه عن قسوة البرد التي قاسوا منها فرد عليهم قائلا : « ولكن إفريقية أشد بردا وأعظم أجرا » (٤) وحديث آخر لاحق لهذا الحديث ويختص بالأفضال التي يحصل عليها مسلموا البلاد لمقارمتهم هجمات المسيحيين وهناك حديث يعلن عن سمعه مدينة المنستير أولى قلاع الشاطئ . وأخيرا هناك أحاديث أخرى تشير الى معاناة المرب القاسية ضد البربر الملحدين ولقد قال الرسول هيتقطع الجهاد عن البلدان كلها فلا يبقى الا بوضع في المغرب يقال له إفريقية به (٥) هذه الأحادث البناء ... رغم أي احتمال ، تربط تاريخ التوسع الاسلامي في بلاد البرير يشخصية رسول الله الجليلة . ومع ذلك إذا كان غير معقول أن النبي صلى الله عليه وسلم عبر عن رأيد في حرب بدأت بعد وفاته بـ ١٥ عاما فذكراه مرتبطة بالغزو بطريقة غير مباشرة وذلك للدور اللي لعبه أتباعه فيها . لقد مات الخليفة عُسِي في ٦٤٤ (٢٤ هـ) وقرر خليفته عثمان بناء على المعلومات المشجعة التي وصلته من طرابلس إرسال حملة ، ولكنه لم يقرر ذلك إلا بعد أخذ رأى مستشاريه (٦) . ففي مشروع يتعرض لمصير الإسلام فالخليفة الحذر في

⁽⁴⁾ أبر العرب ص ٤٩ ، ابن عدّارى : البيان المثرب في أخبار الأندلس والمقرب ١ : ٧ ، البكرى : المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٧ .

⁽ه) أبر المرب ص ٥٠-٥١ ، ابن ناجى : معالم الإيان في معرفة أهل القيروان (مصر ٥٠-١١) . و ١٤٠٠ م اليكري ص ٢٢ .

⁽٦) أبر العرب ص ٢٦-٧٦ ، ابن الأثير : الكامل في العاريخ ٣ : 40 .

حاجة الى استفتاء من صحابة رسول الله (علله).

وستتكون قرق الحملة من المهاجرين الأصليين الذين اشتركوا في الهجرة الى المدينة. فكل منهم أحضر مجموعة محاربين من قبيلته.

وسلالتهم التي استقرت في البلاد المفتوحة إفتخرت بللك واعتبرت انتما التهم القبلية ألقاب شرف .

ستجد بدون شك عند الطلائع العسكرية الأولى الإخلاص في انتصار الايان إن لم يكن التعطش للاستشهاد . فشخصية عقبة بن نافع ما المحاطة بهالة من الأساطير مستبقى على الدوام أهم ممثل للإسلام النصالي ويليه زهير بن قيس الذي يتصف بحماسة الحربي وتقشفه فقد رفض الإقامة في يلاد البربر بمد أن أعاد الوضع المتهدم فيها قائلا : « إني ما قدمت إلا للجهاد ا وأخاف أن قيل بي الى الدنيا فأهلك » . (٧) ولكن هذه الصفات نادرة عند العرب المنتصرين . فقراءة التاريخ تجعلنا نحس أن المتع الدنيوية تسيطر على الكثيريسن أكثر من الرغية في الاستشهاد والبعث بعد الموت « وأسيافهم على أعناقهم » (٨) فالمغرب يبدو للمشرقيين أرض غنيمة أكثر منه أرض جهاد .

وعن الموارد التي حصارا عليها والتي عددها الاخباريون بمحاياة ، ومن البسنيهي أن نهسني تحفظما أو بالأحرى إعتبار هذه الأرقام مهسالغ فيها

⁽٧) ابن علاري : البيان ٣٧:١، التجانى : رحلته ، تعقيق وليم مارسى (تونس ١٩٨١) ص ٧٧ ، ابن عبد الحكم : قترح مصر والمغرب ، تعقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٩٦ م) ص ٢٧٧- ٢٧٣ .

⁽٨) أبو العرب ص ٩٠.

نتيجة للخيال المشرقى وسراب الماضى والرغبة فى تعظيم المزايا التي أحرزها الاسلام .

بحساب المبالغات نستطيع التسليم بأن بلاد البربر كانت بالنسبة للعرب المعاصرين لمحمد (عَلَيْ) وكذلك من ثلاث قرون سابقة بالنسبة للونسال Varidales وأربعة قرون لاحقة بالنسبة للرحل الهلاليين ـ كانت بلاد البربر أرس الميعاد . أرض غنية مثل التي غزوها من قبل إن لم تكن أكثر ، فهي بلاد الحياة السهلة . فرخاوة الحكام الكفار والوفرة كانت تحث على الاستهجان الطاهر والجشع الدفين للمنتصرين . فقد ظهرت إبنة البطريق جرجير من فوق برج محاطة بأربعين خادمة مُحَلاة بالمجريرات وجرجير نقسه قد شهد الحرب برج محاطة بأربعين خادمة مُحَلاة بالمجريرات وجرجير نقسه قد شهد الحرب خلف قواته محاطة بأربعين خادمة مُحَلاة بالمجريرات وجرجير نقسه قد شهد الحرب نقل قراته محاطة بأربعين المنام تحميانه من أشعة الشمس (٩) . ومن البديهي لن تكوين هذه المظلات من نسبج الحيال .

فوقرة الأشجار هي التي لفنت نظر المهاجرين القادمين من مصر وطرايلس وذكرى هذه الخصوبة ترتبط في التاريخ مع القصة الشبه اسطورية للكاهنة الملكة المهربرية التي أمرت بتدمير البلاد . لقد قيل أن « إفريقية كانت ظلا واحدا من طرايلس الي طنجة » (١٠٠) . لولا الدلائل التي سوف نتكلم عنها والاكتشافات الحديثة لأعمال الري والمزارع في مناطق الآن صحراوية ، لراودتنا الرغبة في وضع هذا المصر اللهبي موضع الأساطير . وكانت لدي الغزاة نفس هذه الفكرة وهي أن مزارع الزيتون التي كانت قديا قون الزيوت إلوما والقسطنطينية هي التي أثرت شمال إفريقيا . وهناك قصة توضع ذلك :

⁽٩) اين عقاري: البيان ١٠٠١ .

⁽١٠) ابن عذاري : البيان ١ : ٣٠ ، (تدريي : تهاية الأرب في قترن الأدب . ص ١٩٨ ،

بعد انتصار عبد الله بن سعد على البطريق جرجير ، «كانت توضع بين يديد أكرام الذهب والقضة » قسأل الإفريقيين عن مصدرها ، فقام واحد منهم ليبحث عن شئ ولما وجد زيتونة جاء بها الى عبد الله وقال له : « من هلا أصبنا الأمرال » قرد عليه عبد الله : «وكيف ذلك ؟» قواصسل الإفريقى : « لأن أهل البحر والجزر ليس لهم زيت ، قكانوا يمتارونه من هنا » (١١)

بالرغم من التدهور الاقتصادى الذى لم يوقفه الغزو البيزنطى كانت بلاه البرير تقدم للمسلمين موارد تثير جميع المطامع . ففى القصص الخاصة بجرحلة الفعرحات الأولى لم يهتم الاخباريون إلا بالمنافع المادية الملهلة التى يمكن أن نستخلصها من هله الروايات . وبعد فتح المغرب سوف تنهب أسهاليا إذ ستقلم ثروة ملوك القوط Wisigolths سلسلة من الأساطير موضوعها الرئيسى هو المائدة المشهورة ذات الأحجار الكريمة والتى قيسل عنها أنها من تراث سلينان (١٢) . ويأخذ جزء من هذه الثروات طريقه الى المشرق ويصل الى المدينة ثم دمشق ويغداد . وعلى كل قمن الثابت أنه خلال الغزو قام أكثر من جندى ينهب الأموال بعيدا عن التقسيم .

إذا كانت خزانة الدولة (بيت المال) تقدم لها الأموال والأشياء الثمينة ، فعمليات النهب في الريف تقدم ثروات لا تقل قيمة .

أولا: الخيول ذات الحيوية التي أذهلت المشارقة . يقول النويري أن عقبة بن تاقع بعد أن هزم سكان باغاية : « أخذ لهم خيلا لم ير المسلمون في

⁽۱۱) ابن علاری : البیان ۱ : ۱۲ ، التجانی : الرحلة من ۲۰-۲۳ ، ابن عبد المكم : تحرح مصر والمقرب ، ص ۲۲۸ .

Voir Dozy, RECHERCHES SUR L'histoire politique et litté- (\Y) raire de l'Espagne, 3 rd, I, 57.

مغازيهم أصلب منها به (۱۳)

ثانيا : الجمال ذات التحمل القوى وحسب قول الجغراقي ابن حوقل : إن البربر يمتلكونها بأعداد أكبر بكثير من عرب الجزيرة العربية . (١٤)

وأخيرا وخاصة الرجال ، فشمال إفريقيا منيع لا يتضب للعبيد . هنا أيضا يبالغ المؤرخون في الأرقام ولكن يبدو أنه كلما كانت المادة خصية فهي تسمع بتقديرات أوسع . فالأسرى تحسب بالقطيع التي تزيد عن عشرات الألان . وحسب قول " Thévphone " عقبة بن نافع جلب منها . . . , . . (١٥) حسان بأن النعمان . . . , . . (١٦) وموسى بن تصير . . . , . . (١٧) فالرجال تجد المشترين في أسواق المشرق للحضول على الأيدى العاملة للزراعة وبعض الوحدات العسكرية .

أما بالنسبة للنساء فلهن تقدير خاص . لقد وصل عقية حتى مدينة سوس ربعد منبحة للبربر استولى على بعض نسائهم ذات الجمال الذي لا يوصف ويقول النويرى إن واحدة من فتياتهم بيعت في المشرق بألف قطعة ذهبية (١٨) ومن المؤكد أن كثير من الأرقاء ظهروا في حريم الأمراء في دمشق وكذلك في بغداد .

⁽۱۳) التريزي ۽ نهاية الأرب ، ص ۱۹۱ .

⁽١٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٩٥.

Cité par Diehl . L'Afique byzautine . Paris , 1896 p . 572 (10)

⁽١٦) التريري : تهاية الأرب في قترن الأدب ص ١٩٩ .

⁽۱۷) ابن مذاری ؛ البیان ۱ ، ٤٠ .

⁽۱۸) النویری : تهایة الأرب فی فترن الأدب ص ۱۹۷ ، الق<u>روا</u>تی (ابن أبی دینار) : المؤنس فی أخیار إفریقیة وتونس (ترنس ۱۹۹۷ م) ص ۳۱ .

ويبدو أنهن كن متفوقات ، ونقرأ في البيان عن خلفاء المشرق الذين كانوا يطلبون الغريب من أصل مغربي ويحصلون عن طريق ولاة إفريقية على البربريات السنيات . (١٩) كثيرات منهن أنجبن خلفاء . فعبد الرحمن الداخل الذي رفع عظمة الأمويين في أسبانيا كانت أمه يربرية من قبيلة نفزة وكانت تدعى رداح أو راح (٢٠) فعندما عبر هاريا منطقة سبتة نزل ضيفا على أخواله . أما بالنسبة للعباسين يذكرنا ابن حوقل بالذين ينشمون لأمهات إفريقيات من أصل بربري أو مولدين من بربر وبيزنطيين فالخليفة المنصور ثاني الخلفاء كان ابن سلامة البربرية والخليفة الواثق من إمرأة تدعى قراطيس ، والخليفة القاهر من عشيقة (خليلة) المعتضد ربا تدعى قراطيس ، والخليفة القاهر من عشيقة (خليلة) المعتضد ربا تدعى قراطيس ، والخليفة القاهر من عشيقة (خليلة) المعتضد ربا تدعى

الى متى دام سلب الأسرى الذى كانت نتائجه التاريخية ذات أهمية من جميع الوجوه ؟ فى آواخر القرن التاسع فى عهد الخليفة المعتضد ، رغم الولاة المسلمين فى إفريقية كانوا لا يزالون يحصلون على العبيد من أسواق الجنوب أو من المناطق المتمردة لامداد الحريم العباسى ، نعتقد أن الارسال الضخم قد انتهى من زمن يعيد . وهناك قصة طريفة تؤكد لنا أند لم يكن من المستطاع القيام بهذا العمل من نصف القرن الثامن أى بعد مائة عام من وصول المشارقة

⁽١٩) ابن عقارى : البيان ١ : ٩٧ ، أبر العرب : طبقات العلماء (الترجمة القرنسيــة) ص ٧٥.

بن ملائل : البيان ١ : ٢٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٤ : ٣٦٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٤ : ٣٠٠ R.Dozy , Histoire des musulmans d'Espagne , 2 nd éd., revue par E. Lévi Provençal , Leyde, 1932 , I, 189 ss.

⁽٢١) ابن حولال : صورة الأرض ص ٩٥ ، أبسو العرب : طبقات العلماء (الترجمة القرنسية) ص ٧٥ .

الأوائل . عند تنصيب الخليفة المباسى المنصور طلب من عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية إرسال هداياه فوافق وقام حسب التقاليد بارسال هدايا الى الخليفه ولكن على مضض . هذه الهدايا كانت تشمل كلاب وصقور ولم تشمل أى عبيد . أرفق الوالى مع الهدايا رسالة يشرح فيها عدم إرسال عبيد لأن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبى عنها " . (٢٧) هذا اعتذار من تابع يتهرب ، ولكنه علر مقبول من الصعب تجاهله . فقد مضى الوقت الذي كان يستغل فيه الانسان البريرى لصالح المشرق حين كان البرير ملحدين . ومضى أيضا عهد عمرو الذى تص فى معاهدة وافق عليها البرير (لواته) أن فى استطاعتهم بيع أولادهم ويناتهم لدفع الجزية (الضرائب) التى أرهقهم بها أردي)

اعتناق الاسلام رقع البربر الى مكانة الرجسال الاحرار ، وأنقلهم من استهداد المنتصرين ، وسوف نرى الأزمة الخطيرة التي ستعرتب بصفة خاصنة على ذلك .

منا التطور الذي ضم بالفعل شمال إفريقيا للمجال الإسلامي غير نظرة المشرق لد .. فالمغرب بهلاد البرير وأسهانيا به التي كانت أرض استشهاد وأرض غنيمة فيما مضى أضحت بفضل إنضمامها للإسلام وبعدها عن المشرق أرض غنية بالأمال ومأوى للطوائف والعائلات المسلمة سيئة الحط ومرساة للفرقي الهاربين من العواصف التي هزت المشرق . وسوف تحلل هذا الدور الجديد الذي سرف تقوم به بلاد البربر .

⁽۲۲) النويرى : نهاية الأرب في غنون الأدب ص ۲۲۱ ، ابن الأثير : الكامسل في العاريخ ٢ : ٨٨ .

⁽٢٣) ابن عبد الحكم : قترح مصر والمقرب ص ٢٢٩ ، اليكرى : المقرب ص 4 .

ثانياً: ما أخله المغرب من المشرق

من المسلم به أن الغزو الذى وسع من حدود المجال الاسلامى ووسع أيضا نفوذ الحكام المشرقيين ، جدد بعمق حياة المغرب نفسه . ومن المفيد الآن ذكر ما يمثله المشرق بالنسبة للمغرب وما أخذه المغرب من المشرق وسندرس بايجاز هذه الأحداث الثلاث المرتبطة وهى : الخضوع الاجبارى للبربر ، اعتناق الاسلام التعريب .

أ _ إخضاع البربر

إذا وضعنا غزو شمال إفريقيا في الاطار التاريخي للتوسع الاسلامي لظهر هلا الغزو على أنه المشروع الأكثر مثابرة والأكثر تعبا الذي قام الاسلام بتحقيقة . (٧٤) ليس هناك بلدا كلف الاسلام جهدا أكثر لترويضه مثل شمال إفريقيا . لقد احتاج المسلمون لأربع سنوات لفتح بلاد العراق وسبع سنوات لضم كل البلاد الايرانية وسبع سنوات تخللتها أحداث متفرقة سمحت أيضا بضم فلسطين وسوريا . أما مصر وأسبانيا ففزوهم كان أسرع : فثلاث سنوات لكل منهما . معركة هامة أو معركتان كانتا كفيلتان يسحق مقاومة الأعداء كما كان في عهد اسكندر الأكبر . كانت موقعة إجنادين في فلسطين ، واليرموك في سوريا ، ويرتبط اسم قائد مسلم أو قائدين لكل من هذه البلاد :

العبر ، ابن الحكم ؛ فترح مصر والمغرب ، ابن عذارى ؛ البيان المغرب ، ابن خلدون ؛ تاريخ العبر ، ابن الأثير ؛ الكامل في التاريخ ، النويرى ؛ نهاية الأرب في فنون الأدب ، العبر ، ابن الأثير ؛ الكامل في التاريخ ، النويرى ؛ نهاية الأرب في فنون الأدب ابن أبى دينار ؛ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، البكرى ؛ المغرب في بلاد إفريقية والمؤرب أخرار المؤرب أخرار إفريقية وتونس ، البكرى ؛ المغرب في بلاد إفريقية والمؤرب أخرار إفريقية وتونس ، المغرب في المؤرب أخرار إفريقية وتونس ، البكرى ؛ المغرب في بلاد إفريقية وتونس ، المغرب في المؤرب أخرار إفريقية وتونس ، المغرب أخرار إفريقية وتونس أخرار إفريقية وتونس ، المغرب أخرار إفريقية وتونس ، المغرب أخرار إفريقية وتونس أخرار إف

عمرو بن العاص هو المنتصر على مصر وطارق البربرى أخضع إسبانيا و سيأتى موسى بن نصير على عجل ليجنى ثمار النصر . ولكن الوضع بختلف في بلاد البربر فضم البلاد الذى بدأ فى ١٤٧ م (٢٧ هـ) لم يتحقق إلا حوالى ١٠٧ م (٢٧ هـ) لم يتحقق إلا حوالى ١٠٠ م (٢٧ هـ) لقد لزم حوالى ١٥ عاما للحصول على نتيجة غير أكيدة ، لأن كثير من الصعوبات والمشاكل بدأت تظهر بعد ذلك ولن تنتهى هذه الصعوبات إلا مع بداية القرن الناسع (الثالث الهجرى) بعد أكثر من ١٥٠ عام من القتال أو الصراع الخفى ، قرن ونصف قاسى فيها الغزو العربى كثير من الفشل ليطرح من جديد مستقبل الاسلام فى المغرب .

لقد استرجع البرير البلاد بأكملها مرتان الأولى في أواخر القرن السايع والمرة الثانية في منتصف القرن الثامن (الثاني الهجري) وقد قرض على العرب إعادة كل شئ في المرتين .

كيف نعلل شرح هذا التأخير ؟ ونوضح الصعوبات التي كانت سهلة في يلاد أخرى ؟ هل اصطدم العرب هنا بقوة أكثر انتظاما واجهد الغزاة ؟ إطلاقا . فليس لدى ولاية إفريقيا ما عائل الجهاز الحربى للساسانيين بفيالقد التي يرأسها خمسة من القواد المشهورين وأفياله الخمس والثلاثين حاملة الأبراج المبلوءة بالنبال لمقاومة الغزاة . ولم تعتمد المغرب مثل سوريا على الامنادات التي وصلتها بسهولة من القسطنطينية ولم يكن هناك أماكن حصينة تصمد للحصار ولا حواجز طبيعية مثل الأنهار والجيال تحول بينهم وبين العبور .

ولتبرير هذه المدة الغير طبيعية في زمن الفتوحات نستطيع الاستنأد على عدة أسباب:

أولا: بعد المساقة ـ الذي لا يلعب دور بالنسبة لأسبانيا الأكثر بعدا ـ ولكند الوضع الشاذ للمغرب الذي كان يخيف الخليفة عمر . من الواضع أن

الحكم المركزى تنقطع علاقاته أحيانا بهذه الولاية التى تعتبر تابعة لمصر وامتلاكها لا يساوى التضحيات المقدمة لفتحها .

ثانياً: والسبب الثانى يعزز السبب الأول . فالمغرب يبعد عن المشرق والمشارقة لم يهتموا به بالقدر الكافى فى الفترة التى كانت عندهم فيها أزمات ، والقرون الأولى شاهدت أزمات ذات أهمية حيوية فى المشرق ومن هنا فالتحرك غير متواصل والاغما المتثناف أقوى للمجهود .

وأخيرا فضم شمال إفريقيا يتميز عن الغزوات الأخرى بتعدد الخصوم وشدة مقارمتهم . فليس على الغزاة هزيمة جيش أو عدة جيوش منتظمة فحسب وإن الانتصار على البيزنطيين والاستيلاء على قرطاج عاصمة إفريقيا وأكبر مدن عالم البحر المتوسط لم يسبب انهيار البربر : ولكن يبقى ترويض هذا الشعب فهو في خصومة مستمرة ولكنه حريص على استقلاله . لذلك تضامن أمام الخطر المشترك .

وعندما شعر بتهديد قوة أعظم ، اضطر للتفرق واحتمى فى الصحراء أو فى الجبال ، وبقى بعيدا عن المنال . ولكنه خضع قاما عند الهزيمة . ولا تستمر السلطة التى يفرضها الأجنبى بصعوبة إلا إذا بقى فى البلاد لفرض احترامها .

وعلى كل فاخضاع البعض لا يتبعد بالضرورة اخضاع الآخرين . واستسلام الابن لا ينهى مقاومة الأب . والمناطق المنبعة لمأوى الثوار كثيرة جدا . فالحكام الرومان والبيزنطيون فى إفريقيا من قبل عرفوا ثورات الوطنيين ودامت بعد ذلك ضد الحكام العرب . فمقاومة البربر تجد الحصون والزعماء من الجنوب التونسى حتى البحر الأطلسى . بدت حركة هؤلاء الزعماء أكثر فاعلية من

حركة قواد الجيوش البيزنطيين لذلك نعتبرهم كما اعتبرهم المشارقة شخصيات أسطورية ومن الرائع أن أحد الخصوم الأكثر تشددا ضد الانتشار العربى في بلاد البرير كانت امرأة ذات شخصية اسطورية . ووقاتها في السنوات الأولى من القرن الثامن جعل من الممكن للرسلام أن يتقدم تقدما ملحوظا . قموتها يعد علامة لبداية مرحلة حاسمة وسوف نلخص الأحداث التي سهتتها .

حدث هذا التدهور المؤقت للمقارمة البربرية بعد أربعين عاما من ظهور العرب في إفريقيا . ففي ٦٤٧ م (٢٧ ه) قام عبد اللة بن سعد حاكم مصر بغزو ولاية إفريقية وكان الحاكم العسكرى البيزنطى جرجير الذي كان يحكم هذه الولاية البيزنطية قد تحرر من سلطة سيده قسطنطين الثاني لحلاف ديني وعين نفسه إمبراطورا بموافقة البابا . بدا أول غزو للجيش الاسلامي ـ الذي سبقته استطلاعات صفيرة ـ بدا وكأنه غارة وعملية سلب لأنه لم تتبعه إقامة قواعد للاستقرار وقد هُرم جرجير ومات الحاكم العسكرى الذي تصدى لهذا الغزو بالقرب من مقر اقامته في سبيطلة . أنه انتصار هائل للعرب ونجد صداه الغزو بالقرب من مقر اقامته في سبيطلة . أنه انتصار هائل للعرب ونجد صداه في أخبار Frédégaine : إنقطع الدفاع البيزنطي وانفتحت ثفرة في الصف في أخبار عدى الولاية ، ولكن الاستراتيجية البدائية للمنتصرين أو عدم وجود قوات كافية أو الأوامر الآثية من المشرق لم تسمع باستغلال هذا النص .

فاكتفى العرب بالحصول على غنيمة واسعة وأخل مجاميع من الأسرى وخرجوا من البلاد وقتما بات الانتضار وشيكا . ولمدة خسس سنوات أو أكثر كانت تقوم وحدات مسلحة من طرابلس للابتزاز أو ترغيب البعض لاعتناق الاسلام . أما الحملة التي تقدمت بقوات ذات قيمة وأحدثت نتائج ملحوظة هي

حملة ٦٦٥ م (٤٤ه) (٢٥) لأن بين الحملة الأولى والثانية تغير حكام الاسلام لأنهم كانوا في صراعات دامية كادت تقضى على وحدة قوة الدين . فلم تبقى الخلافة بالانتخاب بل أصبحت وراثية في سلالة الأمويين والعاصمة انتقلت من الجزيرة العربية فهي ليست والمدينة ب لم و دمشق به هذه الأزمات امتصت نشاط العالم الاسلامي وشغلته عن أي عمل خارجي . نحن نعتقد أن هذه هي أسباب غياب العرب عن المغرب رغم أن المؤرخين لا يهتمون بالبحث عن الأسباب . كذلك نحن نفترض أسباب العودة للغزو : بعد خروج العرب من إفريقية استولى اليوناني جيناديوس على ميراث المغتصب جرجير المترفي وذلك بمناصرة البربر ، فأراد الامبراطور قسطنطين الثاني المتمركز في سرقوسة استعادة سلطانه في إفريقية . في نفس الوقت تخلى البربر عن جيناديوس وآزروا منافسا له الرتيرة Eleuthére الذي أبدى استعداده للخضوع للامبراطور قسطنطين الثاني فكون الامبراطور جيشا بيزنطيا أرسله من صقلية بقيادة نقفور لاستعادة البلاد . فاضطر جناديوس الاتجاه نحو العرب وطلب النجدة من الخليفة فأسرع العرب على التو .

ليست المرة الأولى ولا الأخيرة أن يتحدد غزو بلد ما بتدخل من الخارج في شئونه الداخلية وبارادة أحد أحزابة .

بالطبع نحن نجهل مكان انزال قوات نقفور وهل حدث هذا الانزال قبل أو بعد وصول العرب بقيادة معاوية بن حديج ولكن الذي يبدو مؤكدا هو أن هذه الحملة تخلت عن القوة البيزنطية في إفريقية . فأبحر جيش نقفور بعد موقعة غير محددة المعالم وسقطت ونهبت قلعة جلولاء التي كانت تكون جزء من خط

⁽۲۵) ابن عبد الحكم: قتوح مصر والمغرب ، يضع هذه الحبلة الثانية في ٦٥٢ (٣٤هـ) ، والحملة الثالثة في ٦٦٠ (٢٦٠).

الدقاع الثاني . تلى هذا النصر ، اعتناق الكثير للاسلام ولكن في هذه المرة أيضا لم يحدث أي استقرار للمنتصرين العرب .

وستكون الحملة التالية بقيادة عقبة بن نافع ذات طابع متغير عما سبقها من حملات . وقد أدارها بأسلوب وأهسداف أوسع من سابقتها . وكان الوقت مناسبا لأن قتل قسطنطين الثانى وانشغال خليفته قسطنطين بوجونا Pogonat بحاربة مغتصب فى صقلية معتمدا على كل القوات البيزنطية بمعلم يترك إفريقية خالية من القوات . من المؤكد أن عقبة لم يقابل بيزنطيين فى طريقه الى بلاد الجريد وفزان (بيزاسنيا Byzacene) إذن لا صدام جيوش ولا حصار مدن ، بل استسلام القلاع الخالية من الحماية . فكان النهب وتدمير المستلكات وذبح أو استعباد السكان الذين يرفضون اعتناق الاسلام هذا الانتصار كان انتصارا سهلا على بلاد البرير المسيحى فى معظمه والغير مستعد للمقاومة . ولثبيت هذا الغزو الحربى وتسهيل انتشاره مستقبلا أنشأ مسيدى عقبة مدينة القيروان سنة ٧٠٠ م (٥٠ هـ) .

وفى ١٧١ م (٥١ هـ) أو ١٧٢ م (٥١ هـ) ه التسلسل الزمنى لكل هذه الفترة غير مؤكد » تولى حكم مصر حاكم يدعى مسلمة وكان والى إفريقية يتبع هذا الحاكم ، فقام مسلمة باستبدال عقبة برجل من أتباعه هو أبو المهاجر من الموالى ويقول ابن أبى دينار : « إن هذا الحاكم الجديد تصرف فى كل شئ على نقيض ما قام به عقبة » .

يبدر أن والى مسلمة حاول مع البربر سياسة وفاق لم تكن من طباع سلفه المتحمس فبعد أن هزم كسيله حاكم قبيلة اوربة ، اعتنق هذا الحاكم الاسلام وأصبح حليفة وصديقه . كان هذا النصر بالقرب من مدينة تلمسان (نلاحظ أن العرب لم يتقدموا أبعد من ذلك) .

بعد عودة عقبة الى الولاية للمرة الثانية سيدفعه انتصاره أبعد من ذلك ، فطاف كل شمال إفريقيا عابرا المغرب من منطقة طنجة حتى وادى سوس . ويقال عند أنه دخل بجواده عبر أمواج البحر الأطلسى نادما أعدم استطاعته " توصيل الحق " أبعد من ذلك . بعد العودة من هذه الجولة التى حصل منها على غنائم وعبيد واجه هجوم من كسيلة وحلفائه الروم فقتل أمام تاهودة بالقرب من بسكرة وبذلك يدخل كسيلة بقبيلته القيروان بعد انتصاره على البطل الاسلامى ويبقى حاكما لها من ٦٨٣ م (٦٢ هـ) الى ٢٨٦م (٢٧ هـ) .

نعن نعاول تحديد المراحل الرئيسية لتاريخ هذا الانتصار المتقطع والغير موكد والمملوء بالأساطير لأن الثلاث ستوات التى حكم فيها رئيس بربرى لأول مدينة عربية في المغرب تعتبر هذه السنوات الثلاث فترة مشوقة من المفيد تحديد معالمها.

منذ ظهور سيدى عقبة للمرة الأولى فى البلاد لم يلاقى المسلمون إلا البربر وكان البيزنطيين خارج الموضوع ومع ذلك فهم ليسوا غائبون قاما . المؤرخون يعطون للروم دورا قاطعا فى صعود كسيلة . فأثناء ملازمته أسيرا لجيش عقبة وهو يجوب المغرب كان كسيلة على إتصال بالروم وخاصة الروم المثمركزين فى القلاع القريبة للولاية وعلى مشارف الصحراء فى بادس وتاهودة . وكان عقبة على رأس جيش ضعيف ، فبعثوا رسولا لكسيلة الذى هرب وبدأ يحث البربر على الثورة . فانهزم جيش عقبة بسبب الجهد المشترك للجنود البيزنطيين (٢٦) ورجال القيائل . ويدخل كسيلة القيروان منتصرا على رأس العديد من البيزنطيين والبربر . وسيحكم البربر والعرب المقيمين في المدينة وكذلك المناطق المحيطة . فالعرب لهم حق الإقامة وحق الاحتفاظ بدينهم المدينة وكذلك المناطق المحيطة . فالعرب لهم حق الإقامة وحق الاحتفاظ بدينهم

⁽٢٦) البكرى : المقرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٧٤ .

وليس من الراضح أن يكون قد أرتد هو نفسه عن الإسلام نحن نجهل طبيعة الصلة التي ربطته مع البيزنطيين الذين ساعدوه على النصر . هل هو حسن الجوار ؟ هل هو اتحاد أم تبعية ؟ والمؤكد هنا هو أن هذه الولاية التي أنشأها المسلمون رأت آخر أجمل أيامها على يد حاكم وطني . هذا وضع مفارق أن يحكم رئيس وطني مملكة عربية .. بربرية . أما في المشرق فقد هزم قسطنطين الرابع الجيوش الإسلامية وأجبر الخليفة الأموى على دفع قدية سنوية من النقود والعبيد والخيل ، وحامياته في أفريقية لاتزال تحتفظ بأماكنها على الشاطئ من سوسة إلى بونة وبدون شك تحتفظ أيضا بقلاع في الداخل .

في ١٨٦ م (١٨ه) جامت حملة بقيادة رفيق قديم لعقبة وهو زهير بن قيس للإنتقام لموت الشهيد وخرج كسيلة لملاقاتها فكانت المعركة الدمرية في مس حيث هزم ومات القائد البربرى . ولكن زهير الذي جاء للحرب في « سبيل الله » اكتفي بترك حامية في القيروان وأخذ طريق العودة إلى المشرق ، وعندما وصل إلى برقة وجد أن هناك أسطول بيزنطي هائل يقوم بانزال قوات لسلب البلاد منتهزا ضعف الجيش الإسلامي ، فشن زهير هجوما راح ضحيته هو وكثير من القواد العرب . وحكي الناجون للخليفة عبد الملك عن هذه الكارثة الجديدة فقام بدوره بالتحري عن قائد قادر علي « استتباب الأمن في أفريقية » ولكنه لم يتمكن من ارساله إلى أفريقية إلا بعد سبع سنرات إذ كانت عمليات الفتح هناك تتأثر - كما حدث بعد الحملة الأولى - بالقلاقل الخطيرة على المسرح المشرقي . وكان الخليفة في صراع مع منافس أخر للسيطرة على الجزيرة العربية كما كانت العراق في حالة انفصال ، ومصر تهدد أيضا بالثورة ، فبعد اخماد هذا التمرد أرسل الخيفة عبد الملك الأموى حسان أبن النعمان على رأس ٠٠٠ ، ٠٠ رجل إلى أفريقية .

قام حسان بن النعمان بهمته على مرحلتين ، بدأ بهاجمة البيزنطيين . فقد

كان على رأس أكبر جيش اسلامي دخل بلاد البربر حتى الآن هذه القوات سمحت له وبدون عناء من اخضاع جميع القواعد شمال ولاية أفريقين فقد قامت معركة أمام قرطاج ودخلها العرب منتصرين في سنة ٦٩٥ . (٧٦هـ) (٢٧) . وتوج هذا النصر المجهود الذي بذل منذ ٤٨ عاما مضت في ٦٤٧ م (٢٧ هـ) . ولكن كان هناك البربر الذين يجب اخضاعهم أيضا ، فقد كانوا قد التفوا بعد موت كسيلة حول امرأة زعيمة قبيلة أوربة (٢٨) وأصبحت هذه القبيلة مركز جلب للقبائل المقاومة . وفي جبال الأوراس التي كانت رابضة كالقلعة ستنظم المقاومة صفوفها ، لسنا هنا في موضع نقاش عما قيل عن الكاهنة ملكة أوربة . من المؤكد أن الخيال الشعبى أثرى قضيتها بمسلسل من الأساطير ولكن لا يجب رفض كل ما قبل عنها ، فليس فريدا عند البرير أن نرى امرأة تحكم قبيلة ، وانتماؤها وذويها للديانه اليهودية رغم أن مشكوك فيه يؤيده ابن خلدون لذلك فهو موضع اعتبار (٢٩) . أما ما قيل عن أنها كاهنة فهذا أمر مسلم به ، ونستطيع تصديق الكتاب المسلمين عند تسجيل الكارثة التي لحقت بجيش حسان بن النعمان على مشارف وادي مسكيانة ، فهذه وقفة جديدة للغزو ، ثلاث سنوات للراحة والتمهل . قا. أثناؤها أسطول بيزنطى باحتلال قرطاج وتستغل الكاهنة ذلك لاجتياح الريف وتقويض المدن لإحباط الغازي.

⁽٢٧) القيروائي (ابن أبي دينار) : يقول لهم إنهم هدموا القنطرة ص ٣٤ .

 ⁽۲۸) عن الكاهنسة انظر ابن عبد الحكم ص ۲۷۰ - ۲۷۱ ، ابن الأثير : الكامسل فمو
 التساريخ ص ۳۲ ، البكرى ص ۷-۸ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ۲۳۹ ، ۲۳۱ .
 ۲ : ۲۰ .

⁽٢٩) المبر ٦ : ١٤٠ .

هذا التصرف البطولي الذي ضخمته الأساطير كان سببا في سخط البربر وكذلك البيزنطيين الذين كانوا يساعدونهم . فعاد حسان بقوات جديدة عندما علم بهذا الخلاف ، ففي سنة ٦٩٨ م (٧٦ هـ) أستعيدت قرطاج وإلي الأبد . وفي سنة ٧٠٠ م (٨١ هـ) انسحق البربر في موقعة حاسمة وماتت الكاهنة موتة بطولية كانت قد تنبأت بها لنفسها من قبل .

السقوط النهائي لقرطاج العاصمة البيزنطية وموت الكاهنة وهي روح المقاومة البربية دمغ نهاية الفترة البطولية للفتوحات العربية، وبالتالي لن يعرف المسلمون ولمدة عشرين عاما مقبلة متاعب تذكر، ولكن لم يفلق بعد عهد الحملات التي لها مظهر الرحلات (النزهات) الحربية ولكن لن تكون كلها مثمرة كحملة موسي بن نصير، ويبدو أن دوافع المقاومة عند البربر قد تحطمت إذ يروي النريري « لم يختلف البربر بعدها » (٣٠) قعدم تعاونهم الطبيعي وتفككهم سهل مهمة المشرقيين، لكن هناك عاملين عملوا على قيام الصلات الآمند بين المهاجرين والوطنيين وهما أولا: الانتشار المنتظم للإسلام عند البربر، ثانيا تجنيدهم جموع غفيرة من البربر لغزو أسبانيا.

لن نتكلم هنا عند دور البربر في ضم شبه الجزيرة الأيبيرية وعن حماسهم الحربي والنفع المنتظر من وراء ذلك ولكن المهم هو دراسة هذا الحدث الموازى للغزو الحربى لبلادهم ، ألا وهو اعتناقهم الإسلام .

ب الديانة الإسلامية

تثير إسلامية البربر موضوعا تاريخيا لا نأمل في حله ولكن من المهم ذكر معطياته ، كانت بلاد المغرب أرض من الأراضي المختارة للمسيحية . فقد

⁽٣٠) انظر نهاية الأرب في قترن الأدب ص ١٩٧ .

دخل الدين المسيحي وانتشر بالمدن الداخلية عن طريق قرطاج والمنه الساحلية . وقد قال المسيحي الأفريقي ترتوليانوس Tertulien في نهايا القرن الثاني و نحن غثل الأغلبية في كل مدينة » وكانت الكنيسة الأفريقية . وكانت الكنيسة الأفريقية . تشمل عدد كبير من الشهداء ومع الإضطهاد كانت تفتخر بالقديس الشهداء ومع الإضطهاد كانت تفتخر بالقديس أوغسطين Ougustin يرن في أذن المسيحية عامة . وعلي كل قالدين المسيحي لم يجند مناصريه من المدن فقط مثل Djemila أو تبسة ، حيث الأحياء المسيحية المأهولة بالسكان تحيط بالكنائس الكبيرة ذات الطراز المعماري الموحد . والعدد المؤهل المكتائس المتواضعة التي نجد أطلالها مبعثرة في ريف الجزائر يوضع انتشار الإنجيل عند فلاحي البربر وحماس الناس البسطاء في القرى والكفور له .

وني أقل من قرن أسلم أولاد هؤلاء المسيحيين بأغلبية كبيرة وكان حماسهم قادر على مواجهة محنة الاستشهاد وعملية الإعتناق النهائية والشبه جماعية سوف تتم في خلال القرنين أو الثلاث قرون التالية تاركة جماعات مسيحية لا تذكر ، حتى وجودها مشكوك فيه .

وبينما احتفظت معظم البلاد التي استقر قيها الدين الإسلامي بجاليات مسيحية لها مكانة محترمة في الدولة مثل اللبنانيون في سوريا والأقياط في مصر والمستعربون في أسبانيا وعاش هؤلاء في تكافل مع حكامهم المسلمين ، فلم يرى وطن القديس أوغسطين Augustin شيئا من هذا . ونضيف أيضا أنه إذا كانت التجمعات المسيحية قد ذابت بسرعة مذهلة ببلاد المغرب فالتجمعات اليهودية التي لم تكن ذات أهمية مماثلة من حيث العدد أثناء الفزو الإسلامي بقيت تحت ظروف معيشية صعبة . كيف نعلل هذا التخلص من المسيحية واعتناق الإسلام الملازم له ؟

لا يمكن انكار الدور البارز الذي لعبتة افريقية في تاريخ الكنيسة ولا يمكن انكار أن مذن وقرى كثيرة بربرية كانت مرتبطة بالعقيدة المسيحية ومع ذلك يبدو أنه كانت هناك مناطق لم يدخلها التبشير . فقصيدة La Johannide يبدو أنه كانت Corippus ترحي لنا أنه في منتصف القرن السادس الميلادي كانت لا تزال هناك قبائل بربرية وثنية أو ارتدت إلى الوثنية . ويذكر ابن خلدون أن صنهاجد سوس (لم يدينوا بالنصرانية) (٣١) نحن تعتقد أن هؤلاء الرحل احتفظوا بالمعتقدات الماثلة لمعتقدات الزنوج وكانوا يوحون بها في تنقلاتهم ولم يكونوا الوحيدين الذي يزاولون هذه المعتقدات لأن علماء الأجناس كشفوا لنا عن عارسات سحرية دينية لا علاقة لها بالإسلام .

ومن ناحية أخرى كانت توجد جاليات يهودية في عدد كبير من المدن . فاليهودية تفلقلت في الريف البربري بواسطة هذه المراكز أو مباشرة بهجرة القبائل المشرقيسة . وقد أحصي ابن خلدون أن الذين التصقوا باليهوديسة هم نفوسة في الجنوب التونسي ، وفندلاو ، وأوربة الأوراس ، ومديونة ، وبهلولة ، وغياتة ، وفزاز في المغرب الأقصى (٣٢)

فالمجال المسيحي مهما كان اتساعه لم يكن يقطي بلاد البربر بأكمله ، فكانت هناك عبادات قديمة أو غريبة موجودة بمناطق هامشية أو منتشرة هنا وهناك ، كما يبدو أيضا أن اتساع المسيحية وحيويتها المناصلة التي كانت تتسم بها قد ساعدت علي هذم قوة مقاومتها . فكثرة الأسقفيات التي كانت تفخر بها أفريقية في القرن الرابع فتتت السلطة وأضرت بمكانتها وبالحفاظ على النظام . وساعدت الذاتية وحماس الأهواء على حدة الهرطقة (البدع)

⁽٣١) ابن خلدون :العبر ٣ : ١٤٢ .

⁽٣٢) ابن خلدون : العبر ٦ : ١٤٠ .

على النظام . وساعدت الذاتية وحماس الأهراء على حدة الهرطقة (البدع) وظهور بمارسات خرافية . لذلك فالتعبد المحمود للشهداء كان يأخذ مظهر العردة إلى الشرك بالله . والصراعات الحامية والوشايات والاضطهاد والتعذيب سبب الجفاء وهجرة المسالمين إلى أن جاء غزو الوندال في سنة ٢٧٩ م بالضربة القاضية للمسيحية الأفريقية ، فكان التعذيب وسجن أو نفي الأساقفة ونهب المعابد وإلحاقها لمذهب المنتصرين الأربوسية Orianisme ولم ينتهي كل ذلك إلا في عهد هلدياريك Hildéric سنة ٣٧٥ م . ولم تقم نهضة أخرى إلا مع الغزو البيزنطي فعادت المقرات الأسقفية في عهد جستنيان Justinian المجيد ووجدت الصراعات الدينية الجو الملائم لازدهار المذاهب المنشقة المتعددة مثل المانوبة والأربوسية والبيلاجوسية والدوناتية والتشهير بالفصول الثلاثة * التي هزت أفريقيا لمدة عشر سنوات ونعرف أند حتي عند ظهور العرب كانت تدغت القطيعة بين حاكم قرطاج وسيده الأمبراطور الروماني بسبب نزاع ديني .

وبالتأكيد فهذه الصراعات اللاهوتية المحمومة السابقة للحركات الدينية ستظهر على مسرح البربر الإسلامي تؤكد اهتمام المسيحية بحياة الأفريقيين والعناية بسائل العقيدة والتدين وحماسهم للعقائد ولكنها في الرقت نفسد توحي بالخلاقات الدائمة السائدة بينهم والتي تبشر بعدم تضامنهم وضعف مقاومتهم لدعاية دين أجنبي .

يحكى لنا النويري عن الحملة الإسلامية الأولي (العبادلة) إلى بلاد البرير ويروي ما قاله أحد ممثليها قائلا: بعد الاستعدادات اللازمة اتجهنا نحو جيش

^{*} القصول الثلاثة هي النصوص الثلاثة التي كان يطن أنا مستوحاة من النسطورية وشهر بها الامبراطور البيزنطي بناء على نصيحة الامبراطوره تيردورا وقشل مجمع 216 م في إدانتها ، انظر جوليان : تاريخ إفريتيا الشمالية : ١ : ٣٧٣-٣٧٣ .

جرجير ومضت عدة أيام في التفاوض . ودعوته لاعتناق الإسلام ولكنه رفض بكل غرور : فعرضنا عليه دفع الخرج السنوى ولكنه رد قائلا : « لو سألتمونى درهما واحدا لم أفعل » فأخذنا العدة لمحاربته (٣٣) .

بالطبع نحن نجهل إذا كانت الأمور قد سارت على هذا النحو ولكن الموار شبه رسمي لأن تلاحم الجيوش يسبقه دائما ندا و للكافر لاعتناق الإسلام . فلو كان هذا الكافر من أهل الكتاب وينتمي لدين (مثل المسيحية أو اليهودية) فخضوعه بدون اعتناق الإسلام يستلزم دفع الخرج ، إيجار الأرض المتروكة له ، علاوة على دفع الجزية ، فإذا رفض هذا الاقتراح فلابد من الحرب . وفي حالة انتصار الإسلام تصبح محتلكات العدو غنيمة وتسلب منه وبصير عبدا . وبعد الحرب تصبح السلطة للمسلمين ويستطيع هذا الكافر التمتع بالنظام سالف الذكر : فهو يستطيع مع شئ من الالتزام مزاولة دينه واستخدام ممتلكاته بشرط دفع الضرائب التي ينص عليها القانون .

ليس من المبالغ فيه أن نؤكد أن الإسلام دين تسامع وقد جعل من الجهاد المقدس واحد من تعاليمه الرئيسية . ولتقديم البراهين علينا أن نرى عدد غير المسلمين الذين عاشوا في معظم البلاد الإسلامية فمنهم من عكف علي التجارة ، ومنهم من زاول حرفته وخاصة الطب ، ومنهم من مارس مهام عامة ، أو خدم في جماعات ، فنشاطهم المهنى حر ، وقدراتهم محل تقدير ، والسلطات لا تلجأ للشدة إلا ضد الذين لا يحترمون الديانة الإسلامية أو الذين يرتدون لدين آبائهم بعد اعتناق دين حكامهم . فالإسلام دين ليس من صفاته الاضطهاد فحسب بل هو عادة قليل الميل إلي التبشير . وقد يرجع هذا إلى أن الضرائب المدفوعة من أهل اللمة كانت تشكل جزء من دخل الدولة .

⁽٣٣) التريري : نهاية الأرب في قترن الأدب ص ١٧٩ .

فوجود أهل الذمة يعتبر تقريبا شرط أساسى لتوازن الميزانية العامة .

ولكن يجب أن ندرك أن نظام الإيرادات بالميزانية لم يؤخذ به إلا بعد التغاضي عن التعليمات الإسلامية فنحن نعرف تماما إلى أي مدّى كانت الحرب طويلة ونعرف أيضا ما كانت تمثلة هذه البلاد بالنسبة للمشرق : أرض غنيمة ا وخزان عبيد . فالقبائل البربرية التي لم تكن لا مسيحية ولا يهردية لم يكن لها الحق في أية مراعاة ، وقد رأينا المداهمات الضخمة للغزوات الأولى في الريف الأعزل وما حققته من مكافآت . إذن الرسيلة الوحيدة للوقاية من النهب والاستعباد هي اعتناق الجماعات البربرية الإسلام وإن عادوا لمارسات أجدادهم بجرد اختفاء الفرسان العرب وإن عادوا مرة ثانية فما على هذه الجماعات إلا اعتناق الإسلام مرة أخرى ليأمنوا من متطلباتهم . هناك نص يوضح لنا أن بعض القبائل ارتدت إكثر من أثني عشر مرة . لذلك قام سيدي عقبة بتأسيس مديئة القيروان خصيصا لتجنب هذا الارتداد الدورى فكانت القيروان مآوى مرحلي ومعسكر دائم وكان لها في خيال مؤسسها دور ديني أكثر منه حربي . ولكنها ليست بعد المركز الكبير للدراسات الاسلامية الذي ستكون عليه مستقبلا ، فقد كانت في هذا الوقت نقطة انطلاق ، لناشري الإسلام وفيها ترك عقبة بعض زملاته لتعليم البربر مبادئ العقيدة والعبادة . وبعد عشرين عاما وسع موسى بن نصير هذا العمل إلى المغرب الأقصى ويبدو أن موسى عمل بمهارة على الغزو الروحاني للوطنين . فالأسرى بالنسبة له ليست غنائم بل رهائن (٣٤) . وهؤلاء الرهائن بتضامنهم مع المنتصرين سيؤلفون أعظم القوات لغزو أسهانيا . وقد قام موسى بتحويل الكنائس إلى مساجد وقام ببناء مساجد جديدة كما فعل في أغماث حيث ترك سبعة عشر عربى متفقد لتعليم قبائل مصمودة الأطلس القرآن ومبادئ الإسلام . ولكن لن تتابع بانتظام

⁽٣٤) آبن عذارى : البيان ١ : ٤٢ .

إسلامية شمال إفريقية إلا في عهد عمر بن عبد العزيز . فقد حصل في عهده القصير (٧١٧ - ٧٢٠ م / ١٩ - ١٠١ هـ) على مكانه بين رعيته لم يطمع القصير (٧١٠ أفراد أسرته " فقد هدف إلي توسيع الدخول في الإسلام " (٣٥) باختيار حاكما لإفريقية وهو اسماعيل بن عبد الله علاوة على عشرة من العلماء الأتقياء اختارهم من بين خلفاء أتباع الرسول (علله) . فتفرغوا قاما للعمل الحميد داعين للإسلام الذين لم يعتنقوه بعد ومصححين للممارسات الخاطئة للذين اعتنقوه . وأبو العرب يعطينا أسمائهم ويضيف أنهم عرفوا البربر تحريم الخمر الذي كان مسموح به حتى الآن (٣٦) لم يبق الحاكم اسماعيل إلا عامين إلا أن مجهوده بقي من بعده . فصاحبت الديانة الإسلامية دعاية لم يكن الخليفة الورع يتوقعها أو يأملها . وسنجمل آزمات القرن الثامن الميلادي دفعة واحدة وانتشار المذاهب الإسلامية المرسلة من المشرق لبلاد المغرب والنتائج التي استخلصها هؤلاء لمحاربة العرب أنفسهم .

ج. .. الثعريب

تعريب شمال أفريقية ، هذه الولاية الرومانية التي ضمت للمشرق ، الذي جمل من هذا الجزء من عالم البحر المتوسط بلدا شرقيا برغم جغرافيته ، لم يكن بمعني الكلمة تطور موازى لاعتناق الديانة الإسلامية بل كان نتيجة وتتريجا لها . فالتعريب يرتكز ليس فقط علي هجرة أفراد أو مجموعات كثيفة من العرب لتفيير التكوين السكاني لهذه المنطقة الشاسعة بل يرتكز على تبنى المواطنين البربر لحضارة تشبههم بالمهاجرين .

رمن جميع عناصر هذه الحضارة قاللغة هي العنصر الميز الأكثر عمقا

H. Lammens: La Syrie, précis historique, 2 vol. Beyrouth - (70) 1921, I, 91.

⁽٣٦) أبر العرب: طبقات علماء إفريقية ص ٨٤-٨٤.

والأكثر وضوحا . (٣٧) فانتشار اللغة العربية في شمال أفريقية وخصوصا النصوص المكتوبة باللغة العربية هى التي تتبح لنا معرفة تاريخ هذه البلاد ، كل هذا يبشر حقا يفجر عهد جديد .

كيف حدث هذا الانتشار ٢ فالوقائع التي نلاحظها تسمح لنا بتخمين ذلك. نلاحظ أولا أن اللغة العربية لم تلغى اللغة البربرية ، وهي الوريثة المرجعة للغة النوميدية والليبية فهذه اللغة لا تزال باقية حتى يومنا أهذا في المناطق الشاسعة أو صعبة الاختراق مثل جنرب طرابلس والأوراس والقبائل والجزء الأكبر لجبال المغرب . محيط هذه المناطق يقل أمام أعيننا الآن ومن المؤكد أن اللغة العربية وجدتها في ذاك الوقت ممتدة ومتلاحمة مكونة مناطق واسعة متصلة . بقيت اللغة البربرية هي السائد في المصور الرسيط في الجبال والوديان وعند الفلاحين الوطنيين المقيمين والرحل ، ومع ذلك إذا كانت لغة المنتصرين لم تبعد اللهجات القديمة للسكان فقد وجهت الضربة القاضية إلى اللغة اللاتينية وحلت محلها ، جاحت اللغة العربية ووجدت أمامها اللغة البربرية واللغة اللاتينية . بالنسبة للبربرية لم تكن لغة حضارة بل كانت لغة تكتب قديما كالألغاز وطريقتها بدائية وغير صالحة وكانت لا تصلم إلا لأدب شفهى فقير وأصبحت على مر العصور لغة كلام تكفى للمتطلبات المحدودة للريفيين الفير متطورين . أما اللاتينية فكانت تبدو كأداة عظيمة لأدب بديم ومنتشر عالميا ، فهي لغة الصفرة في المدن الإفريقية ، لغة الدواوين والكنيسة ، فهذا الدور بالذات كان سببا لإهمالها . لم يكن هذا الإهمال مباشرا ومن المرجع أن يكون المنتصرون قد استعانوا أولا في أفريقية _ كما حدث في

W. Marçais, Aunales de l'Institut من تعريب البرير إرجع إلى d'études arieu tales, Alger IV, 1938, pp. 1 ss.

سوريا وفي مصر ـ بموظفين من البلاد لتدوين العقود والحسابات باللاتينية . « تحت أيدينا نقود مسكركة في أفريقية ، على الأرجح في قرطاج ، مسطرة باللاتينية وذلك حتى نهاية القرن الأول الهجرى ، والبعض يحمل اسم الأمير موسي بن نصير بالحروف اللاتينية . » وقطع أخري مدون عليها صيغة لاتينية تترجم قاما الدعوة « لا إله إلا الله » . هذه البقية من اللاتينية التي توافق بصدق فترة الانتقال سوف تنتهي في عهد الخليفة عمر بن عهد العزيز . سبق أن حاول الخليفة عبد الملك (١٨٥ ـ ٥٠٥م / ٢٦ ـ ٨٦ هـ) تعريب الإدارة وفرض اللغة العربية في جميع المكاتبات الرسمية لكن عمر الورع (٧١٧ ـ وفرض اللغة العربية في جميع المكاتبات الرسمية لكن عمر الورع (٧١٧ ـ فمالة .

أمن المعلوم حقا أن التطور الديني هو الذي قضي على اللاتينية لأن التعريب ملازم للتجول للإسلام . كما أن اللغة اللاتينية والمسحية كانتا مترابطتين في هذه الكنيسة الأفريقية و الأكثر لاتينية من الغرب نفسد ه وكما أنها كانت ظافرة في الأعمال اللاهوتية وفي صلوات الشهدا، والمراسم والطقوس ، فاللغة العربية كانت مرتبطة بمصير الإسلام ، فهي لغة الكتاب المئزل ، لغة القرآن وترجمته لأى لغة أخرى كانت تبدو إنتهاكا لقدسيته كما أن فهمه استوجب تعلم اللغة العربية . إذا كان اكتساب البرير للغة المسلمين ضروريا للصلاة ومعرفة العقيدة الجديدة فهو عدهم أيضا بجزايا أخرى لأنه يشبههم بحكامهم الجدد ويرفعهم الى مكانة المتصرين . فاللغة العربية أبرزت من مثل القيروان وترنس عن الريف المحيط بها بسبب رجال الدين وجند الماميات التي تحكم البلاد . كما أن التبادل الدوري للأسواق أجبر سكان الضواحي على تكلم اللغة العربية محتفظين في الوقت نفسه باللغة البررية لماملاتيم الخاصة . أما بالنسبة للغة اللاتينية فلم تحظى بنفس المصير الذي لماملاتيم الخاصة . أما بالنسبة للغة اللاتينية فلم تحظى بنفس المصير الذي للماملاتيم الخاصة . أما بالنسبة للغة اللاتينية فلم تحظى بنفس المصير الذي

حدث للغة البربرية بل كان محكوم عليها بالزوال مثل نخبة المثقفين البالية التي كانت تفخر بها . ومع ذلك فقد بقت لعدد من القرون في بعض الأماكن لاستعمالات خاصة ، كلغة للكنيسة الأفريقية ، عند بعض الطوائف المسيحية التي استخدمتها في الطقوس والصلوات الجنائزية . وسوف نعود للكلام عن ذلك ،

ثالثا: رد الفعلى الخارجي

بمسادقة طريقة قدم لنا التاريخ المسيحي إطارا تذكاريا نافعا ومناسبا قاما للفترة التي تطرقنا إلي دراستها والتي يجب علينا الإنتها، من تصفحها ، فغي تاريخ لم نصل إلي تحديده ولكنه بالتأكيد قريب من عام ٧٠٠ (٨١ هـ) وضع سقوط قرطاج النهاية لتاريخ إفريقيا البيزنطية ، كما أن هزيمة ووفاة الكاهنة نتج عنه اندحار المقاومة البربرية . سنري في عام ١٨٠ (١٨٤ هـ) قيام سلطة إسلامية مستقلة ابتداء من أسرة الأمراء الأغالية . وهكذا أصبح القرن الشامن الميلادى نقلة بين نهاية المصور البطولية للفتح وبين بدايسة نظام جديد ، بين الأيام الأخيرة لمدينة عظيمة ذات تقاليد قديمة وبين فجر نهضة جديدة يرجع فضلها للإسلام .

لقد رأينا علي مر العشرين عاما الأولي لهذا القرن (الثامن) توطيد واتساع السيطرة الإسلامية بدون إثارة ردود فعل جادة ورأينا أيضا تحتيق الغزو الروحي للبربر . ويوصول يزيد بن أبي مسلم لحكم افريقية (في ٧٧٠ / ٢٠٠ هـ) تم وضع نهاية لهذا الهدوء ، ويدأت المشكلات التي دامت ٨٠ عاما ، فبلاد البربر في ذهن الحكام المشرقيين هي دائما أرض غنيمة . وهذا البلد البعيد المشهور بالثراء كلف الغزاة تضحيات ضخمة ، وسكانه همع طالما أنهم ليسوا بمسلمين ، لذلك فهو أرض غنيمة لإثراء المنتصرين .

ولكند أصبح الآن أرض إسلامية . وقد شرع بنجاح رجال ذرى عقيدة راسخة في كسب النفرس . وظهر فيه مناضلون مستعدون للإستشهاد ولنشر « الحق » . فكيف التوفيق بين احترام كرامة هؤلاء المهزومين وبين شرعية الخدمات التي يقدمونها والأفكار المسيقة للمنتصرين ومتطلبات الميزانية الإسلامية ؟ وكيف التسيليم بأن النجاح التام للجهاد المقدس أنضب نهائيا المرارد المنتظرة ؟

سوف تتغير السياسة تجاه الهربر بتغيير الحكام . هؤلاء الحكام وهم من كبار الموظفين بالطبع وقد قاموا بهام ماثلة في عديد من ولايات الإمبراطورية لا يستقرون طويلا في مكان واحد . فمن ٧٢٠ (١٠٢ هـ) إلى ٨٠٠ (١٨٤ هـ) لا نحصى أقل من واحد وعشرين حاكما : سبعة حكام يمثلون الأمريين والأربعة عشر الأخرين ينتمون للعباسيين باستثناء عبد الرحمن بن حبيب اللى استولى على الحكم بالقوة واحتفظ به لمدة عشر سنوات (٧٤٥/ ١٢٧ هـ ـ ١٣٨/٧٥٥) ويزيد بن حاتم (١٥٤/٧٧١هـ ١٧٢/٧٨٨) الذي قضى ١٧ عاما من الحكم الحازم وكانت ولايته بمثابة بداية مملكة حقيقية . وأما بقية الولاة فبعد عام أو عامين بل وعدة شهور إما يستدعون من الخليفة أو ينقدون حظوتهم عنده يسبب الوشاية أو يقتلون من الثوار . ولذلك كان عدم استقرار القيادة الناتج عن ذلك سببا لضعف سلطة المشرقيين . ويزداد هذا الضعف نتيجة للخصومة التي تفرق المجتمع العربي وهي خصومة غامضة وقديمة جدا ولكنها في الوقت نفسه حادة . فتتعارض هنا عشيرتان مثلما في المشرق : عشيرة قيس أو المعديين وعشيرة كلب أو اليمنية واحتفظ خلفاء دمشق بترازن خطير بين قيس وكلب . فهم يختارون ممثليهم في الولاية من هذا البعض أو من ذاك البعض الآخر حسب الأهواء الشخصية أو مقتضيات الساعة ، فعند وصول ممثل أحد الفريقين يقوم مباشرة يتفيير سياسة سلفه

نظرا لأن بداية ولايته تبدأ بعزل أعضاد الفريق الآخر . هذه الخصومات الضارة عكانة المشرقيين عقدت على وجه الخصوص مهمة الحكام أنفسهم فهي خلقت الفوضي واثارة غضب جنود الحاميات التي تحمي البلاد فهؤلاء المشلون للطبقة الحربية ، بدلا من معاونة السلطة المحلية ، خلقت لها أخطر الورطات . ولذلك، فنتيجة الانتفاضات البربرية والهزات التي خلقها العرب ، وإرسال الجيوش المكلفة التي تتطلبها الظروف بدا ضم بلاد البربر وكأنها صفقة خاسرة لحكام دمشق وبغداد الذين كانوا يأملون في الحصول على دخل وفير ، فبدأوا في البحث عن طريقة لتخفيف العب، والحل هو ؛ تكوين دولة مستقلة وراثية . والاعتراف بالمملكة الأغلبية وهو نهاية التطور الذي سنشير إلى مراحله الرئيسية .

فقد باشر يزيد بن أبي مسلم ، حاكم إفريقية ، وظيفته في ٧٧٠ (١٠هـ) وكان ينتمي إلي عشيرة قيس : فهو مولي الحجاج وخدم لديه كأمين سر وتدرب علي الطرق الإدارية خلال مرافقته المجاج خادم الأموبين العزيز عليهم وذا الشخصية القاسية . فالحجاج لم يأبه بالشرعية بل كان يفرض علي مزارعي العراق الذين اعتنقوا الإسلام دفع الحزية والمراج (شريبة الأرض) وحتي لا يتهربون من دفع الحزاج كان يمنعهم من الهجرة الى المدينة ويعيدهم إلي قراهم . وعندما تولي يزيد الحكم في إفريقية أراد تطبيق هذه الطريقة المتهورة وسلك مسلكا عائلا تجاه سكان شمال إفريقيا اللين أصبحوا مسلمين (٣٨) . وقرار آخر اختص به البربر الذين يكونون حرسه الخاص . فقد

Périer , Vie d'El Hadjdjadj (Bibliothèque : من الحجاج وأسليه انظر (۳۸) من الحجاج وأسليه انظر بالم الله (۳۸) من الحجاج وأسليه انظر بالم (۳۸) و المحتوية بالم (۳۸) المحتوية الم

الآتية « حرس يزيد » على اليد اليسرى مثلما كان يفعل الملوك المسيحيون مع خدمهم. لم يتحمل البربر ذلك فقتلوه وعملهم هذا لم يكن إلا قورة غضب يرجع سببها إلى حاكم مستبد وأرعن : يقول النويري ﴿ وكتبوا الى يزيد بن عبد الملك : إنا لم تخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك ، فكتب إليهم : إنه لم يرض بما صتع ، وأقر محمد بن يزيد على عمله » (٣٩) ورغم أن هذا العمل كان ينلر بالعواصف فقد أعقبته ثلاث عشر عاماً من الهدوء . وفي سنة ٧٣٤ م (١١٦ هـ) عُيِّن عبيد الله بن الحبحاب حاكما بواسطة الخليفة هشام . كان هذا الحاكم من عشيرة قيس مثل يزيد ويبدو أنه كان مثله مستعدا لفرض ضرائب لا حد لها . وكان قد قام من قبل بهذه التجربة في مصر بزيادة الخراج الذي يدفعه الأقباط بنسبة - لله فكانت هذه الزيادة سببا لانتفاضة قام بها هؤلاء الناس المسالمون بطبيعتهم . وقد فعل الأعوان الذين اختارهم عبيد الله في البربر أكثر من ذلك . فقامت حملة على السوس وبلاد السود بقيادة قائد من سلالة سيدى عقبة وعادت هذه الحملة بعدد كبير من الأسرى . وفي الشمال الأتصي للمغرب قرر حاكم طنجة استقطاع خبس (1/4) للخصص للخزينة العامة من البربر المسلمين . والنصوص المكتوبة تسمح لنا بالتأكد بأن الشأن لايس الموارد الاقتصادية فقط بل والبشرية كذلك (٤٠) فكان واجبا على البربر المسلمين تقديم حصتهم من الجواري الجميلات وإرسال قراء خراقهم أيضا . فكانت تديح قطعان كاملة من النعاج للحصول على الصوف ﴿ ذَاتَ اللَّونَ المسلى » الذي يقطى الأجنة النادرة وذلك لتقديمه للخليفة . وهذا الابتزاز كانت لد نتائجد . فاغتيل حاكم طبنجة في ٧٤٠ م (١٢٢ هـ) وأندلعت

⁽٣٩) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٢١٢ .

⁽ ٤٠) ابن خلدون : العبر ٤ : ٢٤١ . ، النويري : نهاية الأرب في قنون الأدب ص ٢١٣ .

ببلاد المغرب فقد التف عدد كبير من القبائل حول سقاء يدعي ميسرة وانتهزوا فرصة ارسال عبيد الله الحملة العربية إلي صقلية فزحفوا نحو طنجة واستولوا عليها واجتاحوا بعد ذلك السوس. فتدخلت علي عجل فرقة من أسبائيا ولكنها هزمت. فسحبت حملة صقلية وقامت حرب ضروس بالقرب من طنجة لم تسفر عن نتيجة واضحة ولكن ميسرة استطاع الانسحاب داخل المدينة وقتل داخلها بواسطة أعوانه واستبدل برئيس جديد لمتابعة حركته ب تقدم الثوار المفارسة نحو المشرق ووصلوا حتي ضفاف نهر شلف وهناك تصادموا مع جيش مكون فقط من العرب الأصليين . فكانت معركة الأشراف وفيها انتصر الثوار . وقال ابن خلدون « وانتفضت إفريقية على ابن الحبحاب وبلغ الخبر الحي الأندلس » (١٤)

هذه الخصومة بين المهاجريسن والسكان ذات المظهر العنصري جديرة بالإنتباه ، ولكن الأكثر من ذلك الطابع الديني الذي كان يكسو للمرة الأوثري رد الفعل البربرى . فميسرة ليس مشاغها عاديا يحث إخرانه المضطهدين عالمي الثورة ولكنه ينتمي للمذهب الخارجي وكان يدعو البربر للإنضمام إليه .

ولد مذهب الخوارج (٤٢) في المشرق قبل ٨٢ عاما بسبب الخصومة بين الخليفة على ومعاوية الذى سيؤسس الدولة الأمرية . ووافق الخصمان علمي إثنين من المحكمين للفصل في الخلاف إلا أن مبدأ التحكيم نفسه الذي طوح لمناقشة اختيار الطائفة الإسلامية الشرعية بدا غير مقبول لمجموعة من المؤمنيت الورعين الذين انشقوا ، هؤلاء المنشقون هم «الخوارج» . فإن كانوا اعترضوا

⁽٤١) ابن خلدون : العبر ٤ : ٢٤٢ .

I, Goldziher, le dogme et la loi de l'Islam, Jnad, franç, F. (LY) Arin, Paris 1920, pp. 160 ss; A. Bel, la religion musulmane en Berbérie, Paris, 1938, pp. 140 ss.

على استنكار مبدأ الاستغناء الذي يعتبر أساس السلطة في الإسلام إلا أنهم كانوا حاقدين خاصة على و على به الذي قبل التحكيم بعد انتخابه وبما أنه خرج عن الطريق المستقيم فهو غير جدير بالخلافة . أما كونسه زوج ابنة رسول الله (عليه) فهذا لا يخول له أية أهليه فالسلطة العليا ترجع للأصلح أيا كان أصله وجنسه . فهذه المبادئ - التي نرى فيها التوجيه العادل - كانت مدعمة بالتعصب ومن لا يتبعها يصبح عدو الدين ويستحق الموت . ثورة الخوارج التي أخمدها علي بشدة ظهرت مرة أخرى بتوسع أثناء خلافة الأمويين وجلبت للني أخمدها علي بشدة ظهرت مرة أخرى بتوسع أثناء خلافة الأمويين وجلبت للني أخمدها علي بشدة والصفرية ، والأباضية . فلما وجدوا أنفسهم مطاردين في المشرق ، تواروا وتفرقوا في البلاد الإسلامية ناشرين الدعوة في شعوب في الملاد المنترحة ، شعوب سلهة التأثر بهذه الدعوة مثل بربر المغرب .

تحن نجهل حقا ظروف انتشار المذاهب المستوردة من المشرق ، يقول ابن الأثير و وظهر في ذلك الوقت جماعة بإفريقية فأظهروا مقالة الخوارج » (٤٣). ويروي ابن خلدون أيضا و ولقنوها من العرب الناقلة عن سمعها بالعراق مهبط الخوارج - وتعددت طوائفهم » (٤٤) . فإفريقية كانت بدون شك المرحلة الأولى من بلاد البربر لاستقرار الخوارج المطاردين . ونسجل هنا أن ميسرة كان سقاء في القيروان ، ومع ذلك إجتاحت الدعاية بسرعة المفرب الأقصى ، وانضمت لحركة الخوارج المناطق الشاسعة للسهول الشهه أطلسية المسماه برغواطه وذلك قبل أن يتزعمها ميسرة . كانت الخوارج الصغرية تخضع فرثيس يدعى " وهو من أصل بمسيحى واعتنق يدعى " وهو من أصل بمسيحى واعتنق

⁽٤٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤: ٢٢٢.

⁽¹⁴⁾ ابن خلدون : المير ٦ : ١٤٤ .

الاسلام على يد العرب (٤٥). من كان هذا الرجل الذي يحدثنا عند ابن خلدون ؟ ما هو الرأى فيما يقوله لنا ابن خلدون عن انتشار هذه الحركة " بين برير الطبقة السفلى " ؟ نحن نعتقد أن الفصاحة السياسية الملاهبية التى اشتهر بها أساتذة الحركة لم يستوعبها الفلاحون البرير تماما كما كان موقف أجدادهم من المناقشات التى زعزعت الكنيسة الإفريقية . لكن مذهب الخوارج يرتكن على بنود أساسية سهلة المنال للعامة وهى التى أشرنا إليها ، فالنزعة المنبثقة منها كانت تلبية لآمال الشعرب المفتوحة الذى أحبطها المسلمون ، فالسلطة العليا توكل للأكثر تقوى وصلاحا وعلما من أى جنس حتى ولو كان عبدا زنجيا . وأى تفوق في الاجناس لا يعطى للعرب حق حكم المسلمين الآخرين . هذا المذهب المشرقي النابت، من الإسلام قدم إسلاما صارما في عدالته وكان محققا لمطالب الكادحين (البروليتاريا) في شمال إفريقيا ، فانضمت له هذه الطبقة بحماسها وتدنيها الساذج وعدائها الطبيعي ، وانتشر هذا المذهب عبر بلاد البرير بأكملها كرمز لتحرره وأصبح الشكل الخاص بالاسلام في بلاد البرير بأكملها كرمز لتحرره وأصبح الشكل الخاص بالاسلام في بلاد البرير ، وبعد النجاح الأول وتدهور مكانة العرب ، ظهر تبار غامض للتعنامن بين البري فاق ماحدث في عهد ميسرة .

لم تضع معركة الأشراف حداً لانتصارات الشوار ولذلك اضطر الخليفة الأمرى الى ارسال ١٧ ألف من الجند الشامى وعزز الجيش فى مصر وطرابلس. ولكن قضى عليه بالقرب من وادى سبو ولجأت بقايا هذا الجيش الى أسبانيا (٧٤١ م/١٧٧ هـ) وفى العام التالي وصل إلى إفريقية حنظلة بن صفوان الذى علم أن الخوارج البربر يتقدمون نحو القيروان منقسمين الى مجموعتين ، المجموعة الأولى بقيادة بربرى من قبيلة هوارة الإفريقية ، والمجموعة الثانية

^(60) ابن خلاون : العبر ٦ : ١٤٥-١٤٥ .

التي تتمثل فيها كل القبائل الافريقية يرأسها عكاشة الغزارى ، وهو عربى كان يرأس فرقة الاستطلاع الشامية في المعركة السابقة ، ولكن ميوله الخارجية جعلته ينضم للثوار ، فأسرع حنضلة بهاجمة المجموعتين كل على حده قبل أن تلتحما .

أبيدت مجموعة عكاشة فى القرن وهزمت الأخرى فى الأصنام بالقرب من القيروان بواسطة جيش من المتطرعين جندوا على عجل وذلك بعد أن قكنوا من هزيمة الفرسان العرب الذين أرادوا قطع الطريق عليهم ، كان لهذين النصرين ثمنا باهظا التكاليف ودوى هائلا في المشرق ، فقد شبها بغزوة بدر التى انتصر فيها الرسول والتي أكدت مستقبل الاسلام . ولقد قال عالم مصرى « ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب من غزوة القرن والأصنام » . (٤٦)

كان هذا الانتصار المزدوج آخر أمجاد الأمويين إذ بدأت الخلافة الأموية في الإنهيار وفي نفس الرقت بدأت بلاد البربر تنظم شئوتها بعيدا عنهم . فقد استبعد عبد الرحمن بن حبيب الذي نزل في ترنس عند عودته من أسبانيا حنظلة والى الأمويين ، كما استقل استقلالا تاما عن العباسيين ، ولكنه اغتيل بواسطة أشقائه الأثنين فترتب على ذلك صراع بينهما وبين نجل ضحيتهم . بذلك أصبح الحكم في إفريقية مجال لمشاحنات عائلية بدا فيها الخليفة غير مهتم أو غير قادر على التدخل فيها . ولكن ما يسترعى الانتباه خاصة ، هو الدور الذي يلعبه البربر في هذه الخصومات والمزايا التي يحصلون عليها من وراء ذلك . اضطر واحد من الأخرين الهرب من القيروان ولجأ هو وأعرانه الى قبيلة ورفجومه في الجنوب التونسي وهي قبيلة بربرية مرموقة .

⁽۲۱) ابن عذارى : البيان ۱ : ٥٩ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٧ م) ، ه : ١٩٠٠ .

هذه القبيلة تعتنق المذهب الخارجى الصقرى مثل الضيف الذى نزل بها ، فاتجهت تحو القيروان واستولت عليها ، وارتكبوا فيها أسوأ التجاوزات وقاموا بذبح القرشيين ، وهم من أهل الرسول ، ووضعوا جيادهم فى الجامع الكبير ، ومن الغريب أن الذين يعاقبون هذا الجرم وهذا التدنيس ليسوا ، كما حدث سلفا ، عربا مرسلين من المشرق بل بربر خوارج على مذهب الاباضية يستولون على القيروان ويبقون فيها من صيف ٧٥٨ م / ١٤٠ هـ الى صيف على المدروان ويبقون فيها من صيف ٧٥٨ م / ١٤٠ هـ الى صيف ولمدة ثلاث سنوات هو عودة الى عهد كسيلة الذى استولى هو أيضا عليها لمدة ثلاث سنوات .

لذلك توجه مجموعة من أعيان العرب الى بغداد لاطلاع الخليفة المنصور على الحالة فأمر هذا الأخير والى مصر بتدارك الموقف . فقام الوالى بارسال جيش ولكنه هزم . فأرسل الخليفة للمرة الثانية جيشا ضخما بقيادة ابن الأشعث يشمل قوات من خراسان ، هؤلاء الفرس الذين كانبوا من أخلص صناع العظمة العباسية وبعد لقاء مؤسف مع الخوارج انتصر العرب وأعيدت مدينة القيروان بسبب تفكك الخوارج ومهارة القائد العربى فاستغل ابن الأشعث ملنا النصر وعن طريق الارهاب الذي فرضه على البربر والمذابح المتعددة أجبر الثوار على الخضوع . نتيجة ذلك ساد النظام إفريقية ولكن باقى بلاد البربر لم الثوار على الخضوع . نتيجة ذلك ساد النظام إفريقية ولكن باقى بلاد البربر لم الخوارج بتعيين " أبى قرة " زعيم قبيلة بنى يفرن العظيمة خليفة ليصبح ومز المقاومة . أراد " الأغلب " الذي تولى الحكم بعد الأشعث ، مهاجمة تلمسان والتقدم حتى مدينة طنجة ولكن أثناء السير تخلى عند الجند العربى ، وأخذوا يعودون الى القيروان للاستيلاء عليها ، فتخلى هو أيضا عن محاربة البربر وعاد لماقبة العرب ولكنه قتل .

ولذلك ، ففى غضون ٧٦٨ م (١٥١هـ) بدا أن سيادة المشرقيين على بلاد البربر عملية متعبة ومستقبلها غير مضمون فعدم النظام وضعف روح الجهاد في صفوف العرب ، في مواجهة الحماس الحربي عبد البربر وحب التحرير ، الذي يعززه التعصب الديني ، كل ذلك جعل مهمة الولاة المشرقيين صعبة ، كما أن هؤلاء الولاة هم من كبار الموظفين الذين لا يرتبطون بالأرض ولم تكن مهمتهم إلا مهمة عابرة .

وعلى كل كان الخلفاء لا يجهلون هذه الصعاب ويحاولون تخفيف الأخطار التى يواجهها الإسلام في هذه الولاية البعيدة . فلهم فيها جواسيسهم ووسطاء يستقون منهم المعلومات . وأهم هؤلاء "عمال البريد " الذين يربطون العاصمة بأجزاء الامبراطورية المختلفة ويرسلون تقاريرهم السرية عن تصرف الولاة . فواحد من هؤلاء وكان شيخا هرما ، وكذلك القائد أبو العفير وكثير من رؤساء الجند ، قاموا بتحذير هارون الرشيد كتابة مبينين له أهمية ولاية إفريقية المتاخمة للخوارج . فهذه الولاية تتطلب حاكما حازما . (٢٤) وفعلا أصبحت إفريقية ولاية متاخمة وأرض الجهاد المقدس . ومن المرجع أن تكون الأحاديث التي أشرنا إليها في بداية هذا الباب والتي تنص على دوام الحروب الإسلامية على المسرح الافريقي والتي تنبأ بها الرسول قد ظهرت ابتداء من قترة الصراع مع الخوارج . فالحروب تتجدد باستمرار ولفترات طويلة . ويقول ابن عذاري " مع الخوارج . فالحروب والبرير من لدن قاتلهم عمرو بن حفص الى انقضاء أمرهم ، ثلاثمائة وسبعون وقيعه " (٨٤) .

وجود والى حازم همتا كان ضروريا أكثر من أى مكان آخر . وكان الحظ

⁽٤٨) ابن عذارى : البيان ١٠ : ٧٧ ، التريرى : نهاية الأرب في قترن الأدب ص ٢٣٨ ، ابن الأثير : الكامل في التأريخ ٥ : ٣٣ .

حليف الخلفاء المباسيين في الحصول على كثيرين منهم أمثال عمر بن حقص ويزيد بن حاتم اللذين حصلا على نتائج هامة وشبه قاطعة : فبالرغم من عودة هجوم البربر والخوارج ، إلا أنهم لم يحققوا نفس النجاح والانتشار ويبدو أن بعض التدابير التي اتخذتها العاصمة بغداد قد ساعدت على قرض الهدوء .

فقد كانت الجيوش المشرقية المرسلة أكثر عددا وأحسن تسليحا من البربر الخوارج وبذلك استطاعوا محاربتهم أو فرض السلام عليهم ، فيزيد بن حاتم جلب معد ٣٠ ألف رجل من الجند الخرساني و ٣٠ ألف من جند البصرة والكوفة والشام.

ومع وصول العناصر الجديدة الأسيوية الى بلاد البربر، تم اعادة استغلال بعض القلاع البيزنطية القديمة فقد أتخذها الولاة كقواعد أمامية للجند وكذا أماكن لراحتهم بعد أن كانت قد قوضت فى عهد الكاهنة. فقد أمر الخليفة المنصور واليه عمر بن حفص بتحصين مدينة طبنه التى تقع فى شرق شط الهدنة لتصبح عاصمة ولاية الزاب حيث استقر الجند العباسي وسيتوالى على حكمها نخبة من القواد لضمان سلامتها ففيها كان يوجد ابن الأغلب الحازم الماهر عندما عينه الخليفة حاكما على إفريقية.

وساعد على تحسين الاوضاع بإفريقية سياسة العباسيين الجديدة تجاه بلاد المفرب. فعمر بن حفص الذى قام المنصور بتعييند كان من عائلة المهلب التى قدمت خمس حكام آخرين. والذى قاد فى المشرق الصراع ضد الخوارج الأزارقة وسلالته تحارب فى المغرب الخوارج الصفرية والإباضية. فكأن الصراع مع الخوارج أصبح سمة من تراثهم العائلي خصوصا وقد استمرت الولاية فيهم وهذا يناسب حسن الادارة. وهكذا أخلت ولاية إفريقية وبقبول من الخلفاء شكل الولاية الوراثية أو المملكة المستقلة وهى عملكة المهليين وكان هذا طبيعيا إذ بهد وفاة يزيد بن حاتم حكم ابند داوود لمدة تسعة أشهر ونصف وكان قد ولادة

أبره أثناء مرضه الأخير ، فتصدى لعدة حملات خارجية في انتظار وصول عمه روح بن حاتم . الذي عينه الخليفة . لمتقلد زمام الحكم .

بالطبع بدت التجربة مفيدة وما لبثت حكومة بغداد أن تلبعاً اليها صراحة ، وعلى كل لم تكف إفريقية عن جلب المتاعب لحكامها المشرقيين ، فالبلاد لم تكن في مأمن من هجمات بيزنطة أو على الأقل نزول مغامرين من صقلية أو ايطاليا ، فني عام ٢٩٦م (١٨٠هـ) شرع الحاكم هرثمة بن اعين في بناء السور البحرى لطرابلس وسور رباط المنستير وهو يعد أشهر وأضخم القلاع الحصينة التي تحذى الشاطئ التونسى ، (٤٩)

وهكذا حينما كادت ثورة الخرارج أن تهدأ في بداية القرن التاسع الميلادي ، دخل ابراهيم بن الأغلب مع البربر في " حروب يطرل ذكرها " (٥٠) ولكن الذي كان يجلب المتاعب للولاة العرب هم العرب أنفسهم فمشاغبات رؤساء الجند يتصدى لها الولاة إما بالمداراة أوبصلابة حسب الحالة . وآخر الولاة المهلبين " استخف بالجند ، وسار بهم سيرة قبيحة " تسبب في ثورة خطيرة جدا استشهد فيها ، فقام ابن الجارود رئيس الجند الثائر بمساعدة زملائه في حامية تونس بالثورة التي انتشرت في إفريقية بأكملها وأصبح سيدا على التيروان لمدة سبعة أشهر ولم يغلبه إلا هرثمة بن اعين .

وجد هارون الرشيد أن هرثمة هو أصلح من يعيد الهدوء للبلاد لما يتمتع به

ابن علارى : البيان ١ : ٨٩ ، النريرى : نهاية الأرب في فنين الأدب ص ٢٤٦ ، ابن G . Marçais , الأثير : الكامل في التاريخ ه : ٩٥-٩٥ عن رباط المنستير انظر , Notes sur les ribats en Berbérie , dans les Mélanges R . Basset , pp . 288 ss .

^(- 0) ابن مقاری : البیان ۱ : ۹۲ ،

من سماحة تجاه جند خراسان ، ولكن ابن الرفيق يروى " تلما رأى هرثمة بن أعين ما رأى من الخلاف بإفريقية ، وسوء طاعة أهلها ، طلب الاستعفاء ، فكتب إليه الرشيد بالقدوم عليه فرجع إلى المشرق " (٥١) مذا الاعتراف السابق من والى كبير قرس بالخبرة في ولايات متعددة للامبراطورية الاسلامية يوضح الكثير مما كانت عليه بلاد البربر في القرن الثامن أو على الأقل الجزء الخاضع لسيطرة المشرقيين ، ففتح البلاد كان شاق والحكومة متعبة ، ولكن القرن التاسع سوف يبدل ذلك وتتعرض إفريقية الخاضعة لوصاية المشرق لنهضة عصر ذهبي .

⁽ ۱ ه) أبن عدّاري : البيان ۱ : ۸۹ .

الفصل الثانم

نمضة القرن التاسع (الثالث المجرم)

مقدمة

أولاً: عملكة الأغالبة

أ_العلاقات مع الخليفة

ب ـ غزو صقلية

ج. ـ شعب إفريقية (تونس)

د _ الحياة الاقتصادية .

هـ .. الحياة الدينية والفن الإسلامي

ثانياً: بلاد البربر الخارجية ومملكة تاهرت

ثالعاً: بلاد البربر العلرية ومملكة الادارسه

مقدمة

فى تقديرنا أن فى نهاية القرن الثامن إنتهى الفتح الاسلامى لشمال إفريقيا بنصف إفلاس . فمن مائة عام مضت ، كان كل من سيدى عقبة وموسى بن نصير قد عبرا البلاد منتصراً من القيروان حتى المحيط الأطلسى . ولكن لم تتجدد بعد ذلك هذه الحملات الملحمية ، ففى ٧٦٣م (١٤٦ه) عندما أراد الوالى الأغلبى التقدم ضد تلمسان والوصول إلى طنجة ، تخلى عنه رؤساء الجند . كما تنازل الخلفاء العباسيين عن السيطرة على ثلثى بلاد البربر ، كما اهتم ممثلوهم بإعادة السلام فى ولايتهم وتقوية الدفاع عنها أكثر من توسيع الحدود . ومع ذلك ورغم أن هذه المجهودات والتضحيات لم تحظ بالتوسع السياسى والايرادات المالية المرجوة فقد حققت نتيجة هائلة فى المجال الروحانى : فبلاد البربر بدون شك لم تصبح كلها إسلامية ، ولكن الإسلام ظهر ألوحانى : فبلاد البربر بدون شك لم تصبح كلها إسلامية ، ولكن الإسلام ظهر ألفى كل مكان . وتغلغل فى السكان الذين لم يخضعوا بعد ، فى صورة المذهب السنى أو الخارجى ، وسوف يرى القرن التاسع إتمام عحلية إنتشار العقيدة وغزو الإسلام لمواقع جديدة بفضل النظام الجديد الذى أقيم فى البلاد .

هذا النظام الجديد يذكرنا إلى حد ما بالتنظيم فى العهد الرومانى وهو تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق كبيرة . ولاية إفريقية و Numidie ثم المغرب الأوسط (موريتانيا الطنجية) . الأوسط (موريتانيا الطنجية) . هذا التوزيع كان يسبق توزيع القرن ١٣ (٧هـ) ، ١٤ (٨هـ) وهو توزيع شمال إفريقيا بين ملك تونس وملك تلمسان وملك قاس ، والى حد ما ، منطقة شمال

إفريقيا الغرنسى . وبتعبير أدق كانت الدولتان الحديثتان الموجودتان فى طرفى البلاد تمحددة ومتماسكة وهما مملكة الأغالبة التى تشمل تونس الحالية والجزء الأكبر من ولاية قسطنطينية والمملكة الإدريسية التى تشمل المغرب من المحيط الأطلسى حتى وادى ملوية . أما المنطقة التى قتد بينهما فكانت مفتتة ، كانت تشهه الفسيفساء ذات العناصر المتشابكة والغير محددة المعالم لئا . كانت تتكون من قبائل مستقلة أو خاضعة لرؤساء محليين ينتمون للمدهب السنى أو الخارجى . وأهم بلاد المغرب الأوسط تعد عملكة تاهرت الممتدة وسط بلاد البربر وكانت ذات طابع واضح وازدهار واسع . هذه الممالك الشلاث كانت تكون لوحة ثلاً ثية للقوى الإسلامية ببلاد المغرب .

برغم الخصومة والتنافس بين هذه الممالك الثلاث ، إلا أنها تتشابه . فبينها عدة ملامح مشتركة تسمح لها بزاولة أحداث متقاربة في شمال إفريقيا وبالتعاون في نهضة القرن التاسع رغماً عنها .

أولاً: الأصل المشرقى للمؤسسين الذين شجعوا وصول نخية من أبناء جنسهم، وخلقوا تيارا متصلا بين أسيا السالفة والمغرّب كل ذلك رسخ اتصال هذه الأرض البعيدة التى انضمت الى العالم الإسلامي ومهد الديّن ، وفي نفس الوقت بالمراكز القديمة للثقافة اليونانية والإيرانية.

ثانياً: أهمية المذاهب الدينية في الممالك الثلاث. ففي كل من مملكتي تاهرت والادارسة ترجع حظوة الاسرة الحاكمة لما قتعت به كل منهما من تأييد شعبى لمذهبيهما الديني، وأما مملكة الأغالبة فرغم افتقارها لهذه الحظوة، إلا أنها عملت على التقرب الى الفقهاء والعلماء ورجال الدين. وهكذا قامت الممالك الثلاث كل على انفراد بالعمل على نشر الإسلام وترسيخه ببلاد البربر، ومنذ ذلك الرقت أخذ المذهب السنى في شمال إفريقيا الشكل الذي احتفظ به حتى يرمنا هذا

وأخيراً يلاحظ أن نهضة هذه القوى الثلاث فى القرن التاسع انطلقت من ثلاث مدن: فالقيروان تصل ذروتها ، وتتسع تاهرت فى منطقة محرومة من مراكز مدنية ولكن سمعتها تصل حتى أسيا . وتنشأ مديثة فاس وتستمر على مر العصور . فتطور هذه المدن ومدن أخرى هو الحدث الأكثر بروزاً والأكثر تميزاً لنهضة حضارية . كما تعود البربر على العادات الأقل خشونة وعلى تقبل الثقافة نتيجة لظروف تأسيس هذه العواصم وقوة الجلب الذى أحدثته والتبادل الذى قامت به والتعاليم التى تفرغت لها .

هناك ترابط فى اللغة العربية بين كلمة "مدينة" وكلمة " تمدين" (حضارة) : نلاحظ اشتقاق كلمة من الأخرى ، هذه الحضارة المدنية (المعنى اللغظى عائد من مدينة) هى استيراد مشرقى . ومع ذلك يمكن الاشارة الى أن ظهور الحضارة وازدهارها بالبلاد بدأ فى المدة التى كانت تحت الحكم الرومانى ، إذ أن الثقافة الإسلامية فى بلاد البربر بدت وكأنها نهضة ، أو كأنها إحياء لشيئ من ماضى بعيد . فمدينة فاس عاصمة الأدراسة ، وحتى تاهرت عاصمة الرستميين ستزدهر كل منهما وفقا لمدينة القيروان عاصمة الأغالية . لذلك سنبدأ بالكلام عنهما .

أولاً: علكة الأغالبة (١)

أ_الملاقات مع الخليفة

فى منصف يوليو سنة ٨٠٠ (جمادى الثانى ١٨٤) لم يندهش ابراهيم بن الأغلب عند استلامه ولاية حكم إفريقية من الخليفة العباسى هارون الرشيد . فتميينه كان لازما ، وحل محل وابن مقاتل» شقيق الخليفة فى الرضاعة فقد كان غير كف، ومكروه لدى القيروانيين والجند العربي لرعونته واستبداده . فثار الجند وقامت حامية تونس وعلى رأسها « تمام » حاكم المدينة واتجهت نحو القيروان واختلتها فى أكتوبر سنة ١٩٧٩/١٩٨ هـ) قاسرع ابراهيم بن الأغلب نحو القيروان لإنقاذها وكان آنذاك والي للزاب . واضطر الثائر لترك المدينة عندما علم بقرب وصول ابن الأغلب. فعاد « ابن مقاتل » للحكم . ولكن القيروانيون أسفوا لعودته برغم اعجابهم الشديد بشجاعة ابن الأغلب وإخلاصه . فتشاوروا في مصيرهم المحزن .. " ففزع الناس إلى تمام " لنجدتهم وإخلاصه . فتشاوروا في مصيرهم المحزن .. " ففزع الناس إلى تمام " لنجدتهم هاجمه مرة ثانية وانتصر عليه فلجأ تمام الى تونس . ولكن الى متى سيكون التماذ هذا الحاكم السيئ ، من شعبه ، الحائق عليه والمنزعج منه ٢ وحسب انقاذ هذا الحاكم السيئ ، من شعبه ، الحائق عليه والمنزعج منه ٢ وحسب انقاذ هذا الحاكم السيئ ، من شعبه ، الحائق عليه والمنزعج منه ٢ وحسب انقاذ هذا الحاكم السيئ ، من شعبه ، الحائق عليه والمنزعج منه ٢ وحسب انقاذ هذا الحاكم السيئ ، من شعبه ، الحائق عليه والمنزعج منه ٢ وحسب ان الأثير الأثير (٣) قام القيروانيون باقناع ابن الأغلب بولاية إفريقية لنفسه قول ابن الأثير الأثار الأثير (٣) قام القيروانيون باقناع ابن الأغلب بولاية إفريقية لنفسه

M. Vonderheyden, LaBerbérie oriental sous la dy- (1) nastie des Benoû " l-Arlab (800-909), Paris, 1927; G. Demombynes, art. Aghlabides, dans L'Encyclopédie de l'Islâm; Fournel, Les Berbers, 2 vol. ,Paris, 1857-1875; Ch. Diehl et G. Marçais, Le monde Oriental de 395 á 1081. (Histoire générale de G. Glotz), pp. 413-419.

⁽٢) ابن ملاري ؛ البيان المرب ١ : ٩١ .

⁽٣) ابن الأثير ؛ الكامل في التاريخ ٥ : ١٠٤ .

وقد وافق هارون الرشيد على ذلك بعد استشارة العارفين بوضع الولاية وبقدرة ابن الأغلب وابن الأثير هذا هو الوحيد الذي يدعى أن ابن الأغلب عرض على الخليفة الاستغناء عن معونة ماثة ألف دينار التي تقدمها مصر معونة لإفريقية والتعهد بدفع معونة للخلافية تساوي أربعون ألف دينار مقابل توليته ال هذه المعلومة من كاتب مشرقي متأخر عن الأحداث (ت ٣٣٣ م / ٣٣٠ه) ولكن موثوق في شهادته تجعلنا نعتقد أن بلاد البرير التي كانت فيما مضى تساهم في ثروة الخلافة بقضل الغنائم المقدمة من أهل البلاد ، أصبحت منذ أن أسلمت وهدأت الى حد ما حمل ثقيل عليه وعلى مصر بصفة خاصة . ونحن نعرف أن هذه المعونات المرسلة الي حاكم إفريقية كانت لنفقات الجند وهي حاميات الدفاع . وكان من ضمن مساوئ الحاكم السابق « ابن مقاتل » إنه كان متهما بتحويل هذا الرصيد لحسابه الخاص ومن المشكوك فيه أن تستطيع إفريقية في هذه الآونه الانفاق وحدها على مصاريفها الحربية . وسوف نشير فيما بعد عما نعرفه عن الطريقة التي كانت تدار بها هذه الاختصاصات .

كانت الخلافة فى أوج عظمتها عند الاعتراف بالوضع الجديد لإفريقية . فهارون الرشيد كان عاهلاً عظيماً ويرتبط عهده بعهد الملك شرلمان ولم يكن اتفساق سنة ٨٠٠م (١٨٤هـ) إلااخلالاً بوحدة الامبراطورية الإسلامية العظيمة ، كان هذا الاتفاق أول حركة انفصالية يتبعها سنة ٨٢٠م (٥٠٢هـ) انفصال خراسان وبعد ستين عاما انفصال مصر . ومع ذلك فمن الخطأ أن نتصور أن تحرر أو انفصال واليا بعيدا ، كان يضمن لد الأمان طوال فترة حكمد ، كما لا نستطيع القطع بأن ما فعلد الخليفة بالنسبة لإفريقية وما فعلد خلفاؤه من بعده بالنسبة لخراسان ومصر هو إقرار لوضع قائم والحفاظ على الظواهر فقط ولكن كان هذا الاتفاق بمثابة الحل المفيد لوضع صعب لم يدم الظواهر فقط ولكن كان هذا الاتفاق بمثابة الحل المفيد لوضع صعب لم يدم

طريلاً . فلم تصبح إفريقية ولاية للإمبراطورية ، كانت إفريقية بالنسبة لبغداد أكثر من بلد مستقل سياسياً ونكنه يخضع لولاء بغداد كدول العصر الحديث ، بخلاف دولة تابعة كدول العصور الوسطى ، فكان بعدها يجعلها غير صالحة للخدمات الاقطاعية مثل تقديم المحاربين ، ونظام حكمها قد يجعلنا نفكر في خضوعها لبغداد ولكن يشئ من الاختلاف الذي أدخلته نظرية السلطة في الإسلام .

تؤكد هذه النظرية الإسلامية اللقب الذي اتخذه ابراهيم الأول وخلفاؤه .

فالكتساب والمؤلفون يستعملون لقب " حكام " وكثيراً مسا يستعملون لقب "أمراه" الذي يبدو لقباً رسمياً . فالإمارة كما يصفها مؤرخ مثل الماوردي هي :
السيادة الدنيوية بما فيها من اختصاصات حَربية وقضائية ومالية وادارية مغوضة من الخليفة على ولاية محددة . فالولاية هنا هي أرض البربر بأكملها التي كانت نظريا جزء من الامبراطورية . فالأمير يستمد سلطته من الخليفة الماكم . وعند ولاية خليفة جديد يقوم باقرار ما فعله سابقه ويحصل بدوره على ولاء الأمير ، فهذا الولاء يجعل سلطة الأمير شرعية . فهو يجعل من هذه السلطة انبثاق من القوة المبجلة في الإسلام (وهي سلطة الخليفة) وهكذا فالأمير ممثلا لأمير المؤمنين . هناك حدث عرضي ولكنه يوضع التضامن بين فالأمير ممثلا لأمير المؤمنين . هناك حدث عرضي ولكنه يوضع التضامن بين الخلافة والامارة : نحن نعلم بأن اللون الأسود كان اللون الرسمي للعباسين فأعلامهم كانت سوداء وملابسهم الرسمية كانت سوداء وكانت توزع على من يقومون بخدمتهم بإخلاص . ففي سنة ١٨ (١٨٨ه) ثار حمديس الكندي على ابراهيم الأول الأغلبي وكان رئيسا كبيراً في تونس ، فأول مظهر للقطيعة كان تونس ، فأول مطهر للقطيعة كان تونس كان تونس ، فأول مطهر للقطيعة كان تونس ، فاول مطهر للقطيعة كان تونس ، فأول مطهر للقطيعة كان تونس ، فأول مطهر للقطيعة كان تونس ، فأول مؤل بالمؤل كان تونس ، فأول مؤلو كان رئيسا كون برئيسا كون برئيسا

⁽٤) النوري : نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٢٥٤ .

وعلى كل فتهعية الأغالبة كانت تؤيدها بوضوح الرسوم (الضرائب) التى كانت تمول خزينة الخليفة . كانت إفريقية تقدم كل عام ـ تنفيداً لاتفاقية عام الدما فهية مسكوكة لهذا الفرض . ولقد بين حسن حسنى عبد الرهاب قطعة مؤرخة ٨٠٥ (١٨٩ه) تحمل كلمة " للخليفة " (٥) ولكننا مع ذلك نجهل قيمة هذه الضريبة . فهى حسب ابن الأثير ٢٠٠٠، ٤٠ دينار أى ذلك نجهل قيمة هذه الضريبة . فهى حسب ابن الأثير ٢٠٠٠، ٤٠ دينار أى يتقول ثلاثة عشر مليون درهم و ١٨٠ سجادة (بُسُطُ) ويقول ابن خلدون أيضا أن الأمراء كانوا يهتمون بوضع عدداً من القطع الذهبية الادريسية في أيضا أن الأمراء كانوا يهتمون بوضع عدداً من القطع الذهبية الادريسية في أرسالياتهم ، وهذه القطع الجميلة التي كان الادريسيون يسكونها في فاس وذلك لإعطاء العباسيين فكرة مثيرة عن منافسيهم المفارية . (٢)

من المحتمل أن تكون هذه الضريبة قد تغيرت ومن المشكوك فيه أيضاً أن تكون قد دفعت بانتظام لأن أمير مثل " أبو الغرانيق " الذي ترك خزانة الدولة خاوية نتيجة لمصروفاته الباهظة لم يسددها إلا بصعوبة . ومع ذلك فهي كانت بمثابة إيراد إن لم يكن محدداً فهي على الأقل متوقعة تقريباً . وعندما نقرأ لابن الأثير (٧) أن الخليفة المتوكل أقطع إفريقية والمغرب لولده محمد بصفة مقاطعة نفهم من ذلك أن المقصود قيمة الضرائب المدفوعة من هذه الدولة التابعة وهذا يجعلنا نفترض أن اختصاص كهذا لم يكن وهمياً .

Farrugia de Candia, Monnaies aghlabites du Musée du Bardo, (*) dans Revue tunisienne, 1935, p. 272.

⁽٦) ابن خسلدون : العير ١ : ٢٢٦ ، ٣ : ٢٨٦ ، ٤ : ٢٥٠ ، ابن الأثبير : الكسامل ١٠٤ . و : ١٠٤ .

⁽٧) انظر الكامل في التاريخ 8: ٢٨٤.

هذه الالتزامات التي جعلت الأمراء يخضعون بموجبها للخلفاء لم تفرض عليهم الرقابة فكانت إفريقية تنمتع بالاستقلال المالى مشل مصر في عهد الطولونيين . فالخليفة لا يتدخل في إدارة الملكة ولا في نظام خلافة حكامها ، فقد قام بالخلافة ثلاثة من أبناء ابراهيم الأول واثنان من أحفاده ، ثم ثلاثة من أولاد أحقاده ، وأخيرا ابن وحفيد واحد من أولاد أحقاده . أي أن الإمارة استمرت في إحدى عشر حاكما ، من نفس الاسرة ، يتتمون الى ست أجيال . والجدير بالذكر ، أن الحاكم قبل الأخير ، مات مقتولاً . والذي قتله هو أبنه للإستيلاء على الحكم ، ويعتبر هذا الحدث قريد من نوعه في هذه الاسرة . كان يحدث كل ذلك بدون استشارة الخليفة المياسي . ما عدا حالتين اضطر الخليفة العباسى التدخل في عهد ابراهيم الثاني الأغلبي الذي كان مكروها لاستبداده ، فتدخل الخليفة عندما قام ابراهيم بعاقبة سكان تونس الثائرين بشراسة في ٨٩٦م(٢٨٣هـ) قطلب منه الخليفة الرجوع عن هذه الطرق البربرية أو ترك العرش لابن عمد (٨) . فلم يخضع الأمير لهذا الأمر وقتل ابن عمد المنشل عليد . وبعد ٦ سنوات في ٩٠٢م (٢٨٩هـ) ولتقس الشكوى أمره الخليفة بالتنازل عن العرش لصالح ابنه فوافق المستبد هذه المرة واجدا بدون شك بعض المزايا (٩) وبعد أن تنازل عن العرش استطاع بحياة بناءة أن يكفر عن جرائمه . ومن البديهي أنه في حالة الرفض كان الخليفة لا يستطيع فرض احترام أمره لأن الأمير ليس موظفا يمكن اقالته . وقد وضع النويري أن هذا الرضع هو الفرق الأساسي بين ﴿ أُمير ﴾ وحاكم ولاية ، فهو يقول ﴿ وكان من قبلهم عمالا اذا مات أحد منهم أو صدر منه ما يوجيه العزل . عزله من يكون

⁽۸) أبن علاري : البيان ١ : ١٢٩ .

⁽٩) البيان ١: ١٣٣ .

أمر المسلمين إليه من الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر ، وإنما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية وتعرف لها حق الفضل والأمر وتظهر طاعة مشوية بمعصية ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستهدال به من غير البيت لخالفوهم وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لن يروه من أولادهم وأخوتهم » (١٠)

يقول المؤرخ « خضوع لم يكن دائماً تاماً » وبتعبير أوضع فهو احترام رسمى ليس فيه إذلال للأمير التابع بل يعطيه مسائدة شرعية لتصرفاته . عندما استولت قوات الأمير أحمد على قصر يانه . أرسل المنتصر الخبر الى الخليفة ومعه بعض الأسيرات الصقليات (١١) . هذه الهدية ترفع من مكائة الأمير لدى الخليفة وباشراكه في سبيها تأخذ الحملة شكل الشرعية . وإظهار هذا الاحترام يبدو في أكثر من مناسبة خصوصا في الساعات الحرجة حيث تكون الدولة في خطر . ففي سنة ٣٠٣م (٢٩١هـ) عندما علم زيادة الله الثالث .. آخر الأغالبة .. بتهديد الجيش الشيعي وفكر في تكوين المقاومة ، أرسل هدية للخليفة العباسي فيها عشرة آلاف مثقال ، في كل مثقال منها عشرة مثاقيل ، وكتب في كل مثقال هذين البيتين :

يا سائراً نحر الخليفة قل له أن قد كفاك الله أمرك كلت.

بزيسادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخليفة سله (۱۲)
وهكذا تعطى الطروف هذا المتبجم (الصلف) لهجة مأسوية .

⁽١٠) التريري : تهاية الأرب ص ٢٥١

⁽١١) ابن خلدون : المبر ٤ : ٢٥٦

⁽۱۲) ابن عناري : البيان ۱ : ۱۳۷ .

إذا كانت المراجع لا تزودنا بالمعلومات الكافية التي تمس تنصيب خلفاء ابراهيم الأول والإرسال المنتظم للرسوم السنوية فهذا يجعلنا نفترض أن الصلة بين القيروان وبغداد قد تراخت وأن مملكة إفريقية كانت تتجه نحو الاستقلال النام ولكن هذه الهدية التي قدمها زيادة الله توضع لنا أن الأمير التابع كان يتذكر خليفته العباسي وينتظر منه مساعدة مادية أو سندا معنويا . والخليفة من جائبه كان يطلب حقوقه من الإمارة البعيدة بالتظاهر بالاهتمام بصيرها . ننى سئة ٨٥٩م (٨٤٤هـ) حدث زلزال في إفريقية وهدم عدة قلاع ومراكز سكانية فقام الخليفة المتوكل بترزيع ثلاثة ملايين درهم على الضحايا (١٣). وهناك نقش في ترنس يظهر لنا حدثا غيرًا بهذا الشأن ، هذا النقش يوجد أسفل قبة الجامع الكبير ويعلن أن هذا الجزء من المسجد الجليل شيد في ١٦٤٨م (١٥٠هـ) بأمر الخليفة « المستعين » (١٤) . تلاحظ أنه لم يذكر اسم الأمير الأغلبي الماكم ويبدو أن القرار كان صادرا من الخليفة العباسي الذي تكفل بدون شك بالإنفاق ويبدو أن عدم مشاركة الأمير الحاكم في هذا العمل ربا يرجع لموقف أهل تونس المشاغبين . وهكذا نرى الدليل على العناية المستمرة التي توليها حكومة بغداد لتطوير الإسلام في هذا البلد وتأكيدها الوصاية الروحية التي تقوم بها .

ب ـ غزو صقلية

لولا حملات ما وراء البحار والنزاع المطلق مع الشيمة الذي هدد الأسرة

⁽¹⁴⁾ G. Marçais, Manuel d'Art musulman, Paris, 1926, I, 13: Creswell, Early Muslim architecture, II, 325.

بالانهيار ، لإحتلت السياسة الخارجية للأغالبة مكانة متواضعة في تاريخهم و فحروبهم مع جيرانهم شغلتهم بدرجة أقل من العمليات الحربية ضد رعاياهم البربر وقمع ثررات الجند العربي . فلم يكن هناك أي نزاع جاد مع مملكة تاهرت الخارجية ومحاولتهم الفاشلة لغزو مصر الطولونية سنة ٨٩٦م (٣٢٦ه) ردأ على هجوم فاشل أيضاً من الطولونيين ضد إفريقية سنة ٨٨٠م (٣٢٧ه) أما بالنسبة للأدارسة في فاس فكان العباسيون يأملون التخلص منهم ولكن أمراء القيروان كانوا يعتبرون أن الصراع معهم سيكون أخطر من المنافع المأمولة ، فكانوا يعتبرون أن الصراع معهم سيكون أخطر من المنافع المأمولة ، فكانوا يعتبرون باحتقارهم ويتجنبون مواجهتهم خوفا من القبائل الخلافة ، فهم يتظاهرون باحتقارهم ويتجنبون مواجهتهم خوفا من القبائل البربرية التي تساندهم . ولم يكن البلخ الحربي في عهد الأغالبة ليساعدهم على تطوير البلاد لولا تمكنهم من ضم صقلية للمجال الإسلامي ، الذي أدي الى شهرتهم . لن نخوض في مسألة الغزو ولكن سنحارل فقط الاشارة الي المن جعلت الأمراء يقومون بهذا الغزو وما تمخض عند من نتائج .

ان الحملة التى قررها زيادة الله الأول والتى أبحرت من سوسه فى ١٣ يونيو سنة ١٨٨م (٢١.٢هـ) لم تكن الأولى التى قام بها المسلمون ضد الجزيرة الكبيرة . فمنذ سنة ١٩٥٦م (٣٦هـ) حاولت حملة خارجة بلا شك من الشام مداهمة الجزيرة (١٥). وسوف تستخدم إفريقية كقاعدة لعمليات ما وراء البحار أبتداء من ٢٦٦م (٢٤هـ) وهو العام الذي يلى الاستيلاء على قلعة جلولاء البيزنطية . وكان معاوية بن حديج قد أرسل الى الجزيرة مائتى سفينة وعند عودتها كانت مجملة " أصناما من ذهب وفضة مكللة بجوهر « من

⁽¹⁵⁾ Ch. Diehl, l'Afrique byzantine, p. 565; Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Catania, 1933, I, 194.

المحتمل أنها أخدت من كتوز كنائسها (١٦) . وفي ٢٦٩م (٤٩هـ) خرجت حملة نظمها سيدى عقبة بالاتفاق مع المصريين » (١٧) . الذي أدى تعاونهم مع حسان ابن التعمان الى انشاء دار لصناعة السفن يتونس ، إذ بعد استيلاكه على قرطاج أقام في ترنس ميناء بجانب البحيرة تجعله في مأمن من مفاجآت الأسطول البيزنطي الآتية من جهة البحر . وزود هذا الميناء بدار لصناعة السقن جلب لها من مصر ألف عائلة قبطية متخصصة في بناء السفن عا سمح بإرسال حملات بعيدة المدى . ويبدو أن موسى بن نصير قبل التفكير في حملة أسهانيا تركزت سياسته البحرية نجو الجزر المجاورة للشاطئ الإفريقي ، فعين قائدا للأسطول لمهاجمة سرقوسة في سنة ٧٠٥م (٨٦هـ) لينهبها ويعود محملا بالغنائم . وفي سنة ٧١٠م (٩٩١) كان الدور على جزيرة سردينيا (١٨) وتضاعف الهجرم على صقلية وسردينيا في عهد خلفاء موسى بن نصير للحصول على الأسرى والغنائم . ففي عهد الأمويين ظهر شمال إفريقية الإسلامي كقوة بحرية . ففي سنة ٧٣٤م (١٦١هـ) حاول الأسطول البيزنطي نقل جيش لجزيرة صقلية ولكنه هزم بعد صراع بحرى (١٩١) . ومن الملاحظ أن هذا النشاط اختفى في عهد الحكام العباسيين. فمن سنة ٥٥٥م (١٣٨هـ) الى سنة ٨٠٠م (١٨٤هـ) بل وحتى سنة ٨٢٧م (٢١٢هـ) لا يذكر المؤرخون أية عملية جديدة ، فإما أن الصراع مع البرير ومع العرب أنفسهم قد امتص الحماس النضالي لحكام إنريقية أو أن صقلية كانت أكثر تحصينا من ذي قبل.

⁽۱٦) البيان ١ : ١٨ .

⁽١٧) البيان ١ : ١٩ .

⁽١٨) ابن الأثير: الكامل ٤: ١٧٤.

⁽١٩) ابن الأثير، الكامل ٤، ٢١٩.

ويقول ابن الأثير: « وعمرها الروم من جميع الجهات وعمروا فيها الحصوين والمعاقل وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وريجا طارقوا تجاراً من المسلمين فبأخلونهم » (٢٠)

ومن المحتمل أن دور البحرية المسيحية لم يكن مقصوراً على الحماية فقط وأنها كانت تهاجم كذلك الشواطئ الإفريقية . ففي هذا الوقت أمر الوالي هر شمة ببناء رباط المنستير العظيم وتلاه بناء الكثير من الأربطة بعد ذلك . إذ كانت تحاط إفريقية و بحصون ومخابئ » لأن هجوم المسلحين والقراصنة كان من صنيعة الطرفين . وفي سنة ١٨٣هم (١٩٨ه) كانت رغبة الطرفين واضحة لوضع حد لهذه القرصنة فتمت معاهدة بين جريجوار بطريق صقلية وأميس القيروان ، لمدة عشر سنوات (٢١) ولكن سرعان ما عادت الغارات المتبادقة بعد أربعة عشر عاما .

وعكن اعتبار حملة صقلية سنة ٨٧٧م (٨٢١ه) وسيلة وقائية ضد الهجمات المسيحية وفي الوقت نفسه عودة مرة أخرى للسياسة الهجومية أيام الأمويين فصقلية تقدم للمسلمين آفاقا للفنائم التي افتقدوها ببلاد المغرب كما قدمت صقلية لهم أيضا أرضا جديدة لاستقرار العرب والبربر كما استقروا في إسبانيا . فغزو صقلية أخذ مظهر عملية استعمارية مختلفة تماما عن الغارات السابقة:

إذا كان المكسب السمادي قد شجع أكثر من واحد للاشتراك في حملة صقلية ، فالمؤكد أن هناك كثيرون ، قد دفعتهم المصالح العليا للدين ،

⁽٢٠) الكامل في التاريخ ٤ : ٣٤٥ .

⁽²¹⁾ Voir Amari, Storia dei Musulmani, I, 357.

والرغبة في الحصول على فضل من عند الله . فإفريقية القرن التاسع كانت عقيدتها الإسلامية قوية . إذ كان كثير من الرجال الورعين يعيشون في عزلة في أربطة السواحل للصلاة والتعبد والجهاد في سبيل الدين فرحيل هؤلاء لمحاربة مسيحيى صقلية لهو التفاني في « العمل الجليل » . واختيار رئيس الحملة (۸۲۷ م) كان يضفي عليها طابع الجهاد المقدس . فلم يعين زيادة الله قائداً عسكرياً محترفاً بل عين القاضي أسد بن القرات وهو فقيه مشهور بحماسته وقدرته على إفحام معارضيه . فكان الشخص المناسب لقيادة الجيش . ويقول ابن عذاري « فخرج معه أشراف إفريقية ، من العرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر ، وذلك في حفل عظيم والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر ، وذلك في حفل عظيم لعيتها ، كان يوج بجماعات من سائر الألوان وكان حماسهم يذكرنا بالحملة لمسايتها ، كان يوج بجماعات من سائر الألوان وكان حماسهم يذكرنا بالحملة الصليبية الأولى . فاختيار زيادة الله وشروعه في الحرب كان ضمن السياسة الدينية للأغالبة وسوف نتكلم عن هذه السياسة فيما بعد . وقد فاز الأمير بحب رعاياه لولاء لقضية الإسلام والثقة في عثليه . ولكن كانت هناك استفادة من نوع آخر .

فقى سئة ٨٢٧م (٣١١هـ) كانت عملكة الأغالبة خارجة من أزمة كادت تقضي عليها . فكان زيادة الله وللمرة الرابعة منذ ولايته فى صراع مع ثورة الجند العرب (٣٢) فثورة ٨٢٤م (٣٠٩هـ) بدأت هذه المرة أيضا من تونس وعمتى أدق طنبذة وهى قلعة قريبة من المدينة حيث يعيش منصور بن نصر

[،] ۲۱۵ ـ ۲۱۴ ، البيان ؛ ۱ ، ۱۰۲ ـ ۱۰۱ ، ابن الأثير ؛ الكامل ٥ ؛ ۲۱۴ ـ ۲۱۵ (۲۲) Abdul-Wahab. Un tournant de l'histoire aghlabite, dans Revue Tunisienne, 1957, pp. 345 ss.

الملقب بالطنبذى ودخل منصور مدينة القيروان منتصرا بعد أن هزم هو وأنصاره لمرتين متتاليتين الجيوش المرسلة لمحاربته . وبعد أن طرد منها عاد اليها في العام التالى . كان الجند العربى ملتف حوله لدرجة أنه كان يسك النقود باسمه وأصبح سيداً على إفريقية بأجمعها ما عدا المنطقة الساحلية من سوسة إلى طرابلس . وشاءت الأقسدار أن يتجو الأمير واسرتسه بفضل إخلاص نفزاوة القبيلة البربرية الخارجة المجاورة لبلاد الجريد. . ففى سنة المحكم (٢١١هـ) انهزم منصور ودب الشقاق فى حزبه وأصبح وحيداً وحاصره خصم له فسلم نفسه للخصم الذى قام بقتله . وبعد موته تفكك الثوار ولمجت المملكة الأغلبية ولكن كانت هذه المحنة نذير خطر . فكيف يتجنب الأمير الأغلبي هذه المحنة مرة أخرى ٢ وكيف لحجح فى إبعاد هذه العناصر المشاغبة من الجند العرب ٢

يقول ابن الأثير (٢٣) هناك حدث طارئ شد انتباه زيادة الله نحو صقلية . لقد ثار القائد البيزنطى فيمى (أوفيميوس) ... وهو قائد الأسطول الصقلي ... ضد الامبراطور ميشيل الثانى واستولى على سرقوسة ونصب نفسه ملكا عليها . فلما تخلى عنه كل أتباعه هرب الى إفريقية لحث الأمير الأغلبى على غزو الجزيرة . وتذكرنا هله المفامرة بمفامرة عودة المسلمين لبلاد البريز في سنة ١٩٦٥م (١٤٥ه) ومغامرة سنة ١٩٧١م (١٩٨ه) التي أوحت لهم باجتياح اسبانيا . وتقارب هذه المفامرات الثلاث بعطيها الى حد ما شكل الفولكلور . ولكن مهما كان سبب الحملة فالرغبة في ابعاد ثوار الأمس المعنى عنهم والمختلطين بصفوف المجاهدين في سيبل المقيدة قد راودت أمير القيروان . والغزو سيدوم طويلاً ويجب تمويله بالرجال وستصبح بذلك صقلية منفذا لمناصر الشعب

⁽٢٣) الكامل في التاريخ ٥ : ١٨٧ ـ ١٨٧ .

والجهاد البطولى المقدم للمشاغبين المراد التخلص منهم مثل ما ستكون عليه اسبانيا بالنسبة للقبائل البربرية .

ولكن سيكون لضم الجزيرة الكبيرة مصلحة أسمى من هذه الغرص المواتية . قصقلية تعتبر مجال مفلق حيث يصطدم الإسلام بالمسيحية مثل شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا) والشام . لذلك فامدادات المسيحيين سوف تصلهم من القسطنطينية وإيطاليا أما الإفريةيون العرب والبربر قسوف تصلهم إمداداتهم من الأندلس والمشرق . فالنجاح ونتائجه يبرران حماس المنصوم . بعد غزو صقلية واحتلال مالطة أصبح الإسلام يسيطر على الحزش الغربي للبحر المتوسط وأصبح هذا الجزء من البحر الروماني القديم بحيرة المنابي للبحر المتوسط وأصبح هذا الجزء من البحر الروماني القديم بحيرة إسلامية كما أصبحت أوربا المسيحية في متناول يد البحرية الإفريقية حتى أسلامية كما أصبحت أوربا المسيحية في متناول يد البحرية الإفريقية حتى للسبد الجزيرة الإيطالية . كان الأسطول الإفريقي يوجه ضرباته كل عام لشبه الجزيرة الإيطالية . ففي سنة ٢٤٨م (٢٣٧هـ) قاموا بنهب كنيسة القديس بطرس في روما وكان لهذا العمل دوى مؤلم لا ينسي في كل العالم المسيحي . (٢٤)

جد ـ شعب إفريقية

إن المؤرخين الذين يمدونا بالمعلومات عن بدخ وترف عهد الأغالبة ، لم يفيدونا عن الحالة السكانية ، والحياة الاقتصادية للإمارة . ولحسن الحظ ، تتوفر لدينا أوصاف جغرافية ، وبالأخص الوصف الذى تركه لنا رحالة معاصر، ألا وهو اليعقوبي (٢٥) . زار هذا المشرقي ، معظم بلاد الإسلام ، وأقام في

⁽²⁴⁾ Ph. Lauer. Le Poéme de la Destruction de Rome et les origines de la Cité Léonine, dans Mélanges de l'Ecole de Rome, XIX, 1899. pp. 307 ss.

⁽١٥) اليمتربي ؛ البلدان ، =

العديد منها وقام بتحريات عن السكان ، وعن المنافع العائدة من هذه البلاد ، وذلك إما فضولا منه وإشباع هذا الفضول ، أو للقيام بمهام رسمية منوطة إليه. فكان في بلاد البرير بين سنة ٢٩٨٩م (٢٦٣هـ) ، ٨٨٩م (٢٧٦هـ) وطاف فيها من أدناها إلى أقصاها . وإفريقية التي يصفها لنا هي إفريقية الإرهابي ابراهيم الثاني الأغلبي ، ونرى من الصورة التي يقدمها لنا ، إننا أمام فسيفساء ذات عناصر مميزة كما كانت عليه بلاد الغال في القرن السابع . فلم يتحقق بعد المزج بين المشرقيين وأهل البلاد وكذلك بين . أناس من أجناس مختلفة . واللغة التي يتكلمونها هي التي تميزهم . فاليعقوبي يرتبهم حسب أجناسهم : هناك أولا العرب ، ومن ناحية أخرى الفير عرب (العجم) ، الذين يعتبرون أن لغة القرآن لغة غريبة بالنسبة لهم . والعجم ينقسمون الي قسمين : القسم الأول عجم البلاد وهم من أصل بربري أو سلالة حكام البربر القدامي (روم أو بيزنطيون) والقسم الثاني غير عرب مهاجرون وبالأخص الفرس .

ومن المعروف أن قاع الشعب يتكون من البربر المنقسم إلى عدد محدود من القبائل الكبيرة . ولكن اذا كانت هذه المجموعات تظهر بعض التلاحم في باقي بلاد البربر واذا كان اليعقوبي غيز في ريف وسط المغرب قبيلة أوربة وبنى دمر فانه لا يتناول الذين يعيشون في إمارة إفريقية واليعقوبي لا يصف إلا المدن وضواحيها ففي هذه المدن تفتت القبائل المحلية الخاضعة نتيجة للاختلاط بالعناصر الوافدة . فهم يشعرون بالغربة في وطنهم الأصلى . وعن سوسة التي أصبحت مركزاً صناعيا بعد إقامة دار صناعة السفن ، يقول لنا البعقوبي : ووأهل سوسة أخلاط من الناس « ولكنه لم يحاول تحليل هذا التكوين .

⁻ G. Marçais, La Berbérie au IX siécled'aprés El-Ya'qoûbt, dans Revue Atticaine, 1941, pp 40 ss.

وبالنسبة للقيروان فهو يعدد العناصر المختلفة المثلة فيها بادئا بالعرب القريشيين ومنتهيا بالبربر المحليين وآخرين غيرهم . فهم في هذه المن يكونون السواد الأعظم المميز ونفترض أنهم كانوا يكونون الشعب الفقير ذوي المظهر المزرى والذي كان يحظى بعداء واحتقار المشرقيين الذين استقروا بإفريقية ولتعليل ذلك يجب ألا ننسى الآتى : ١ - محاربة المسلمين للبربر منذ موقعة الأشراف حيث قكن البربر بقيادة السقاء ميسرة من هزية صفوة السلالة العربية . ٢ - إنتماء معظم بلاد المغرب للمذهب الخارجي والثلثمائة وخمسة وسبعون معركة ٣ - سقوط القيروان لمدة ثلاث سنوات في أيدي البربر الخوارج على مجزرة المدينة والقرشيين ٥ - دخول الخيول المرابطة في الجامع الكبير لسيدى عقبة .

بالرغم من أن الخصومة انمحت مع الماضى ، لكن هذه المآخذ كانت أساس تفاقم « الإرهاب البربرى » فى كثير من الأحاديث والأمثلة السيئة تعطينا الدليل على ذلك ، ألم ينسب إلي الرسول قوله : « قسم الله تعالى الخبث على سبعين جزءا قجعل فى البربر تسعة وستين جزءا والثقلين (بقية الناس) جزءا واحدا » ، ويروى عن شيخ ثقة من أهل الاسكندرية أن سليمان بن داواود ، أرسل بربريا مع شيطان فى حاجة ، فرجع الشيطان يتعوذ بالله عز وجل من البربرى (٢٦) فوصمة عار أن يكون الانسان من أصل بربرى والتخلص منه مصدر فرحة ، فالشيخ الورع البهلول عندما علم أنه ليس من سلالة بربرية احتفل بهذا الاكتشاف وأقام وليمة لأصدقائه ، (٢٧)

ومن غير المؤكد أن يكون الأمراء الأغالبة قد شاركوا إحساس عرب

⁽٢٦) المالكي : رياض النقوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ٢ : ٣٥٤ .

⁽٢٧) أبو العرب : طبقات علماء إقريقية وتونس ،ص ١٣٤ (الترجمة رقم ٩) .

إفريقية تجاه الوطنيين أو يهدو على الأقل أن موقفهم تطور بتطور موقف الوطنيين أنفسهم . فإبراهيم الأول اضطر لمعاقبة أكثر من ثورة بربرية ملاحقا المناطق الثائرة بالإمارة . ويدعى ابن علاري (٢٨) أن ابراهيم الأول و كان له مع بربر إفريقية حروب يطول ذكرها به ولكن استفاد خلفاؤه من حزمه لأن الانتفاضات أصبحت نادرة . انضم البربر لحملة غزو صقلية عن طيب خاطر وقد ساعد ذلك على حسن معاملتهم ويعرفنا البيان (٢٩) بأن في ٨٩٨م (٨٨٥هـ) قام نزاع في صقلية بين العرب والبربر فأرسل ابراهيم الثاني خطأها يحث فيه الجميع على التصالح وإنه عفي عن الجميع .

واليعقوبي يشرك دائما الروم والأفارقة مع البربر المثلين لسكان المدن الإفريقية ، على أنهم يكونون اللاعرب من أهل البلاد وتختلف معنى كلمة و روم » في إستعمالها عند الكتاب وبالنسبة لليعقوبي الكاتب المشرقي الذي كتب عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فاسم الروم يطلق على رعايا القسطنطينية وإذا وجد اليعقوبي في إفريقية (في إفريقية وحدها وليس في جزء آخر من بلاد البربر) « روم قدامي » أو « بقايا روم » فهو يعني بهلا سلالة الجنود والموظفين في الإمبراطورية ، اللين جاءوا من بيزنطة من ٠٠٠ أو ٠٠٠ سنة مضت ، ولم يشاركوا في هذه الهجرة الجماعية في القرنين السابع والثامن ، اللذين يليان الغزو العربي وخاصة بعد سقوط قرطاج . وتحن نفترض أنهم عاشوا في عزلة ، ولقلة ميولهم للإندماج بالبربر ، استطاعوا الإحتفاظ بعراقتهم ولفتهم وعاداتهم . وعلى كل سوف نرى أن أيام هذه الإحتفاظ بعراقتهم ولفتهم وعاداتهم . وعلى كل سوف نرى أن أيام هذه الأقلية العنصرية معدودة ، ولن تأتيهم إمدادات جديدة لسد هذا الفراغ .

⁽۸۷) البان ۱ : ۹۲ .

⁽۲۹) البيان ١ : ١٣٠ ـ ١٣١ .

ويشير اليعقوبى عن وجودهم فى الحاميات البيزنطية القديمة مثل طبئة أو باغاية وفى المدن الصغيرة لبلاد الجريد التى استخدمت كمأوى لغير العرب من أهل البلاد ، وأخيرا في القيروان المدينة الكبيرة حيث استقرت جميع الأجناس على أمل كسب العيش وحيث وجد الروم عملا لهم .

أذًا كانت هوية الروم تظهر بيسر ، فهرية الأفارقة تبنو غامضة : و فهم لا عرب (غير عرب) ومولدهم إفريقية » وحسب ما ورد عن اليعقوبي ، فهم لم يختلطوا الا مع الروم ولا مع الهربر . وخليق بنا أن نفترض أنهم يتميزون عن أهل البلاد الآخرين ببعض الخواص الملموسة . وأن هذه الخواص لها صلة بماضي البلاد ، وبإفريقية التي يحملون اسمها وأبرز هذه الخواص ، هي اللغة التي يتعاملون بها ، فهي ليست العربية ولا البربرية ولا اليونانية ، بل اللغة اللاتينية .. لغة المقاطعة القديمة . هناك نص للإدريسي يسمح لنا باثبات أن زمنه وهو متتصف القرن الثاني عشر (٦ه) ، كانت اللغة اللاتينية متداولة في الجنسوب التونسي . ويقول ثنا هذا العسالم الجغرافي أن الناس في قفصه « أكثرهم يتكلم باللسان اللاتيني الإفريقي » (٣٠) . وكل شيء يجملنا نعتقد أن من مائة وخمسين عاما مضت ، كانت اللاتينية هي لغة الأفارقة التي سجل اليعقوبي وجودها ، في مدن الجريد بالقرب من قفصه . إنهم سلالة أحفاد لاتينيين ، إستقروا في إقريقية ، منذ عدة أجيال ، أو على الأرجع من مواليد البرير اللاتينيين ، واستقروا في البلاد ، في مأوى أجدادهم ، ويسهل التعرف عليهم بمارستهم للغة اللاتينية (لغة بدون شك محرفة ولكنها ستبقى منعزلة لعدة قرون) .

[·] ٣٠) الإدريسي : صقة المغرب وأرض السردان والأندلس ص ١٠٤ .

ويتميز عدد كبير منهم، بخاصية أخرى مرتبطة باللغة . ألا وهي . وفا مهم للعقيدة المسيحية أشرنا من قبل عن التضامن الوثيق الذي كان يربط إستخدام اللغة اللاتينية بالعبادة المسيحية خصوصا في إفريتيا ، وسوف نرى فيما يلى أدلة جديدة متواضعة ولكنها بليغة . فبعد مائة وخمسين عاما من عهد الأغالبة تؤكد الكتابة على القبور المدونة بلغة لاتينية حوشية بوجود مخلفات كنسية في القيروان ونعلم مصادفة أن في القرن التاسع كانت توجد كنيسة لحاجة السجون ؟ (٣١) وكان بين الأفارقة من عاش بجانب الروم في العاصمة نفسها . وقد وجدنا روم يعيشون في المدن الآتية الجريد ، وتوزر ، ونفطة ، وتقيوس ، والحامه وكذلك مدينة الزاب وطبنة كانت بها أفارقة متمسكين بعقيدة ابائهم أر أسلموا حديثا . وكان بعض المسيحيين يعيشون فى عزلة عن المدن التي كانت بمثابة مراكز إسلامية ، وبغض النظر عن الذين كانوا مستقرين في واحة بشرة في الجنوب الشرقي لشط الجريد (٣٢) فقد كان منهم من يعيشوا في سهول الشاطئ حيث يتفرغون كأجدادهم لزراعة الزيتون . ويحكي لنا أبو العرب عن مسيحي من الساحل كان يصنع أجود الزيوت في المنطقة . فجاءوا إليه لشراء زيت للصالح البهلول بن راشد ، فلما علم بذلك تنازل المسيحى عن نصف الثمن ولكن الورع بهلول رفض كرم هذا الكافر ورد الزيت (٣٣) . إذا لم تكن هذه الحكاية أسطورية فالمقصود منها تقويم القارئ ، فهي بدون شك توضع تقدير المسيحي للفقيد العابد والموقف المتحفظ للمسلم المتحمس لدينه وهذا لا يدهشنا طبعا . ولكن حماس العقيدة

⁽٣١) أبر العرب : طبقات علما ، إفرقية وتونس (الترجمة الفرنسية) ص ٢٤٤

⁽٣٢) اليمقوبي : البلدان ص ٢٠٢

⁽٣٣) أبر العرب : طبقسات علماء إفريقية وتونس ص ١٣٢ ، المالكي : ريساض النقوسي ٢٠٦٠ .

يترجم أحياناً عند رجال الدين بتصرفات أقل رقة ولطف مما سمعناه عن البهلول . وقد قرأنا في « رياض النفوس » أن القاضي أحمد بن طالب الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع (٣٠هـ) أنه فرض على اليهود والنصاري وضع رقاع بيضاء على الكتف مرسوم عليها قرد وخنزير وتسمير ألواح مصور عليها قردة على أبواب دورهم (٣٤) .

ويجب أن نلاحظ أن هذه المضايقات ، لم تصدر من أمير ، يل من قاض وهو رجل متدين . وكان للأغالبة دواقع تجعلهم يبدون أقل تشدداً . فقد كان من بين معاونيهم في الحكم أناس مسيحيو المولد ، منهم من بقى على عقيدته ومنهم من أسلم . لكن الجميع كانوا تابعين للأمير إما كعبيد أو موالى وتؤكد لنا كثير من الأحداث أن الأمراء كانوا يلجأون للقدرات المتميزة للإفريقيين ويولوهم مناصب ثقة في الادارة أو القيادات الحربية العليا . لقد أرسل زيادة الله الأول جيشا ضد الثائر منصور الطنبدي وكان محمد بن عبد الله الإفريقي على رأس هذا الجيش . (٣٥) قوالد محمد كان قد اعتنق الإسلام من قبل واسم «عبد الله» يوحي لنا بذلك ، أما اللقب والإفريقي» الذي يحتفظ به الإبن ، فهذا دلالة على أصله . وخصص زيادة الله الثائث لفتوح والمسيحي» خمسين فارسا لإرجاع واحداً من أفراد عائلته الثائرين (٣٦) وكان سجيناً في طبنة . لم يكن هذا المسيحي المكلف بالقبض على فرد من العائلة المالكة إلا مولى للأمير . ونستطيع المغالاة في الدور الذي لعبه هؤلاد الموالي في المجتمع وفي تاريخ الثقافة الإفريقية وقد كانوا قديا عبيد وفي كثير من

 ⁽۳٤) المالكي ؛ رياض النفرس ١ ؛ ٣٧٦ - ٣٧٠ -

⁽٣٥) ابن الأثير : الكامل 6 : ١٨٥ ... ١٨٧

⁽٣٦) البيان ١ : ١٣٦ .

الأحيان غير مسلمين . ولنا عودة في هذا الموضوع .

هل كان الأمراء يستخدمون المسيحيين الأحرار في مناصب الثقة ٢ هناك واقعة ينقلها لنا ابن علاري تجعلنا نشك في ذلك . ففي سنة ٨٩١م (٨٧٨ه) عرض ابراهيم الثاني على سواده النصرائي ديوان الخراج يشرط أن يعتنن الإسلام فرد عليه سواده « ما كنت لأدع ديني على رياسة أنالها ١١ ۽ ، فأمر الأمير بقطعه نصفين وصليه (٣٧) . وكان ابراهيم الثاني مستهدا قاسيا لا يراعي لا مسيحيين ولا مسلمين ويبدو أن شرطه في إسلام سواده كان ضروريا لتوليته وظيفة عامة . وعلى كل حال يبدو أن هذا الرجل الذي نفترض فيه أنه من الأعيان ومعروف بنزاهته لم يكن مولى وكان في إمكانه الاستمرار في عارسة دينه لولا فكرة الأمير المحزنة التي تكفلت بحصيره .

وفى البلاد التى عبرها اليعقوبى ، كان يجد الأفارقة ، يعيشون جنها إلى جنب مع الروم ، والبربر ، ويكونون جمهورا من أصل وطنى . كما كان يقابل أيضا جماعات من المسرقيين من العرب والعجم . هؤلاء العجم كانوا من الفرس الذين جاموا من خراسان مع الولاة العباسيين . ولقد انضموا للعرب وعززوا العسكرية فأصبحوا جزء من الجند وكان سلف بعضهم من الجند الحراسانى فهم يعيشون فى الحاميات التى كانت تحمى الولاية القديمة مثل الحراسانى فهم يعيشون فى الحاميات التى كانت تحمى الولاية القديمة مثل المتراساتى فهم يعيشون فى الحاميات التى كانت تحمى الولاية القديمة مثل المترابة ومجانة (فى شمال تبسة) أو فى قلاع نوميديا القديمة التى أصبحت منطقة الحدود الشرقية للملكة مثل طبئة وباغاية ، أو مقره ، ولم يشير اليعقوبى الى وجودهم فى تونس لأن زيادة الله هدم أسوارها بعد ثورة الطنبذى وفقدت بذلك أهميتها العسكرية .

ويظهر كثير من العرب في ديوان الجند ولكنهم ليسوا مازمين بخدمة

⁽۳۷) البيان ۱ : ۱۳۲ .

مستمرة بل كانوا في حالة استنفار حسب الحاجة . ومنهم من وجد عملا في الوظائف العامة وكلهم يفخرون بعراقتهم . والبعض يتباهى بأنه من بنى قريش، أهل الرسول ، ويشير اليعقوبى الى وجودهم في القيروان وطبئة بجانب جميع القبائل العربية الكبيرة مثل مضر وربيعة وقحطان وقضاعة. وإلى جانب بنى مضر هناك مكانة خاصة لبنى قيم لأنهم قبيلة الأغالبة فأولاد بنى قيم يلودون حاميات أربع مدن محصنة لمنطقة الحدود الغربية وهي بلزمة وثلاث نقاط حدود لا يمكننا تحديدها الآن (أصبح موضعها مجهول لنا الآن) (٣٨) . ومن الملفت للنظر أن اليعقوبي يحكى لنا أثناء زيارته لهلاد البرير أن الجميع كانوا في ثورة ضد أمير القيروان . فهذه الثورة لم تكن إلا فصلا من ثورات الجند وما عدا السهو والفلط فهي الفصل الأخير لهذا العصيان .

وقد عرفنا من قبل الصعوبات التي خلقها الجند العربي لولاه إفريقية وكيف ساعدت على تمكين وصول ابراهيم بن الأغلب للحكم . فقام بأخذ الحيطة ليتقى عدم انضباط الجند . فبدأ بترحيل الذين يبدون العصيان الى بغذاد ، أما الباقى فكانوا موضع اعتباره ورفقه وبدأ في البحث عن عبيد زنرج بأعداد وفيرة « وأظهر أنه بحب أن يتخذ من كل صناعة من يفنيه عن استعمال الرعية من كل شئ به (٣٩) وجعل بعضهم لحمل سلاحه وهكذا كون في الواقع حرسا شخصيا ضخما ، مخلصا له وتحت إشارته وغير مرتبط بالبلاد وكان يستطيع أن يواجه به وبفاعلية زعماء العرب من الجند . ومع ذلك فقد بقي بعضهم للإقامة معه في قصر العباسية (متره الجديد) وكان بصحبته أفراد عائلته والمقربين في البلاط وعبيده . وكان

⁽۲۸) الیمتریی ؛ البلدان ص ۲۰۳ ،

⁽٣٩) التويري : نهاية الأرب ص ٢٥٣ .

قد أمر بتشييد هذا القصر على مسافة من القيروان . فالهجرة من العاصمة الى مقره الملكى كانت تعتبر نوع من إشباع روح البذخ ورغبة فى الأمان وكذلك تكوين حرس زنجى كل ذلك كان مستوحى من تقاليد الأسر المشرقية.

لم تكن هذه الحيطة من الكماليات ، ففي سنة ١٨٦م (١٨٦هـ) ثار بتونس أحد رؤساء العرب وهو « حمديس الكندى » وفي سنة ١٨٠م (١٩٥هـ) انفصل القائد عمران بن مخالد الذي ردع أول ثورة وكانت تونس نقطة البداية ثم استولى على القيروان وحاصر العباسية لمدة عام ولكن أتباعه تخلوا عنه لأنهم لم يحصلوا على مرتباتهم (٤٠)

وظهر عداء الجند أكثر خطورة فى عهد زيادة الله الإبن الثانى لإبراهيم الأول . فقد كان يعامل العرب بدون مداراة وقتل كثير منهم ، وثورة المنصور الطنبدى هى نتيجة لهذه القسوة الرعناء . فهذه الثورة هزت إفريقية كلها لمدة ثلاث عشر عاما . ولقد أشرنا إلي خطورتها ومداها وكان غزو صقلية واحدة من نتائجها .

لقد ساعدت هذه النتيجة بدون شك على ضمان الهدوء النسبى للعرب في العهود المقبلة ولكن في عهد ابراهيم الثانى التهبت الثورة مرة أخرى وحدث في سنة ١٩٨٦م (١٩٨٠) المذبحة المأساوية لجند بلزمة حيث استخدم الأمير كل النفاق الدموى المقتدر عليه . فبعد أن هدأت ثورة عرب بنى تميم المقيمين في هذه القلعة أحضر الأمير سبعمائة من أشجع رجالهم الى قصر رقاده للحفارة بهم وأمر ببناء قصر مجهز بباب واحد فلما وقعوا في هذا الفخ ذبحهم عن أخرهم . (٤١) هذه المدبحة القاسية مضافا إليها مآسى أخرى كانت سببا

⁽٤٠) ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٠٤ ، النويري : نهاية الأرب ص ٢٥٤ .. ٢٥٥ .

⁽٤١) ابن علاري : البيان ١ : ١٢٣ .

لعراصف مروعة هبت على الإمارة . فثارت كل من شبه جزيرة بونه ولاربس وباجة وقمردة وبالطبع تونس بقيادة قادة من الجند . ومرة أخرى كانت البلاد كلها تقريبا في ثورة ، فأمر الأمير ابراهيم بحفر خندقا حول رقاده ، وهر مقر اقامته ، وأمر بغلقه بأبواب من الحديد ، وجند خمسة الات زنجى ، فانهزم الثوار ، ووصلت القيروان عجل عملومة بالجثث . فعاد النظام للبلاد ، ولكن عملية بازمة عجلت بدمار الأغالبة ، لأن الردع الدموى للثوار أضعف الحدود التى تحمى الإمارة ، كما كانت سببا لتشجيع قبيلة كتامة في جبال القبائل الصغرى الذين كانوا يستعدون لمداهمتها فبلزمة هي ثغرة من الثغرات التي أباحت لهم التدخل لإسقاط الإمارة .

د سالحياة الاقتصادية

كانت الحياه الاقتصادية ، في البلاد الإسلامية أكثر من أي مكان آخر من صنع الوضع السياسي ، فقد كان توفر الدخل الكافي لدولة ما يكن حكومتها من تأمين الطرق اللازمة للتجارة وأعمال الري أو مد المدن بالما ، وكما سمح تأسيس الدولة الطولونية المستقلة بمصر من تخصيص موارد البلاد للأعمال الماثية كذلك كان تأسيس مملكة الأغالبة السبب الرئيسي للنهضة الاقتصادية في القرن التاسع . وسوف نرى أن باقي بلاد البربر سوف تنعم بنفس الرخاء ولكن بنسبة أقل اتساعا وذلك بسبب ظروف سياسية متشابهة .

بالنسبة لإفريقية لن نتخدع بتفاؤل المؤرخين وتعتقد أنها عرفت نهضة تذكرنا بأيام عز السلام الروماني . فالتدهور الاقتصادي كان قديا وقائما منذ النصف الثاني للقرن الثالث الميلادي (٤٢) ودليل ذلك انتشار الإقطاع ، وفقر

⁽٤٢) ولكن هناك عودة للرخاء المؤقت خلال القرن الرابع الميلادي .

المزارعين ، وقلة التبادل ، وثورات ونهب البرير ، خصوصا برير القبائل . وبعد أقل من قرن وبالتحديد سنة ٤٢٩م جاء الوندال بقيادة جنسريق وتفاقمت الأزمة إذ أن الوندال يتشككون من ولاء المدن الرومانية التي لا يستطيعون إدارتها أو حمايتها ولذلك أجبروا سكانها على تقويض أسوارها ولقد استفاد البرير من ذلك وقامت انتفاضات الاوراس ، وأورني L'Oranie ، وطرايلس ثم بعد قرن من الزمان سنة ٥٣٣ « أعاد الانتصار البيزنطي على قدر المستطاع إفريتية المستعمرة الرومانية » (٤٣) ولكنه لم يحقق لا الرخاء ولا أمن عهود أسرتي الانطونيين والسيغريين ، ومرة أخرى عادت الأسوار للمدن فشيدوا منها الكثير وبسرعة فائقة . ولكن هذا المعمار الحربي يوحى لنا بالشعور بالرعب من هجمات الجبليين أو البدو الرحل فكانت لوازم البناء مأخوذة من مباني قديمة ، وموضوعة كما هي ، فوق الحوائط ، وعلى الأبراج ، لحماية المدن الشبه مهجورة ، والتي قلت مساحتها عن ذي قبل . هذا يعني أن الريف لم يسترد الأمن الضروري للزراعة وتنقل التجار بحرية . إننا نعرف كيف قضي الإسلام على هذا الوضع القلق ويمكن التصور كيف عاشت بلاد البربر أثناء المائة وخمسون عاما الأولى للفتح الإسلامي في ظروف غير ملاتِمة للإنتعاش الاقتصادى : هناك الغارات الأولى ، وهروب وذعر الشعوب المسبوسة . وحملات النهب وسلب العبيد ، والاجتياحات المنظمة للكاهنة ، وابتزاز الولاة الأمويين للبلاد وثورات البربر الذين اعتنقوا مذهب الخوارج . ولكن وصول الحكم لعائلة يبدو على أعضائها أنهم قادرون على الحزم وحريصون على واجبهم كحكام وولاة أعطى المزارعين ما كان ينقصهم من زمن بعيد وهو الثقة في المستقبل والأمل في حصاد ما زرعوه .

⁽⁴³⁾ Albertini, dans L'Afrique du Nord française dans l'histoire, p. 122

من البديهي أن هؤلاء المزارعين كانوا يتخوفون من تقلبات الطقس فبلاد البربر هي بلاد البقر السمان والبقر العجاف مثل وادى النيل وهذه لم تظهر قبل النصف الثاني من القرن التاسع (الهد) ، ولم يشار إلى أية مجاعة قبل حكم أبي الفراتيق ، ثامن أمراء الأسرة الأغلبية (12) وعدم تناول المؤرخون هذا الموضوع يجعلنا نعتقد أن المجاعات تجنبت إفريقية لأكثر من سبيعين عاما .

والجغرافى اليعقوبى الذى اهتم بالمدن أكثر من الريف قد تأثر بهنظر الاخضرار وكثرة الأشجار فى المنطقة ما بين قموده (سيدى بوزيد) وشاطئ البحر أى على مسافة ١٥٠ كيلومتر هذه المنطقة التى نراها فى أيامنا هذه شبد صحراوية برغم الانتشار البديع للأشجار فى صفاقس . (٤٥) وتعتبر الزيتونة شجرة هذه السهول الرملية ، شجرة كل الساحل ، شجرة هذه المنطقة الساحلية الطويلة ، ذات الحدائق والقرى و العديدة المتشابكة » . وبكل قرية معسرة للزيوت (٤١) وتزرع أيضا الأشجار المشمرة المختلفة والكروم لاستهلاك عناقيدها عند الجنى إن لم يصنع منها النبيذ ، هذا المشروب المسكر والمرغوب فى إفريقية خصوصا من أمراء القيروان . وما وراء قمودة إلى الجنوب فى واحات الجريد ولكن بنسبة قليلة عن النخيل الذى تعتبر بلاد الجريد مجاله واحات الجريد ولكن بنسبة قليلة عن النخيل الذى تعتبر بلاد الجريد مجاله

⁽۱۱) مجاعة سنة ۸۷۳ (البيان ۱۵۰۱)، مجاعة ۸۷۹ (البيان ۱۹۳۱)، مجاعة ۸۸۱ (مجاعة ۸۸۱) مجاعة ا۸۸۸ (البيان ۲۱۸۱) . مجاعة ا

J. Despois, La Tunisie orientale. Sahel ، ۲۱۳ ـ ۲۱۲ (دع) (دع) و Basse steppe, Paris, 1940, pp. 121 ss.

⁽٢٦) المالكي _ وياض التقوس في إدريس _ مجلة الدراسات الإولامية ١٩٣٢ ص ٣٠٤

الطبيعى - ومن قمودة نحو الشمال تمتد حقول الحبوب ، فسهل القيروان يعطى محاصيل جيدة ، وحياة سكان سهل القيروان مرتبط ارتباطاً وثيقا بحياة الريف المجاور كما هو الحال في أيامنا هذه . والمدنيون كانزًا يمتلكون بعض الأفدنة في الضواحي ، وكانوا يشتركون مع المزارعين لزراعتها ، ويرسلون قطيعهم للمرعي أو يزرعون الحدائق والحقول بأنفسهم . وكذلك بالنسبة للسهوب فهي جرداء صيفا ولكنها تمتلئ بالمزارعين بعد الأمطار الأولى . والمالكي يظهر لنا مجالس علماء الفقد خالية في فترة الحصاد (٤٧)

واليعقوبى لا يهتم بانتاج المحاصيل فالبلاد المنتجة للقمح مثل باجة لا يستهويه فيها إلا ملاحظاته عن السكان رغم أن ابن حوقل فى القرن العاشر والبكرى فى القرن الحادى عشر قد امتدحا خصوبتها . ولكنه أول من أعطانا تفاصيل دقيقة عن مناجم مجانة التى ذكرها البلاذرى بطريقة عابرة . فيروى اليعقوبى : « من القيروان الى مدينة يقال لها مجانة أربع مراحل ... بين جبال وشعاب » نحددها نحن على الحدود بين الجزائر وتونس على بعد ٤٠ كيلومتر شمال وشمال شرق تبسة توجد مدينة مجانة المعادن . (٤٨)

تعتبر « مجانة المعادن » مركزا لاستخراج « الفضة والتوتياء والحديد والرصاص » . لا نستطيع الشك في أن هذا يعتبر عنصرا هاما للنهضة الاقتصادية ولكن ليس من المنصف استخدام لفظ « نهضة » ولكن هو بالأحرى تنمية موارد لم تستخدم بعد . إذ أننا لا نستطيع التأكد من أن الرومان قد استغلوا هذه الحقول الغنية . وقد ذكر Stephone Gsell عدة أماكن في

شمال إفريقيا حيث قام المسلمون بدور الرواد (٤٩) نقد كتب في عمل من أعماله الأخيرة و إنني أعتقد أن أنشط وقت للصناعات المعدنية في بلاد ألبربر كان في العصور الوسطى وليس في العهد القديم » وذكر لنا أسباب ذلك: كان الرومان يمتلكون في إمبراطوريتهم العظيمة حقولا أغنى وأسهل من المرجودة هنا . « لم تستخدم مناجم إفريقية إلا لاحتياجات البلاد على فرض أن الاستيراد من وراء البحار لا ينافسها . ولكن عندما تفتت الإمبراطورية الرومانية ، وقام الصراع بين الإسلام والمسيحية وتصادف ندرة الاتصال مع تدهر الصناعة في أوربا زادت القيمة الاقتصادية لهله المناجم لا في بلاد البربر فقط ولكن في بقية العالم الإسلامي » . لذلك عندما افتتح المسلمون حقولا للنشاط كانت مهملة حتى الآن ظهر الرخاء الذي ينسب لأمراء القيروان كنتيجة للظروف الجديدة التي وجب علي العالم القديم تقبلها . ولدينا من كنتيجة للظروف الجديدة التي وجب علي العالم القديم تقبلها . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نمتقد أنه منذ منتصف القرن الثامن كانت منطقة مجانة تحظي بنشاط اقتصادي يرجع إلى وجود مناجم بها . قالكشف المقاجئ في هذا المكان عن زجاج ومعايير يعود إلى سنة ه٤٢م(١٩٨٨ه) يجعلنا نفترض أن المكان عن زجاج ومعايير يعود إلى سنة ه٤٢م(١٩٨٨ه) يجعلنا نفترض أن الولاة الأمويين تنبهوا إلى تنمية هذه الثروات الطبيعية . (٥٠)

واستغلال مناجم إفريقية ينقلنا إلى مجال الصناعة . فكان يجب معالجة هذه المواد المستخلصة في البلاد . كما كان من الضروري تدبير لوازم دور

Stéphane Gsell: vieilles exploitations minières dans l'Afrique (14) du nord, dans Hespéris, 1928, pp. 1 ss. Concession de mines de l'Afrique á un frère de l'Emir Ibrahim, EL MALIKI محبير ذكر ص ٣٠٣ . قصير ذكر ص ٣٠٣ . G. Marçais et E Lévi-Provençal, Note sur un poids de verre du (٥٠) VIII siéded, dans Annales de l'Institut des Etudes Orientales Alger, 1957, pp. 6 et ss.

الصناعة فى تونس وسوسة ، وتمثل لنا بعض المسامير التى تجمع الألواح المدهونة لأسقف جامع القيروان الكبير الدليل المتواضع والافتراضى لصناعة الحديد . ويروى لنا المالكى عن جواهرجى كان يصنع سلاسل من النحاس لعمل حناك الخيل وكان يطليها بحامض النيتريك لبيعها فى السودان (٥١)

نحن لا نشك فى وجود صناعة الزجاج لأنها كانت منتشرة وأن بعض دور الصناعة بالقرن الثامن الميلادى لا تزال موجودة الى الآن . وكأن يوجد حى لصانعى الزجاج فى القيروان (٥٢) وسوف يبين لنا القرن العاشر والحادى عشر الميلاديين التطور الملحوظ لهذه الصناعة الإفريقية ، فاستقر هنا (إفريقية) تأثير المشرق (أسيا القديمة أو مصر) .

ويرجع أيضا الفضل في صناعة الخزف الى المشرق وبالتحديد الى العراق قلب الدولسة العباسية . وكانت تمتلك إفريقية الرومانية والمسيحية « فن الفخار » ولكن ظل مجهولا لها سر الفخار المطلى بالمينا والذي يزين بالفرشاة قطع الجاهزة التصنيع كانت تستورد من بغداد وهناك رواية قديمة تدور حول امداد دار صناعة الخزف ببلاد العراق ببعض انتاجها ذات الانعكاس المعدني لمسجد القيروان حيث زينت محراب الجامع الكبير (٩٣) . فالتشابه البديهي بالأجزاء المرجودة في سامراء والرقة و سوس ، يعطى لهذه القصة المصداقية التاريخية. وبخلاف هذه الرواية فقد وقد من بغداد الى القيروان خزفي لاستكمال تزيين المحراب ، ونفترض أنه كون بعض التلاميذ وتوجد مجموعة أخرى متواضعة استخرجت من الربوة التي شيد عليها مقر الأمراء الأغالبة

⁽٥١) المالكي في إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٣٥ ص ٢٠٥٠ .

⁽٥٢) أبر العرب : طبقات علما ، إفريقية وتونس ، ترجمة ابن شنب ٢ ، ٢٠١٠

G. Marçais, Les Faiences à reflats métalliques de la Grande (**) Mosquée de Kairouan, Paris 1928.

« العباسية » . هذه الشقف من الخزف الأبيض ذات الزخرفة المريضة باللون الأسود والأخضر والأزرق إن لم تكن مستوحاة مباشرة من النماذج المشرقية فهي على الأقل مشتقة منها إذ يعتبر الخزف والفخار المطلى من المستوردات التى وصلت إفريقية بفضل الولاة المسلمين وقد أتت من آسيا .

ليس لدينا للأسف فيما يختص بصناعة المنسوجات بإفريقية أي تأكيد عا توفر لصناعة الخزف . ولكن نستطيع الجزم على الأقل بأن إفريقية كانت في القرن التاسع المبلادي تشتهر بالسجاجيد التي تصنعها . وهذه الصناعة يعمل بها حتى الآن عديد من النساء في القيروان وغيرها والرواية التي تكلمنا عنها. من قبل اعتمادا عن ابن خلدون والخاصة بنقع ثلاث عشر مليون درهم علاوة على مائة وثلاثين سجادة للخليفة المأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣) ضريبة ولاية إفريتية كإحدى ولايات الامبراطورية العباسية (٥٤) نلاحظ اشتراك ثلاث ولايات تقرر عليها هذا النوع من الرسوم العينية : طبرستان (جنوب بحر قزرين) وهذه الولاية تأتي في المقام الأول بعدد ٦٠٠ سجادة وتأتي ولايةً إفريقية في المرتبة الثانية ثم أرمينيا التي ترسل عشرين فقط. ونعتقد أن هذه الصناعة كانت من صناعات إفريقية المحلية لم يستوردها مسلموها من الخارج ولكنهم كانوا يقدرون قيمتها الفنية والنفعية ويرجع ذلك دراسة . M C. Painssot للرسالة الموجودة في Histroise Auguest ومرسوم الامبراطور Dioclétien وكليهما يؤكدان وجود « سجاد إفريقي » في بداية القرن الرابع الميلادي إذن فصناعة السجاد بإفريقية أقدم عما قدم لخزائن العباسيان . (٥٥)

⁽١٥٤) ابن خلدون : مقدمات ، ترجمة دي سلان ٢٦٦ .

L. Poinssot et J. Revault, "Tapis tunisiens "I. Tapis de Kai- (66) rouan, pp. 9 - 10.

إن الجغرافيين الذين جاءوا بعد القرن التاسع (٣هـ) كانوا يمتدحون جمال الأقمشة الإفريقية ومن المحتمل أنها كانت معروفة في بغداد في عهد الأغالبة كما كانت في القرن السابق في دمشق فقد كان لإفريقية كما كان لوادى النيل دور للطراز حيث تصنع الأقمشة المنسوجة لحساب الخليفة ويطرز اسمه عليها . وقد قرأنا على واحدة منها أنها صنعت للأموى مروان « بواسطة طراز إفريقية » (٥٦)

وفى الولايات الإسلامية ، نشعر بالتدخل المباشر للدولة فى النشاط التجارى، فانتظام التبادل في الأسواق ، وردع التزوير ، وإعلان الأسعار وملاستها للتسعيرة الرسبية ، ومساواة الموازيين والمكاييل للمعايير المدموغة من رئيس الدولة ، وباختصار إن الوضع الأخلاقي للتجارة عامة كان يخضع لرقابة الخدمة العامة أى الحسبة ، والمرظف الملكف بهذه المهمة ، ويدعى المحتسب ، وله اختصاصات واسعة ، تجعله كمراقب أخلاقى . فهو شخصية هامة ذات ثقافة فقهية ويتولى سلطة ذات طابع شبه دينى . وعا أن اختصاصاته تمتد الى كل تفاصيل الحياة الاقتصادية ولدراسة هذا المجال ليس لناك أفضل من مؤلفات الحسبة التى تحتوى جميع الحالات المراد التحكيم فيها وجميع الخلافات المراد كشفها ، وجميع الجرائم المراد معاقبتها . ونحن نمتلك مؤلفا يرجع الى عصر الأغالية (٥٧) .

Revon Guest, Islamic textiles (Burlington magazine, 1932, (6%) p. 185): Wiet, L'exposition persone de 1931, p. 5.

⁽۵۷) يحيي بن عمر المتوفي سنة ۹۰۲ و أحكام السرق به النص به ملحوظات وضعها عبد الرهابُ وترجمها L.BErcher

إن معيار المسكوكات المستخدمة في المعاملات من اختصاص الأمير موظنى السكة (دار سك النقرد). ويقال أن في عهد الأغالبة كان الروم من ين هؤلاء الموظنين وتشهد لهم الأسماء المذكورة على المسكوكات نفسها وهي: وسي في عهد ابراهيم الأول ، مسرور في عهد زيادة الله الأول ، خلف في بهد أبي العباس ، حسن في عهد أبي الغرائيق ، بلاغ وشاكر في عهد ابراهيم لثاني وخطاب في عهد زيادة الله الثالث . ولم يذكر اسم آباء هؤلاء الناس لكنهم كانوا موالى الأمير وهم من العبيد أو محررين من أصل مسيحى لكن لهم كل الثقة من جانب أسيادهم (٥٨)

المسكوكات الذهبية (دنانير) التي كانت تخرج من دار سك نقود القيروان أو دار سك نقود العباسية لم يطرأ على وزنها أي تغيير رغم الظروف الصعبة التي مرت بها الخزانة ولكن في عهد آخر الأمراء انخفضت انخفاضا ملموسا (بدلا من ٢٠ / ٤ جرام وصلت الى ٢ / ٤ أو ٢ / ١ ، ٤ جرام) .

أما إصدار المسكوكات الفضية (دراهم) فقد كان بقرار من ابراهيم الثانى الذى كان يستحق الذكر لعدة أسباب (٥٩) ففى سنة ٨٨٨م (٣٧٥هـ) أمر ابراهيم الثانى بسك دراهم بوزن مضبوط ومنع استخدام أجزاء الدنانير الذهبية والدراهم المستهجنة المنتشرة فى هذا الوقت . فأغلق التجار حوانيتهم (جميع الثورات المدنية تبدأ هكذا) ، ورحف الشعب نحو رقادة ـ المقر الملكى ـ

Farrugia de Candia, Monnaies aghlabites du Musée du Bardo, (**A) dans Revue Tunisienne, 1935, pp. 271 ss.: Lavoix, Catalogue des Monnaies de la Bibliothéque nationale. Espagne et Afrique, p. 360. Stanley Lane Poole, The coins of the Mohammedan dynastics in the British Museum, Londres, 1876; H. Nutzel, Katalog der Orientalischen Munzen, II, Berlin, 1902.

⁽٥٩) ابن عذاري : البيان ، ترجمة I ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

هاتفين ضد الدولة فأمر ابراهيم باعتقال هؤلاء المزعجين في المسجد . ولما علم تجار القيروان بما حدث (وهم بدون شك المحرضون) تجمعوا في مدخل المدينة لمنع الأمير ورجاله من دخول العاصمة . فأرسل الأمير وزيرة للتشاور معهم فاستقبلوا هذا الوزير بالحجارة ففر عائدا الى سيده . فامتطى الأمير جياده وذهب إليهم بجرافقة حاجبه ومجموعة من فرسان الجند . وبعد معركة تصيرة استطاع ابراهيم فض المعركة وانسحب نحر المصلى ونزل من علي جواده وجلس في الهواء الطلق وبعد أن عاد له هدوء أمر باحضار النقيه الورع أحمد بن مغيث وأقنعه بقائدة الإصلاح المالي فرافق الفقيه الوزير للمرور على الأسواق لتهدئة القيروانيين وبعد ذلك عاد الأمير الي رقادة وأخلى سبيل المعتقلين . فعاد الهدوء مرة أخرى ومنذ ذلك الرقت أصبحت الدراهم ذات الوزن المضبوط في العملة الرسمية . وبقى الحال على ما هو عليه حتى زمن ابن عذاري صاحب هذه القصة ، أي بعد أربع قرون .

إن ابراهيم الثانى لرجل غريب . يصورونه لنا طاغية غريب الأطوار وسادى وهناك عدة علامات فى حياته تجعله رجلا كربها . ويقول لنا التويرى و إنه اسرف فى سفك دماء أصحابه وحجابه ... (ولكنه) كان أنسف الملوك للرعية لا يرد عنه متظلم يأتيه به (٢٠) ففى ثورة الدراهم يصور لنا ابراهيم الثانى حاكما مهتما بالغاء ظلم كان منبع استغلال ويفرض تغيير نافع ولكنه غير شعبى ككل التغييرات التى قس العملة . فبعد نوبة الغضب يتمالك نفسه ويترك الثوار يفكرون ويسامحهم ولكن بدون المجازفة بكرامته ومع ذلك يتمسك بقرار يجده منابيا للأخلاق وللصالع العام .

وابن الأثير يعرفنسا أن أمن المواصلات استتب أيضا في عهد ابراهيم

⁽٦٠) النويري في ابن خلدون : تاريخ البربو ــ ترجمة أ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

الثانى (٩١٠). « كان القوافل والتجار يسيرون آمنين ». لم نتصور أن هذه الطرق كانت مصانة ومعتنى كعهدها أيام الرومان ومع ذلك يحكى لنا بأن الأمير أبر ابراهيم أحمد شيد الكبارى فكانت العربات تمر عبر البلاد ولكن ذلك يصبح مشكوك فيه بالنسبة للقرون اللاحقة . فقد تغير مركز تباعد خطوط الرحلات (المسالك) وقد ورثت القيروان دور قرطاج ويعتبر اليعقوبي القيروان مركزا لبقية جميع مدن إفريقية ومنها يحسب المراحل التي تسمع للوصول إليها .

ولنا أن نؤكد أن مدينة سيدى عقبة التى شيدت لهدف استراتيجى ودينى أصبحت فوق ذلك مدينة تجارية كبرى ، وأن فى ذلك تشابه آخر بينها وبين مكة . ويقام حى السوق فى وسط المدينة . وكان محوره طريق كبير مستقيم أقيمت المحلات على جانبيه ويدعى السماط وعند وسط الطريق نجد الجامع الكبير (٦٢) كان الناس يأتون من جميع البقاع للتموين ولكن تجارة التجزئة هذه ليست إلا واحد من أوجه النشاط التجارى للمدينة . فجزء كبير من السكان يهتم بالتجارة فهناك تصدير الحبوب الى الإسكندرية ويشترون زيوت الساحل أو طرابلس ، والعاج والعبيد من السودان لتصديرها مرة أخرى للخارج . وهناك المضاربة فيوضع المال بالمشاركة للاستثمار وذلك ابتداء من أصغر تاجر الذي يعطى لصديقه ديناره الوحيد ويحصل على ثمانية عشر دينار كنصيب في الربع ... قلنا ابتداء من أصغر مالي ووصولا الى واللة دينار كنصيب في الربع ... قلنا ابتداء من أصغر مالي ووصولا الى واللة ابراهيم الثاني ويحكى لنا النويرى هذه النكته (الحكاية) (٦٣) : حضر

⁽٦١) تاريخ المغرب وأسيانيا ص ٢٤٨ .

G. Marçais, Tunis et Kairouan, pp. 27-28. (31)

⁽٦٣) النويري في ابن خلدون ترجمة I ص ٤٣٣ .

رجلان من القيروان لمقابلة الأمير في مقره برقادة وفي مقصورة المسجد قصا عليه أنهما شاركا الأميرة الأم في تجارة الإبل وأشياء أخرى ولكنها حجزت منهما ستمائة دينار . ويسمع لهما الأمير بعطف كعادته . ويسأل والدته التي لا تذكر الراقعة ولكنها تعلن أنهما كانا معانان لها بهذا المبلغ عن عملية سابقة . فهدد ابراهيم بتحويل هذا الخلاف للقاضي مما يصبح تحقيرا للجميع . فاضطرت والدته برد المبلغ لشريكيها وهما بدورهما يقومان بتأدية دينهما نحوها .

والمعروف أن فى مدينة كبيرة حيث تتراكم الأموال قالصرف يصبح سهلا وعادة يكون جزافسا . ففى سنة ١٠٩م (٢٨٩هـ) عندما قرر ابراهيم الثانى التنازل عن الحكم والتربة عن جرائمه السابقة ، أعطى أعيان القيروان مبالغ ضخمة لتوزيعها على المرضى والمحتاجين ولكنهم بددوها . ويقول لنا البيان (٦٤) « انفقت فى اللذات وصرفت فى الشهوات » ولكن أبو العباس ، ابن ابراهيم استرجعها ثانية للخزانة .

ومن بين العناصر المختلفة لسكان القيروان كان العلماء والفقهاء وأتباعهم المتدينين يمثلون حشدا ينعم بحظوة الأمير وفي نفس الرقت التزموا بدورهم تماعي تجاه الشعب أما الأعيان المتمسكين بمتاع الدنيا فلن يكون لهم نفس ور . ومن هذه الناحية لا يختلف السنى القيرواني عن خارجي تاهرت (الذي نتكلم عند فيما بعد) . والقيروان معروفة بالرخاء ولذة الحياة السهلة بيد أنها تفتقد بذخ وإباحية مقر الأمراء في العباسية ورقادة . ويروى المالكي (١٥٠ عن شخص يدعي أبر عقال (ت ٢٠٠م /٢٩٤ه.) كان يقيم

⁽۱٤) س ۱۷۱ ـ ۱۷۸ ،

⁽٦٥) في إدريس: مجلة الدراسات الإسلامية ، ١٩٣٥ ص ٣٠٢ .

نى مكة . هذا الشخص كان يحلر أخته من ترك حياة الترف في القيروان حتى لا تقاسمه الحياة الشاقة في المدينة المقدسة .

وعلى كل ليست القيروان بالمكان الوحيد للحياة المضرية السهلة فإفريقية ولاية قديمة وبها المدن العديدة ويبدو أن الحضارة الإسلامية كانت سببا في إنشاء مدن أخرى جديدة أو في تطوير المدن القديمة الراكدة . فتونس مدينة جديدة ولكنها تأمل في الوصول الى مرتبة قرطاج القديمة ، وأصبحت مدكرة مركزا للحاكم وتحاول إحتلال مكان سبيطلة ، ومدن أخرى محاطة بأسوار بيزنطية مثل قفصة وباجة و لربس أصبحوا ذو قيمة اقتصادية أو حربية . ولربس القديمة ذات الأسوار التي ترجع الى عهد جستنيان والتي حاولت بدون جدوى أن تحمى الملكة من مداهمة الشيعيين . وهناك مدن اكتسبت أهمية مند عهد المسيحية ، فحدينة قابس كانت مرحلة من مراحل القوافل ومدينة مزدهرة ومقرا لحاكم أغلبي . وكانت صفاقس مركزا لزراعة الزيتون ومدينة صيادين ، وكانت سوسة ميناء للقيروان وضواحيها ومخزنا وسوقا للزيوت وترسائة بحرية وحامية المجاهدين . فكانت على اتصال دائم بصقلية . وقد عرفت هذه المدن الساحلية القديمة نهضة جديدة لنشاطها واحتمالات الثروة وبدون شك وفود السكان . كل ذلك يرجع للإسلام وسلطة الأمراء الحسنة .

ولقد شارك الحكام المشرقيين بدون شك بالجزء الأكبر فى هذه المحاولة العمرانية التى تحمل علامة التراث الرومانى . ويعتبر العمران الإسلامى وريشا للعمران الرومانى فى شمال إفريقيا أكثر منه فى أى مكان آخر . فالتبنى اللى يجمعهما يزرع فينا الشك والقلق فى محاولة تزامنهما . نحن نعرف أن أول مشكلة تواجد أى مجتمع هى تزويده بالمياه واطفاء عطش سكانه خاصة فى المناطق الشبه جافة التى وصلها القرآن وهذا العمل يعتبر رحمة أوصى بها الإسلام لتابعيد وقد أعطى الأغالبة كل عنايتهم لتحقيق ذلك . فكانت تجمع

مياه سهل القيروان عبر قنطرة مائية في خزانين وتصفى فيهما لشرب سكان المدينة والسماح بالوضوء الديني . وهناك نص (٦٦) يوعز هذا العمل العظيم الى أبى ابراهيم أحمد (٨٥٦ – ٨٦٣ م / ٢٤٢ ـ ٢٤٩ هـ) . وقد زود نفس الأمير مقر العباسية بخزان مياه ولكنه لا يوجد له أثر الآن . ولكن خزان رقادة لا يزال مرجودا ومن المحتمل أن يكون من انجاز ابراهيم الثانى فهذا الخزان الذي يشبه بالمرآة المستطيلة كان يضيف جمالا الي جمال المدينة الملكية . وكثير من الخزانات المماثلة ولكنها أقل حجما سجلها مؤلفو « بحث عن الانشاءات المائية الرومانية في تونس، وتعد هذه الجزانات من مفاخر الرومان . ولكن تخصيصها للرومان شئ غير مؤكد خصوصا الجزانات الأكثر أهمية مثل خزانات القيروان ورقادة . هذا الخطأ يوحى لنا بأن استمرار التقاليد المتروكة من قبل حكام إفريقيا القدامي كانت مستمرة في أعمال العمران الإسلامي .

وما قيل عن المياه والخزانات ينطبق أيضا على الحصون : لم يبقى شئ من السور الأغلبي للقيروان ولكن احتفظت صفاقس وسوسة بأسوارها التي تشبه أسوار المدن البيزنطية ؛ فلها تقريبا نفس الحوائط المسننة (المدببة ــ المحززة) ، نفس طرق الحراسة (طرق الداورية) نفس الأبراج المدعمة للدفاع . وفي سوسة نجد نقشا على السور ينسبه الى مولى الأمير والبكرى يذكر لنا استم هذا المرلى ويدعي و خلف » وقد وجدنا اسمه وذكرناه من قبل على مسكوكات الأمير أبي العباس .

وبالنسبة لتخطيط سوسة نفترض أن الرسم المستطيل للسور قد حافظ على سور سوسة القديمة ، والمشكوك فيه أن سور صفاقس يرجع لمعماريين

⁽٦٦) البكري : وصف إفريقيا الشمالية ، ترجمة دى سلان ، الطبعة الثانية ، الجزائر . G. Marçais, Manuel d'art musulman, pp. 53-55 ، هيء . ١٩١٣

قدامى ، وليس هناك ما يؤكد أن المدينة الإسلامية قد توسعت أكثر من موقع مدينة تبسة القدية . إلا أن سور صفاقس يأخذ شكل المستطيل وعلاوة على ذلك نرى أن فى تشابك شوارعها يوجد شارعان رئيسيان محيزان يعبران المدينة فى الاتجاهين ويتقاطعان عموديا فى الوسط حيث يوجد الجامع الكبير . ولا تزال تحتفظ القيروان بقسم من شارعها العريض (السماط) المحاذى للجامع الكبير والذى كان يربط بين بابين متقابلين شمال وجنوب المدينة . (٦٧) ويذكرنا بطريق المدن الرومانية الرئيسية التى تربط باب المدينة الجنربي ببابها الشمالي ويتقاطع كما هو الحال في صفاقس مع الطريق الذى يربط الشرق المغرب ، في الساحة الكبيرة التى كانت مركز التكتل السكاني وروح الحياة العامة . وقد حل الجامع الكبير محل الساحة الكبيرة حيث يتجمع المسلمون . وكان المواطنون في عهد الأغالية يأتون الى المسجد الكبير لمناقشة المصالح وكان المواطنون في عهد الأغالية يأتون الى المسجد الكبير لمناقشة المصالح في صلاة الجماعية وسماع الخطب والابتهالات لصالح خليفة بغداد كما كانوا يشاركون في صلاة الجماعة مثلما كان يفعل أسلاقهم يذهبون الى الساحة الكبيرة أيام الرومان حيث كانوا يناقشون المسائل البلدية وسماع القرارات وينبحون الضحية ويصلون في معبد حامي المدينة .

ه _ الحياة الدينية والفن الإسلامي

سأل رجل عائدا من المشرق مجموعة من الشباب قائلا : « عن أى شئ يتحدثون اليوم سكان القيروان ؟ » فرد عليه الشباب قائلين : « إنهم يتحدثون عن الله وصفاته » (١٨٣). ويعتبر القرن التاسع (٣هـ) بلا شك فترة تفاعل

⁽٦٧) عن سماط القيروان ، انظر ص ٨٤ ، البكري ترجمة ص ٥٩ ، وعن سماط طبئه البكري ص ١٠٩ .

⁽٦٨) أبو العرب : طبقات العلماء في إفريقية ، ترجمة أبو شنب ص ٣٠٤ .

دينى شديد فى بلاد البربر كلها وخاصة فى القيروان كما أن المسائل الفقهية كانت تشغل الأذهان . وكان هذا قدر القيروان التى أنشأها سيدى عقبة لغرس الإسلام والعمل على ازدهاره . فالدراسة والوصول " للحق " همّا أفضل الأعمال الدينية التى يقوم بها الغرد . وقد قال البهلول فيما يخص البحث العلمى « ما أعمال البر كلها عند الجهاد إلا كبصقة في بحر وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم إلا كبصقة فى بحر » (٢٩) .

إذا بدا العلم على أند أفضل من محاربة الكفار فليس معنى ذلك أن الحرب اختفت بل أخلت من جديد مظهر هجومى مع غزو صقلية واحتفظت بطابعها الدفاعى فى رباط الساحل . ومع ذلك فالرجال الصالحون فى رباط الساحل الذين كانوا يعتكفون للرياضة الروحية كانوا يهتمون بالتقوى أكثر من الدوريات للحراسة ولم تعد التدريب العسكرى ويهتمون بالصلاة أكثر من الدوريات للحراسة ولم تعد هجمات الخوارج ذات أهمية كبرى خلال هذا العهد . كما هذأ أيضا الصراع معهم فى الداخل ، حتى أقاموا حلقات للدراسة بالمسجد الجامع ، ويقول أبو العرب (٧٠) بأن سحنون الذى تقلد مهام القضاء فى ٨٤٨م (٧٣٤هـ) " كان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا فيه حلقا للصفرية والإباضية مظهريهن لزيفهم " ، ومع ذلك فالسنيون لا يضمرون لهم نفس العداء حتى فى القبروان ، ولن يطول الوقت حتى نراهم يتحالفون معهم ضد الشيعة . أما أمراء البلاد فكانوا أحيانا سعداء إذا ما وجدوا مساعدة من الإباضيين أو أى مذهب آخر فى الوقت الذى كانت ثورات البربر والمذهب الخارجي يمثلان عند أسلافهم شيئا واحدا . وقبيلة نفزاوة الجريد كانت من

⁽٩٩) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٢٩.

⁽۷۰) ترجية ص ۱۷۱.

أخلص الرعايا فى الوقت الذى كانت تعتنق مذهب الإباضية (٧١) ولما اندلعت ثورة الجند وانتشرت فى إفريقية كلها وكادت تضيع من أيدى زيادة الله الأول كانت مساعدة نفزاوة هى التى غيرت مجرى الأحداث لصالحه.

لم يكن مذهب الخوارج مادة جدال عند العلماء القيروانيين ولكنهم كانوا يجادلون في صفات الله كما ذكرنا من قبل ، بعنى أنهم يتحزبون مع أو ضد المعتزلة . فقد كان هذا المذهب كما كان في بغداد وسمرقند موضوع مجادلات حماسية . هل نستطيع التسليم بأن صفات الله هي عين ذات (هي هي هي هو) ؟ إن المعتزلة برفضون ذلك فالتسليم بأن العلم وقدرة الله على أنهما متميزان عن الذات أو مرتبطان ارتباطا وثيقا به أليس هذا تسليما يتعدد اللات الإلهية وتشويها لها والشرك به ؟ أما كلمة الله وخلق القرآن في وقت معين علي مر العصور هو الموضوع الشائك ولكنه مفهوم لدى العامة . ولقد أصبح رأى المعتزلة الذين كانوا يعتبرون أن القرآن مخلوق هو المذهب الرسمي في عهد الخليفة المأمون الذي سائد هذا الرأى بسلطته العليا واضطهد كل الذين رفضوا اقرار ذلك . (كان هذا بإيعاز من الباطنية وليس من المعتزلة) .

وفى نفس الوقت كان الأمير زيبادة الله الأول قد أعبلن عن نفس المعتقدات (٧٢) فى القيروان وعين أبى محرز الجاهر بملهه المعتزلى فى وظيفة القاضى (٧٣) . فالنموذج المستورد من بغداد والميل الشخصى جعلا الأمير يميل نحو ما يسمى بالعقلانية الإسلامية ، وغم أن الشعب لم يشارك الأمير هذا الرأى . إذ كانوا يرمون نعش أحد العلماء بالحجارة لشكهم أنه من

Abdu'l-Wahab, Un tournant de l'histoire aghlabite, dans (V))
Revue Tunisienne, 1937, p. 347.

⁽ ٧٢) آبر العرب : الطبقات ، ص ١٦٤ .

⁽٧٣) أبو العرب: ص ١٥٧.

المعتزلة ، وكانوا يصيحون من خلفه إلى « الوادى » (VE) أما عن القاضى اليحصبى . فعندما استعرضوا أمامه فكرة خلق القرآن يتأييد من زيادة الله أسكت معارضه باحتقار قائلا « وما للملوك وللكلام في الديّن (Va)

إذا كان الرأى السائد عند الفقها « القيروانيين لا يناسب جرأة المعتزلة فليس من العجيب أن يعتنقوا موقف الجبريين ... أنصار القدر المحتوم ... في النقاش بينهم وبين القدريين ... أنصار حرية الاختيار .. فبالنسب...ة لأتباع بهلول إن مجرد التساؤل عن الحجج التي تستند عليها حرية الاختيار فهو من وحي الشيطان (٧٦) وفي إطار السنة نفس النزعة سوف تجعل من هؤلا « العلما « أكثر الناس تحمسا للمذهب المالكي .

سوف تعرف بلاد البربر إثنين فقط من المذاهب الأربع التي تكونت فى المشرق فى القون الثامن والنصف من الأول من القرن التاسع وهما : المذهب الحنفى ، مذهب مدرسة المدينة . الحنفى ، مذهب مدرسة المدينة . وإفريقية بها كثير من ممثلى المذهب الحنفى . إن أبو العرب يذكر لنا خمسة وعشرون ولم يذكر من بينهم أسد بن الفرات الشهير الذى تتلمذ فى العراق على يد أنصار أبى حنيفة فقد كان يجيل الى التحررية النسبية للمذهب راقي ويعارض بشدة بهلول رئيس الأنصار . نحن نعرف أنّ التباعد بين المذهبين يرتكز على الميول العامة التى وضعها لهما المؤسسان فى استخدام القياس الذى يتمسك به المذهب القياس الذى يرتضيه المذهب الحنفى أو احترام التراث الذى يتمسك به المذهب المالكى . ولكن تقل حدة هذا الخلاف في الأحكام القضائية ، رغم أن

[.] ١٦٨) أبر العرب : ص ١٦٨ .

⁽٧٥) أبو العرب : ص ١٦٤ .

⁽٧٦) المالكي : مجلة الدراسات الإسلامية ، ١٩٣٥ ص ١٤٠ .

رغم أن المدرستين من السنة والفارق بينهما ليس إلا فكرى لكن أنصار الملهين في القيروان كانوا يمقتون بعضهم البعض ويضطهدون بعضهم كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . (٧٧) وكان المالكيون يرفضون الاشتراك في الصلاة إذا كان الإمام حنفى . كما أن الحنفيين كانوا يستأجرون رجلا لسب عالم مالكى أثناء الإمام حنفى . كما أن الحنفيين كانوا يستأجرون رجلا لسب عالم مالكى أثناء ويقوا مهيمتين على المرقف ولن يجد مذهب مالك بن أنس في كل البلاد ويقوا مهيمتين على المرقف ولن يجد مذهب مالك بن أنس في كل البلاد الإسلامية أنصارا أكثر حماسا عن في هذا البلد (إفريقية) . فقد قابل قيروائي في الحجاز رجلا من بغداد واحتد بينهما النقاش فقال المشرقي « يقال أن الرسول كان يقول ... » فقاطعه القيروائي قائلاً « يروى حسب ما علمنا أن مالك له رأى آخر » . فصاح فيه البغدادي « بشع الله وجهكم يوم القيامة يا أهل المغرب ؛ أترفضون كلمة الرسول وتصدقون ما يقوله مالك ! » (٧٨) وتعتبر القيروان المهد الثاني للمالكية وبعض الناس كان يجعل من المذهب المالكي دراسته الرحيدة ويكتفي بذلك مثل أحمد بن نصر هذا القاضي الذي يتنحد أبو العرب « إذا تكلم في أي شئ لا يصل أبداً إلى حل سليم أما إذا عالج الفقه المالكي فإنه عالم جليل » (٧٩) .

ولحسن الحظ كان لمعظمهم أفق أوسع وشخصية سحنون بن سعيد تفوقهم جميعاً وتبدو أعظم شخصية بين صفوة القيروانيين . ويكتب عند أبو العرب قائلاً : « اجتمعت في غيره : الفقد البارع ، والورع

⁽۷۷) المالكي : نص ص ١٦٥ ـ ١٦٧ : كان أنصار المذهب المالكي يلعنون الحنقيين في خطب المساجد ، أبو العرب ص ١٩٣ .

⁽۷۸) أبر العرب : ترجمة ، ص ۲۰۸ .

⁽٧٩) أبو العرب : ترجمة ، ص ٢٤٥ .

الصادق ، والصرامة في الحق ، والزهادة في الدنيا ، والتخشن في الملبس والمطعم ، والسماحة والترك ، لا يقبل من السلطان شيئا » (٨٠) . هذه هي الملامح التي نجدها مذكوره في السير الذاتية القيروانية : « رياتش النفوس » للمالكي و « معالم الإيمان » لابن ناجي أو « طبقات علما ، إفريقية » هذا المؤلف الذي كان بمثابة فوذج للجميع .

إن كل الشخصيات التى تظهر فى و طبقات علماء إفريقية أن تربط بينهم جميعاً العلوم الدينية . ويبدو أن إفريقية القرن التاسع لم تعرف غيرهم وكان كل منهم بمثابة محدث لأنهم جمعوا فى ذاكرتهم التراث الخاص بالرسول وسلسلة النقهاء الذين تداولوه مع تقدير القيمة الأخلاقية لكل منهم . وعدد كبير من هؤلاء العلماء يعرفون أيضا الفقه وأبرزهم سحنون . وبالرغم من أن الأحاديث تعتبر مصدرا من المصادر الرئيسية للفقه الإسلامى فهذان النوعان من المعرفة (الحدث والفقه) يبقيان مستقلان تماما . والدليل على ذلك المحدث الصمادحى الذى درس الفقه كان راوية ومصدر لعدد ضخم من الأحاديث . . هذا المحدث لم يستطع البت فى نزاع خاص بحمار إلا بعد أخذ رأى مجموعة وق من الفقهاء . (٨١)

بعض علما و إفريقية من أصل مشرقى والبعض الآخر رحل إلى المشرق طلبا للعلم . فالقدامى أخلوا الحديث والفقد على يد الإمام مالك نفسه ، أما الأجيال اللاحقة فكانوا مستمعين لأتباعه أو أتباع هؤلاء الذين لم يبارحوا إفريقية . وبذلك تصبح القيروان مدينة متبحرة في العلم تجذب الطلبة الذيت يستقرون فيها . فأهل المدينة من التجار والعمال الزراعيين يكرنون بعد عملهم

⁽٨٠) أبر المرب : طيقات علماء إفريقية ، ص ١٨٤ .

⁽٨١) أبر العرب: ص ١٩١ ـ تعليق (١) .

حلقة استماع حول الشيوخ المشهورين ، وكان المستمعون يأتون من الأندلس ومصر وحتي من بلاد فارس . ويقال أن أندلسيا كان ذاهبا إلى المشرق وعندما سمع سعيد بن الحداد يشرح الأحاديث صاح قائلاً : و مالى حاجة بالتقدم إلى المشرق وأنا أعلم أنى لا ألقى مثلك » (٨٢) وأصبحت شهرة القيروان تتعدى البحار وسوف تعبر العصور . فشهرة القيروان التعليمية وخاصة شهرة سحنون أكثر من أى عالم آخر بكتابه و المدونة » الذى كان سبباً فى كتابة خمس تعليقات ضخمة لتفسيره (- يرجع التعليق الأخير إلى القرن الرابع عشر ويشمل إثنى عشر مجلد) سيؤكدون الإنتصار الساحق للمذهب المالكى فى ويشمل إثنى عشر مجلد) سيؤكدون الإنتصار الساحق للمذهب المالكى فى علاد البرير حتى وصول الأتراك .

هناك كثير من العلماء على شاكلة سحنون ، يعيشون فى ورع وصلاة مستمرة (٨٣) . يؤرقهم الخوف من جهنم والندم على اللنوب يوحي لهم التوية المرة ، فدعواتهم يتخللها النحيب وكان لبعضهم « ملكه البكاء » وعندما قيل لعبد الله ابن اسماعيل البرقى وقد ذهب يصره من كثرة البكاء إلى كم هذا البكاء ؟ رد قائلاً : « إنما جعلت عيناى للبكاء ، ولسانى لتعظيم الله عز وجل وتحميده ، والصلاة على نبيه ، ويدنى للتراب والبلى ، وقلبى للخوف والرجاء » (٨٤)

ريسيطر عليهم الورع ، خوفا من البدع ، لأن التصرفات الهريئة في ظاهرها ، ربا تكون مهادرات آثمة أمام الله ، لولم يكن لها ما يبررها . فقد

⁽۸۲) المالكي : رياض النفوس ۲ : ٦٦.٦٥ .

⁽٨٣) انظر حالة البهلول بن راشد في أبر العرب ص ١٢٦ ، وما يعدها .

⁽ ٨٤) المالكي : رياض النقوس ٢ : ٢٠٠ .

طلبت زوجة بهلول ، أن يحضر لها زوجها شيئا عند عودته ، فقام بربط خيط رفيع حول خنصره ليتذكر طلبها ، ولكنه خشى أن يصبح ربط هذا الخيط بدعة في الإسلام ، ولم يهدأ له بال إلا عندما علم أن واحداً من الصحابة ، كان يترم بنفس الشئ ، وحمد الله علي أنه ابتعد عن البدع . (٨٥)

وبجانب سحنون الذي يمتدح أبو العرب زهده ، كان همتاك كثير من الزهاد ، لا تجد لديهم أى نظير للصوفيين المشرقيين المعاصرين لهم . فمن بينهم من كان يكتفى يمليس واحد من الصوف للصيف والشماء ، وينام على قوالب من الطوب مرصوصة على الأرض ، ومنهم من لا يأكل إلا الخبز الذي يعجنه ويخبره بنفسه ، ويروى أن واحداً من هؤلاء الزهاد أعطى خبره للفقراء وقام بعجن غيره بنفسه لأنه شك في أن يكون خادمه قد بالغ في طهيه .

ومع ذلك فهناك من العلماء من لم يرفض رغد العيش . ولكن من كانت ظروفه متواضعة فهو قانع بالبساطه والزهد والتواضع كرجل علم . إنهم لا يبحثون عن التقشف ولكن هناك من يتحمل العذاب الذى تفرضه الحياة بصبر رحلم . قابن اللباد يتحمل باقتناع شراسة زوجته قائلاً : « لكل مؤمن محنة وهذه محنتى » وقد رد على تلاميذه الذين كانوا يحثونه على التخلص منها « أخشى إن طلقتها أن يبتلى بها مسلم ، ولعل الله عز وجل دقع عنى بقاساتى لها بلاء عظيما . » (٨٦)

بجانب حبهم للعلم ، وتقواهم وورعهم ، الذي يبعث فينا الضبحك أخيانا ، وبجانب بساطة عاداتهم وشجاعتهم على تحمل المحن المنزلية التي برهن لنا

⁽٨٥) أبر العرب : ص ١٧٨ .

⁽٨٦) المالكي : رياض النقوس ٢ : ٢٨٢.٢٨٣ .

عليها واحد منهم ، هناك سمة أخيرة نضيفها لهم وتطبعهم بشكل خاص وتعطيهم ذورا تاريخيا ألا وهي : صلتهم بالأمراء الأغالية .

إنهم مدركون للسلطة الأخلاقية (الروحية) التي وكلت إليهم . فرجال العلم والدين يعتبرون أنفسهم مراقبين على حكام البلاد وهذا هو تقليد لمي الإسلام . إن تقد العادات وأجب مفروض على كل مؤمن ، وسوف تسمع لنا الظروف بالكلام عن ذلك فيما بعد . الدرس الملقى على الملوك يصلح عادة كمرضوع في آداب التقوى والإصلاح . ولن نندهش من تصرف علما ، القيروان فقد كان لهم الحق في مزاولة هذا القضاء الروحي وعندما يخاطبون الأمراء تصبح لهجتهم وأسلوبهم خاليان من الرداعة وهو أسلوب المرشد الروحى اللي يدعر المذنب (المخطئ) إلى التربية . فقد كتب سحنون لمحمد بن الأغلب : « أعادُك الله أيها الأمير من قسوة التجبر ، ونخوة التكبر ، وأسأله أن يرزقك قهما للخير وعملاً بد ، ومعرفة بالحق وأثره له » (٨٧) . وأحيانا تصبيع اللهجة أكثر شدة فقد كان الزاهد الصالح أحمد المكفوف ثائراً على الاستبداد الدموى لإبراهيم الثاني وأملى رسالة للأمير قائلا فيها : « يا فاسق ! يا جائر ! يا خائن ! قد حدت عن شرائع الإسلام ! وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم ، وستره ، فتعلم ! ي ، فثار إبراهيم ولكنه لم يجرؤ على معاقبة المكفوف بل طلب الشخص الذي خط الرسالة فرفض المكفوف هذا المطلب ولعن الأمير مرة ثانية قاضطر الأمير إلى التفاضي عن طلبه (٨٨).

والذى كان يثير إستهجان رجال الدين ضد الأمراء هو التسيب في عاداتهم والنساد الحقيقي أو الوهمي في القصور فالعباسية وخصوصا رقادة كانت تهدو

⁽۸۷) أبو المرب : ص ۱۸۷ .

⁽٨٨) البيان: ١ : ١٣٠.

بالنسبة للقيروانيين مدينة الفضائح . ونلاحظ أن الاتجار في الخمر كان محرما في التيروان ولكنه كان مسموح به في رقادة ومن المؤكد أن معظم الأمراء كانوا يشربونها بشراهة . ويبدو أن القتل الجماعي الذي كان يقوم به ابراهيم الثاني يرجع سببه إلى الشلوذ المتقلب للثمالة . ويقال عن الأمير أحمد الذي كان حاكما صالحا و أنفق مبالغ ضخمة في حفر الخزانات وبناء المساجد وتشييد القناطر بسبب كلمة قالها في حالة سكر » (٨٩)

إذا كان رجال الدين لا يستطيعون إثبات العربدة في القصور فهم يجدون فرص أخرى لإدانة حياة الطيش التي يعيشها أعوان الأمير ويطاردون الآلات المرسيقية التي تعتبر من أسباب الضلال في ذهن المتشددين المسلمين . عندما ذهب مروان بن أبي شحمة إلى الأمير محمد وجد على باب القصر خصيا حاملاً آلة العود فنزعه مروان من بين يدى الخصى وحطمه (٩٠٠ فدخل الخصى القصر ومزق ملابسه وشكى لسيده فعلة الشيخ ولما مثل مروان بين يدى الأمير تحمل عتابه ولكنه أعلن و رأيت منكراً ففيرته » وانتهى الموضوع ولم يعلق الأمير بشئ .

وتوجد مناسبات أفضل نشاهد فيها هذه الرقابة على الأخلاقيات ونحن نصفق بحرارة لسحنون عندما رأى خصياً يقود إلى القصر رغما عنهن فتيات من الحرائر كسبايا في القيروان ، تدخل سحنون وأخلهن منه وعمل علي إرجاعهن إلى ديارهن . ولما عرف الأمير بما جدث اكتفى بالقول : « إن سحنون يريد لنا الخلاص رغما منا » .

لكن قرض الضرائب الفير شرعية هي التي كانت تثير غضب رجال الدين.

⁽٨٩) البيان: ١ : ١١٣ .

⁽٩٠) أبو العرب ص ٢٠١ ، المالكي : رياض التقرس ، ٩ : ٣٩٧ .

ققصة الأمير عبد الله كما يرويها لنا ابن عدارى لها شكل المثل الأخلاقي لجميع الملوك الأشرار (٩١). كان عبد الله ثاني أمير لسلالة الأغالبة وكان يجلا وسيما ولكنه مستبداً مع رعاياه . « أحدث بإقريقية وجرها من الظلم شتيعة ، منها أنه قطع العشر حبا وجعله ثمانية دنانير للقنيز أصاب أو لم يهسب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم والمظالم ، فاشتد على الناس ذلك » . فقام المفقيد حقص بن حميد وبعض رجال الخير بقابلة الأمير ووجهوا إليه التحليرات الدينيه الخاصة بواجباته نحو رعاياه ، قرفض نصائحهم باحتقار فانسحبوا ولكنهم توقفوا بالقرب من واد وتوضوط حيث أقاموا الصلاة داعين فانسحبوا ولكنهم توقفوا بالقرب من واد وتوضوط حيث أقاموا الصلاة داعين الله أن يخلص المسلمين من ظلم حاكمهم . وبعد ستة أيام توفي الأمير عبد الله نتيجة خراج في أذنه ويضيف الراوى : « وقال من حضر غسله أنه ، لما الله نتيجة خراج في أذنه ويضيف الراوى : « وقال من حضر غسله أنه ، لما كشف عند ثيايه ، ظن أنه عبد أسود بعد جماله . وذلك بسوء فعاله » . أما عن ابراهيم الثاني بنفسه لمن سألوه قائلا « لما صال على سعيد بن اسحق واعترف ابراهيم الثاني بنفسه لمن سألوه قائلا « لما صال على سعيد بن اسحق واعترف ابراهيم الثاني بنفسه لمن سألوه قائلا « لما صال على سعيد بن اسحق تلك الصولة حسبت أن الفحص اشتعل نارا على » (٩٢) .

ومهما كانت صحة هذه الروايات من عدمها قاحترام الأمراء لرجال الذين يدخل قيد جانب من المؤف من اللعنات التي يوجهها لهم هؤلاء الأتقياء . وكان الأمراء يجدون أيضا منقعة سياسية في مهادنة الذين يعتبرون أنفسهم مداقعين عن الشعب . كان هؤلاء العلماء مقخرة المدينة وتمتد حظوتهم إلى كل البلاد الإسلامية . فهؤلاء المتشفون يحتقرون ثرف الأمراء ويعترضون علي تجاوزاتهم في الحكم . فقد كانوا حاملي التراث الإسلامي ويؤثرون في الرأي

⁽٩١) الهيان : ١ : ٩٩ـ٩٩ ، التويرى : تهاية الأرب فى لمتون الأدب ص ٢٥٧ .

⁽٩٢) المالكي : رياض التقوس ، ٢ : ١٥ .

العام وإثارة الشعب ضد الملوك الأذلاء . فهم يمثلون سلطة يحاول الامراء الاعتماد عليها لصالحهم . لقد ترك الأغالبة مدينة القيروان للابتعاد عن شعب متقلب وعديم المراعاة وعاشوا في مقرهم في الضواحي للاحستاس بالأمن تحت حراسة مشددة من مواليهم وعبيدهم السود ، بالرغم من ذلك لم يستطيعوا مقاطعة العاصمة القديمة ولا مسجد سيدى عقبة الكبير ، وعامة الشعب والحضريين والبرجوازية والطلبة ورجال الأسواق (التجار) وخصوصا رؤسائهم الروحانيين وهم رجال الدين . رغم عدم اهتمام معظم الأمراء بقوة تأنيب رجال الدين لهم إلا أنهم يقدمون لهم الاحترام ويظهر ذلك في الواجب الذي يفرضه الأمير على نفسه عندما يتوفى واحد من هذه الشخصيات المحترمة فهو يحضر غسله ويتصدر صلاة الجنازة كما أن أهل الفقيد لا يحرمونه من هذا الشرف . إن أبا محرز الذي عينه زيادة الله الأول قاضيا لإفريقية قد أخل حيطته حيال ذلك . ويروى لنا البيان (٩٣) : ﴿ وَكَانَ قِدْ أُوصِي أَخَاهُ عَمْرَانَ أن يكتم موته حتى يكفنه ويصلي عليه ، خوفا أن يكفنه زيادة الله ويصلي عليه . ففعل عمران ذلك قلما حمل نعشه وخرج من داره ، أقبل خلف الفتى بمسك كثير وأكفان من قبل زيادة الله فقال له عمران : « قد كفناه » فذر خلف المسك الذي كان معد عليد ۽ .

كثير من الروايات تؤكد لنا هذا التصرف من رجال الدين تجاه الأمراء ، وكان أبو العرب يمدح سحنون الذي و لا يقبل من السلطان شيئا » ونستطيع بدون شك الاسترسال في الأمثلة الماثلة لكثير من رجال الدين . فقد كان بهلول بن راشد مدعو عند أحد أصدقائه وامتنع عن الأكل فقال له صديقه و أفسلطان أنا طعامي حرام » (٩٤) إن أبسط الكرم والثقة الزائدة يصطدم

⁽٩٣) البيان: ١٠٦:١.

⁽٩٤) أبو العرب : ص ١٣٠ ، ١٨٤ .

بعنادهم المتشكك.

كما أن الوظائف العمومية لا تستهويهم ولكن معرفتهم للفقد تزهلهم لوظيفة القاضى ورغم ذلك فهم يرفضونها . إن رفض مهمة القاضى وتحمل المسئولية التى يفرضها الواجب لمحاكمة الغير تعتبر تقلينا فى البلاد الإسلامية . وإذا وافقوا على تحمل المسئولية والحكم بالعدل فيقبلون ذلك على مضض منهم معتقدين أن فى استطاعتهم تقويم الأخطاء . وقبل عدد كبير منهم هذه الوظيفة بشرط ألا يتقاضى مقابلا ماديا . فقد وافق سحنون على تولى هذه الوظيفة تحت إلحاح محمد بن الأغلب وأضاف شرطا آخر وهو تطبيق العدالة بكل حرية حتى على الأمير نفسه أو أحد أفراد عائلته . وقد لاحظنا خيبة آمل حاشية الأمير عندما علموا أن سحنون قد قبل هذه الوظيفة . وبعد غيبة آمل حاشية الأمير عندما علموا أن سحنون قد قبل هذه الوظيفة . وبعد غيبة آمل حاشية الأمير عندما علموا أن سحنون وحددنا إن رأيناك اليوم على نعزيك ؟ » ثم قال له رجل من أهل الأندلس : « وددنا إن رأيناك اليوم على أعواد نعشك ولم نرك في هذا المجلس » (٩٥)

إذا كنا قد أطلنا فى دراسة الصغوة المتدينة فى إفريقية فليس فقط لانتهاز الفرصة التى أتاحتها لنا كتب السيرة الذاتية لتقديم بعض عناصر الحياة فى تاريخ لا تتوفر فيه هذه العناصر بكثرة . إن استخدام هذه المنابع يتطلب منا بعض التحفظات لأن أبا العرب والمالكى ليسوا إلا مقرظين ومدافعين ولا يجب أن ننخدع بسرعة تصديقهم أو كلبهم الصالح خوفاً من تكوين فكرة خاطئة وغير مكتملة عن المجتمع القيروائي إذا لم نصحح هذه الصورة الهناءة بما علمناه من مصادر أخرى وما نعرفه عن المجتمعات المماثلة . نحن نعرف أن القيروان مركز للدراسات المنزهة ومدينة زاخرة بالبركات ولكنها في الوقت نفسه

⁽٩٥) أبو العرب: ص ١٨٦ ، تعليق (٧) .

مدينة تجارية حيث المزايدات والاثراء ورغد العيش ، كما أن رجال الدين يتمتعون بعظوة كبيرة ونوع من القضاء الروحي والصالحون الذين يحيطون بهم سريعوا الإثارة لذلك نرى الاهتمام الزائد بالرأى الآخر وبعض التصرف الأخلاتي والثمن إذا هو نوع من النفاق . فإذا قبلنا هذا التصحيح وجب علينا الاعتراف بأن علماء إفريقية ـ الذين تكلم عنهم المترجمون بشئ من المجاملة ـ كانوا يشغلون مكانة سامية في ماضي بلاد البربر ولن نفهم حضارة القرن التاسع بدونهم فاختصاصاتهم يعتبر حدث إسلامي مستورد من المشرق ويكمل وظيفة الأمراء . فهؤلاء الأمراء الذين يمثلون بدون شك السلطة الدنيوية أي العنصر العلماني ولكن هذا التعبير له قيمة نسبية في أرض إسلامية . فرجال العلم والدين لا يشتركون عادة في الحكومة ولكنهم يراقبون تصرفها . فهم لسان حال الشعب للاعتراض على التجاوزات التي تدينها التعاليم القرآنية إن الأمراء لا يحصلون على السلطة إلا من خليفة بغداد ولكنهم يراعون رجال الدين ، ويطلبون ودهم احتراما لهم وخصوصا للصالح السياسي نفترض إذا إن قرار زيادة الله للعودة الى الجهاد المقدس وغزو صقلية (٩٦) كان يحمل في طياته استمالة رجال الدين ، وكان الحال كذلك بالنسبة لإقامة المباني الدينية والمنافع العامة ، فقد كان زيادة الله يؤكد أن بناء مسجد القيروان الكبير وبناء رباط سوسه وقنطرة أبى ربيم وكذلك تعيين أبى محرز لوظيفة القاضى كل ذلك يضمن له الجنة . لذلك فالسياسة الدينية للأمراء كانت مرتبطة إرتباطا وثيقا بهذا النشاط العمراني الذي يفرض علينا الإعجاب . فخلاف قصورهم هناك المساجد الكبيرة في القيروان وتونس والرباطات المحصنة للساحل

⁽٩٦) لم تكن النعيجة في صالحه كما كان ينتظر لأن العلماء أدانوا الحملة إلا أن أسد بن الغرات الذي كلف بها يسبب معاهدة قديمة ، انظر أبر العرب ص ١٦٥ .

والخزانات التي تمون المدن بالمياه وبعض القطع الفتية للأثاث التي تخلد الذكرى المجيدة للأغالبة وتساعدنا على معرفة ما كانت عليه حضارة عصرهم.

ينبعث من دراسة هذه المبانى وهذه القطع الفنية _التى لن نتطرق لمراستها هنا (٩٧) _ الإحساس بفن متين له شخصيته القوية رغم تعدد المؤثرات التى تسيطر عليد مثل الشعب اللى ازدهر هذا الفن المدع من أجله ومثل المجتمعات المسارية حيث يتجاور المهاجرون مع أبناء الوطن ومثل أفراد قصور الأغالبة حيث الأمراء العرب وفرق الحرس الفارسية التى تجاور الموالى من إفريقية ومن أوربا الذين كانوا يدينون بالمسيحية قديا . كذلك عناصر البناء والزخرفة التى تتجلى في التحليل فهي إما يستوردة من المشرق أو موروثة من الفن القديم للبلاد . إن تخطيط مساجد القيروان وتونس مستلهم من النن القديم للبلاد . إن تخطيط مساجد القيروان وتونس مستلهم من تخطيط الكتائس الكبيرة ولكنه يتلام مع العيادة التى نشأت في الجزيرة ولهبية . فالمر المنصف أعلى وأعرض من المرات الأخرى وله قبتان ذات بداية وهي تذكرنا ببعض الكتائس الإفريقية لكن تعدد الصحون وسعة الفناء تأثل الطراز العربي الأول أما المكان والشكل المربع للمئذنة يرجع إلي الأصل السورى أما الركائز وتخطيط الأقواس والأسقف على شكل الأسطع فهي على الأرجع من أصل مصرى . أما هيكل القية قيعود إلى الطراز العراق الماخية .

والقليل الذى وصل إلينا من مدينة رقادة يوضع تجاور الاستيراد الأجنبى مع المؤثرات الإفريقية . كان الخلفاء المباسيون يزيئون مقر إقامتهم فى سامراء بسطحات مائية راسعة يتمكس فيها واجهات القصر والأشجار ، كذلك الأغالبة ... وهم صورة مصفرة من المهاسيين ... فقد هيأوا (كيفوا) الخزان الكبير

[.] Manuel d'art musulman, ch. I . أنظر مرجعتا (٩٧)

وسمى « قصر البحيرة » باسمه .. هذا الخزان لا يزال موجودا ولكن كل المبانى المحيطة به قد اندثرت ولم يبق إلا بعض التبليط من القسيقساء اللى يؤكد لنا تدخل الصناع المحليين وهم الورثة المباشرين للذين كانوا يعملون في تزين الكنائس منذ قرنين مضت .

والخزف ذو الانعكاس المعدنى المحفوظ الآن بمسجد القيروان الكهير يوضع لنا أول غزو في مجال الفنون الصغيرة . وقد رأينا أن المجموعة المستوردة من بغداد قد استكملت في القيروان بنفس الاتقان وأسلوب الورش الأسيوية .

كما أن أجمل الألواح الخشبية المنحوتة الخاصة بالمنبر ترجع بنا إلى العراق ولكن بعض الألواح الأخرى تذكرنا بالتراث اليونانى أو المسيحى السورى ويصبح هذا الأثاث الرائع ابداع متنافر حيث تتمثل فيه عدة عهود وهذ أقاليم للعالم المشرقى : سورية الأموية وعراق العباسيين وبتعبير آخر فهو وثيقة لا مثيل لها تساعدنا على فهم ميلاد الفن الإسلامي .

إن الفن الإسلامي في عهد الأغالبة لم تتحدد بعد خطوطه .
وهذا الفن المشرقي يرجع أسلا إلى الفن اليوناني والإيراني وقد أوسل هذا
الولاية الإفريقية الغنية بالتراث الفني الإسلامي عن طريق الغزو المسكري
نتشار الإسلام .

إن استخدام الأدوات القديمة والدور المتفوق المركول للموالى الذين كانوا مسيحيين فيما مضى ، وترظيف اليد العاملة ذات الخبرة الموجودة فى البلاد .. كل ذلك ساعد بالتأكيد على دفع هذا الفن بطابع إقليمى يجعلنا نتذكر الفن الأوربى الذى ظهر بعد قرنين من الزمان . إن الحسارة التى يعبر عنها هذا الفن الجذاب تبدو لنا مليئة بالوعود وأيا كان المستقبل الذى ينتظرها فهى جديرة بوضع إفريقية فى مكانة عظيمة فى ماضى العالم الإسلامى .

ثانيا : بلاد البربر الخارجية ومملكة تاهرت

إند من الصعب وضع خريطة لبلاد البرير في القرن التاسع وخصوصا للمغرب الأوسط اللي ينصل عملكة الأغالبة عن عملكة الأدارسة . وموقع المن التي ذكرها الرحالة اليعقوبي ليست مجهولة بالنسبة لنا فحسب بل وكذلك توزيع القبائل التي ذكرها تبدو أكثر غموضا من التوزيع الذي ذكره ابن خلدون بعد خمس قرون . فتوزيع ابن خلدون يسمح لنا بوضع خريطة غاية في الدقة . قبن غيزات وصف اليعقربي (٩٨) والمعاصرين له تفتيت المجموعات القديمة التي تعود إلى أصل مشترك وانتشارهم عبر بلاد البربر ، وهذه نتيجة محتملة للهجرة التي سببها الغزو الإسلامي وردع ثورات قرن بأكمله . فمثلا قبيلة لواتة الكبيرة لها ممثلين في جنوب قابس وفي جبال أوراس وشماله وبالقرب من منداس في منطقة تاهرت ، وكذلك قبيلة هوارة المنتشرة في ثلاث أماكن مختلفة . هناك بحث من الصعب تناوله بالتفصيل هنا يربط هذا التفتيت بتقهقر المذهب الخارجي ولقد أصبح مجال هذا المذهب اللي كان يفطي الجزء الأكبر لشمال إفريقيا لا يشغل إلا جزء صغير محتد إلى حد ما ، من منطقة الزاب وهي المر الغربي للملكة الأغلبية فإنه يواجه أول هذه الجزر وهي بقعة بنى برزال في منطقة المسيلة وبشرح أدق تقول أن البلد المحكوم بأمراء القيروان محاط تقريبا بجتمعات خوارج أو على الأقل محاط بعناصر غير مطيعة . ففي جبال القبائل الصغرى توجد قبيلة كتامة الكبرى وهم مناصرون للشيعة في المستقبل وكانوا يعرفون عيولهم للمعتقدات الدينية القدعة للبربر

et notre article de la Revue ،G. Wiet . انظر اليمترين : البلدان ترجمة (٩٨) Africaine, 1941, pp. 40 ss.

والتى استفاد منها الداعية الشيعى . ويقول لنا البيان (٩٩) أن « أشهر رؤسائها كان يميل فى مذهبه الى مذهب الإباضية النكارة » . وفى جنوب هضاب قسنطينة توجد جبال الأوراس التى لا تزال متمردة وكانت بجانب هوارة واحدة من حصون الخوارج . وكان هذا المذهب أكثر قوة وجهاداً فى جبل نفوسة . ويقول اليعقوبي إن أهل نفوسة « لا يؤدون خراجا الى السلطان ولا يعطون طاعة إلا الى رئيس لهم بتاهرت » . وعندما يترك اليعقوبي بنى برزال متجها نحو الفرب يقابل بعد عدة مراحل أقارب لبنى برزال وهم أولاد بنى دمر رفى الإمكان تحديد مقرهم فى جنوب أومال Aumale « وهم شراه (خوارج) كلهم عليهم رئيس منهم يقال له مصادف من جرتيل فى بلد زرع ومواشى » كلهم عليهم رئيس منهم يقال له مصادف من جرتيل فى بلد زرع ومواشى » تاهرت التي لا نعرف لها حدود . وشمال غرب تاهرت على مسافة عشرة أميال أو أكثر من العاصمة توجد مجموعة من الإباضية المنفصلة وتخضع لابئ مصالة وهو من هوارة ويستقر فى كدال بالقرب من قلعة بنى راشد المستقبلية .

إذا الحجهنا نحو الغرب نترك مجال الخوارج ولحجد مدينة تلمسان التي كانت محكومة من سنة ٧٩٠ م (١٧٤هـ) بفرد من أفراد عائلة الأدارسة وقد لعبت دورا رئيسيا في الصراع الحربي للخوارج في عهد بني قرة من بني يفرن فادريس وسلالته قد أصابوا المغرب الأقصى بالتشيع لآل البيت الذي بقي قويا هناك . وفي جنوب المغرب الأقصى لحجد المذهب الخارجي أيضا في منطقة تافيلات وسجلماسة عاصمة منطقة الواحات أسست في منتصف القرن الثامه

⁽٩٩) ١ : ١٢٤ ، من بين الشيوخ السنة الأوائل الذين غينهم عبد الرحمن بن رستم يوبها بينهم كتامي (أبو زكريا : كتاب سير الأثمة وأخبارهم ص ٥٥)

بواسطة بربر مكناسة الخوارج الصفريين وقد عرفت مع أسرة بنى مدرار إزدهارا حقيقيا . وعند أقصى الرمال تمتد منطقة تافللت على الطرف الآخر لبلاد البربر وكأنها امتداد لخوارج نفوسة . وعلى كل فالمذهب ثبت أقدامه حتى فى قلب الصحراء . كما انضم للمذهب أيضا قبيلة سدراته المستقرين بمنطقة وارجلة وسيكون لهؤلاء الفضل فى استقبال أئمة الرستميين الهاربين بعد انهيار مملكتهم .

إذا كانت مناطق نفوذ البربر الخارجي في القرن التاسع (١هـ) تهدو لنا وكأنها مكونة من عناصر مفككة ومختلفة فإن لها دورا في تطور الحضارة الإسلامية بفضل تاهرت وحكامها . فهذه المدينة أسست سنة ٧٦١م (١٤٤هـ) براسطة عبد الرحمن بن رستم الذي طرده ابن الأشعث من القيروان . وهي تبعد تسعة كيلومترات عن مدينة تاهرت الحالية . وقد أصبحت هذه المدينة عاصمة المدهب الخارجي مثل القيروان بالنسبة للمذهب السني . والمعلقون يؤكدون هذا التقابل . وكما فعل سيدي عقبة في القيروان فمؤسس مدينة تاهرت أنذر الحيوانات المترحشة ـ التي كانت تجعل هذا المكان غير آهل بالسكان ـ على ترك المكان للمؤمنين (١٠٠٠) . فلهبت الحيوانات طواعية ويقال أنهم رأوا وحشا يهرب حاملاً صغاره بين فكيه .

تعتبر تاهرت الوربئة الشرعية لتلمسان أبى قرة . فهى تنشر إزدهارها على كل المجتمعات الخارجية فى بلاد البربر وأبعد من ذلك . وترجع هذه الحركة إلى الحظوة الشخصية للمائلة الحاكمة . فبعض الأثمة ـ مثل أبى اليقظيان خامس الأثمة .. كانوا بمثابة شخصيات مقدسة . ويقول ابن

^(. .) أبو زكريا : سير الأثمة وأخبارهم ص ٥٣ ، عن تأسيس القيروان انظر ابن عذارى : الميان ١ ؛ ٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ٣ : ٢٣٠ .

الصفير (١٠١) ﴿ وَكَانَ الْمُغْرِبُ كُلَّهُ مَفْتُونًا بَهَذَا الرَّجِلُّ حَتَّى إِنَّ مَنْ كَانَ مِن الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه بزكاتهم يصرفها حيث يشاء » . وكان الوضع مختلفا بالنسبة لقبيلة نفوسة « وكانت نفوسة الجبل مفتونة بأبي اليقظان حتى أنهم أقامته في دينها وتحليلها وتحريها مثل ما أقامت النصاري عيسى بن مريم » . وإذا صدقنا المؤرخ أبي زكريا (١٠٢) فسمعة الإمام عبد الرحمن .. مؤسس الأسرة _ ونفوذه الروحاني قد وصلت حتى العراق . ويروى لنا أيضا عن البعثة المرسلة من خرارج البصرة محملة بثلاث حمولات هدايا ثمينة فيقبلها عبد الرحمن ولكنه رفض بعد ذلك هدايا أثمن نما جعل المشرقيون پيلون له يسهب نزاهته « فأقروا بإمامته وواصلوه بكتبهم ووصاياهم » ومم مراعاة التحير الخاص للمؤرخ الخارجي نحن لا نشك في الحظوة الحقيقية التي كانت لتاهرت في العراق ولدينا الدليل على ذلك . ولم تقتصر مكانة الأثمة بين الخوارج فقط بل كانت صلات الود تربط الرستميين بالأمويين في أسبانها . فغي سنة ٨٢٧ م (٣٠٧هـ) وصل إلى بلاط قرطبة إثنان من أنجال عبد الرحمن بن رستم ولقد تكلف الأمير الأموى عبد الرحمن الثاني لنفقاتهم المالية والهدايا من الأشياء الثمينة والجياد مليون دينار . إنها قصة لمجهول في القرن التاسع (١٠٣) . وكان كثير من أقراد العائلة الرستمية من بين كبار موظفي الإمارة الأندنسية . ومن البديهي أن المكانة الدينية للأتمة لم تكن موضع جدال بقرطبة التي عملت على الاستفادة منهم على الصعيد السياسي . فالرستميرن والبربر المتحازون لهم وخاصة الزنانيون كانرا يمثلون بالنسبة للأمريين أتباعا لدعم مصالحهم في شمال إفريقيا صد الأغالبة أتباع بغداد.

⁽١٠١) أبن الصفير : أخبار الأثمة الرستميين ص ٩٧

⁽١٠٢) سير الأثمة وأخيارهم ص ١٤.

M. E. Lévi-Provençal. لقد وصلتنا هذه التصة من (۱۰۳)

إن تاهرت العاصمة المتواضعة لوسط بلاد البربر وجدت مكانها في تاريخ المغرب الإسلامي بهذا الدور السياسي العرضي والذي يعتبر من وجهة نظرنا تخميني . وفي نفس الوقت ساعدت بدورها الديني وبأصل ومكانة أثمتها وبحياتها الاقتصادية أيضا في تطور وتوجيه شمال إقريقيا (وهو موضوع دراستنا) بمنافستها للقيروان . ومن الجدير بالذكر أننا نجد هناك تشابها كبيرا بينهما إلا أن تاهرت تتميز ببعض النقاط الأساسية : أولا : الطابع الديني لمكومتها . وثانيا : المكانة المتفوقة التي قتع بها سكانها من البربر ويجب إيضاح هذه النقطة الأخيرة لأنها تقيم المملكة الخارجية وتربط ظهورها برد فعل الأهالي في القرن الثامن (٢ هـ) .

إن الأمثال المهيئة عن البربر والأحاديث المزيفة التى استعرناها من مؤرخى العلماء القيروانيين نجد عكسها فى تأريخ أبى زكريا (١٠٤) ونقرأ له أن الرسول سأل الروح الأمين جبريل عن السدور المخصص للبربر فرد عليه جبريل « قوم يحيون دين الله بعد أن يُوت ويجددونه بعد أن يبلى » وهناك أحاديث أخرى تتكلم عن عقيدتهم القوية . « فإن الله سيفتح للإسلام بابا من المغرب بقوم يعز الله بهم الإسلام ويذل بهم الكفر » .

هذه الأحاديث وعلامات إرتقاء البربر بين الظرفاء التى سجلها أبو زكريا مجاملة توضع واجهة الحياة فى تاهرت وتبرز ما يخالفها فى القبروان ، والبربر المحتقرون فى القيروان ، خصوصا لانتماثهم للمذهب الخارجى ، يظهرون ولنفس السبب فى تاهرت المتعاونون الأكثر نقعا للدولة ، ومع ذلك نجد أبى زكريا يمتدح بنفس الحرارة أيضا الفارسيين ، (١٠٥) فهم أيضا لهم دورهم

⁽١٠٤) سير الأثمة وأخبارهم ص ٣٣-٣٤ .

⁽ ١ . ٥) سير الأثمة وأخبارهم ص ٢٨-٣١ .

الفعال في انتصار الإسلام ركانوا أيضا موضع الأحاديث النبوية . لقد قال النبي « لو أن الدين متعلق بالثريا لتناولته رجال من العجم وأسعدهم به فارس » ويوضح لنا أبو زكريا ميزة أخرى لدولة تاهرت : إنّ مؤسس هذا المملكة البربرية الصغيرة هو عبد الرحمن بن رستم ، من سلالة نبيلة لعائلة إيرانية قديمة . وفي سنة ٢٧٧ م (١٦١هـ) بعد خمسة عشر عاما من وصوله للبلاد أعطاه الإباضية لقب « إمام » وبقى هذا اللقب في سلالته لمدة مائة وأثنان وثلاثون عاما .

إن تاريخ هذه العائلة المتمركزة في المغرب الأوسط يقدم لنا سلسلة من المفارقات التي لا يمكن تفسيرها ، لو لم نبررها بالخلاف الأبدى بين المثالية والواقع . فالمملكة الإباضية كدولة مثالية تضع في الاعتبار المطامع المادية لجيرانها المحيطين بها . وفي نفس الوقت سمح الموقع الجغرافي لمدينة تاهرت (مدينة الله) ، نتيجة للنشاط التجاري ، بالحصول على خيرات هؤلاء الجيران المحيطين بها ، وهكذا كانت الدولة الرستمية تحت وطأة نظريتان متوازيتان ومتصارعتان يفير تكافؤ وبدون انتصار الواحدة على الأخرى ولكنهما سيساعدان على تهيئة الكارثة التي تعجل بانهيار الدولة في التهاية .

المفارقة الأولى تخص المهدأ الذى ترتكز عليه السلطة العليا : الإمامة الإباضية وهي وظيفة انتخابية ولكنها في الواقع وراثية . ورغم أن الرستميرن يكونون أسرة وواثية إلا أنهم من الناحية النظرية يعتبرون أنفسهم منتخبين . فقد اختارهم صفوة المجتمع الإباضي بحرية تامة على أنهم الأجدر كما أن سلطتهم غير مستمدة من نظام عشائرى أو تفوق عددى كما هو الحال بالنسبة لملوك الهرور . بل العكس هو الصحيح ويقول أبو زكريا أن أنصار عبد الرحمن بن رستم استغلوا هذه النقطة لصالحهم « ليست لد قبيلة تمتعد إذا تغير

وتبدل » (١٠٦) والمفهوم هنا من التغيير هو تغيير التنظيم الأولى المثالى إلى علكة ما . ويجب أن نلاحظ من الآن أن الإمام الثاني انتصر بفضل مسائدة بني يقرن لأن والدته كانت من هذه القبيلة . لقد أغفلوا إذا القاعدة المتبعة من البداية .

إن الإمام المختار أصلا لجدارته يعتبر عاهلا من نوع خاص . فسلطته واسعة وقى الوقت نفسه محدودة . فسلطته واسعة لأنه ليس فقط أميرا للمؤمنين وقائدا للحرب والسيد المطلق للممكلة لا يطلع أحدا على الإدارة المالية بل هو الحاكم المطلق والقائد الروحى الذى يصدر القرارات الخاصة بالحياة العامة والخاصة لرعيته وهو أيضا رقيب للأخلاق و سلطة شرعية دنيوية » . ومع ذلك فهذه السلطة ليس فيها إشباعاً لمستبد لأن مزاولة هذه السلطة واجب لا مفر منه وعند استخدامها يجب عليه عدم الابتعاد عن القرآن والأحاديث أو تقاليد زعماء المذهب المعترف بهم . فإذا قام العاهل بأى تغيير أو أدخل تجديدات أقيل من منصبه بل ويحكم عليه بالقصل من الجماعة .

ليس لكل المؤمنين الحق فى تقييم سلوك العاهل أو تعيينه ، لكن هناك رجال الدين المتخصصين فى العلوم الفقهية وحراس المتابعة الدقيقة . فبخلاف الشعائر الدينية ليس لهؤلاء الشخصيات مهام أخرى غير المتابعة الدائمة لإدارة الحكم ونظام المدينة .

لوحظ بدون شك أن دور رجال الدين الإياضيين يشابه دور نظرائهم المعاصرين لهم في القيروان مع الفارق أن الإياضيين كهيئة دينية وطبقة قوية لهم حق النقد الذي لا يقبل الجدل على سياسة الدولة والسلطة الروحية والشخصية للإمام الإياضي .

⁽١٠٦) أبو زكريا ص ٥٣ .

ومن الملاحظ أند لم يقم عداء عملى بين هاتين المملكتين المتجادرتين والمتعارضتين سياسيا ودينيا ولم يكن لدى كل منهما الرغبة في السيطرة أو الإثراء على حساب الأخرى إلي أن ظهرت القوة التي محتهما معا . إن التاريخ الداخلي للرستميين هو الذي يلفت الأنظار أكثر من التاريخ الداخلي للأغالبة . فتاريخ الرستميين كان مضطربا أكثر مما رواه لنا أبو زكريا . فالأزمات السياسية الأولى لها طابع الانشقاق وهذا وضع طبيعي في دولة مذهبية . فهذه الأزمات تسبب انفصال الحزب المهزوم الذي يرفض طاعة الإمام , والأزمات الأخيرة التي سببها التنافس العائلي انقلبت إلى فوضي مهدت لنهاية الدولة ومن المنيد أن نعطي فكرة عن هذه الأزمات لفهم العناصر التي جلبتها علكة تاهرت إلى يلاد البرير وكيف كانت تدار السلطة والعوامل التي هددت هذه السلطة .

انفجر الانقسام (۱۰۷) الأول والأكثر خطورة في عهد عيد الوهاب ، الإمام الثاني للأسرة . فقد انتخب عبد الوهاب بفضل مساندة بنى يفرن أقارب والدته . أما معارضوا اختيار عبد الوهاب فقد أعلنوا أنهم لن يبايعوه إلا إذا قبل أن يحكم بهعارنة مجلس استشارى . وبما أن وظيفة الإمام انتخابية يستنتج من ذلك أن يصبح الحكم دستوريا . ولكن المعارضة طالبت بأن يستقيل الإمام إذا وجد من بين المسلمين رجل أعلم منه . فتقرر الرجوع إلي الأساتلة الإباضيين في المشرق . فجاء الرد من مكة مستبعدا قاما مبدأ الدستور وتدخل المجلس الاستشارى وأن هناك سببا واحدا يفرض إقالة الإمام ألا وهو : خرق تعاليم الإسلام المتهة شرعاً من رجال الدين الإباضيين . لم يقبل الإنفصاليون هذا الحكم وخرجوا من المدينة وكونوا طائفة جديدة سميت بالتكارية .

⁽۲۰۷) آبر زکریا : س ۸۸ ، ۹۹ .

ومن بين الأزمات التى دمغت العهود الأخيرة تلك الأزمة التى انفجرت فى عهد أبى حاتم وقد كانت فى الواقع خطيرة جدا . وتكلم أبو زكريا عن هلا المهد قائلا : « ولم ينقم عليه من رعيته أحد » أما الأحداث التى يقصها علينا ابن الصغير (١٠٨) وهو مؤرخ لا ينتمى للطائفة . هذه الأحداث تلقى ضوءً خاصاً على تطور الإمامة .

لقد حقق أبو اليقظان والد أبى حاتم مثالية الأثمة الدينيين المتقشفين . وقد كان أبو حاتم شابا جوادا وودودا مع الشعب وكانت أمه طموحه وخيرة وفي يوم احتفال وغياب أبيد رفعه الناس فوق درع وهتفوا له بالإمامة . وعندما توفى أبو اليقظان في سنة ٨٩٤ م (٨٧١هـ) حصل أبو حاتم علي الإمامة ولم يؤخذ رأى فقهاء المذهب الإباضي وأرسلت الوفود إلي القبائل المجاورة اللين أقروا الاختيار . أما أفراد العائلة الرستمية فابن الصغير يشرح لنا موقفهم ومواليه فأحبوا أن يجعلوا له حجابا وهيبة ، وأبت العرام من ذلك وأرادت ومواليه فأحبوا أن يجعلوا له حجابا وهيبة ، وأبت العرام من ذلك وأرادت الدنو إليه في كل الأوقات على ما كانت تعرف قبل إمارته » نرى من ذلك أن أعضاء الأسرة الرستمية أرادوا جعل نظام الحكم نظرية تختلف عن المثالية الدينيسة التي اقتنع فقهاء المذهب بها ، وعن المظهر الأبوى التقليدي عند البربر ، لقد أرادوا إعطاؤه مكانة الخلافة الحقيقية .

قامت الثورات التى أثارها مشايخ تاهرت الذين لا ينتمون للمجتمع الإباضى وحسب قول ابن الصغير و وكانوا هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الإباضية وبطفوهم » . ونجح أبو حاتم فى طردهم من المدينة ولكنهم تمكنوا عناوراتهم من المودة إلى تاهرت فاضطر أعوان الإمام من الرستميين وغيرهم

⁽١٠٨) أخبار الرستميين ص ١٠٧ ، ١٠٣ ، ١٠٥

إلى الإنسحاب من المدينة والإقامة في مساكنهم المحصنة التي يمتلكونها في ضواحيها . واضطر أبر حاتم إلى اللجوء الى البدو الرحل وقام بتسليحهم لإستعادة العاصمة واستطاع استردادها بعد ثلاث معارك . فتغلب علي الأزمة وعاد النظام . أما أعيان المدينة من المتشككين ومعارضي العقيدة فقد قاموا بتأييد يعقوب بن أفلح الرستمي منافس أبي حاتم والمطالب بالعرش والمعروف بعقيدته القوية . فنجحت المؤامرة وتفتت وحدة الإباضية لأن جنء منهم انضم ليمقوب بن أفلح الذي عين إماما . أخيرا عقد الخصمان معاهدة للوصول الي السلام المنشود من الجميع فاستغل أبو حاتم هذه الماهدة لكسب أنصار جدد ، واستطاع دخول المدينة وحكم حسب مبادئ التقشف والتسامع الذي اشتهر به أسلامه الأحلاء .

كشفت لنا هذه الأزمات عن تعايش عناصر مختلفة في تاهرت وكان لكل منها مصالحها المختلفة ، التي تجعلها إما مخلصة أو معادية تجاه حكومات الأتمة ، والمجتمع الرستمي هنا مبرقش أكثر منه في القيروان والصراعات تتفاقم بسبب مساحة العاصمة المحدودة التي يتحركون فيها ، وحدة المصالح الشخصية التي يدافعون عنها . هذا الطابع المزدوج الذي ذكرناه يشرح جليا تنافر هذا الشعب حيث كانت مدينة تاهرت تجذب المتلمتين الصالحين بالإضافة إلى رجال الأعمال الحريصين على الربح .

إن الإكتشافات الأثرية ، ووصف المؤرخون والجغرافيون للمدينسة ، والرجوع إلى الخريطة ذاتها ، يثبت لنا أن تاهرت كانت تقدم سهل كثيرة للإثراء . هذه المنطقة ذات الطقس الشديد البرودة ، كانت قادرة على تنمية زراعية واسعة ، والاستخدام الحكيم لمياه الأمطار والأنهار سمح بذلك قبل المهد الحديث . فالبكري يكلمنا عن واد تاتش .. وهو مجمع لعدة عيون ... ويقول أنه كان يحد سكان المدينة بالغذاء ورى حدائقهم ويقول لنا أيضا

« وفيها جميع الثمار وسفرجلها يقوق سفرجل الأفساق حسنا وطعمسا وشما » (۱۰۹) . وعلى مدار أوسع فالسهل الذي يمتد في جنوب وشرق موقع تاهرت مملوء بأطلال القرى (۱۱۰) ومن الصعب تحديد تاريخها ولكن نفترض أنها كانت معاصرة « لجدار » وهي مدافن كبيرة مربعة على شكل أهرامات مدرجة وموجودة في نفس المنطقة ، فبقايا هذه المدافن ذات الطابع المعماري المسيحي وكذلك هيكلها سمح لنا بتأريخها الى القرن السادس والسابع وترجع الى سلالة من أمراء البربر الأسلاف المباشرين للذين صدوا الفزاة العرب مثل كسيلة . لنذكر هنا أن عندما توجه سيدي عقبة نحو الغرب إصطدم في طريقه بالقرب من تاهرت ـ والتي ستبنى بعد ذلك ـ بقبائل بربرية تساندها الروم .

لا نشك فى أن المنطقة كانت مزدهرة وآهلة بالبربر الذين اعتنقوا مذهب الخوارج عندما جاء ابن رستم بأمواله للإستقرار فيها . إلا أنه ليس فقط الصلاحية الزراعية للمناطق القريبة من تاهرت هى التى كفلت ثروتها بل العلاقة التى نشأت بين منطقة تاهرت ومنطقة السهول العليا بالجنرب أى بين البلد الزراعي وبلد الرعاة ، أى التبادل بين الأشياء الآتية من الساحل ومن وراء البحار والسلع الآتية من الصحراء ومن إفريقيا السوداء ، ونقولها باختصار أن الشئ الذى كفل ثروة تاهرت هو السوق الكبير الذى كانت تقوم به مدينة أثمة الرستميين .

لم يغفل المؤسس وسلالته هذه المزايا ، ولم يكونوا سلبيين أمام مجئ التجار وهي ضرورة حيوية للمدينة . ولقد قام أبو اليقظان قبل موته بقليل بإرسال ابنه أبي حاتم مع مجموعة من أعيان زناتمه ليجيروا قوافل قسد أقبلت

⁽١٠٩) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٦-١٧.

Voir Gsell, Atlas archéologique, feuille 33, nºº 83-127. (\ \ \ .)

من المشرق وهي محملسة بالثروات الكبيرة خوفسا من مهاجمة قبائل زناتة لها . (١١١)

والذى يجذب البربر الرحل المحملين بالسلع هو الأمن الذى عمل الرستميون على استتبابه فى البلاد وسهولة التبادل الذي تقدمه تاهرت وكذلك الود والتعظيم الذى تحظى به حكومة الأثمة . وابن الصغير يعطينا الدليل على إن تاهرت كانت مركز جلب واستقرار متزايد إذ يروى (١١٢) « إن قبائل مزاته وسدراته وغيرهم ، كانوا ينتجعون من أوطانهم التى هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع الى مدينة تاهرت واحوازها لما حولها من الشلا (الكلا) وغيره وكانوا اذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤسائهم المديئة ، فيبرون ويكرمون ثم يخرجون الى شياههم وبعيرهم فيقيمون بها الى ظعنهم » . ونقرأ لم أيضا أن مزاته كانوا يتداولون مع ذويهم الذين يسكنون المديئة أو مع المضريين الذين يعولوهم . « وخلا كل قبيلة من سكان المدينة بمن انتجع إليهم من رؤسائهم » .

وهكذا كانت تتردد عائلات مزاته طرابلس والجنوب التونسى الى تاهرت إذ كانوا ينتمون الى مذهب الخوارج ، وكانوا وكلاء تجاريين نشطاء ومتيسرين وكذا جيرانهم قبيلة نفوسة ذات العقيدة القوية وشكلوا معا الستند الناقع والمخلص للأتمة . فقد كانوا يشغلون المناصب العمومية ويقدمون الجنود ، وكان الإمام عبد الوهاب يقول « إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسه وأموال مناته ، (١١٣)

⁽۱۱۱) ابن الصغير ص ١٠٤.

⁽۱۱۲) ابن الصغير ص ٤٧.

⁽۱۱۳) أبو زكويا ص١٠٣.

استقر أيضًا في واد غرب المدينة أفراد من قبيلة هوارة وكانوا يأتون (نازجين) أيضًا من البربر الشرقى ربا هروبا من عداء الحكام السنيين في إنريقية . هذه القبائل وأخرى مثل لواته ومطماطة وزواغة وكذلك أقراد من المسرعتين المتنافستين صنهاجه وزناته ومعظمهم من الخوارج كانوا يغلون في تاهرت سكان المدينة . لكن كان للمهاجرين الشرقيين الى المدينة مكانة هامة سواء من ناحية عدد الأفراد أو الدور الاقتصادي لكثير منهم ، بالإضافة الي المنصر العربي ومعظمهم جاءوا من إفريقية وكانوا من الجند الذين انفصلوا عن الأمراء الأغالية ووجدوا هنا نفس وطائفهم .. وهي الوطائف التي تلائمهم ... ني جيش الأثبة . وتلاقي أيضًا الفرس الذين جاءوا أيضًا من بلاد البرير الشرقية أو مباشرة من العراق المجلب هؤلاء الفرس و للسلوك الطيب للإمام » وهم أهل وطند ويتبعون مذهبه وفي الوقت نفسه بهرتهم و الوفرة التي تسود تاهرت » والظروف المواتيسة للثراء ، فاستقروا في هذه المدينية التي سموهما « عراق المغرب » (١١٤) فشيدوا مساكنهم وقتحوا متاجرهم وكانوا يتجمعون مع أهل وطنهم . ويقول ابن الصغير « حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لقلان الكوقى وهذه لفلان البصرى ، وهذه لفلان القروى ، وهذا مسجد القروبين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين » (١١٥) ويعرفنا المؤرخ في مجال آخر أن رئيس الشرطة الذي له حق دخول الأسواق امتنع عن دغول إحدى هذه الأسواق احتراما لمالكه الذي شيئه وهو قارسي مرموق .

وهكذا نرى كم كان سكان تاهرت الرستمية متنوعين ونحن نتخيل صهاعات المسالح التي تمكر صفر السكان والصعوبات التي يلاقيها الإمام للحفاظ

⁽١٩٤) اليعقربي : البلدان ص ١٠٤٠

⁽١١٥) ابن الصغير : ص ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

على سلطته _ التى لا تمس _ رسط المطامع المتضاربة والمؤمرات . إن وحده مثل هذه الجماعات معاً لمخيفة ولذلك لجأ ثالث أمراء هذه الأسرة وهو أفلح بن عبد الوهاب الى سياسة « فرق تسد » .

وعندما نجح قاما فى هذه السياسة يقول ابن الصغير يقال أنه « استلقي على ظهره آمنا ومد يديه ورجليه مطمئنا وعلم أنه قد كفى أمرهم » (١٩٦١) ولكن ما أن توفى الإمام أفلح سنة ١٩٧١ م (٢٥٨ه) حتى شهدت السبع وثلاثون عاما التالية حتى انهيار اللولة أكثر من أزمة كانت سببا فى إضمحلالها ، كان الإمام يعتمد على قرتين : أولا على الفرس أبناء جنسه وكانوا ذو تقوى صادقة وميسوري الحال ويأملون الهدوء . ثانيا : كان يعتمد على قبيلة نفوسة الإباضيين الأوفياء وكانوا يمثلون القوة الحربية ويسيطرون على الإمامة . ومن العدل أن نضم إليهم المسيحيين (*) الذين يعدون من بين أعيان المملكة والذين أظهروا عدة مرات إخلاصهم للعاهل الإسلامي . أما المارضة فقد كانت مكونة من بعض أفراد البدو والعرب المشاغيين كعادتهم في

⁽١١٦) أخبار الألمة الرستسيين ص ١٤ .

^(*) وردت في الأصل " المسيحيين " وهو شطأ قادح والصحيح " السمحيين " مثلما قال بذلك الهاروتي أزهاره ، وهؤلاء هم أتباع السمح بن أبي الخطاب سعيد الأعلى بن السمع الممافري ، وهم من الإياضية الوهبية الذين قبلوا إمامة عبد الوهاب ، ورفضوا ولاية خلف بن السمع بن أبي الخطاب نفرسه وون إذن من الإمام بتيهرت وهذا لما توفي عامل نفوسه من قبل الإمام عبد الوهاب السمع ، أي والد خلف . وحاول خلف الاستقلال عن الإمامة ة قسمي الذين اتبعوه بالخلقيين والذين رفضوا وأيد ولم يقلوا الى جانبه بالسمعيين ، انظر التقاصيل في الباروني : الأزهار ٢ : ١٤٨ ومايمدها ، الى جانبه بالسمعيين ، انظر التقاصيل في الباروني : الأزهار ٢ : ١٤٨ ومايمدها ، المحساز الله المالية الرستمية ص ١٢٦ ومايمدها ،

كل مكان بالإضافة الى الإنفصاليين أو الخصوم العلنيين من الطائفة الرستمية ربعيشون في تاهرت بسبب تسامح الأثمة .

ومن أهم السمات وأطرفها عن سيكلوچية الرستميين هو بعدهم عن لتغصب المقترن بعقيدتهم الصلبة . عندما أراد أبو حاتم اختيار قاضيا قام باستشارة الإباضية وغير الإباضية لأن هؤلاء ليسوا مستبعدين عن إدارة لإمارة بل يعاملون معاملة حسنة والمناقشة مطلوبة مع من هم غرباء عن لطائفة على أمل اكتسابهم في الطائفة الحقة ولا يخلر الحوار من المجاملات لهذبة .. إن حب الجدال الذي يبدو لهؤلاء الفقهاء إثم بسيط كان مألوفا لهم مع لشعوب المحيطة بهم . وكان بين هذه الشعوب الزناتية الذين اعتنقوا أفكار المعتزلة المدمرة ولما كانوا ينادون بالثورة ضد أثمة تاهرت فقد بدأ الاستعداد لمحاربتهم ولكن تم الاتفاق على علم الاشتباك إلا بعد المحاورة بين اثنين من المجادليسن للطرفين مشهودا لهما بعسدم التغلب عليهما . ويقول أبسو زكريا (١١٧) « ثم إنهما جرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يتولون فلم يفلح أحدهما على صاحبه . ثم إنهما دخلا في قنون العلم ، فخفي يتولون فلم يفلح أحدهما على صاحبه . ثم إنهما دخلا في قنون العلم ، فخفي جماعة من حضرهما .. غير أن الإمام يعلم ما يقولان ، حتى صار كلامهما عند جماعة من حضرهما كالصفق بين الحجرين عند الإمام وعند غيره » . وأخيرا انتصر بطل الرستميين وتلاحمت القوات وانتهى القتال بانتصار تاهرت .

إذا لم يكن الإمام أعلم علماء المملكة أو أمهرهم في النقاش فهو ملم إلماما عميقا بالمسائل الدينية ولا يتوقف عن التعمق فيها . وكان محمد بن أفلح له « من الرد على المخالفين كتها كثيرة بليفة شافية » وعمل عبد الوهاب على

⁽١١٧) سير الأثمة وأغيارهم ص ٧١ .

نسخ كتب فى المشرق (١١٨) فحملوا له أربعين طردا وبعد قراءتها بات سعيدا لأنه فهم كل ما فيها ما عدا نقطتين فقط ولكنه عرفهما بعد شئ من التفكير . وعندما قام الشيعة بالاستيلاء على تاهرت أحرقوا جميع المتغطوطات التى كانت قلا برج من أبراج المدينة ولم يحتفظوا إلا بالمخطوطات التى تخص الحكم والرياضيات . حتى علم الرياضيات كان من اهتمام الأثمة رغم أنه بعيد عن الدين . ويبدو لنا ... إن لم نكن مخطئين ... أنهم تفوقوا فيه عن معاصريهم فى القيروان .

على كل ليس الأثبة فقط اللين غيلون الى المعرفة . ولكن كثير من رهاياهم كانوا يبدون نفس الحماس ابتداءاً من أفراد عائلتهم ، فأخت الإمام عبد الرهاب كانت تقضى الليل بطوله فى النقاش مع أخيها عن تقسيم التركات ، وبالنسبة للعلوم الدنيوية مثل علم النجوم والفلك كان يتحمس لها بعض من أفراد الشعب وكسان الجميع عنده فكرة عنها . وقد قسال فرد من الرستميين ؛ وماذ الله أن تكون عندنا أمة (جارية) لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر عحتى الأداب فقد اهتم بها واحد من الأثمة . فابن الصغير يكلمنا عن أبى بكر ابن أفلح (۱۹۹ كان و يحب الآداب والأشعار وأخبار الماضيين » ولكن هذا الفارس المرموق الذي عينته قبيلة نقوسه بدون استشارة رجال الدين و لم تكن أبيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه » وكان سيئ السمعة فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه » وكان سيئ السمعة بين هؤلاء الزاهدين . أما الآخرين فجميعهم غثلون فوذجا للتقشف والزهد . فعندما حضر وقد إباضي من العراق لمقابلة عهد الرحمن بن رستم أول الأثمة و يعقوب »

⁽۱۱۸) أبر زكريا س ۲۵ ، ۸۸ .

⁽١١٩) أخبار الرستميين ص ٧١.

كان لا يلمس أبدأ القطع النقدية بيديه بل كان يضعها تحت البردعة المستخدمة كمقعد ويسحب منها ما يلزمه يقطعة من الخشب (١٢٠) وكلهم يجمعون بين شيئين : أولا : ثقافة العلوم التى تفرضها عليهم مهمتهم الروحية وأساسها الدين ، ثانيا : بساطة الحياة التى يبينها التشدد الذى يجهرون به وقسوة عادات البربر المحيطين بهم .

والذي يقوله المؤرخون عن بساطة حياتهم لا يجعلنا نفترض أن الرستميين استسلموا للاهتمام بالفنون . فحفريات حديثة في مقر تاهرت وصلت لاكتشاك قلمة على سهل مستطيل كان يسيطز على المديئة . وهذا المبنى ذا المدخل الوحيد والفناء الأوسط الكبير المحاط بالحجرات المرتكزة على السور يذكرنا بالقصور السورية للمهد الأموى . وعدم وجود أي زخرقة يرجع للطابع العسكرى للمبنى أو بالأحرى للتقشف الذي يجهر به الأثمة . ومع ذلك فجميع مساكن تاهرت لا تقدم لنا هذا التجرد الفنى لأن أطلال سدراته تسمح لنا بهذا الترث ل.

فى سئة ٩٠٨ م (٢٩٦هـ) عندما استرلى جيش بربر كتامة على العاصمة الرستمية بقيادة الداعية الشيعى أبو عبد الله تمكن الخوارج الذين قروا من المذبحة الشيعية من التوغل في الصحراء ولجأوا وسط المجموعات الإباضية فى واحة يمتلكها بدو سدراته الضيوف الموسميون لتاهرت وكان هذا بالقرب من وارجله ومدينة سدراته الصحراوية كانت فى القرن العاشر عاصمة للخزارج الإباضيين انتظارا لنقل المستعمرة الى ميزاب وهي لا تزال موجودة وحتى الآن وقد ظهر من تحت رمال سدراته جزء من مسجد ومساكن خاصة واسعة ، ونحن نخمن أن الهندسة المعمارية لهذه المهانى وزخرفتها المنحوتة قمثل التراث الفنى

⁽۱۲۰) ابن الصغیر س ۳۳ ، ۱۱۲ .

لتاهرت ذلك التراث الذي تجمد نتيجة لوجوده في بلاد نائية .

والزخرفة المنحوتة في طلاء الجس والتي تزين الحوائط لها الطابع البالى (القديم) لأتها ركيكة وبدون تشكيل . (۱۲۱) وتوحى لنا بزَخرفة الكنائس الصغيرة التي شيدها مسيحيو إفريقيا وخاصة الدوناتيين في قرى منطقة تبسد شمال الأوراس وبالقرب من القبائل الكبرى ، وبعض الصيغ الزهرية توحي بزخرفة الأديرة المصرية . هذا الفن الإسلامي المولود في بالاد البربر هو بقايا أو انبعاث لقاع الشمال الإفريقي القديم المتأثر ربا بالتفاعل القبطي ، ومع ذلك لا يقيب قاما عن هذا الكان الأفاط المشرقية المألوفة بدون شك لدى تجار العراق الأغنياء . وبعض خطوط الأقواس المقسمة إلى فصوص توحى بزيئة المساكن الجميلة في سامراء . وبينما يذكرنا قصر تاهرت بقار الأموبين فأطلال سنواته هي صدى ضعيف لفخامة العباسيين . إن هذا الفن الخارجي المختلف قاما عن فن القيروان كان معقدا مثله لأنهما كانا يستقيان من نفس المنهل .

لذلك فالأثمة الذين جاءوا من بلاد فارس والذين أوجدوا أو غوا الإزدهار الاقتصادى لمنطقة مهمة في بلاد البربر قد شاركوا مثل منافسيهم أمراء عرب إفريقية في نهضة القرن التاسع حيث يتجاور التراث المغربي مع معطيات المشرق.

Voir G. Marçais, Manuel d'art musulman, pp. 81 ss. (۱۲۱)

ثالثا: بلاد البربر العلوية وعملكة الادارسة

إن عملكة الادارسة في قاس ما هي إلا الجزء الثالث من اللوحة الثلاثية في شمال إفريقيا (عملكة الأغالبة في القيروان ، وعملكة تاهرت في الوسط ، وعملكة الادارسة في قاس) . وهذه المملكة توازن بانسجام هذا التكوين ، ولكنها تنميز عن المملكتين الأخيرتين بأكثر من ميزة أهمها شخصية مؤسسها لأن ادريس ينتمي لسلالة الرسول ، لقرابته « لعلي » ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . لقد وصل « على » إلى الحلاقة بدون مشقة ولكن الأمويين عارضوا خلافته ولم يكف أفراد عائلته عن التمسك بها يعتبرونه حقهم الوراثي السلطة العليا . وسوف تواتينا الفرصة للكلام عن هذه المطالب والسبل المستخدمة لتنعيمها رغم الأسر الحاكمة . ففي سنة ٢٨٦ م (١٦٩هـ) حاول المستخدمة لتنعيمها رغم الأسر الحاكمة . ففي سنة ٢٨٦ م (١٦٩هـ) حاول بالقرب من مكة مع أنصار الحليفة العباسي الذين كانوا بمدينة ولكنه تصادم العباسي الذي وصل من بفداد . وائتهت مفامرة الحسين بمذبحة أفراد العائلة العباسي الذي وصل من بفداد . وائتهت مفامرة الحسين بمذبحة أفراد العائلة العباسي الأي مصر ووصلا الي الملية . ونجا ادريس بن عبد الله ومولاه راشد ففرا إلى مصر ووصلا الي المنوب الأقصى وتوقفا في أوليلي (القدية Souldbitis) ونزلا ضيوفا على قبيلة اوربة القوية (Volubitis)

Sur, l'arrivée, la répartition et le rôle des " Alides ", cf. (۱۲۲) Marçais, La Berbérie au IXe siècle d'aprés EL-Ya qoûbi, dans الله المربع المنابع المنابع

إن هجرة إدريس تلفت انتباهنا وليس لدينا أسباب الاعتراض على صحتها ولكن ما هو الدافع الذي دعا هذا العربي من سلالة النبي للجوء الى بلد منزو وأكثر البلاد الإسلامية توحشا ؟ هل كان الهروب من المطاردة ؟ أم كان يأمل في المصول على عرش ؟ وبما أن هذا الموضوع التاريخي لا ينطوي على إجابة محددة ، هناك عدة ملحوظات تسمع لنا بإيضاح بعض جوانبه . أولا : إن إدريس ليس المشرقي الوحيد الذي ظهرت له بلاد المغرب الأقصى كأرض الميماد ، فكثير من المنفيين قبله وبعده جاءواً إلى المقرب «ليجربون حظهم» . فنى القرن السابق لإدريس هرب الأمرى عبد الرحمن من الشام قارأ من حقد المهاسيين ومر بهرقة وتاهرت وجاء يطلب ضيافة بربر نفرة أقارب أمد وفي فترة الخمس سنوات التي سبقت مروره لأسهانيا كان ينتقل من قبيلة الى أخرى على أمل الاستيلاء على بعض أملاك خلفاء دمشق في بلاد المغرب . وبعد قرن تكررت مقامرة مشابهة وهي مقامرة المهدى الفاطمي الذي هرب من الشام الي العراق ومنها الى مصر ثم بلاد الهربر حيث لجأ الى إمارة سجلماسة حيث يقبض عليه أميرها الخارجي . هناك تشابه بين المفامرتين حيث أن المهدى ادعى مثل إدريس أنه من سلالة النبي وأن الإثنان من العلوبين وأن الوراثة التي تجعل منهما شخصيات شهد مقدسة تعطى لمهمتهم الدعائية فرص كبيرة للنجاح خصوصا في بلاد البربر . وهناك حادثة طريغة حدثت في إسبانيا ولكنها توضع لنا عن الفضيلة التي ترتبط بلقب « علوى » بالنسبة للقبائل المغربية . فغي سنة ٧٦٨ م (١٥١هـ) . في المنطقة بين نهري التاجة ووادي آنه إدعى مدرس ابتدائي (معلم) بربري من مكناسة أنه من سلالة (الحسين) بن على وقاطمة . وكان يسمى شقيا بن عبد الواحد فانضم إليه عدد كبير من البرير وقام بثورة ضد الأموى عهد الرحمن الأول وهزم القوات التي حاربته

وتحصن في الجبال وبقى مستقلاً حتى عام ٧٧٦ م (١٦٠هـ) (١٢٣). والملاحظ أن هذه القلاقل انفجرت سبعة عشر عاما قبل ملبحة العلوبين في الجزيرة العربية ووصول إدريس الى بلاد البربر.

عندما نتذكر الأحداث المماثلة التي سيقت ولحقت وصول إدريس الى بلاد البربر ، فرصوله لبلاد البربر يصبح لنا واضحا وخصوصا عندما نقارنها بالأحداث المماثلة التي نتجت عنها ، فلم يكن إدريس هو العلوى الوحيد الذي نجا من المذبحة والإضطهاد ولجأ للمغرب ، فأخيه سليمان قد لحقه بعد ذلك . وعندها وصل إدريس الى أوليلي شرع بعد عدة شهور بمساعدة القبائل التي استقبلته في إغضاع القبائل التي كانت ترفض الإمتثال له . وفي سنة ١٨٩٩ م (١٧٣هـ) وحف إدريس الى تلمسان واستولى عليها واستقر فيها أخوه سليمان وعاش سليمان يتنقل بين المدينة وضواحيها . وكادت وفاة إدريس الأول تقضى على تلك التبعية لولا إدريس الثاني الذي أعاد الأمور الى نصابها . ففي سنة ١٨٠٨ م (١٩٣هـ) جند إدريس الثاني المسجد الذي بناه أبوه وسلم تلمسان لمحمد بن سليمان .

نفى هذا الوقت أو فى السنوات التالية تم تقسيم عدد من مدن المنطقة الساحلية فى المغرب الأوسط بين أبناء محمد بن سليمان . وبعد سبعون عاما وجد الرحالة اليعقوبى هذه المدن وقد احتلها أحقاد محمد بن سليمان . الذين عملوا على اتساع نفوذهم ما عدا منطقة تلمسان التى كانت تحمل اسم الماثلة "مدينة العلوبين " فقد كان يحكمها رئيس من قبيلة زناته . فالمعلومات التى حصلنا عليها من اليعقوبى بالإضافة الى معلومات البكرى تؤكد لنا أن فى سنة ٥٧٥ م (٢٩٧هـ) انتشر العلوبون من سلالة سليمان فى المناطق التالية :

⁽١٢٣) أبن الأثير : الكامل في التاريخ ٥ : ٣٤ـ٣٥ ، ٨٠ .

مغنية ، و قلوسن (ندرومة) ، و جراوة التى أسسها عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان سنة ٨٧٦ م (٣٥٩هـ) فى سهل قريب من مصب ملوية فى ارشكول ، ثبطلاس (شرق تلمسان على الطريق المؤدى لتاهرت) وفى تنس وفى وادى شلف وفى سوق ابراهيم والخضراء وأخيرا فى مدكرة (مليانه) . لم يكن ذلك فقط ، فبخلاف سلالة سليمان شقيق إدريس جاء الى المغرب الأوسط علويون آخرون إما مباشرة من الحجاز أو بعد الإقامة فى المغرب الأقصى مثل محمد بن جعفر سلف الذين يقطئون سهل متيجة ، حسن بن سليمان الذى يحكم مدينة هاز على بعد ٤٠ كيلومتر غرب مسيلة ، وحمزة بن الحسن مؤسس سوق حمزة (بويرة) جنوب القبائل الكبرى . بذلك قفى شرق المتلكات المحتلة من أحقاد سليمان استقر علويون آخرون جرفهم نقس التيار أو الهجرة الأولى التى مهدت لهم العلوق .

كيف كانت سيادة هؤلاء ، علما بأنهم لم يكن لديهم جيش يساندهم إلا التطرع من القبائل ؟ لم يكن لديهم إلا سلطة روحية مثل المرابطين الذين التفت حولهم الفرق الدينية بالمغرب الأوسط ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى (١٠هـ) ونفترض أن نشاطهم الديني كان واسعا ومنتشرا في مناطق التل التي تتاخم مقاطمات الخوارج . وقد ساعدت على استقرار الإسلام السني بين البربر الريفيين . ساعدت هذه الشخصيات في العمل الذي يحققه العلماء الأجلاء في القيروان ولكن بطرق تتقبلها الشعوب الجاهلة المحيطة بهم ، ولعبوا دورا محائلا (مع الغارق طبعاً) للويهم الأدارسة . وإذا لم يؤسسوا مدنا عائلة لمدينة فاس فإنهم أقاموا على الأقل بلديات تحدد فيها النشاط الاقتصادي . ومن الواضع أنهم أعطوا لقب (سوق) لاثنين من هذه المراكز : سوق ابراهيم في وادي شلف وأسسد أبراهيم بن محمد ، وسوق حمزة وقد أسسه حرة بن الحسن في سهل حمزه الفسيم . وهذه ليست الأمثلة الوحيدة التي

يقدمها لنا شمال إفريقيا عند المقارنة بين الحياة الدينية والحياة التجارية أى بين المعبد وهو ملتقى التجار . وإقامة مدينة جديدة حرل السوق يعتبر تطورا طبيعيا ولذلك يكون العلويون الذين لا نعرف عنهم إلا أسمائهم قد ساهموا بطريقتهم فى نهضة القرن التاسع .

ومن البديهي أن النهضة قد ثبتت بعرسع آخر بانشاء مدينة فاس . سوف تتضع لنا الظروف الخاصة باستقرار إدريس وإنشاء العاصمة الإسلامية . إن الاكتشافسيات الحديثة سمحت لنا بإلقاء بعض الأضواء على هذا التأسيس فقد اكتشف في أوليلي نقش لاتيني يرجع الى سنة ١٥٥٠ م (٣٥هـ) ونشره فقد اكتشف في أوليلي نقش لاتيني يرجع الى سنة ١٥٥٠ م (١٧٤٠) ونشره لم تكن تابعة للكنيسة القسطنطينية ، كما كانت مرتبطة بمنطقة تلمسان (بوماريا المتيقة) المسيحية .

لا شك أن مدينة جبل زرهون ـ التي يسميها المؤلفون العرب أوليلى أو وليلى أو وليلى لا شك أن مدينة جبل زرهون ـ التي يسميها المؤلفون العرب) عند وصول وليلى ـ كانت بمثابة مركز مدنى حتى سنة ٧٨٨ م (١٧٧ه) عند وصول ادريس ولجوء الى قبيلة اوربة ، ما هي الأسباب التي دفعته في العام التالي لمجيئه على إنشاء مدينة جديدة تبعد خسسن كيلومتر نحو الشرق ؟ ونحن لا نقبل إدعاء المؤرخين العرب الذين يقولون أنه شعر بضيق المكان لأن سعة آثار أوليلى وإمكانيات التوسع لا تسمح لنا بتصديق ذلك . إن احتمال وجود مسيحيين ويهود في المنطقة بدا كنوع من المعوقات لنشر رسالته (١٧٥) . أو

Note sur une inscription chrétienne de Volubilis, dans (۱۷٤) Hespéris, 1928, pp. 135 ss.

Voir H. Terrasse, Maroc, Villes impériales, Grenoble 1937, (\Y*) pp. 12 ss.; sur les avantages que présentait le site de Fés pour l'alimentation en eau, voir E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord (Les siécles obscurs), pp. 307 ss.

ربا وجد أنه من الأفضل الاقتراب من القبائل التي اعتقد بامكانية الاعتماد عليها . أو بدا له أن انشاء عاصمة .. مدينة خاصة به .. كان ضروريا للدولة الجديدة . أن قيروان سيدى عقبة وخصوصا تاهرت الجديدة لابن رستم توضحان لنا نيابة عن المدينة القديمة أسباب انشاء قاس . لقد قام ليغي بروفنسال E . Lévi Provençal براجعة النصوص المهملة ومراجعة النقود التي لا مجال للطعن فيها ومراجعة الرأى الذي قبله المغاربة, وعلماء أوروبا اللين نسبرا إنشاء فاس لادريس بن إدريس الثاني (١٢٦) . وجاءت آراؤه متنعة : فاختيار المكان والتأسيس الأول هما فعلا من عمل إدريس المهاجر قهو الذي عرف مزايا اختيار هذا المكان وهي : وجود طريق طبيعي ، وانفتاح المناطق الكبيرة ذات الموارد الطبيعية المختلفة ، وإمداد ماء الشرب الذي يمكن غصول عليه باستمرار وبدون مشقة ، وخصوبة المزارع المجاورة وقرب مواد البناء . فهو الذي أسس سنة ٧٨٩ م (١٧٣هـ) أول مدينة باسم قاس وكانت متد على الضفة اليمني للنهر « حي الاندلسيين في المستقبل » . ويتصورها ليني بروئنسال E. Lévi Provençal على أنها ر مدينة على الطريقة البربرية ، وهي عبارة عن دار للإمارة وحولها المساكن البسيطة والخيام لرؤساء البربر وطائر للقطيع ويشرف عليها المسجد بمنذنته والحوائط العالية المبنية من الطوب والقيسارية وهي سوق المدينة المركزي .

ومهما كانت هذه المدينة صغيرة وشبيهة بقرية ليس لها دفاع إلا سياج من جلوع الأشجار فهى عاصمة المملكة . وإدريس يسكنها وفى الوقت نفسه يسكن أوليلى أثناء الحملتين ضد القبائل المغربية المسيحية واليهودية أو الملحدة التى لا تزال ثائرة ضد الإسلام . وسوف تسك فيها النقود منذ سنة

E.Lévi-Provençal, La fondation de Fés, dans Annales de (۱۲۲) l'Institut d'Etudes orientales d'Alger, 1938, IV, pp. 23 ss.

١ - ٨ م (١٨٥هـ) باسم خليقة الرسول .

توفى إدريس سنة ٧٩١ م (١٧٥هـ) مسموما ويقال أن رسول من العباسيين دس له السم ودفن في أوليلي . وبعد فترة وضعت خليلته البربريــة « كنزه » طفلاً سبته إدريس على اسم أبيه وأدرا له تسم الولاء في مسجد أوليلى . وقام مولاه الوقى راشد بتربية إدريس الغاني لتهيئته علكم القباثل البريرية بمساعدة رؤسائهم وخصوصا قبيلة أوربة صائعي عظمة الأدارسة . كان هذا الشاب العربى يشعر بالعزلة وسط رعاياه الشبه همجيين ولذلك كان يستقبل أبناء جنسه بكل ترحاب ، وفي سنة ٨٠٥ م (١٩٠هـ) حضر الي المقرب خمسون منهم على أمل الإثراء في يلد جديد . قمنهم من جاء من إقريقية وهم هؤلاء النبلاء المهاجرون أعضاء الجند اللين أثاروا المشاكل لحكام القيروان . واستقبلهم إدريس الثاني وقربهم منه وأبعد البرير الذين يدين لهم بعرشه . وشعر هؤلاء برارة عدم العرفان بالجميل . وأصبح « لد الآن بلاط عربي ووزير وكاتب وقاشي اختارهم من أشهر الوافدين ۽ (١٢٧) وقام إدريس يتقل مقره من أوليلي الى مدينة قاس بناء على نصيحتهم ولكن مدينة إدريس الأول مدينة بربرية والذلك أقنعه وزيره و عمير بن مصعب ، ... أللى اشتهر والده في إفريقية وإسبانيا _ يتأسيس عاصمته الخاصة متفصلة عن فاس . وفي سنة ٨٠٨ م (١٩٣هـ) أسست المدينة الجديدة على الضفة اليسري في عالية النهر لتكون المديئة الرسمية ، ويصبح مسجدها مسجد الأشراف ويجاوره مقر الأمير الإدريسي ، مثل قصر والى إفريقية بالنسبة لمسجد القيروان الكبير ، وقصر الأمويان بالنسبة لمسجد قرطية . وستزود المدينة مثل قرطية عِركِرُ للحياة التجارية والقيصرية» ودار لسك النقود ومن الملاحظ أن بعد سنة

E. Lévi-Provençal, loc, cit., p. 44.

٨٠٨ م (١٩٣ه) يختفى اسم فاس من النقود الادربسية وقد وأفق كثير من المؤرخين على هذا التأريخ مثلما وأفقوا على تاريخ تأسيس فاس وبعض هذه النقود كانت تحمل آنذاك ولمسدة ستة وثلاثين عاما مقر سكهآ وهو و العالية وهذه هى المقر الملكى . ولكن اليعقوبي يذكرها باسم إفريقية وهذا الاسم ريا يوضح قدر المهاجرين بين السكان . وسرعان ما تصبح هذه المدينة المطلة على الضفة اليسرى مدينة القيروانيين .

اتبع ادريس الثاني تجاه البربر سياسة جديدة بعد أن خاب أمله في المحيطين به ويقول لنا ابن خلدون (١٧٨) أنه في سنة ١٨١ م (١٩٨ه) و أعطى البربر اسمى التشريفات في الإمبراطورية به وأصبح لهم تصيبهم في الحكومة بجانب العرب وقد كان لهم من قبل نصيب في الجيش واستمرت المجموعة العسكرية في شغل مدينة الضفة اليمني بخيولها وقطيعها الذي يمثل الثروة الرئيسية واحتفظت هذه المدينة بطابعها الشبه قروي . ومع ذلك ظهر عنصر جديد ساعد في قدينها في حياة إدريس الثاني نفسه . ففي سنة ١٨٨ عنصر جديد ساعد في قدينها في حياة إدريس الثاني نفسه . ففي سنة ١٨٨ الجنربي لمدينة قرطبة وكانت هذه الانتفاضة ضد الأمرى و الحكم به فعاقبهم الحكم بهدم الحي وطرد سكانه من إسبانيا فرحل بعضهم الى تعصر وجاست حوالي ثمانية آلاف عائلة الي المغرب . فسمح لهم إدريس الثاني بالإقامة في مدينة الضفة اليمني التي أصبحت مدينة الأندلسيين .

إن تأسيس مديئة فاس وتطورها ، يشكل تاريخ الأدارسة ، وتبتى المدينةعلى مر العضور أجمل ما يفخرون به ، إذأصبحت هذه المديئة ملتتى المهاجرين من عرب إفريقية والأندلس بعد أن كانت حامية لعشيرة بربرية .

⁽۱۲۸) العرجمة ۲ : ۳۹۲ .

وأصبحت من أعظم العوامل للإستشراق وتزايد نشاطها رغم المصاعب التي ستلحق بالسلالة . ولكننا تجهل هذا التاريخ ويكفينا ذكر مراحله باختصار شديد .

يمد المصر التضالي لإدريس الأول والمتجزات السريمة التي حققها رفع استكمال بناء قاس في سنة ٨١٨ م (٣٠٧هـ) حكم إدريس الثاني إلى القمة خلال العشر سنوات المتبقية لد في الحكم . وقد خلفه ابنه الأكبر محمد في الحكم سنة ٨٢٨ م (٢١٣هـ) ومنذ ولايته اتخذ قرارا شمل في طياته دمار عمل والله . فقد قام بتقسيم المملكة التي ورثها بين أخوته واحتفظ لنفسه بمدينة فاس والمنطقة الصفيرة التي تحيط بها . ولكننا نرى المدينة تزخر بالسكان وتتجمل . وفي عهد يحيى الأول قامت امرأة عربية بيناء مسجد القروبين ويقال أن هذه السيدة جاءت من القيروان . أما أفراد العائلة الذين أثراهم تقسيم سنة ٨٢٨ فقد بدأوا يدخلون في نزاع مع الأمير الإدريسي وتتفجر الأزمة حوالي سنة ٨٥٩ م (٢٤٥هـ) في عهد يحيى الثاني وكانت حياته فاضحة ومدمن للخمر لدرجة أنه تتبع امرأة يهودية الى داخل حمام المدينة العام . ويقول ابن علاري (١٢٩) ﴿ فَمِلْكَ أَخْرِتَهُ أَنْفُسُهُمْ ، واستمالوا القبائل وقالوا لهم : إنما نحن أبناء أب واحد ، وقد ترون ما صار إليه أخرنا يحيى من إضاعة أمره » وبناء على ذلك اعترف البرير بحكمهم المطلق ، واستولى على العرش أقوى الأمراء . وهله بداية الصراعات التي سوف تستمر لمدة خمسة وأربعين عاما : وهي خصومات بين أفراد العائلة الإدريسية ربين المشائر البربرية التي تساند العلوبين المتنازعين وكان القتال في قاس بين حي القيروانيين وحي الأندلسيين . وفي سنة ١٠٤ م (٢٩٧هـ) استطاع يحيى

⁽١٢٩) البيان: ١: ٢١١.

الرابع _ الْعباهل الشجاع _ في إعبادة الوحسنة ويروى ايسن خلدون(١٣٠) ووخطب لد على سائر أعمال المغرب، وكان مشهودا له بالعلم والنقد والرواية . ولم تكن هذه الوحدة إلا عودة وهمية للعظمة والحظوة لأن يتحيى الرابع هُزم في أخطر هجوم رأته المملكة . جاء هذا الهجوم من مكناسة وهي قبيلة بربرية قرية كانت تقطن في المنطقة من تازا الى تلمسان . في هذا الوقت كان الأثمة الرستميين قد فقدوا حكم تاهرت على أيدى مصالة القائد المفاطمي وأحد رؤساء مكتاسة . وكان « مصالة » مكلفا بغزو المغرب الأقصى . فحاول يحيى الرابع إيقاف هذا الزحف ولكنه هزم ولجأ الى قاس واضطر لتسليم المدينة والاعتراف بسيادة المهدى الفاطمى . وبعد عامين طرد نهائيا من عاصمته ومات بانسا في إفريقية . فأخذ رئيس مكناسة جزءا من دول الأدارسة أما بالنسبة للاسرة الإدريسية فسوف تبقى مدحورة في جبال شمال المغرب وعاش أعضاء الماثلة الجليلة في قلعة ﴿ صَخْرَةَ النَّسِ ﴾ وهي قلعة في أعلى منطقة سبته وذلك بعد أن كانوا يعيشون في أوليلي .. المدينة الرومانية البربرية ، وفاس التي رأت أجمل أيام مجدهم . وكانوا يشاهدون ارتقاء قبيلة مكناسة والقوتين العظميين لمى ذلك الوقت : الأمويون في أسبانيا والفاطميون فير إقريقية ، ويمعرفون تارة بسيادة الأمريين وتارة أخرى بسيادة الفاطميين . وسوف تلغب أواخر سلالة الأدارسة الى إسهانيا للبحث عن موت مشرف بحاربة المسيحيين .

ورغم عدم قدرتهم أمام الخلفاء المتنازعين ورغم تهايتهم البائسة ، لا شك أن الأدارسة لم يفقدوا مكانتهم الديئية التي عبرت كل العصور الوسطى وساهنت لمنة ستة قرون على نجاح أقاربهم السعديين ، فكان أصلهم يؤهلهم للحصول على السلطة المطلقة ، والاحترام الذي كان يحيط بهم كان يرجع ربا

⁽١٣٠) العين ٤: ٢١ -

الى فكرة (البركة) وأنهم مفوضون من قبل القدرة الإلهية .

ومع ذلك فطابعهم الدينى أقل وضوحا من الطابع الدينى للرستميين: نمثلا: لم يشغل انتشار الإسلام مكانة متفوقة فى نشاطهم ويبدو لنا أن مذهبهم لم يكن على يقين تام. ونقرأ للبكرى (١٣١) و أن ادريس نزل على اسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى المعتزلى فتابعة على ملهه وذلك فى سنة ١٧٧ هـ (٧٨٨م) به. لكن لدينا بعض التحفظات على تبنى الأمير الإدريسى لفكر المعتزلة وعلى الأفكار التى كان يتشرها هذا الملهب بخصوص حرية الاختيار أو خلق القرآن. نحن نفترض أن المعتزلة أو مذهب الواصلية اللي اعتنقته بعض القبائل كما يقال والذى يضمه البكرى لمذهب الإباضية كان نرع من الشقاق الغير واضع للأتباع . (١٣٣٠) يكفي أن تعرف أن اللى استقبل إدريس فى المغرب لم يكن مسلما سنيا وأن حفيد الرسول قبل بل التمس أن يصبح ضيفا عليه .

كما كان المغرب الأقصي مجال للصراعات الدينية الملهبية التي تصدت لحكام البلاد أو دخلت معهم في معارك . ففي نهاية القرن التاسع ثار أحد الخوارج الصغريين ويدعى « عبد الرزاق » في قلب العاصمة نفسها وأجبر الإدريسي « على بن عمر » على الجلاء من قاس (١٣٣) . كما تعرف أن الخوارج كانوا مستقرين في سجلماسة (تافيللت) ، وأخيرا فالمغرب الأقصى كان مسرحاً للإنفصال الديني المعلن : وتعتبر منطقة السهول في تأمسنا (الشارية الحالية) جنرب أبي رجرج مقر برغواطة ، والجبال المجاهرة لتطوان

⁽۱۳۱) فَتَعْرِبِ ص ۱۱۸ .

⁽١٣٢) البكري : المغرب ص ٦٧ يتكلم عن طائقة " وأصليه إباضية " ٢

⁽۱۳۳) البكري: ص ١٢٥ .

مقر لأتباع حاميم المتنبئ.

إن طائفة برغواطة التي تجمع بعض قبائل مصمودة معروفة لدينا بما نشره عنها البكري(١٣٤) . إنها مذهب غريب بطابعها المغربي-وبعلاقاتها مع الحركات الملهبية الأخرى وبالاسلام نفسه ، وبإصرارها على البقاء رغم الهجمات المتوالية عليها . لقد ولدت في القرن الثامن (١هـ) وسوف تبقى حتى منتصف القرن الثاني عشر (٦هـ) . وقد حاربها بالتتابع كل من الأدارسة وصنهاجة وزناته بنى يغرن والمرابطين ولكنهم لم يستطيعوا هزيتها ولم يتغلب عليها إلا الموحدين . كانت حركتهم مرتبطة بالخوارج ويرجع ذلك لشخصية مؤسسها وأول أتباعها وبرغواطة التي بدت لنا أولا كاتحاد قبائلي قامت باعتناق المذهب الخارجي المستورد من المشرق ، وشغل « طريف » رئيس برغواطة قيادة احدى قرق جيش ميسرة ، السقاء الذى تزعم الحركة المضادة للمرب ، وتوفى طريف ولم يقلع أبدا عن الشعائر الإسلامية رغم مذهبه الخارجي . ولكن ولده صالح هو الذي أتم القطيعة ولكن بدون إتساع حتى لا يعرض المركة للخطر . ولقد حارب هو أيضا في صفرف ميسرة . ولقد ورث السلطة عن أبيه وادعى النبوة وأنه و صالح المؤمنين » الذي تعلن عنه آية قرآئية وادعى أنه المهدى المنتظر وألف قرآن يحتوى هلى أربع وثمانين سورة وحدد الشعائر الدينية وترك مهمة نشرها لسلالته وذهب إلى المشرق. ولكن ابئه «الياس» لم يتكفل بنشر الدين الجديد ودام حكمه خمسين عاما « تظاهر فيها بشدة الارتباط بتماليم الإسلام » . لكن كان مقدرا على « يونس بن إلياس ، الكشف عن دعوة جده وفرض عقيدته بالحديد والنار . وإذا رجعنا إلى تاريخ البكري لحيد أن حركة يونس بدأت نحر ٨٤١ (٢٢٧هـ) وهي فترة

Voir G. Marcy, Le Dieu des Abadites et les Bergwata, ۱۳۲ (۱۳۲) dans Hespéris, 1936, XXII, pp. 34 ss.

عهد الإدارسة ولكن ضعف وانقسام النولة الإدريسية في ذلك الوقت يعلل عدم تصدى أمير قاس الإدريسي أو أحد أقاربه بتامسنا لهذه الحركة.

توجد عناصر مختلفة فى بدعة برغواطة فى القرن التاسع وأولها تزييف ساذج وتشويد مقصود للإسلام: تغيير شهر الصوم والأعياد الدينية ، مضاعفة ساعات الصلاة ، تغيير صيغ التجويد وشعائر الرضو، واستبدال الآذان بصياح الديك الذى يصبح مقدسا ، تلاوة قرآن صالح وتحريم أكل السمك إلا مذبوحا وكذلك تحريم أكل البيض ورأس جميع الحيوانات . تجد أيضا فى هذه البدع الفكرة المسيحية ـ اليهودية التى إتبعها الشيعة وهى عودة وظهور المهدى قبل يوم القيامة . إن بعض مبادئها تذكرنا بالخارجية التى كان يعلنها والد صالح ورفاقه . حيث اعتبر المسلمون السنيون مشابهون للكفار : فأصبح والد صالح ورفاقه . حيث اعتبر المسلمون السنيون مشابهون للكفار : فأصبح محرما مصاهرتهم . لكن هذه البدع إختصاص بربرى لأن قرآن صالح والدعوات التى تردد بعد صلاة الجماعة كانت مكتربة بلغة بربرية . هذه هي السمة التي تهمنا بالدرجة الأولى ، فهى تعطى لهذه البدعة المنبثقة من الخارجية صفة رد القمل ضد الإستشراق المفروض .

وبدعة حاميم (١٣٥) تقل في نسبتها وحجمها واستمرارها عن بدعة صالع البرغواطي ولكنها تعزز هذا الطابع المفربي . إن خاميم نجل « مَنْ الله » ظهر في الريف في نهاية القرن التاسع وتوفي سنة ٩٢٧ م (٣١٥) في معركة مع قوات أرسلها الخليفة الأموى من قرطبة . ومذهبه به اقتباس من عذهب برغواطة : قالسمك والبيض من الوجهات المحرمة أما لحم الحنزير مسموح به . كما أن أيام الصوم وساعات الصلاة قد تغيرت . وألف حاميم قرآنا بالبربرية . وتكرن هذا المذهب لاستخدام أهل البلاد فقط كما هو الحال بالنسبة لمذهب

⁽۱۳۵) انظر البكري ؛ المغرب س ۱۰۰ .

صالح . ولكن مذهب حاميم له خاصية فريدة جعلته محليا ألا وهي : السدور الذي يعطيه مؤسس هذا المذهب لنساء عائلته : «تانفيت عمته» و « دجُو » شقيقته . وكانت هذه الأخيرة ذات جمال ساحر ، عرافة وساحرة وكان يستشيرها في وقت الحرب ويبدو أنها كانت تعيد روح الكاهنة أو بطلة أخرى في تراث البربر ، وارتسم الدور التاريخي للمغرب الأقصى بواسطة صالح وحاميم وكل من يحيطون بهم . هذا الدور هو : قطب مقاومة الاستشراق الذي سينمر بتوسع عندما تتحرر بلاد البربر من الشرق . إن بدع القرن التاسع سينمر بتوسع عندما تتحرر بلاد البربر من الشرق . إن بدع القرن التاسع

وتثبت هـذه البدع بطريقتها الخاصة أن الإسلام ... الذى تصوره بقيع وتزييف .. قد توغل فى أعماق البلاد . ونفترض أيضا أن الأدارسة قد ساعدوا فى نشر الدين الذى يتمسكون به وثبتوا أقدامه . ولكن إذا كانوا عاملا لنشر الإسلام ، فقد كانوا بالتأكيد عاملا للتعريب . فمؤسسة كمدينة فاس جعلت اللغة العربية المستعملة فى أسواقها ومدارسها وبيوتها وعادات سكانها جعلتها تشرق على كل البلاد . فهذه المدينة تضغط على المغرب الأقصى وتحدد مصيره مثل القيروان بالنسبة لإفريقية . وعلى كل لم تكن فاس المركز الوحيد لتوزيع المضارة الحضرية فمنذ عهد إدريس الأول وإدريس الثاني تسك الثقود في البصرة ، تدغة ، ومطغرة ووجده وتحديد هذه المدن غير معروف لنا لاسيما البصرة ولكننا نفترض أنها كانت ذات أهمية .

إن تقسيم AYA (٣١٧هـ) الذي لا نستطيع انكار نتائجه السياسية الوخيمة على وحدة الأسرة الإدريسية ، كان له أيضا الأثر الحميد في نشر التأثير الحضاري الذي انهمث من فاس وغُرس في الأجزاء المختلفة للمملكة .

وبدون شك لم يكن التعريب تاما وعميقا ولن يكون أبدا . فالمغرب الأقصى يشمل مناطق صعب الوصول إليها ولم تغيره المؤثرات المشرقية إلا

جزئيسا ويطريق غير مهاشر ، فهو بلد شاة ولايكته استقبالها مباشرة وباستمرار . إن التيارات التى تصله كانت متقطعة ووصلت على فترات . فكل ما هو جديد في بقداد يصل فاس عن طريق القيروان ولن يبقى الحال على ذلك . فمنذ القرن الحادى عشر الميلادى (هم) نرى أن ثقافة قرطبة تسرد المغرب . ولكن بالنسبة للفترة التى ندرسها والفترة التى تليها مباشرة فإفريقية هي التي كانت تقوم بدور المعلم رغم الخصومات السياسية . والقليل الذي نعرفه عن الحضارة المغربية للقرن التاسع والعاشر يفرض علينا هذا الاعتقاد : فالنقود الإدريسية لها الطابع الأعلى بدلا من الطابع الأمرى وتتميز أقدم مساجد فاس بالمآذن التي تعلوها القباب مثل التي نجدها في القيروان وسوسة . وفي نهاية القرن العآشر نجد زخرفة آلمنبر المحفوظ في مسجد حي الأندلسيين من الطراز المشرقي المتقول بواسطة إفريقية (١٣٦) .

لذلك رغم الثورة التي شكلها الدخول في الإسلام فولاية إفريقية (تونس) أدت مرة أخرى دورها في تاريخ الحضارة . فهي التي قدمت لبلاد البربر التي أصبحت مسلمة عناصر حضارتها .

Voir H. Terrasse, La Mosquée des Andalous á Fés, pp. 35 ss. (۱۳٦)

الفصل الثالث

مقدمة

I .. الفاطميون في بلاد البربر

أ _ أسباب الانقصال: المذهب الشيعى والسياسة الدينية .

ب .. السياسة الضريبية ،

جدرد فعل الخوارج : صاحب الحمار .

د ... السنوات العشرون الأخيرة .

II .. عملکة بنی زيري

أ _ العلاقات مع مصر _ نحو الانفصال .

ب . شعب إفريقية .

جرالحالة الاقتصادية.

د .. حياة القصر : الفن الإسلامي والأدب العربي

الفصل الثالث

الازمة الفاطمية

رأت الحياة الحضرية في بلاد البربر خلال القرن التاسع (٣ه) عودة الانتماش الاقتصادي والنشاط الفكري . والقرن العاشر لم يوقف هذه الظواهر بل عمل على إفلاسها بإدخال عناصر جديدة إن التأثر بالمشرق الذي تتبعناه منذ منتصف القرن السابع _ وهي فترة ظهور العرب الأوائل حتى سقوط الأغائبة _ بدأ يعاني من أزمة وصلت الى حد القطيعة بين المشرق والمغرب .

حدث طارئ كان سببا لهذه الأزمة وهو وصول المهدى الفاطمى وانتشار المذهب الشيعى . إنه حدث بدون شك ولكن لم يكن الوحيد من نوعه . لقد بينت التقارب بين الفاطمى وإدريس أو أعوانه الذين جاءوا للمفامرة . أما بالنسبة للمذهب الشيعى فيوحى إلى الأذهان بخذهب الخوارج وهو مذهب مشرقى أيضا كأن على البربر الانضمام إليه . ويجب ملاحظة أن المذهب السنى كان يستهجن (يرفض) هذين المذهبين المذين يمثلان مهدأين متعارضين بالنسبة له من الناحية السياسية والدينية : فالخارجية ترى أن الاستفتاء هو أساس الوصول للحكم لأنهم يعتبرون أن جميع المسلمين متساويين وليس هناك اعتبار للجنس بينما يرى الشيعة أن الإمام الشرعى الرحيد يجب أن يكون من عترة النبى ويرفعون عائلة و على » فوق الإنسانية أجمع . وقد عرفنا سبب نجاح المذهب الخارجي وكيف كان استجابة لأمال البربر المحتقرين والمضطهدين . أما المذهب الشيعى في ذاته فلم يكن لهم نحوه نفس المحتقرين والمضطهدين . أما المذهب الشيعى في ذاته فلم يكن لهم نحوه نفس

الحماس . ومع ذلك فقد كسب بعض القلوب وحظى المهدى وخلفاؤه بمكانة عائلة لحظوة الإدارسة ولكتهم لم يوفقوا أبدا في كسب ود أهل البلاد ، ولم يكن للطّعم (الملهب الشيعى) رواج في هذه المرة . وسوف نحاول عرض أسباب هذا التناقض ولن نتعرض إلا لسببين أساسيين :

أولاً: استبداد الفاطميين نحو رعاياهم وعدم التصرف باحتراس عند تلقين الشمائر الدينية الجديدة.

ثانياً: نوعية سكان إفريقية وخصوصا حضر القيروان ، مدينة سيدى عقبة المقدسة ، وهي قلعة المذهب السنى التي لا تزال تتوجها هالة من مكانة العلماء ، فالمذهب الشيعي لا يوحى إلا بالشك والاعتراض .

ومع ذلك إذا لقى هذا المذهب بعض النفوذ وإذا كانت عقيدة الفاطميين وجدت بعض المساندة فهذا فقط من جانب البربر الريفيين . وكما جمع إدريس ورفيقه الرفى راشد أنصارا من قبيلة أوربة الكبيرة كذلك المهدى وداعيه المخلص الذى رتب لمجيئه ضما إليهما قبيلة كتامة ذات السلطة الواسعة والتى ستستبدل بعد ذلك بقبيلة صنهاجة الذين سينقذون البلاد من دمار محقق . وسوف تستخدم كتامة وصنهاجة كل قوتها فى خدمة هؤلاء المشرقيين . وعندما يترك الفاطميون البلاد للانتقال الى مصر سوف يرافقهم الكتاميون للتفانى فى خدمة أسرتهم وتبقى صنهاجة فى بلاد البربر لمحاربة أعداء هؤلاء المكام الفاطميين والمحافظة على وحدة الامبراطورية الفاطمية ، من تهديد الزناتيين ، وبذلك يصبح تاريخ المهدى وخلفائه حلقة من تاريخ بلاد البربر ، ومن ناحية أخرى نظرا لأن الزناتيين ، كانوا حلقاء لأموى الأندلس الذين أمدوهم بالمعونات المالية والمساندة المعنوية ، تخطى الصراع بين قبيلتى صنهاجة القاطميين وزناته الأمويين ، حدود بلاد المغرب ، وأصبح شمال إفريقيا عبارة عن منطقة تصادم وصراع يديرها خليفة قرطبة وخليفة القاهرة .

ورغم أن الخصومة بين الامبراطوريتين الإسلاميتين هي امتداد طبيعي للمعارك في بلاد البرير فلن نطول في البحث عن أسبابها ومتابعة تطورها . وبصرف النظر عن الامكانات الواسعة التي نستشفها سوف نقتصر على بلاد البرير نفسها وعلى الأزمة التي تثقل على مصيرها .

I ـ الفاطميون في بلاد البربر (١)

كان يوما ما من أيام حج عام ٢٨٠ أو ٢٨١ هـ (٣٨١ ـ ٢٩٨م) . وأى بعض أعيان قبيلة كتامة رجلاً فينا يجلس بجوارهم وتحدث معهم . وكان يدعى أبو عبد الله وقد كان فصيحا ومتعلما قلم يلبث أن جلب المغاربة قردوا بكرم على كل أسئلته ولقد سألهم عن المنطقة التي يعيشون فيها وعن عقائدهم وعن الحرية التي يتمتعون بها تجاه أمراء القيروان . فلما عرفوا منه أنه يريد التوجه إلى مصر اقترحوا عليه توصيله الى هناك . لم يكن هلا اللقاء مفاجئا لأن أبا عبد الله كان داعية ، كان مبشرا شيعيا وكانت لديه معلومات عن بلد الكتاميين ويعتبره أرضا صالحة لنجاح الدعوة التي كرس لها حياته .

وكان هذا الحدث موات لقضيته ووصل أبو عبد الله إلى منطقة القبائل الصغرى المعدة بين سهل سطيف والبحر وباشر رسالته واستقر في قلعة

⁽¹⁾ Sur les Fâtimides voir Wustenfeld, Geschichte der Fatimiden Chalifen, Gottingen, 1881; C. H. Becker, Beitrage zur Geschichte Aegyptens, fasc. I;

ابن خلدون : العبر ٤ : ١٠ ـ ١٦ ، ابن علماري : البيان المغرب ١ : ١٣٤ ، ١٤٩ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ : ١٢٤ ، ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، المثاني التهامي تقرد ، عبد المليم عريس ، القاهرة ١٤٠١ هـ .

أيكجان وجعل منها القاعدة الأم للمذهب الشيعى . وقام بتفقيه عدد من البربر وكون جيشا قويا قادرا على التغلب على الأغالبة . وفي مارس سئة البربر وكون جيشا قويا قادرا على التغلب على الأغالبة . وفي مارس سئة عبد الله القيروان واستقبله قضاة وأعيان المدينة واستقر في قصر رقادة المذي فر منه آخر الأغالبة . وفي أوائل يونية توجه نحو الغرب على رأس قواته وهاجم دولة الرستميين في تاهرت التي سقطت بعد بضعة أيام ، ثم وصل الى سلجماسة في الجنوب ، في نواحي تافيللت حيث يقيم المهدى عبيد الله وكان المهدى قد وقع في قبضة أمراء بني مدرار في هذه النواحي وكانوا من الخوارج السفريين فألقوا به في السجن بناء على أمر الخليفة العباسي . أما الداعية أبو عبد الله الشيعي فقد جاء لتخليصه من السجن بعد أن بسط سلطاته على دولة الأغالبة ودولة الرستميين .

ولكن لم تطل سعادته بنجاح دعوته لأنه بعد وصول المهدى إلى القيروان ، رأى أبو عبد الله أن المهدى لم يكن رجل أحلامه ، لأنه استبعد أبو عبد الله جانبا ، وحكم بدون مشورته . فأعلن أبو عبد الله للكتاميين عن خيبة أمله وتآمر مع بعضهم ضد المهدى الذى خيب آمالهم . ولكن المهدى علم يههذه المؤامرة فحذرهم وعمل على قتل أبو عبد الله الداعية .

يجب الاعتراف بهسلا الحق للمهدى الذى لم يتبع ـ للضرورة أو وقق طبيعته ـ السياسة الحدرة والإنسانية الذى نادى بها الداعى ، ولكنه تداوك الخطر الذى سببته شدته . ولتجنب الانتفاضات الشعبية لم يكتف بالايتعاد بعض كيلومترات عن القيروان كما فعل أمراء الأغالبة بل ابتعد مائة كيلومترات الى الشاطئ حيث أمر بتأسيس مدينة المهدية على لسان صحير متقدم فى داخل البحر فصارت قاعدة حكمه (منذ ٣٠٣هـ/ ٩١٥-١٦ هم) وطوال حكم الفاطميين وإقامتهم بالمغرب . ولما تم بناء حامياتها وأبراجها

وأسوارها يقال أنه أعلن عن ارتياحه بهذه الكلمات و اليوم أمنت على الفاطميات » (٢). وعلى الأقل فالمهدية أمنت مصير ابنه و القائم ». وبعد ثمانيسة وعشرين عاما من تأسيسها قاومت هذه المدينة هجوم أبى يزيد و صاحب الحمار » وكان القائم محاصراً فيها أثناء ذلك . أما أبو يزيد فقد أصبح سيد المملكة بأكملها بما في ذلك القيروان ، ولم يستطع القائم تملكها خلال فترة الإثنى عشر عاما لحكمه (٤٣٤ – ٤٣٨م/٣٢٧–٣٣٤هـ) ولم يقهر صاحب الحمار إلا و المنصور » ابن القائم وذلك في عام ٤٤٧ م (٤٣٣هـ) .

وعن اهله الثورة الرهيبة التى جعلت السلطة الفاطمية توشك على الانهيار ، يجدر بنا إلقاء بعض المعلومات التي تساعد على فهم موقف الشعب البريرى تجاه حكامه المشرقيين .

كان أمل الفاطميين هو الخروج من البلاد بعد أن حصلوا على ثروة سريعة تبعتها سنوات صعبة وبعد عشرين عاما من انتصار المنصور علي الشائر « صاحب الحمار » ترك ابنه المعز إفريقية وتوجد الى مصر وفي ذهنه عدم العودة تاركا لبني زيرى الصنهاجيين مهمة حكم بلاد المغرب التي أصبحت ولاية تابعة للامبراطورية الفاطمية .

ويوم دخول المعز الى مدينة القاهرة الجديدة مسبوقا بتوابيت أجداده كان تحقيقا للحلم الذي راود هؤلاء الأسلاف لمدة ثلاثة وستين عاما على الأقل ، فتاريخ الفاطميين في بلاد البربر _ الذي وضعنا هنا خطوطه العريضة _ لم يكن إلا فترة تمهيدية ومقدمة لتاريخهم في مصر لمدة قرنين تعد من أبهر فترات الحضارة الإسلامية . وبالمقارنة بأرض الفراعنة وبالشام ويمدن الحجاز المتدسة ، هذه البلاد التي بسطوا سلطانهم عليها ، لم تحظ بلاد البربر إلا

⁽٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦: ١٥١.

بمكانة محدودة . ومع ذلك مكنت هذه البلاد الفاطميين من الاكتفاء لمدة تزيد عن النصف قرن والحصول علي موارد بشرية ومادية ذات قيمة . فكان من الضرورى السيطرة على هذه القاعدة ولم تكن المهمة سهلة ، وعلي كل فإقامة الفاطميين في إفريقية ... التي لم يلبثوا أن تركوها ... قد سببت قلاقل خطيرة ومن أهمها وأعمقها تأثيرا هو إدخال المذهب الشيعي . ومن المضروري ذكر مكرنات هذا المذهب الديني والسياسي الذي لمحناه في تاريخ الإدارسة بدون أن يكشف لنا عن نتائجه الأخيرة . (٣)

أ .. أسباب الانفصال: الملحب الشيعي والسياسة الدينية

إن المذهب الشيعى أساسه الخلافة أو الإمامة بمعنى أن الخلافة الشرعية الرحيدة من الناحية الروحية والزمنية على السواء تخضع للوراثة ويشترط في الإمام _ خليفية الرسول _ أن يكون من عترة النبى من ابنته فاطمسه وصهره وعلى» . وقد تم هذا الاختيار بقرار إلهى ، وكل إمام آخر يتولى الخلافة يعد مغتصبا مثل أبى بكر وعمر وعثمان الذين فضلوا على « على » . فعلى وحده هو المختار بقرار من النبى ولقد أفضى إليه النبى بعلوم حجبها عن الجميع ليحكم بها المجتمع الإسلامى ، وهو الوحيد الذي ينقلها الأحد أولاده وهو « الحسن » الذي يقوم بنقلها يدوره إلى الإمام الذي يليه من آل بيتسه ويختاره قبل محاته . فالعلوم تنقل بالوراثة في آل بيت الرسول . والدور المقدر

Sur cette doctrine, Silvestre de Sacy, Exposé de la religion des (V) Druzes, 2 vol. 1938: de Goeje. M'moire sureles Carmathes du Bahrain, Leyde, 1886: A Bel, La religion musulmane en Berbérie, Paris, 1938, I. pp. 135 ss.: Goldziher, Le dogme et la loi de l'Islám, trad. F. Arin, Paris, 1920. pp. 157 ss.

للأنبياء الذين بمثوا لإظهار « الحق » للأجيال المتلاحقة ورث لسلسلة العلويين المقدسة . فالانضمام لهؤلاء الأثمة يعتبر بند من الهنود الأساسية للعقيدة . وبذلك ينتقل الملهب من الخلافة السياسية الى الخلافة الدينية ، كذلك غلب الجانب الديني في التشيع الجانب السياسي وتقدم عليه ، وهؤلاء الأثمة محافظون على العلوم المحجوبة عن الآخرين وخاصة ما يتصل بالمعنى التسأويلي للقرآن ، فهم معصومون بينما يكون الآخرون معرضين للخطأ . ودور « الإجماع » الذي قبله أهل السنة على أنه أحد مصادر التشريع ليس له قيمة عند الشيعة لأن الأثمة معصومون فهم أعلى في القداسة من الأنبياء على خلاف ما يعتقده أهل السنة ، والشيعيون المتحسون لاموا على محمد على خلاف ما يعتقده أهل السنة ، والشيعيون المتحسون لاموا على محمد اغتصاب ما كان مؤهل لعلى ويعتبرون أن للعلويين شئ من القدرة الإلهية ، وسنجد بعض هؤلاء المتحمسون في إفريقية في حاشية المهدى وخلفائه .

كان أفراد العائلة المبجلة ضحايا معاصريهم مثلما كان « على » . فقد قتل على في سنة ٢٦١ م (٤٠٠) بعد أن استبعد عن الخلاقة بالتزوير . وراح الحسين حفيد الرسول ضحية محاولة متهورة على يد فرقة أموية في كربلاء سنة ٢٨١ م (٢٦٩) . لقد أصبح مقتله حدث ضخم ، كما أدخل علاب الحسين في المذهب عنصرا عاطفيا ، سيكون الطابع الخاص لهلا المذهب وسببا من أسباب نجاحد . هذه المآسى التي لحقت بالعلويين أعطت مادة غزيرة للشعر والنثر بل لأدب درامي لا يزال موجودا إلى يومنا هذا . ومع ذلك فالتعذيب الحقيقي ، الذي عانوا منه من قبل الأمريين والعباسيين ، لم يقطع سلسلة الأثمة . فالاستمرار النظري للسلالة ، كان قائما رغم مصاعب المتابعة ، والاضطهاد . ولكن السرية التي اضطر العلويين وأتباعهم اتباعها ، كانت سببا لخلافات كثيرة فيما بين الشيعة أنفسهم وذلك فيما يتعلق بحقوق الإمامة سببا لخلافات كثيرة فيما بين الشيعة أنفسهم وذلك فيما يتعلق بحقوق الإمامة طرائف ، وتعد طائفة

الإسماعيلية واحدة منها وقد خصص لطائفة الإسماعيلية المركز السابع فى سلسلة الأثمة الشرعيين لإسماعيل بن جعفر الذى يرفضه آخرون . وكان إسماعيل هو الأخير الذى ظهر . ومنذ وفاته توارث الإمآمة ثلاثة آخرون ولكنهم كانوا يعيشون مستترين . وابن الثالث يدعى « عبيد الله » وهر المهدى الذى ظهر في بلاد البربر .

كان هذا هو جوهر المذهب الذي ياح به الناعى وأبو عبد الله المكتاميين ، اللهن اعتبرهم أهلا للحصول على الحقيقة ، ولكند لم يكشف عن شخصية المهدى ، حتى لا يعرض لحجاحد للخطر . نحن الآن ملمون بطريقة الدعاة عن الراحل التسع للدعوة التى توصل المشايع تدريجيا الى التضحية العبياء للقضية التى آمن بها ، وتوصله أيضا الى جرأة فكرية تصبح خطيرة لو انتشرت عند عامة الشعب ، إن أول صورة لأزمة القرن العاشر الميلادى هى ردود الفعل الناتجة عن الملهب الشيعى في بلاد البرير المشرقى والوسائل التى استخدمها المهدى وخلفاؤه لعرض هذا المدهب .

سوف تختلف السياسة الدينية للفاطميين ، باختلاف طباع الأثمة ، وحسب ما يعتقدونه مناسها ، لكسب مودة رعاياهم ، أو جعلهم يخشوكهم . فقد كانت سياسة الداعى و أبو عبد الله » وديعة ومقبولة ، وعند قدومه للمغرب كان المذهب السنى بلا شك مضطربا ، وتقشفه الذي ظهر به منذ البداية كان يتعارض مع إياحة الأغالبة ، إن التغييرات التى أدخلها المذهب الشيعى في العبادة ، وتبديل صيغة الآذان ، وذكر " على " وفاطمة والحسن والحسين بعد الرسول في الخطبة ، لقد بدا كل ذلك مشكوكا فيه ، إلا أن الطريقة التى فرضت بها ، لم تكن فظة ، فقد كان يترك بعض الحرية لمن لا يريد الطاعة . ولقد أثمر هذا التصرف الانتهازى . فأظهر كثير من القيروانيين الاستعداد ولقد أثمر هذا الشيعة وكان هذا الملهب يناسب أصحاب المذهب الحنفي لأن ميولهم

أقل شدة من أصحساب المذهب المسالكي وقسد انتفعوا مقابسل ذلك بود « الفاطميين » .

ولكن أبو عبد الله الداعية ، كان محاطا بساعدين ، أقل تحروا أو أقل مهارة ، منه بدط بأخيه أبي العباس الذي يقى في القيروان ، عندما رحل أبو عبد الله للقاء المهدى بسجلماسة ، وحدث آنذاك أن وشي عالم حنفي ، باثنين من القضاة من المذهب المالكي : « ابن البردون » ، و « أبي هذيل » . فقد قال هذا العالم لأبي العباس إنهما إدعا أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا في نفس مرتبة « على » . فقدمهم أبو العباس لحاكم القيروان الذي جلاهم بطريقة مشيئة وقطع رأسيهما . وعندما علم أبو عبد الله بهذا الخبر ، كتب لأخيه معنفسا . « قد أفسدت علينا من أمر البلد وأهله ما كانت بنا حاجة إلى صلاحد » (٤)

أما المهدى فستكون سياسته مخالفة قاما . فمنذ وصوله إلى إفريقية ، وفى نهاية صلاة الجمعة ، حيث كانت الخطبة بإسمه ، وقف واحد من رجاله محاطا بأتباعه الشيعة ، وأجبروا المصلين على حضور جلسة ، شرحوا فيها مذهبهم . (٥) وقام قاضي القيروان بفرض تعليمات على القضاة مجتمعين ، بألا تعطى الاستشارات ، ولا تحرر العقود ، إلا طبقا للمبادئ المعترف بها لدى الشيعة ، وعلينا أن نتصور مدى المقارمة ، التي تصدت لهذه الأوامر في مدينة أثمة المذهب المالكي . ولكن كان للسادة الجند وسائلهم التي تضمن لهم الطاعة . حقا إن بعضا من المنفية ، إنضموا للشيعة بحض إرادتهم ثولكن الطاعة . حقا إن بعضا من المنفية ، إنضموا للشيعة بحض إرادتهم ثولكن

⁽¹⁾ ابن علاري : البيان ، المغرب ١ : ١٥٥ -

⁽ ٥) أبن الأثير : الكامل في التاريخ ٦ : ١٣٣ .

هناك آخرون انضموا إما للإستفادة (٦) أو ضعفا منهم ، والعدد الأكبر الذي كان قد تأثر بالداعى أبو عبد الله ، بدأوا في الابتعاد عن الشيعة لشخصية المدى ذاتها .

لم يراعى المهدى تفكير رعاياه ، كما أوصاه أبو عبد الله داعيته بل على العكس ، فقد أمر المهدى بسب الصحابة وزوجات الرسول علنا ، وقد عرفنا كيف أدى تصرفه هذا إلى القطيعة بينه وبين الذى كان مدانا له بحرشه ، وفى سنة ٩٩١ م (٩٩٨هـ) أمر المهدى بقتل أبى عبد الله وأخيه أبى العباس ، ويقال أنه عند دفنهما وقف أمام الجثتين وذكر هذه الكلمات : « رحمك الله الها عبد الله ا وجزاك في الآخرة بقديم سعيك ا ولا رحمك الله أبا العباس المأتك صددته عن السبيل ، وأوردته موارد الهلاك ا » (٧)

بنعن نسلم باحتمال حدوث هذه المرثية ولكننا نتسابل هل كان هذا اعترافا من المهدى بحق الداعية ؟ وهل كان مستعدا لتبنى سياستد الحدّرة ؟ من المؤكد أن قتل أبى عبد الله ومجافاة الكتاميين الذين ساندوه تتفق مع التغيير الذي حدث في سياسة الأمير . فقد لاحظ أن انتشار المذاهب الشيعية والنتائج التي يستخلصها البسطاء لم تكن دون خطورة ، فحظر على المبشرين عدم متابعة دعايتهم في عامة الشعب ، وكذلك لم يستمر اضطهاد السّنيين ، ولكن يبدو أن هذا العمل لم يكن من صنع « عبيد الله » بل من صنع أعوانه المتحسين المعيطين به ، والذين يبدون أكثر شيعية من المهدى نفسه ،

⁽٦) انظر الى الأمثلة التي ذكرها أبر العرب والخشئى : طبقات علماء إفريقية وتوتس ص

⁽٧) این عقاری : البیان المقرب ۱ : ۱۹۵ ، این حساد : أخیار ملوك یتی هبیدر وسیرتهم ص ٤٣ .

وخصوصا طبقة الشعراء . كان المهدى يعاقب الموظفين الذين يجهرون بالسنة علنا ، خصوصا أثناء القيام بوظائفهم . قفي سنة ٩٩٩ م (٣٠٧هـ) في القيروان قتل المؤذن « عروس » بعد جلده وقطع لسانه بناء على شهادة عديد من المشارقة بأنه لم يؤذن بصيفة الشيعة . (٨) وفي سنة ٩٢٣ م (٣١١هـ) جاءته وشاية ضد القاضى « محمد الهذلى » بأنه أنتى طبقا لمذهب مالك ، فأمر يعقايد فأخذوه وجردوه من ملابسه وضربوه بالعصا في المسجد الكبير رأعلنوا عن خطيئته وعقابه في أسواق القيروان . وفي نفس الوقت كان المهدى يفضب على المتحمسين لمذهبه من الصفرة ، إذا تجاوزوا حدودهم ، كما كان يعاقب العامة من الشيعة إذا استغلوا المذهبي لتحليل ما حرم الله عا يعرضه لانتقاد رعيته . ففي سنة ٩٢١ م (٣٠٩هـ) أمر بحبس مائتين من الشيعة لأنهم أعلنوا عن آرائهم في القيروان وتونس وباجة واستسلموا للنساد . ويقول المؤرخ « كثر القول من الناس في هذا » (٩) . وكان من بين هؤلاء الناس المشهورين في إفريقية « أحمد البلوي » تاجر الرقيق الذي جمل قبلته رقادة عندما كان عبيد الله موجودا بها ، ثم غيرها بعد ذلك نحر الهدية عندما انتقل إليها الإمام ، وكان يقول « لست عن يعبد من لا يُرى ! » . وقد قال شاعر عندما استقر عبيد الله في رقاده:

حل برقسادة المسيح

حل بها الله ذر المعالى وكل شئ سواه ربح (١٠)

ولكن المهدى أبدى استنكاره لهذا الكلام . ولنا أن نفترض أن المهدى لم

⁽٨) البيان المغرب ١ : ١٨٣ ١٨٣ .

⁽٩) البيان المفرب ١ : ١٨٦-١٨٥ .

⁽۱۰) البيان المغرب ١ ، ١٦٠ ، ١٨٦ .

يكن متأكدا من هذه القدرة التي نسبها إليه المنافقون من أنصاره في ذلك الرقت خصوصا أنه لم يتمكن من القضاء على المذهب السني بإفريقية بعد .

أما خليفته أبي القاسم فقد كان حازما في آرائه أو ربما واثقا من قدرته .. لذلك جعل الانفصال بين المذهب السنى والشيعى بيّنا منذ توليد الحكم . ونقرأ لابن تغرى بردى و وكان ... زنديقا ملعونا أظهر سب الأنهياء عليهم السلام ، وكان مناديه ينادي العنرا الغار وما حوى .. يقصد هنا الرسول وأبها « من تكلم عُذب ، وقتل » . وكما هي العادة ، لم يكن المحيطون به بعيدين عن البدع وعن الشدّوذ ، ففي سنة ٩٤٣ م (٣٣١هـ) أمر حاكم مديئة القيروان بتعليق « عظام رؤوس أكباش وحمير وغيرها على أبواب الحوانيت والدروب عليها قراطيس معلقة مكتوب قيها أسماء يعنون رؤوس السمعاية » (١٣). ويبدو أنه في هذا العهد ظهر التعصب الشيعي وأن أيا القاسم جعل الانفصال المذهبي الموجود أصلا بين الأفارقة و المشرقيين لا رجعة فيه . وازداد اضطهاد العلماء ورجال الدين السنيين كما تضاعف الحكم بالإعدام لكل مناوئ للمذهب الشيعى ومن المحتمل أن تكون هناك مبالغة في عدد قتلى السنة ولم يكن هناك أربعة آلاف عسالم وزاهد وصالح قد قتلوا في المهدية كما روى لتا المالكي (١٤). ولكن حتى هذه المبالغات والطابع المروع الذي تذخر بد قصيص استشهادهم تؤكد شعور العصيان اللى أيقظته سياسة الشيعة في روح أهل

⁽١١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣ : ٢٨٧ .

⁽۱۲) البيان: ۱: ۲۱۹.

⁽١٣) المالكي: رياض التقوس ٢ : ٣٣٨ .

A. Bel, La religion musulmane en ۳٤٥ : ۲ (۱٤) المالكي : رياض النفرس ٢ : 8 Berbérie, I, 192-193 .

السنة . وهؤلاء الفقهاء يصبحون اسطورة بعد استشهادهم المفاجئ ، إن الجنود الذين جاموا لقتل و السدري به الزاهد قد فروا مذعورين ولم يجدوا من يقوم بهمة السفاح إلا روميا بعد أن أسكروه . وبعد تنفيذ الحكم صلبوا الجئة ولى المساء انفتح باب في السماء ونزل عمود من النور ليضيئ خشب الصليب وأنحاء الأرض كلها (١٥٠) . نحن نتصور تأثير مثل هذه القصص والاستياء الذي تثيره صد الشيمة . عندما دخل القاطميون الشيمة في الصراح مع أهل السنة وممثليها الأجلاء أصبحوا متشابهين بالكفار وأصبحت محاربتهم من أقنس الراجيات . قالورع التقى « جاب الله » عندما كان مع المحارين لحماية المقيدة في قصير الطوب أحد رباط الشاطئ _ عاد الى القيروان وقد أصبحت عاصمة الشيعة وقام بشرح قراره هكذا وآكنا نحرس عدوا بيئنا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم ، وبعد سلاة الفجر اتجه تحو رقادة مزودا يقرسه وجعيته وسيفه ودرعه وقام بالحراسة طول اليوم (١٦) . ولم يستطع المسلمون الورعون الوقاء بواجبهم الدبني في المساجد حيث كان الشيعة يصاون الجمعة على مذهب الطالمين. ولم يستطيعوا الشراء من الأسواق ولا تناول المواد الغلائية مثل اللحوم التي أصبحت لجسة يسبب الضرائب غير المشروعة . ومن البديهي أن تصبح المكرمة غير شرعية بسبب الضرائب نفسها . لم تكن فقط سياستهم الدينية سببا من أسباب الأزمة بل كانت هناك أيضا سياستهم الضريبية

ب_السياسة الضريبية

لم تكن مهادئ المهدى في هذا المجال عائلة للبيادئ الغي اتبعها الناعي أبر

⁽١٥) المالكي: رياض النفوس ٢ : ١٧٣-١٧٨ .

⁽١٦) المالكي : رياض التقوس ٢ : ٣٧ .

عبد الله . فقد قام أبو عبد الله قبل الاستيلاء على القيروان ولهدف دعائى واضح بابداء احترامه للمذهب السنى فيما يختص بالضرائب . وعندما وصل طبئة طلب إحضار مجموع الضرائب التى جمعت باسم آخر الأغالبة وتحرى عن طريقة جمعها وأعاد لدافعى الضرائب ما كان مخالفا « على ما ينصه الله عز وجل » . هذا الإنشفال بالشرعية أكسبه فى قلوب المهتمين ومهد تخضوع الآخرين خصوصا أهل القيروان . ولما وقعت العاصمة أظهر نفس الحكمة تجاه أموال السكان بالرغم من إغضابه للكتاميين الأوفياء الذين اتبعوه على أمل الشاركة فى السلب .

ووصل المهدى ولم يلبث أن لاحظ أهل القيروان بالفرق. قمنذ أول لقاء طمأنهم المهدى على حياتهم وحياة أبنائهم ولكنه لم يوعدهم بشئ قيما يخص أموالهم. قوجد البعض أنه من الأفضل التركيز على هذه النقطة الدقيقة قماطل المهدى ولم يجب. ويقول ابن عذارى(١٧٧) و فخافة أهل العقل من ذلك الوقت به. وقد كان لهذا الخوف ما يبروه ، لأنه يبدو أن الفاطميين قد استفلوا موارد البلاد ، التى لم يفكر فيها الأغالبة الذين قرد الشعب عليهم".

نحن نفترض أن احتياجات القاطميين كانت من نوع آخر ، وكانت ملحة عن احتياجات السادة السابقين . فقد كان الفاطميون أقل بلاخا ، وحتى المصروفات المخصصة لدعايتهم كانت تشغل بندا متواضعا في الميزانية . ولكن المهام الحربية هي التي كانت قتص مبالفاً ضخمة ، مثل الرواتب والتسليح ، وضوصا تجهيز الحملات الحربية لفرو مصر ، وانتقال الفاطميون من المفرب إليها . ففي سبيل الغزو اللي سيبقى شاغلهم الدائم ، كان الفاطميون مضطرين للحصول من بلاد البرير على الموارد المالية المطلبة كما يحصلون

⁽١٧) البيان: المغرب ١: ١١٤١ . ١٥٨ .

على الجنود ، ويحكى أن المهدى عندما كان عائدا من تافيلالت ، مر بأرض كتامة واستولى على الأموال الموجودة فى أيكجان . فكان هذا هو أول عمل له كإمام وربها العمل الأكثر قيزاً لحكومته . ولتزويد الخزانة كان المهدى وخلفاؤه يعتمدون يدون شك على حملات السلب على طول الشواطئ المسيحية وخصوصا إيطاليا وكانت هذه الحملات منظمة من قبل الحكومة أو من الأقواد مقابل ضريبة عشر الغنائم تسدد للدولة ، ولكتهم كانوا يحصلون منها على منافع أقل من جباية الضرائب فى الدولة الفاطمية . ويبدو أن الفاطميين قد عينوا موظفين عديدين ، للقيام بهام محددة ، مثل الإشراف على المصروفات عينوا موظفين عديدين ، للقيام بهام محددة ، مثل الإشراف على المصروفات

نعن ملمون إلمامسا تاما بالضرائب الفاطميسة ، بواسطة الجغرافي ابن حرقل (۱۸) . فقد جمع معلومات مطابقة من اثنين من كبار موظفي المالية ، اللهين كانوا يباشرون عملهم ، الأول في سنة ٩٤٦ م (٣٣٨ه) أثناء حكم المعز ، أي أثناء المنصور ، والثاني في سنة ٩٦١ م (٣٥٠ه) أثناء حكم المعز ، أي أثناء رحيل هذا الإمام الي مصر ، واستطاع اختبار النظام الجمركي للفاطميين شخصيا ، لأنه كان مضطرا بصفته تاجرا أن يساعد في تنمية الخزانسة الفاطمية.

بخلاف الضرائب الشرعية التي تتفق مع الشرع والقرآن ، مثل الزكاة ، وضريبة العشر المدفوعة بانتظام من المسلمين ، وبخلاف الخراج ، ضريبة الأرض المفروضة على غير المسلمين . بعد أن أعاد « عبد الله » تنظيم الضرائب التي

⁽١٨) المسالك والممالك أو صورة الأرض ، وعن دوره كموظف عند الفاطميين . أنظر :

⁻ Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. 1932, II, pp. 125, 129.

⁻ R. Brunschvig, Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam (Mélanges Gaudefroy-Demombynes), p. 149.

فرضها الأغالبة والتى استنكرها الباعى لعدم شرعيتها ، يبدو أند قام بوضع غيرها ، فالخراج تحت اسمه الحقيقي وتحت اسم الضريبة على الاراضى القروية سرى على جميع الأراضى المزروعة الخاضعة لضريبة العشر أياكان صاحبها . واضطر الرعاة الرحل لدفع حق استغلال المراعى لأغنامهم التي لم تغلت هي الأخرى من ضريبة العشر (١٩)

والأهم من ذلك الضرائب غير المباشرة ، التي تضاعفت يطريقة تعسفية ، مثل رسوم مرور المدن ، التي تفرض على البضائع الداخلة والخارجية من المدينة ، ويجبيها موظفى الجمارك في مواقع الحراسة . كانت ضرائب العبور هذه مثمرة جدا خصوصا في مدن الجنوب مثل سجلماسة التي تعتبر الملتقي الرئيسي لقوافل عبور الصحرا ، وكذلك أماكن المرور الاجباري مثل مراكز منطقة طرابلس (٢٠) . ولم تكن الرسوم الجمركية تفرض فقط على البضائع العابرة ، بل يبدو أنها كانت تفرض على المسافرين كذلك . وهذا النوع من المجاية كان يسبب أحيانا مضايقة شديدة . ففي سنة ١٩٢ م (٣٠٩هـ) الزم عبيد الله جميع حجاج بلاد البربر بعملم المرور إلا من الطريق المار بالمهدية و لأداء ما وظف عليهم من المغارم في الشطور » (٢١) . نحن نتخيل مدى السخط الذي أثاره هذا العبء المفروض على كثيرين بالالتزام بمسار متعب

⁽۱۹) ابن حوقل ۷۱ ، ۱۹، ۱۰۰ ، البيان : المقرب ۱ : ۱۷۳ ، أبر العرب : طبقات علماء إقريقية وتونس وطبقات الجشنى ص ۲۳۱ عندما تكلم عن المالم أبر جمئر أحد الذي توقى سنة ۹۳۱ ويقرل لنا أنه كان ثريا جدا في شبايه ولكنه أفلس يسبب المشرائب الذي قرضت على المقارات .

⁽۲۰) این حرقل : ص ۷۱ ، ۸۷ ، ۸۵ ، ۸۴ ، ۸۷ .

⁽٢١) البيان للغرب ١ : ١٨٦ .

ومكلف أدى الى عرقلة حرية محارسة الحج.

والضرائب المستقطعة على المبيعات في الأسواق كانت تضاف على المكوس وحقوق الجمارك . وكانت بعض المصانع مثقلة أيضا بالرسوم ولذلك تراودنا الرغبة في شرح العمل الذي خصصه المنصور لمندوب التفتيش الذي كان يجبى المضرائب في « مرسى الخرز » (اليوم تسمى القاله) . فقد كان عليه مراجعة ناتج صيد المرجان (٢٢) .

كل هذه الضرائب التى لا تنص عليها الشريعة الإسلامية وعليه تكون غير مشروعة حكانت تزيد باستمرار من أموال الفاطميين ، وكانت هذه الأموال تتزايد باستمرار بأرباح ومنافع غريبة مثل ما يسمى فى القانون الفرنسى القديم و أحباس » (٢٣) وكذلك مثل و الارتفاق » وهو هبة للخليفة من المرشحين للوظائف العمومية : ولقد أقال عبيد الله قاضيا من القيروان لوداعته الزائدة واستبدله بقاض من طرابلس الذى أثرى بفضل الاختلاسات من المؤسسات الدينية والرشاوى ولكنه استطاع استمالة الإمام بإهدائه جزءا من المؤسسات الدينية والرشاوى ولكنه استطاع استمالة الإمام بإهدائه جزءا من المئلسات الدينية والرشاوى ولكنه استطاع استمالة الإمام بإهدائه جزءا من المئلسات الدينية والرشاوى ولكنه استطاع استمالة الإمام بإهدائه جزءا من عملكاته (٢٤) . كما توجد ضرائب خاصة لا ترجع إلا لاستبداد سادة البلاد الذين لم يهتموا بتبرير جهايتها مثل ضريبة عام ١٩١٧ م (٥-٣هـ) ويقول لنا ابن عذارى و وفيها أخذ أهل الضياع بأعمال إفريقية بمغرم سمى التضييع ، وزعموا أنه من بقايا التقسيط» (٢٥) ويشير نفس المؤلف أنه بعد عامين كان

⁽۲۲) آبن حرقل : ص ۷۹ .

⁽٢٣) البيان المغرب ١ : ١٩١٣١٠ .

⁽۲٤) البيان المغرب ١ : ١٨٨ .

⁽٢٥) البيان المقربُ ١ : ١٨١..١٨١ .

بإقريقية « طاعون شديد وغلاء سعر ، مع الجور الشامل من الشيعة والتعلل على أموال الناس من كل جهة » (٢٦) .

ولنا بعض التحفظات فيما يخص شهادة ابن عذارى والكتاب المجهولين اللهن استقى منهم معلوماته وكانوا بالتأكيد ضد الفاطميين . ومع ذلك يبرز إحساس مماثل من الصورة التى رسمها لهم ابن حوقل باعتباره مارس التجارة وكان معجبا ببحبوحة عيشهم . وكان مشكوكا فيه على أنه كان جاسوسا فى خدمة الفاطميين . نحن لا نشك فى أن إفريقية عانت من نظام ضرائبى شديد القسوة . فقد كانت الضرائب متعددة وثقيلة وأبن حوقل يوضح لنا الطريقة الظالمة لجبايتها ، الجباة المكلفون بلالك يحاولون اعتصار دافع الضرائب ، لأن الزائد عما يدفع للخزانة كان ربحا لهم (٧٧) . فكان موظفو السلطة يجدون الوسائل لجعل سلطان الفاطميين غير محتمل ومكروها حتما ، بالإضافة الى قاوزات قبيلة كتامة التى أدت إلى عدم شعبية الفاطميين .

أثار تعاون هؤلاء البربر الجبليين مع المشرقيين زوابع رهيبة في البلاد ، فيصفتهم الأنصار الأوائل لهذه الدعوة ، وقيامهم بالخدمات المطلوبة منهم ، كانت تعطيهم حقوق جعلت منهم طبقة مفضلة ، قائل قاما الجند العربي الذين سببوا كثيرا من المتاعب للأغالبة . لقد كانوا أوفياء للداعي الذي دربهم على الملهب ولعبوا دورا كبيرا في الحرب . وبعد الاستيلاء على القيروان ، قبلوا منه النواهي التي فرضها علي شهوتهم للسلب ، رغم الاحباط الذي انتابهم بخصوص الأمان الذي وجهد للحضريين . ولقد عوضهم المهدى عن ذلك ويقول لنا ابن الأثير أن المهدى وزع على رؤسائهم حربم الأمراء المهزومين وعينهم قي

⁽٢٦) البيان المغرب ١ : ١٨١ .

⁽۲۷) این حرقل ؛ ص ۹٤ .

مراكز قيادية ذات، عائد كبير في أعمال إفريقية (٢٨). ولكن بقي الكثير منهم أكثر إخلاصا لأبي عبد الله الداعية ، الذي كان دائم الوفاء بوعوده ، عن الإمام المهدى ، فقد اشتركوا في المؤامرة التي كانت تهدف إلى التخلص من عبيد الله ، وتحن نعرف كيف استطاع المهدى اخماد الثورة ، وقتل داعيته وأصبح سيدا للموقف . ولكنه كان يعامل كتامة بشدة ، فقد قتل بعض رؤسائهم ، ولعدم ثقته في إخلاص الآخرين كان يمتنع عن مخالطتهم أو على الأقل لا يدعهم يقتربون منه جماعة (٢٩) . ولكنه في الوقت نفسه لا يستغنى عن خدماتهم ، فقد كان الجيش كله من كتامة ، وكان المهدى يعتمد على هذا الجيش في حكم الهلاد ، وفي محاولة غزو مصر ، فحاول استمالة مودتهم ، وبذلك فقد استفلوا هذا الموقف ووجدوا أن الوقت قد حان لهم للحصول على الفرصة التي انتزعت منهم ، وطلبوا منه سلب القيروان وفي سنة ويروى عن ابن عذارى أن تجار السوق بالمدينة قتلوا أكثر من ألف من كتامة ، ويروى عن ابن عذارى أن تجار السوق بالمدينة قتلوا أكثر من ألف من كتامة ، وقام حاكم المدينة باخفاء جثثهم في المراحيض (٣٠) .

قموقف الحكومة الفاطنية من هذه العملية ، مضافا إليه الإحساس الذي سببه قتل الداعى ، كل ذلك أثار غضب كتامة الذين يتولون الحراسة بالقرب من القيروان ، والمتمركزين في منطقة القبائل الصغرى ، فاندلعت ثورة أخذت طابع « مقاومة البدع » ، وكان على رأس الثوار شاب أعلنوا أنه المهدى

⁽٢٨) أبن الأثير: الكامل في التاريخ ٦: ١٣٣.

⁽٢٩) البيان المغرب ١ : ١٦٥ .

⁽٣٠) البيان المغرب ١ : ١٦٦ .

المنتظر، ويقول البيان (٣١): « وجعلوه قبلة يصلون إليه » وأصدروا كتاب يحترى على شريعة زعموا أنها أوحى بها الله. وأصبح الثرار مسيطرين علي منطقة الزاب كلها ... وهي جزء كبير لمحافظة قسطنطينية ... فزحفت تحوهم حملة عسكرية مكونة من زعماء كتامة المخلصين لعبيد الله، ولكن جزء منهم انضم للذين جاءوا لمحاربتهم . وفي ربيع العام التالي سنة ١٩١٢ م (٢٠٠هه) استطاع الجيش الاستيلاء على قسطنطينية وبعض المراكز الأخرى وكان برئاسة أبي القاسم ابن المهدى ، ولكن حدث انقسام بالجيش ، واستطاع أبو القاسم اعادة المنشقين ، وأخمدت الثورة ، وأعادت بعض أحكام الإعدام لبعض الثائرين ، زعماء قبيلة كتامة الي صوابهم .

كان هؤلاء الجبليون (كتامة) أداة قليلة المرونة وكان عدم طاعتهم يثير قلاقل خطيرة للفاطميين كما أن الطريقة التي يستعملونا تجاه السكان تثير قلاقل أخطر. وكان رد الفعل واضح في جبال الأوراس ومنطقة طرابلس.

جدرد فعل الخواوج: صاحب الحمار

ففى هذه المناطق تقريباً ستندلع ثورة « صاحب الحمار » العى كادت أن تطيح بدولة الفاطميين وتدفعها الى الانهيار ، ولقد ولدت هذه الثورة فى الجنوب التونسى ، الذى يمتد الى بلاد طرابلس ، وسوف تنتشر بفضل مساعدة سكان جبال الأوراس ، وتلاقى مساندة فعالة من جانب سكان القيروان . لقد قلت أن هذه الثورة سوف تهز بلاد البربر الشرقي ، لمدة إثنى عشر عاماً لحكم أبى القاسم ، كما يحلو للروايات الشيعية إبراز أهميتها ، بجعل المهدى يعلن

⁽٣١) ١ : ١٦٦ ، اين خلدون : العير ٤ : ١٨ ــ ٤٩ .

عنها بوصوح أثناء تأسيس المهدية _ الملجأ المستقبلي لأهل بيته _ وفيما يخص دراستنا ، تبدو هذه الثورة كمرحلة هامة للأزمة الفاطمية ، وكمظهر جماعي للإنفصال بين العالم البربري والسادة المشرقيين . وإذا نظرتا إلى أفراد هذه الثورة ، والمذاهب التي ينتمون إليها ، نرى أنها تربط ثورات الخوارج القديمة التي سكت منذ أكثر من قرن ، بالعودة للمذهب السنى الذي سوف يتوطد وسوف تحاول إيضاح أحداث هذه النقطة بالذات . ونرى أولا أنه من الأفضل تقديم بطل المغامرة : أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني (٣٢) .

كان أبوه تاجرا من بلاه الجريد ، وكان يتاجر عن طريق التوافل ، ويقيم أحيانا في الجنوب التونسى ، وأحيانا في بلاه السودان ، وولد أبو يزيد سنة ٨٨٠ م (٢٦٧هـ) في السوادن من جارية اشتراها أبوه في مدينة تادمكة الصحراوية ، وقضى فترة طفولته في ضاحية من ضواحي توزر، وتعلم القرآن وتعرف على خوارج النكارية وانضم لهم . وذهب الى تاهرت الرستمية وكانت مركزا للمعرفة خصوصا في نظر شاب يريد التعمق في تعاليم المذهب ، وزاول مهئة يقوم بها أي طالب علم لكسب العيش : فقام بتعليم القرآن للأطفال ، وعندما استولى الشيعة على تاهرت عاد إلى (٣٣) الجريد وعاش بنفس الطريقة في تقيوس ولكنه باشر رسالته . وطبقا لتعاليم الإسلام فقد وضع نفسه رقيبا على المجتمع المحيط به ، وكان يحاسب أهل وطنه على عقائدهم وتصرفاتهم ، وفي الوقت نفسه يهاجم تجارزات السلطة في البلاه ، فكان

⁽٣٢) عن أبى يزيد ، واجمع أبو زكريا : سير الأثمدة وأخيارهم ص ١٩٦ - ١٩٢ ، الإسان المين حماد : أخيار ملوك ينى عبيدو وسيرتهم ص ٥٣ - ٥٨ ، ابن علمارى : البيسان ٢ : ٣١٦ـ٣١٦ ، ابن خلدون : العبر ٢ : ٣١٢ـ٣١٦ ، ابن خلدون : العبر ٢ : ٣٠٢ـ٣١٩ ، ابن خلدون : العبر ٢ : ٣٠٢ـ٥-٥٥ .

⁽٣٣) أين خلدون : العبر ٤ : ٥٣ .. ٥٣ .

يعترض على الضرائب الغير مشروعة ، ويضع مبدأ مقاومة صاحب السلطة الظالم . وكانت النتيجة أن استمال مودة الناس بتصرفه كمصلح للعادات ، وكمعارض للسلطة ، وفي الوقت نفسه انزعج الممثلون المخلصون للمهدى . وعندما شعر أبو يزيد بالخطر تابع دعايته ولكن يحكمة حتى مات المهدى الفاطمي في ٩٣٤ م (٣٢٧هـ) ، فوجد أن الفرصة أصبحت مواتية لتوطيد ثورته .

يقال أن أيا القاسم أخفى نبأ وفاة أبيه لمدة عام خوفا من الانتفاضة ، ثم بدأ في استخدام العنف الذى كان من طباعه ، فأمر بالقبض على أبى يزيد الذى هرب من بلاد الجريد وأدى فريضة الحج ، وفى سنة ٩٣٦ م (٩٣٧هـ) عاد الي توزر متخفيا . وكعادة كثير من مدن الجنوب كان يدير توزر مجلس من شيوخ العائلات المحلية ، فتخوقوا من هذه السلطة الروحية التى تهددهم وأرادوا فى الوقت نفسه الاحتفاظ بامتنان السلطة المركزية فقام ابن فرقان سرئيس المجلس بالوشاية لممثل الخليفة ، فقبض على أبى يزيد وسجن . طالب أنصاره وجماعته المخلصة بالإفراج عنه بزعامة أبناء الأثنين و أبى عمار ، الذى يعتبر روح الجماعة ، وهو معلمه العجوز الأعمى الذى دربه على مذهب النكارية واعتمد على أبى يزيد قى انتشاره ، وبقى بجانب تلميذه الحبيب يلعب دور المرشد رام يتخلى عنه في وقت الشدة .

ولما لم يفرج حاكم المدينة عن أبى يزيد قام أعوانه بتهريبه ، ووجد أبو يزيد أن الجريد غير آمنة فابتمد نحو الجنوب الغربى واستقر فى وارجله ، وأصبحت منطقة الواحات هذه ملجأ لخوارج تاهرت منذ سقوط الرستميين ، ومركزا مناسبا للدعاية بين القبائل . جمع أبو يزيد أنصارا جدد من ينى برزال فى هدنة ، وخصوصا من هوارة الأوراس ، وعرض عليهم سياسته التى ستصبح مهمتهم ألا وهى : محاربة الفاطميين وطردهم من القيروان ، وتكوين

حكومة مكونة من مجلس للشيوخ ، وكان هذا مطابقا لسياسة الخوارج ببلاد المغرب ؛ ولم يعلن عن نفسه إماما أو خليفة أو شيخا للمؤمنين ، كان متقشفا ويلبس قميصا قصيرا من الصوف ، وفي سنة ٩٤٣ م (٣٣٧هـ) بعد أن جمع قرات هائلة بدأ الصراع مع الفاطميين .

كان أبو يزيد يبلغ من العمر ستين عاما عندما قاد هذا الجيش وكان يتبعد العجوز الأعمى . وفي هذا السن استطاع تخريب إفريقية ولدة ثلاث سنوات : هزم القوات المعادية ، حدد إقامة الفاطميين ولو لفترة داخل أسوار المهدية ، وأوصل الإمام الفاطمي إلى مشارف حتفد . كان صغير القامة ويعرج منذ طفولته وكان سكان مرمجانه قد وهبوه حمارا رماديا فاستخدمه لفترة بما أكسيه لقب « صاحب الحمار » . لن نهتم بالتطورات الاستراتيجية التي تبنو بسيطة ، ولا بالاستيلاء المتواصل للمدن مثل مجانه ومرمجانه ولريس وباجه رزقاده والقيروان وسوسه بقدر اهتمامتا بالظروف التي تدور فيها هذه المفامرة الملاحلة وردود القعل التي تثيرها .

حتى لو أخذنا في الاعتبار عدم تعاطف المؤرخين مع عمل البدع ، فقد كانت تسبيد البلاد الانتفاضات والقسوة التى وصفها مؤرخ و مالا تفعله أعداء الدين » (٣٤) . كانوا يبترون الرجال ويشقون يطون النساء . ونرى الطريق الذي يسلكه صاحب الحمار قد ملئ يبقايا الجثث ومحقوف يالمنن والترى المسلوية والمشتعلة . كان لا شفقة له وساخرا أمام ضحاياه ، ويجيب دائما علي المتظلمين بسبب السلب قائلا : و عندما يحتفظ الانسان بدينة لا يحتاج لما ينقده » . ونحن نشك في صدقه عندما يتكلم عن اللامبالاه مجتاع الدتيا ، فهمد التصار من انتصاراته خلع قميصه المصنوع من الصوف ، وترك حمارة

⁽٣٤) القيرواني (ابن أبي ديتار) : المؤلس في أخبار إفزيقيا وتونس ص ٩٠.

الرمادى ، ولبس الحرير وامتطى حصانا أصيلا ، وقد استهجن هذا التصرف كل من معلمه العجوز وأعوانه ، ولكنه عاد الى عادته القديمة بعد النكسات التالية التي أصابت ثورته .

نعن نفترض أن التخريب لم يكن من صنيعته بل كان من أتباعه . كان الريقيون البرير ينزلون من الجبال عند مهاجمة المن والزارع ويقومون بالنور الذي كانوا متخصصين فيه عبر التاريخ في زمن الأسقف روتاتوس (*) وزمن الكاهنة . وأثناء السلب يبدر على هؤلاء الريفيين حقدهم الحاسد للحضريين ومزارعى السهول ، فكان الدين والدفاع عن البلاد تسترا وذريعة لهله الاتفاضات.

أما نجاح أبى يزيد فيرجع الى الأمل الذي زرعه فى الشعب لتحرير البلاد من الفاطميين الطفاة . إذن كانت حربه للتحرير ونجاحاته الأولى جعلت حتى الذين لا يقبلون مذهبه يتضمون إليه ، ويقول لنا ابن خللون (٣٥) « واقتحم أبو يزيد باجه واستباحها وارتدت البرابر من كل ناحية » وموقف القيروانيين متميز في هذا الشأن (٣٦) . أن الانتفاضة لصالح أبى يزيد

⁽ه) هو مؤسس الدوناتوسيد مات في سنة ٣٥٥م ، ولقد يقى لمدة أريمين عاما يممل على انتشار خلا الملحب المسيحي في شمال إفريقيا ، وذلك أنه تحتج بخصال الزهيم نقد اشتهر بالاستقامة والحطابة وكان كاتبا شديد الشكيمة ، صعب المراس ذا يأس أترقا . أنظر جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية .. ترجمة محمد المزالي والبشير سلامة ١ : ٢٠٩ ، ٢٠٩ .

⁽٣٥) ابن خلين : المير ٧ : ٧٠ .

⁽٣٦) المالكي : رياض التقرس ٢ : ٢٩٨-٢٩٧ ترجمة رقم ٢٧٨ ، ٢ ، ٢٠٩ ترجمة رجمة (٣٦) المالكي : رياض التقرب التقرب المديث لا يتقلق مع حديث ابن خلدون : المبر ٢٠٠ . قد انصر القيروانيون لأبي يزيد تحت تهديده بملهمة عامة .

جعلت أثمة السنة في المدينة المقدسة يتحولون الى جانبه وعندما استنهض الناس المسى فى الخروج مع أبى يزيد ، فقال لهم : « أمهلونى الليلة . فلما أصبح أتوا إليه فقال لهم فقد قرأت القرآن من أوله الى آخره فما وجدت فيه ما يوجب القعود » . إن الاختيار بين المذهبين بين " « لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورثون ويرثون » بينما الفاطميون « مجوس زال عنهم اسم الإسلام فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم » . واجتمع رجال الدين فى مسجد القيروان الكبير سه مسجد سيدى عقبة للذى شارك فى المظاهر الأولى للانفسال . وطالت المناقشات وأنهى أبو العرب المناقشة بحديث عن الرسول أنار الطريق فى هذا الشأن « يكون فى آخر الزمان قوم يسمون الرافضة (وهذا اسم من أسما » الشيعة) فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم كفار » . وصاح الجميع بصوت اهتزت له أرجا « المسجد « الله أكبر » . ومن الهديهى أن التحالف مع صاحب الحمار لا يلزم فقها « القيروان بشئ وقد أعرب الشيخ أن التحالف مع صاحب الحمار لا يلزم فقها « القيروان بشئ وقد أعرب الشيخ خارجي ، والله عز وجل يسلط عليه إماما عادلا فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا » .

وبذلك بدا هلا المغامر لأهل القيروان وكأنه أداة القدر التى سوف تخلص البلاد من القاطميين المكروهين ، ولو كان ذلك في عهد أسلافهم من معاصرى سعنون لاعتبروا مذهبه من الأخطاء المستنكرة . وعلى كل حال بدأ صاحب الحمار معاملة سكان المدينة السنية بدون مداراة وكان ماهرا في ضمهم إليه ضد العدر المشترك ، ويلومهم على موقفهم السلبى . إن حماس المذهب عنده يخف حسب مقتضيات سياسته . كذلك أراد استمالة الأمويين بقرطبة ، للحصول على مساندة مالية ، وبلا شك للحصول على التعاون النعلى لتبيئة زناته المنحازين للخلاقة الأموية ، وأوفد وقدا لتقديم خدماته

للخليفة الناصر الأموى ، وتكونت علاقات صداقة كما كان فى عهد أثمة تاهرت بين المعسكر الخارجي والعاصمة الأندلسية . لقد كان صاحب الحمار من أنفع الحلفاء للخلفاء الأمويين رغم مبادئه وأوشك على تخليصهم الى الأبد من الإمام المنافس .

بعد هزيمة الجيوش التى أرادت الحد من نشاطه ، وبعد أن سلب الحقول ، استطاع تقريبا الاستيلاء على كل مدن المملكة وعين فيها ولاة له ، وعسكر أمام المهدية في ٤ يناير سنة ١٩٥٥م (جمادى الأولى ٣٣٣هـ) . ودامت عمليات الحصار ثمانية أشهر : توالت فيها المساعدات إلى قوات الخوارج التى تركزت بعنواحى المهديسة الممتدة بشبه الجزيرة ، والمحاولات المتعددة لغزو المدينة نفسها ، ولكن مساعدة قبيلة صنهاجة التى انضمت للفاطميين بقيادة زيرى بنى مناد الصنهاجي وقامت بهاجمة القوات المحاصرة ، استطاعت تزويد المهدية بالامدادات وتقوية حاميتها للصمود (٣٧) ، وفي سبتمبر سنة ٩٤٥ تخلي عن صاحب الحمار جزء من قواته واضطر إلى رفع الحصار عن المهدية التي عن صاحب الحمار جزء من قواته واضطر إلى رفع الحصار عن المهدية التي كانت في حالة وخيمة ، وانسحب نحو القيروان ولم يستقبله سكانها بحساس ، وكان سكان جميع المدن التي ضمها قد قاموا بلبح ولاته أو علي استعداد لتسليمهم للفاطميين .

إن الحظ قد خان أبا يزيد ولكنه لم يهزم بعد ، ولن يهزم إلا في مارس سنة ٩٤٧ م (٣٣٦هـ) وخلال الثمانية عشر شهرا أبدى من العزم ومن المقاومة ما يعطى لصورة هذا المغامر ملامع خاصة ، فقرى الجيوش واستولى على مدن

وانسحب نحو الغرب ثم هاجم ثانية واحتمى فى مرتفعات « كياته » التى تتاخم « هدنه » من الشمال ، وتحصن فى قلعة كتامه وصد الهجوم وعندما وقعت القلمة فى يد الأعداء ولجأ الى أحد قصورها ويسقط القصر يدوره حمل جريحا الى الجبال وأخيرا وقع فى أيدى الخليفة الفاطمى الذى حبسه فى قفص حيث لفظ الثائر العجوز أنفاسه الأخيرة .

د - السنوات العشرون الأخيرة

لقد تغلبت حكومة الشيعة على الأزمة الرهيبة التى أثارها صاحب الجمار، ولكن الخطر كان كبيرا، والخليفة المتصور الذي نفذ صبره أخذ طريق القيروان ومعه جثة عدوه، وكان قد سلخها وحشاها بالقطن للافتخار بانتصاره على أبى يزيد « صاحب الممار». وسبقته رسالة تعلن لأهل القيروان أن أباه « القائم» قد مات منذ أكثر من أربعة عشر شهرا (مايس ١٩٤٣م) وإذا كان قد أخفى عنهم هذا الخير « من أجل الحرب، ولئلا يسر بلك الدجال اللعين » (٣٨).

وعند الاقتراب من القيروان ، قابله أعيان المدينة بالطبول والأعلام وخيول الاستعراض ، ليهنئوه على انتصاره . وكان سلفه المهدى قد استقبل بعثل هذه الحفاوة . ولكن المنصور كان لا يثق فى أهل القيروان ولم ينس انضمامهم لحزب صاحب الحمار . وذكرهم بهذا الموقف بعرض مخيف للذى اختاروه مرشدا لهم . كانت الجثة محملة على جمل يطوف شوارع المدينة وبجانبها اثنين من القرود يشفون لحيتها ويصفعونها (٣٩) .

⁽٣٨) أبن حماد : أخبار ملوك بني عبيدو وسيرتهم ص ٧٧ .

⁽٣٩) ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيدو وسيرتهم ص ٧٨ .

ورغم تشككنا فى إخلاص أهل القيروان ، فالمدينة السنية كانت تحتفظ بوقار تقليدى ، يشجع الخليفة على الاقتراب منها ، رغم انحطاط دورها كماصمة . فترك المهدية بذكرياتها الأليمة وأسس على مسافة عدة مثات من الأمتار من القيروان « مدينة صبره أو المنصورية » التي سكنها آنذاك ، فأكثر من القصور والحدائق ، وبينما كانت المهدية خندقا مجهزا لأيام الصعاب ، فالمنصورية تدل علي أيام المجد ومدينة البذخ التي تؤكد انتصار الفاطميين ، والجديرة بعالم الشهرة .

توطلت هذه السياسة في عهد المنصور ، واتبعها بعد ذلك ابنه المعز الذي استولى على الحكم في سنة ٩٥٣ م (٣٤١ه) وهو الذي نقل الخلافة الى مصر في سنة ٩٧٣ م (٣٦١ه) .

رأت هذه السنوات العشرون الأخيرة لعهدهم فى إفريقية ، توطيدا وانتشارا ملحوظا لسلطة الفاطميين فى الهلاد التى سيتركونها . ولقد قام زعيم بنى زيرى الصنهاجيين بحملة عسكرية لقمع الانتفاضات الأخيرة للخوارج فى الأوراس والزاب . أما الخليفة فقد أرسل قائده ومولاه « جوهر » على رأس جيش من كتامه وصنهاجه ، جاب هذا الجيش كل بلاد البرير منتصرا حتى وصل الى المحيط الأطلسي . هذه الحملة التى تذكرنا بحملات عقبة وخلفاته ، كان الهدف منها ليس فقط السلب والاستيلاء على الأسرى بل الهدف الأساسي كان دحو سلطة الأمويين السنية واخراج خلافة قرطبة من شمال إفريقيا كلها . وقد نجحت هذه الخطة ووصلت تقريبا الى النتيجة المنشودة ، فكانت الخطب باسم العاهل الشيعي في جميع المساجد الكبيرة لبلاد البربر فكانت الخطب باسم العاهل الشيعي في جميع المساجد الكبيرة لبلاد البربر الروحي رغم محاولات الخليفة فرض سلطانه على رعاياه وخصوصا أهل القيروان ، فقد كان المعز يستخدم تارة القهر وتارة الحلم ، ففي القيروان كان

التجول في الشوارع بعد صلاة العشاء يعرض صاحبه للموت (٤٠)، ولم يتردد الخليفة في تثبيت تعاليم الصلاة الخاصة بالشيعة ، ولكن الشعب كان ينساها ، لأنه كان وفيا لتعاليمه السنية التقليدية . وفي سنة - ٩٦م (٩٣٤٩هـ) أصدر أوامر قاطعة خاصة بالأذان الشيعي من أعلى المآذن ، وبساعات وتعاليم الصلاة ، وكان محرم على النساء النواح والندب خلف الجنازات ، كما حرم على العميان قرامة القرآن على المقابر إلا ساعة الدفن (٤١) .

ومع ذلك كان الأمير يبدو أحيانا متسامحا للغاية ، تجاه اللين يكنون له العداء ،، وكان يدرك ذلك ، ولكن كانت له سياسته . فقد طلب سماع هجاء عنيف منظوم ضده ، وفي النهاية أغدق على المؤلف الهدايا (٤٢) والثناء . وقصة الشيعى الذي أغضب معلما عجوزا ، فعاقبه المعلم بشدة وأبدى عصيانه للحاكم ، ولما ساقوه الى المعز أمر له بعشر قطع ذهبية وألزمه بعدم تكرار ذلك . ويقال أن المدرس احتفظ بهذه النقود كأجر للجنود اللين سيدمرون في المستقبل القصور الفاطمية . (٤٣)

إن شدة إدارته ، تتوافق أحيانا مع حلمه ، الذي لا حدود له ، فتارة يبدر بسيطا وتارة أخرى محبا للفخامة ، وربا يرجع هذا الى ميوله الطبيعية أو الى مقتضيات دعايته . إن المؤرخ المقريزى (٤٤) يصفه لنا وهو يستقبل رؤساء

Quafremère, La vie du Khalife Moezz lidin Allah, dans (1.) Journal asiatique, 1836, II, p. 409.

⁽٤١) البيان المغرب ١ : ٢٢٣ .

كتامه فى حجرة ليست مزينة إلا بالكتب والمحبرة ، ويدعوهم الأمير الى تقليد زهده وقناعته ومثابرته ، وطلب منهم أيضا معاملة رؤسائهم معاملة حسنة ، وينصحهم بعدم الزواج إلا من واحدة ، ولكنه كان يبذى كل الفخامة فى تصرفاته العامة . فى سنة ٩٦٦ م (٣٥١هـ) عندما أراد ختن أولاده أمر بسأن يختن فى نفس الوقت جميع الأطفسال من « تافيلالت » الى « برقه » برقى صفلية ويحصل الجميع على هدايا وملابس فاخرة فى احتفال شيعى ضغم (٤٥) .

من الجائز أن يكون هذا الكرم نتيجة للواقع سياسية: نقس الدواقع التي جعلته يتصب على طريقة الخلقاء العباسيين، وهي عادة لم تكن مألوقة في بلاد البرير (٤٦)، والتي حثت أسلاقه على الظهور للجمهور تحت المظلة (٤٧)، والتي كانت سببا في تأسيس المنصورية وقصورها الجميلة (٤٨).

الا علكة بني زيري

أسالعلاقات مع مصر: من الخضوع الى الانفصال

برحيل الخليفة المعز الى مصر سنة ٩٧٣م (٣٦٢ هـ) تحقيقا لآمالًا عائلته ، وتنصيب أمير بربري ليمثله فى البلاد التى تركها ، تصل و الأزمة الفاطمية ي الى الاتفكاك وتقترب من الانقلاب الذى عجل بالكارثة . وبدوم هذا الفصل

Quatremère, d'après Nowairi, Journal asiatique, 1836, II, 421. (دع) ابن حماد ، أخبار ملوك بثي عبيدر وسيرتهم ص ٨٣ ومابعدها .

⁽٤٧) البيان المغرب ١ : ٢٠٨ .

Voir G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 118-120. (£A)

الى الانفكاك وتقترب من الانقلاب الذى عجل بالكارثة . ويدوم هذا الفصل الأخير للمأساة ثلاثة أرباع من القرن الذى يشهد فى إفريقية توسع دولة تابعة للقاهرة ألا وهى « مملكة بنى زبرى » (٤٩) . وحكام هذه المملكة من الشاهرة ألا وهى « مملكة بنى زبرى » (٤٩) . وحكام هذه المملكة من الصنهاجيين ، وسيحكم هذه المملكة خلفا عن سلف أربع حكام : بلكين بن زيرى سنة ٣٧٣-٩٨٤ م (٣٦٣-٣٧٨ه) ، المنصور بن بلكين سنة ٤٨٥-٩٨٩ م (٣٦٨-٣٧٨ه) ، باديس بن المنصور سنة ٣٩٩-١٠١ م (٣٨٨-٧٠٤ه) والمعز بن باديس الذى خلع طاعة الفاطميين وكان سببا فى هجرة الجرب الرحل الى إفريقية . ويكننا تأمل تاريخ السلالة كله مرتبطا بهذا المحدث المتميز الذي يشغل المكان الرئيسى في دراستنا هذه ، سنولى اهتمامنا إذن بتطور الذي سينتهى أؤن بتطور الملاقات بين بنى زيرى والفاطميين ، ذلك التطور الذى سينتهى بالانفصال وسنهمل الحياة الداخلية للملكة ولن نهتم إلا بالملامح المساعدة على فهم الحالة الاقتصاديسة والاجتماعية والفكريسة لبلاد البربر عشية الغزو الهلالى .

إن أسم صنهاجة بنى زبرى ليس غريبا علينا ، فقد جاء بهم القدر ليخلصوا الفاطميين فى أصعب الأوقات التي حاصر فيها صاحب الحمار مدينة المهدية . إذا كانت كتامه منطقة القبائل الصغرى ، هم المجموعة الأولى من المحاربين الذين أسسوا الدولة فصنهاجة هم المجموعة التالية التى وطدت أركان هذه الدولة ، وقد حصلوا على مقابل ذلك عما أدى الى حسد كتامه لهم ، وصنهاجة أهل حضر وجهليون عثل كتامه ، ولكنهم مفضلون على كتامة ، لأنهم يعلكون أراضى أوسع وموارد أوفر ، قادرة على مقاومة هجوم زناته الرحل ،

من بنى زيرى انظر : ابن خلدون : العبر ١ : ٢١٤-٢٠١ ، ابن علارى : البيان (٤٩) من بنى زيرى انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ : ٢٢٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ : ٢٢٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ : ٢٢٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ ، ٢٢٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢٠٠٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢٠٠٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢٠٠٠ ، ابن علارى : البيان : المنابع المن

جيرانهم من الغرب وأعدائهم بالوراثسة . وقتد مقاطعتهم من تاهرت حتى الزاب وتشمل مراكز مثل مليانسه ، ميديه ، الجزائر ، وحمزه ، وزعيم هذه القبائل « بلكين » كان وفيا للفاطميين وكان يدهم بنصائحه ، وتلتف حوله عشيرة متماسكة ومهولة .

لقد اختاره الخليفة لإدارة أمور بلاد البربر، أى إفريقية وأراضى المغرب المسموح له بضمها للامبراطورية الفاطمية ، وكان بلكين يتمتع ظاهريا بسلطات واسعة جدا : سلطات حربية لأنه كان قائدا للجيش ، وسلطات مالية لأنه يشرف على جمع الضرائب ، وسلطات ادارية لأن جميع الولاة كانوا تحت قيادته ، لقد بقى التنظيم والهيكل الوظيفى الفاطمى على ما هو عليه ، بل ووطد المعز قبل سفره هذا الهيكل يتعيين ثلاثة من كبار موظفى المالية لجباية الضرائب وإرسال جزء منها الى القاهرة ، ولكن هؤلاء العمال كغيرهم كانوا خاضمين لمراقبة بلكين .

وبتخصيص هذه المهام لبلكين ، أراد المعز رفع الأمير الصنهاجى فوق جميع رؤساء بلاد البربر ، وجعله واليا لمقاطعة هامة ، وقام بلكين بتغيير اسمه البربرى واتخذ اسما غربيا « يوسف » ولقب نفسه « أبو الفتوح » أى رجل الفتوحات ، ولقب سيف الدولة . كما أهداه الخليفة أجمل خيوله ، وألبسه زى قائد الجند ، وقلده بسلاسل ذهبية دليلا على التقدير السامى وعلامة للتبعية ولكنها فى الوقت نفسه تعطى لمثل أمير المؤمنين تفوقا رسميا لا جدال فيد .

بعد رحيل المعز ، كانت طاعة الأمير التابع كأملة ، وكان الخليفة قد كلفه بإشهار ولايته بالقيام بحملة ضد قبيلة زناته ، ليثبت لهم أن الفاطميين لا يزالون بالبلاد ، وقام بلكين بالزحف نحو زناته فاكتسبع تاهرت ، واستعاد تلمسان ، وبدلا من استغلال هذه الانتصارات فإنه يعود الى القيروان ، لأن المعز أصدر له الأوامر بألا يتعدى هذه الحدود . كان المعز يحتفظ لنفسه بمراقبة

العمليات الحربية من مصر . وعلى كل فالخدمات التى قام بها بلكين لها مكافأتها لأن المعز أضاف له مقاطعة « المسيلة » الخصبة عندما علم بأنه عاقب زناته.

وقى سنة ٩٧٣ م (٣٦٥ه) مات المعز الفاطمى ، وتولى الحكم ابنسه العزيز ، فقامت قافلة من إفريقية لتقديم الولاء والهدايا من بلكين للخليفة الجديد ، وراقق بلكين هذه القافلة لمسافة بعيدة عن القيروان ، ومعه كثير من سكانها ، فجدد الخليفة تعيين بلكين وأضاف له مدن أجدابيه وسرت وطرابلس والبلاد التابعة لها .

ومع ذلك غبرغم التعبير عن الثقة وعلامات الخضوع ، إلا أن غياب المعاهل الذي رشح الوالى الصنهاجى ، فكك العلاقات التي تربط القيروان بالقاهرة ، كما يبدو أن المدن التى استلمها بلكين قد وطدت مركزه وشجعته على التحرد . وابن الأثير يوحى لنا بذلك إذ يروى (٥٠) و واستهد بالملك ، وكان يظهر الطاعة مجاملة ومراقبة لا طائل وراحا » . كان ابن الأثير ملما بأمور المغرب رغم أنه مشرقى ، ونحن نعتد بما يقوله ، ويبدو أن الخليقة الفاطمى قد اتخذ تدابير خاصة تقادم عزية التحرد هذه ، وتضمن سيطرته عليها ، وذلك باستمالة الشعوب التي يحكمها تابعه . فمنذ بداية حكمه أرسل لبلاد البربر قطع ذهبية مسكوكة باسمه وأمر بتداولها ، وحينما فرض بلكين علي سكان إفريقية ضريبة جسيمة لإرسال ناتجها الى القاهرة ، أمر الخليفة ، بلكين بإيقاف جبايتها وأعاد للناس جزءا من المبالغ التي وصلته ، نرى من بلكين أن العزيز كان يتدخل إذن في الإدارة المالية التي يديرها الأمير ، كما كان يتدخل أحيانا في النزاع العائلي : فقد هرب الى القاهرة إثنان من أولاد

^(• •) الكامل في العاريم ٧ : ٢٧_٧٧ .

زيرى كانا فى السجن بأمر أخيهما ، فاستقبلهما العزيز بحفاوة وأعيدا الى بلكين وأمره العزيز بألا يقوم بأى عمل ضدهما ، وقد أطاع بلكين هذا الأمر . ومع ذلك كان بلكين لا يخضع دائما ، ففى سنة ٩٨١ م (٣٧١هـ) طلب منه العزيز إرسال ألف من أمهر رجال عشيرته الى مصر ، فرد عليه الأمير بأنه فى حاجة الى خدماتهم ، واكتفى الخليفة بهذا الرد ولم يلح فى طلبه .

تولى المنصور الحكم سنة ١٨٤ م (٣٧٣ه) بعد موت أبيه بلكين « وكان على سنن أبيه » (٥١) ولكنه كان مستعدا لعبور مرحلة جديدة نحو الاستقلال . وكان يريد اكتساب شعبية في إفريقية ، وفي نفس الوقت لا يريد الخضوع لمطالبات القاهرة . وانجلي هذا الميل المزدوج منذ بداية حكمه ، ولكنه ازداد بوضوح أكثر عند حفيده «المعز» وكانت النهاية المنطقية هي الانفصال . ويقول البيان (٥٢) « إنه ولي الإمارة ... بمدينة أشير ــ المدينة الحسينة بجبل تيطري بالزاب مقر أجداده ــ وعندما وصله نها وفاة أبيه وجاء وفد من أهل القيروان ليقدموا له العزاء والولاء ، فاستقبلهم بلطف وقال لهم « لقد شي على تعبكم في حركتكم ، غير أن سروري في رؤيتكم » وأمر بإعطائهم عشرة آلاف دينسار لسد مصاريف السفر والضيافة . فدعوا له وقدموا له التمنيات وانصرفوا ، ولكنه استدعاهم مرة ثانية وأعلن لهم « إن أبي وجدي أغذا الناس بالسيف قهرا ، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان . وما أنا في هذا الملك عن يولي بكتاب ويعزل بكتاب ، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير ا » وأطال في هذا الموضوع .

هل تحول هذا الإفضاح الشفوى الى تصرفات استقلالية متميزة ٢ نحن

⁽a1) ابن خلدون : العير ٦ : ٢٠٧ .

⁽٥٢) الهيان المغرب ١ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠

تراودنا الرغبسة في تصديقه لأن تجديد الجهاز الادارى اللى قام به بمحض ارادته (٥٣) هو نوع من التصرف الاستقلالي ما هو إذن موقف الخليفة تجاه هذا التابع ذا النزعة الاستقلالية ؟ لم يلجأ الخليفة العزيز ، لا للمتاب الغير مجدى ، ولا لعمل مباشرلا يملك الرسائل لدعمه ، بل سيكتفي بالمقارمة في تكتم : سيحرض منافسين ليهاجموا حاكما واثقا من نفسه ، هولاء المنافسون هم أفراد قبيلة كتامة المقيمون بالبلاد .

كان زعماء كتامة يعيشون في جهال منطقة القبائل ، وهي منطقة تابعة الأمرأء القيروان نظريا ، ولكنها في الواقع لا تخضع لهم ، لأنها تحت سيطرة زعماء كتامه ، الذين يحسدون صنهاجة ، وبن السهولة اثارة كتامة ضدهم . ففي سنة ١٩٨٦م ٢٩٦٦هـ وصل الى القيسروان داعية شيعي يدعى و أبو النهم » وكانت له مهمة سرية (٤٤) : كان عليه أن يذهب الى مقر كتامة ، وكان حاكم القيروان آنلاك من سلالة الأغالبة ، ورغم أنه معين من قبل الأمير الزيسري ، إلا أنه كان على أتم الاستعداد لحيانته ، لذلك سهل مهمة أبي الفهم . واستقر أبو الفهم في منطقة القبائل الصغرى ، وجند فرسان ومشاه من كتامه ، واستعد للهجوم على رأس جيش للاستيلاء على إفريقية . فقام المنصور بإبلاغ الخليفة بهذا المرقف المقلق ، ولكن الخليفة لم يندهش لهذا النبأ لأنه يوافق نواياه ، فأرسل رسولين من القاهرة لإبلاغ المنصور ، بألا يقوم بأي محاولة تجاه أبي الفهم وأنه في حالة عصيان هذا الأمر ، سوف تقبض عليه كتأمة ويرسلوه للخليفة مكبلا بالحبال .

⁽٣٠) أبن الأثير : الكامل ٧ : ١٢١ .

⁽٤٥) أنظر البيان ١ : ٧٤١ ، أبن الأثير : الكامل ٧ : ١٣٢ ، التريزي : تهاية الأرب في قتون الأدب ، القسم الحاص بإفريقية والأندلس ص ٣٢١ .

لم يكن المنصور من الذين يخضعون لمثل هذه التهديدات ، ققام بحجز الرسولين ، وجمع قوات صنهاجة وحرسه الأسود وزحف جد العدو . استرلى على ميله ، ركيزة كتامة وقوض أسوارها ، وتقابل مع العدو بالقرب من سطيف ودحره ، وقبض المنصور على أبى الفهم ونكل به ، وقام العبيد الزنوج بتقسيم جثته وأكلوا لحمها في محضر الرسولين ، اللذين أبلغا الخليفة هن قصة أكلى لحوم البشر المرعبة . وجد الخليفة أنه من الحكمة التفاضي عما حدث ، وأرسل للمنصور رسولا آخر محملا بالهدايا ، ولم ينبس بكلمة عن أبي الفهم ، كان من الواضع أن تراجع العاهل الفاطمي يدل على أنه لا يملك لا الرغبة ولا الوسيلة للتدخل شخصيا ضد بلاد البربر التي تسير نحو الانفسال.

وبعد عامين ٩٨٩ م (٣٧٩ هـ) قامت كتامة بثورة ثانيسة أخطر من الأولى ، وأسفرت عن الخضوع التام لهولاء الجهليين المشاغهين ، ونحن نشلك في الحياد التام للخليفة ، وعلي كل فالمحرض وصاحب الفكرة ادعى أنه ينتمى لعائلة الفاطميين الذين لم يتدخلوا علانية .

رغم رغبات الخليفة العزيز الدفينة ، أو محاولاته الغير مباشرة ، لمبصر سلطان تابعه المنصور أو ودع عزيمته للتحرر ، إلا أنه كان يعلن عن ثقته لهلا التابع . ففي سنة ٩٩٧ م (٣٨٧هـ) استلم المنصور مرسوما من الخليفة يعترف فيه بابنه باديس وليا للعهد . ويقول البيان (٥٥) « فسر المنصور بذلك ، وجاءته الهدايا من البلدان» . ويكفى هذا النص ليبين لنا أن الأمير مهما كانت رغبته في التحرر ، فهو في حاجة الي الخليفة لمسائدة سلطانه وضمان استمرار سلالته ، وفعلا عندما مات المنصور بعد أربع سنوات ٩٩٦ م (٣٨٦ هـ) خلقه

^{. 767: 1 (00)}

باديس بدون مشاكل تذكر . لقد قامت محاولة معارضة من أعمام العاهل الجديد ولكنها ردعت بواسطة عبيد باديس وأبيه .

وأثناء الراحد والعشرين عام الذي حكم قيها باديس ، بقيت الروابط بين إفريقية ومصر ودية للفاية ، ويبدو أن باديس أثبت على أنه تابع أكثر احتراما من أبيه ، فقد ازدادت الوقود بين العاصمتين محملة بالهذايا كذليل على التقدير عما يوحى بالصداقة المتبادلة .

لو إكتفينا بهذه الروابط الردية التى قام البيان (٥٦) باقتباس إحصاء تواريخها من المؤلفين مثل و ابن الرقيق » لتصورنا أن السماء بين القيروان والقاهرة لم تشبها شائبة . إلا أن الأحداث المعقدة التى دارت في طرابلس توجى إلينا بأن سياسة الخليفة لم تتغير كثيرا مئذ ثورة كتامة (٥٧). ومثلما فعل مع كتامة نراه يحرض منافسا ضد تابعه فى القيروان ، يهمند سلامة المملكة ، ويتحلل من هذا التحريض إذا كان رد قعل الأمير الصنهاجي شديدا .

علي هامش هذا الوفاق الرسمى ، كانت تتمخض وتستمر صراعات مصالح تنبئ بأزمات خطيرة . إذ بينما كان الأمير باديس يعلن احترامه للخليفة الفاطمى طالما الأخير لا يتطلع للمساس بسلطانه ، نجد أن شعب إفريقية من ناحيته ، يبدى عواطفه المضادة للشيعة كلما سنحت الظروف بلالك . والبيان

⁽۲۵) انظر ستوات ۱۹۹۷م (۱۸۳۸ه) ، ۱۹۸۸م(۱۸۸۳ه) ، ۱۹۰۰م(۱۳۰۹ه) ، ۱۹۰۰م(۱۳۰۹ه) ، ۱۹۰۰م(۱۳۰۹ه) ، ۱۹۰۰م(۱۳۰۹ه) ، ۱۹۰

ا ابن خلدون : العبر ٦ : ٦١٣ ، ابن الأثير : الكامل ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ورحلة التجانى ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٨ .

ينقل لنا رواية متميزة في هذا الصدد (٥٨).

حدثت هذه الواقعة في بداية حكم باديس ، كان الأمير يعد الهدايا المخصصة للخليفة حين وصله منه الأمر بإيفاد القاضى محمد بن عبد الله بن هاشم الذى كان مريضا الى القاهرة . وكان القاضى من الشخصيات المحبوبة لأهل القيروان ، أراد الأمير الامتثال للأمر وأخذ كل التدابير لتجنب الفتن ، فأعلنت حالة الطوارئ ، وهجم على القاضى عمال باديس ورفعوه بهلابسه الداخلية على البساط الجالس عليه ، وخلفه غلام نصرانى يمسكه وبعض أفراد عائلته ، وكان ينتظره خارج منزله جمع غفير من أهل القيروان ، وسار الموكب في صمت مؤثر حتى رقادة لا يقطعه إلا الدعاء له والثناء عليه ، وكان القاضى على وشك الرحيل الى القاهرة عندما جاء نبأ وقاة العزيز . لقد استجاب الله الى دعوات أهل القيروان ، فأعاد باديس القاضى الى بيته مكرما ولكن جاء هذا التكريم متأخرا ، فقد توقى القاضى في نفس العام ، وإن دل ذلك على شئ فإنه يدل على أن الأمير كان متعاطفا مع رعاياه .

وسوف يتم التطابق في التفكير بين والى إفريقية وشعبه خلال حكم «المعز»

الزيرى الرابع عما يخلق المناخ المناسب للانفصال . في ٣١ مايو سنة ١٠١٩ من ٢١ من ذي الحجة سنة ٢٠٤ هـ) لما مات باديس أثناء معركة قمام بها صند بني حماد ، أعلن كبار رجال المملكة وزعماء صنهاجة البيعة لإبته والمعز» ، وكانت سن المعز آتلاك الثامنة وأربعة أشهر وكانت عدم البيعة في المهدية . ومن المنيد إيجاز أسباب هذا النسزاع والطروف التي سببت وفاة باديس .

إن ميلاد علكة بني حماد (٥٩) جاء نتيجة طبيعية للأحداث التي سبق

⁽٥٨) البيان ١ ، ٢٤٨.

⁽٥٩) عن يتي حماد انظر ابن خلدون ؛ العبر ٢ : ٢٣٦٣٢٧ ، ب

أن عرفناها . فعند رحيل الخليفة الفاطمي الى مصر ، ترك بلكين بن زيري على رأس ولاية تشمل نصف بلاد البربر تقريباً . وكان على بلكين الجفاظ على سلامة البلاد ، ومتابعة القتال ضد قبيلة زناتة اللين يهدون قرامها . كانت الضيعة الإفريقية فسيحة جدا لحاكم واحد والعمل شاق ، فكان على بلكين وابته المنصور من بعده طلب المساعدة من أقربائهما ، وكلف المنصور أخاه حماد بن بلكين بحكم المناطق الشرقية لإفريقية أى البلاد الواتعة بن خطى العلول للجزائر العاصمة وحدود الأوراس. فقام حماد بواجيد بمهارة وتضحية ، ولكنه أراد الاستفادة من ذلك ، لتتحرل الولاية العسكرية المفرضة بصفة نهائية الى دولة مستقلة ، وتعتبر سنة ١٠٠٧ م (٣٩٨هـ) المرحلة الأولى لهذا التحرر . وفي المرتفعات التي تشرف على حرض هدنه والتي شهدت مئذ ستين عام مضت النهاية المأسوية لصاحب الحمار ، قام حماد بتأسيس قلعة لتكون بمثابة عاصمة له ولسلالته . وتكبر و قلعة بني حماد ، وتنافس القيروان أو صبره « المنصورية » . لم يقاوم الأمير الزيرى هذه الحركسة التحررية ، واستمر حماد في خدمة المصالح المشتركة بمحاربة زناته بدون كلل ، وكذلك بعض أفراد عائلته الذين أرادر الاستئثار بالإمارة ، وبعد فشلهم في تحقيق النجاح ، يضطرون الى الانتقال الى الأندلس . بدأ النزاع بين حماد وباديس عندما قسام الخليفة الفاطمى بالاعتراف بالمنصور بن باديس وليا للعهد ، فخصص له باديس ولاية قسطنطينة وتيجست وقصر الإفريقي ، من ولاية عمد الحماديد ، لأند أراد استعادة جزء هام من مملكته ، وزيادة سلطان عاهل المستقبل ، كما أراد زيادة موارده واكتساب أنصار جدد . ولكن حماد

L. de Beylié, La Kalaa des Beni Hammâd. Une capitale berbére de = l'Afrique du Nord au XLe siécle, Paris, 1909; G. Marçais, Manuel d'art musulman, chap. II.

رفض التخلى عن هذه المنطقة التى يعتبرها ملكا له ، كما رفض الاعتراف بولى العهد لأنه سبب المشكلة ، وفوق هذا وذاك قطع العلاقمة مع الأمير باديس ، واستعد لمحاربته منكرا لسلطان الخليفة الفاطمي الشبعي الذي أقر أمر فقدانه لأرضه .

إن الأضرار التي لحقت بحماد توضح لنا مدى شرعية انفصاله عن الخليفة وتابعه . وامتزجت المصلحة المادية وبررت بسبب أسمى وهر الطابع الدينى ، فتحلل حماد من ولاية الخليفة الشيعى « الحاكم » وفي نفس الوقت نبذ مذهبه الشيعى المرفوض . ويقول لنا ابن خلدون (٢٠) «وقتل الرافضة وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين (أبر بكر وعمر) ونبذ طاعة العبيديين جملة . وراجع دعوة آل المباس» . إذا كانت هذه المعلومة صحيحة (لم يسجلها إلا ابن خلدون وحده) فنحن أمام حدث هام سوف يكون له بعد ثلاثين عام أثره الراضع على الأمير المعز .

الأعمال الحربية التي بدأها حماد في يونيه سنة ١٠١٥ م (٥٠٥ هـ) انتهت في مايو سنة ١٠١٦ (٢٠١ هـ) لصالح باديس الذي مات فجأة عند محاصرة القلعة ولم يصل بعد الى النصر النهائي ، وكان ولى الأمر الفاطمي قد مات أيضا منذ فترة فأصبح الحكم في يد الأمير و المعز به الذي يبلغ من العمر الثماني سنوات .

كان هذا الغلام واعيا للمنصب الذي سيتولاه ، فعند وصول خبر وفساؤ أبيه ، رفع الجيش المصار عن القلعة وعاد لتشييع جثمان باديس ، كانت الطبول والرايات تتقدم التابوت ، وكان الموكب على جانبيه حتى وصل أبواب المهدية . شاهد الأمير الصغير العرض الطويل وهو ثابت على جواده ، ثم

[.] ۲۲۸ : ۳ : ۲۲۸ .

جانت رحدات الجيش وحدة تلو الأخرى تهايمه . وبعد شهر ترك المعز مدينة المهدية والتجه نحو صبره (المنصورية) ودخلها وسط القرح العام (٦١) .

لقد كسب قلوب الناس بشبابه وطيبة خاطره ، والملاحظ أنه أراد منذ الساعات الأولى اكتساب شعبه مثلبا قعل جده المنصور . فقيل استلام جثمان أبيه في المهدية ، حيث بايعد الشعب كان « يركب في كل يوم ، ويعود الى قبد السلام ، ويطعم الناس بين يديه ، وينصرف الى قصره » (٦٢) رأى المعز في حجر وزيره « ابن أبي الرجال » الذي أدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة ، وكان الشيعة لا يشكون في ذلك ، وما لبثوا أن عرفوا الحقيقة . فالمؤرخون نقلوا لنا عدة روايات عن الحادثة التي كشفت للناس عن مشاعره السنية المالكية .

كان ذلك خلال احتفال في القيروان : خرج المعز الى المصلى في زيئته وحشوده وكان لا يزال غلاما ، فكها به فرسه ، فأسرع الغلام ببعض الدعوات ذاكرا اسم أبا يكر وعمر . فسمعته الشيعه المرافقون لسه ، فيادروا إليه ليقتلوه ، مما أثار حرسه الزنجي ورجاله ، فهجموا على الشيعة وقتلوا منهم الكثير . وهجم الجنود والعامة في القيروان علي « درب الممّلي » – الحي الذي يسكنه الشيعة المتسترون – وقتلوا كل من فيه وسلبوا دورهم وأموالهم فسمى هذا المكان ببركة الدم وبقى معروف بهذا الأسم لمدة قرنين ، وقد استطاع للفيف من الشيعة اللجوء الى قصر المنصور فحاصروهم ، ولما اضطروا للخروج قتلوه عن آخرهم .

منذ ذلك الوقت تكررت حرب الإبادة في مدن إفريقية الرئيسية . وقال

⁽۲۱) آبن مناري : البيان ۱ : ۲٦٨-۲٦٧ .

⁽۲۲) اليان ۱ ، ۲۲۷ .

الشاعر القاسم بن مروان مستبشرا

كما تتلوا بأرض القيروان ،

« سوف يقتلون بكل أرض

ويصعب علينا وضع جدول زمني مؤكد لهذه الحركات الشعبية ، وليس ني استطاعتنا اثبات ما إذا كان الأمير بعيدا عنها ، أو كان يدير هذا الهياج الجماعي كما يقول ابن بسام (٦٣) أو كان يديرها حاكم القيروان لإفساد العلاقة بين سيده والقاهرة كما يقول ابن الأثير . والمؤكد هو أن القاهرة ، لم تدين هذه الضربات . فبعد عدة أشهر من مجزرة القيروان بعث الحاكم لتابعه المعز بالسفارات والهدايا النفيسة ولقهه وشرف الدولة ، و ولم يذكر شيئا عن الاضطهاد الدامي الذي راح ضحيته الشيعة ۽ (٦٤) . وبعد ثلاث سنوات سنة . ١٠٧٠ م (٤١١هـ) استلم المعز خلعة رائعة لم ير الناس متلها وسيفا مرصع بالأحجار الكريمة وقُرنت عليه رسالة محملة بشواهد التقدير . وفي نفس العام لما علم الخليفة الفاطمي يسقوط الأمويين في قرطية ، أرسل للمحر خمسة عشر علما منسوجا بالخيوط اللهبية ابتهاجا بهذا الحدث السعيد. ، وقد استقبلها الأمير باستعراضُ كبير . وكان على والظاهر؛ خليفة الحاكم أن يحتفظ تجاو تابعه بنفس الود .وفي سنة ١٠٢٣ م (١٠٤هـ) كان المعز يبلغ من العمر ستة عشر عام ، ويقول البيان (٩٥) أن الخليفة أرسل له «بتشريف عظيم لشرف الدولة . فقرئت به سجلات ما وصل قبلها مثلها أجل حالاً ولا أعلى مقالاً وأضاف لقبا الى لقبه » فسمأه « شرف الدولة وعضدها » ومن بين الهذابا

⁽٦٣) التجائي : رحلته ص ١٧ ، ١٩ .

⁽٦٤) ابن الأثير : الكامل ٧ : ٧٩٥ ، ابن هذاري : البيان ١ : ٣٦٩ .

⁽۲۵) البيان ۱ : ۲۷۱ .

التي أرسلها إليه و ثلاثة أفراس من خيل ركوبه ، بسروج جليله وخلعة ننيسه من نفيس ثيابه ، ومنجوقين (رايتان) منسوجين باللهب على قصب نضد ، ... فلقيها شرف الدولة وعضدها أجمل لقاء ، وأعطاها حقها من الإكرام والاعتناء ، وقرئت السجلات بين يديه ، ثم قُرئت بجامع القيروان ، رأمر بنسخها ، وانقلت الى الآفاق ، فكان لها من السرور ما لا يوصف يه . لمكلًا قال ابن عدّارى الذي استقى هذه المعلومات من مؤرخين مجهولين لنا اليوم ، ويبدو إند كان يعكس نوعا من التفاؤل الرسمى . ويبدو أن خلال العبس والعشرين عام الأولى من حكم المعز لم يكن هناك ما يمكر صقو العلاقات التقليدية بين إقريقية ومصر القاطمية . وعند قراءة البيان المغرب ، تراوديًا الرغبة في الاعتقاد أن الشعب كان يشارك بصدق وإخلاص السلطان الشاب ، وكانت البلاد تأمل في التخلص من الشيعة ، الذين أصبح وضعهم غير محتمل في القيروان . فبعد عامين من المجازر الأولى خرجت طائفة من الشيعة يريدون المهدية للركوب منها الى صقلية ، وفي الطريق « تنافر أهل المنازل عليهم فقتلوهم وفضحوا بعض شواب النساء ومن كان لها منهن جمال ثم قتلوهن » كانت تجاوزات السكان تلاتى التسامح من قبل الصالحين ، وكان الحديث يدور عن كره المشرقيين ، وقد اكتشفوا في منازل الشيعة كتب تبين كنرهم وفكرهم المناهض . أما بالنسبة للمعن ، فبالرغم من تقدير الخليفة له ، هذا التقدير الذي يرفع من سلطانه ، كان المعر يحظى في الوقت نفسه بإخلاص شعبه وعرفانه لأنه وضع فيه كل آماله ، كانوا يتداولون القصص عن الأحلام التنبؤية التي رآها ، وكانوا بعلنون عن كرهه للشيعة المقيمين في مملكته ، لم يمد في موقفه من الشيعة أي التباس . ويؤكد التجاني (٦٦) أن المعز لم

Journal asiatique, 1852, II, 91 . ، ١٩ ملتد ص ١٩ ، ١٩ رجلتد ص ١٩٠١

يكف عن كره الفاطميين وكان يلعنهم سرأ ، ويحرض علي قتل أنصارهم . ويقول لنا ابن خلدون « وأغضى عنه الطاهر من ذلك وابنه معد المستنصر من بعده . واعتذر بالعامة فقبل واستمر على إقامة الدعوة والمهاداة » (٦٧) .

نعن لا نعرف بالشعديد تاريخ تسلسل أحداث اضطهاد الشيعة من جانب سكان بلاد البربر والعرب في إفريقية ، كما أننا لا تعرف بالتحديد تواريغ تحلل المعز من الولاء للفاطميين ولا الحجة التي اختارها لحلمهم رسميا .

إن ابن عذارى يحدد الحركة الرئيسية لهذا التحلل من الولاء للفاطميين بسنة ١٠٤١ (٣٣٤هـ) بأن أظهر المعز الولاء للخليفة العباسى « الغائم » وبالتالى تحلل من الولاء للفاطميين . أما ابن الأثير وابن خلكان فيحددان تاريخ هذه الواقعة الفاصلة بسنة ٣٤٠١ م (٣٥٤هـ) ويحددها ابن خلدون بسنة ١٠٤٥ م (٣٥٤هـ) ، والذى يهمنا هو أن هذه الوقائع جرت كلها بين سئة ١٠٤١ ، ١٠٤٥ وأن سنة ١٠٤١ كانت بداية التحلل شيئا فشيئا والأعرام التى تليها كانت لتطور المواقف وتأزمها .

جاء عهد خليفة بغداد ردا على ولاء للعن ، وكان هذا العهد مصحوبا بكثير من الهدايسا ، عبر الطريق البحري بين القسطنطينية (عاصمة الامبراطورية البيزنطية) وإفريقية . (٦٨)

ومع ذلك قان خلع القاطميين القير المعلن ، لا يرضى الشعب الذى كان يكن للمشرقيين الحقد الدفين ، وكان يجب على الانفصال السياسى ، أن يترجم بقطيعة رسمية مع هؤلاء المبتدعة . ومن عدة ستوات مضت قاطع كثير من الصالحين من أهل القيروان صلاة الجمعة ، حيث كان الدعاء للخليفة

⁽٣٧) أبن خلدون : العير ٣ : ١٨_١٨ .

⁽٨٨) البيان ١ : ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٩ .

الفاطمى : وصلت هذه القطيعة للرجة أن المسجد كان يبدو أحيانا خاريا ، فأمر المعز بالكف عن الدعاء للخليفة الفاطمى ، وأمر بعد فترة أن تُلعن الشيعة من فوق منابر المساجد . نقل ابن علاري (١٩٩) عن مؤرخ معاصر له خطبة قيلت بهذه المناسبة في عيد الأضحى سنة ١٠٤٨ م (١٤٤٠) ويقول لنا أن الأمير لم يقتنع بشدة اللعنات وأمر بجعلها أكثر تشددا في خطبة الجمعة التالية لدرجة أن « أبلغ في ذلك بما فيه شفاء لنفوس المؤمنين » وأصبحت هذه اللعنات والسباب من الإضافات الاجهارية لكل عمل هام . ولدينا دليل مؤثر في هذا الشأن : إنه غلاف مصحف أهداه الأمير الزبرى للمسجد الجامع في القيروان وعليه خط بيده السطور الآتية :

« يقول عبد الله وحبيبه المعز لدينه : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله (ﷺ) وأن أحسن الرجال بعد رسول الله هو أبر بكر ثم عمر ثم عشمان ثم على (رضى الله عنهم جميعا) ، يا إلهى ، إلعن بنى عبيلا ، أعداؤك وأعدا م وسولك . ليجعلنا الله تستفيد من الحقد الذي نكنه لهم . لقد أوقفت هذا المصحف لصالح المسجد الجامع في القيروان بعمل مشكور (محمود) في نظر الله العظيم . سبحان الله . »

لا يوجد في هذا البلد وثيقة أكثر تأريخا ومدلولا ونوايا : فالأمير الزيرى في الوقت الذي يلعن فيه سلالة المهدي و عبيد الله » فإنه يجد الرسول والصحابة وأعطى للخلفاء المكانة التي منحها لهم التاريخ وأن و عليًا » جاء رايمهم . وأن عملية الوقف لصالح المسجد الجامع في القيروان لها دلالتها ، التي تعنساف الي مجموع الأعمال التي تبين احترام الأمير لمؤسسه سيدى عقهة . فقد أهمل الفاطميون هذا المسجد الذي اعتنى به الأغالبة ، وقد أراد

⁽۲۹) البيان ۱ : ۲۷۸_۲۷۷ .

واحد من الفاطميين هدم المحراب ، وتغيير القبلة التي حددها عقبة بناء على الرؤية ، ولما لم يستطع ، أراد انتهاك حرمة مقبرة سيدى عقبة لينمحى ذكراد . إن هدايا المعن للمسجد الجليل ، والأعمال التي أمر بها فية ، والخاصة بتزيين وإثراء مقبرة البطل ، كل هذا يهدو عليه طابع التعويض والعودة الى التراث السنى والوطني لإفريقية (٧٠) .

إن إصلاح الأسقف وخشب المسجد (٧١) وهدايا المخطوطات الثمينة ووسائل الإساء ، كل هذا واكب الإنفسال أو سبقه بقليل . هناك وقائع أخرى جعلت الانفسال أكثر ظهووا ، فغى سنة ١٠٤٩ م (١٤٤٨) أمر المعز بإحراق رايات الفاطميين والأقمشة المنسوج عليها اسمهم ، بالاضافة الى إجراء أكثر خطورة : وهر إطراح الولاء لهم فى سك النقود ، أى أنه منع تداول النقود التى سكها الفاطميون ، وأمر بتغييرها ، ونتج عن ذلك غلاء فى المواد الغذائية أحس به عامة الشعب . وفى سنة ١٥٠١ م (٣٤٤هـ) أمر المعز صباغى القيروان بعباغة الأقمشة البيضاء المسادرة من سوق القماش باللون الأسود (رمز العباسيين) ، وقام الخياطون بصناعتها عبا ات روزعت على رجال الدين وأفراد الحاشية . ارتدى الجميع هذه الكسوة العباسية ورافقوا الأمير الى المسجد لسماع خطبة فى تمجيد بنى زيرى والدعاء لخليفة بغداد ، وانتهت المعطبة - كما جرت العادة - بلعنة الفاطميين المنبرذين (٧٢) .

إبن عناري يحدد هذا العمل الاستعراضي في شهر جمادي الثاني سنة

Voir G. Marçais, Le tombeau de Sidi " Ogba, dans Annales de (V.) l'Institut d'études orientales, V, pp. 1 ss.

Voir G. Marçais, Coupole et plafons de la Grande Mosquée de (VI) Kairouan, Tunis-Paris, 1925, pp. 32 ss.

⁽۲۲) البيان ۱ : ۸۰۰ .

المحرة الهلائية ، وإذا رجعنا لابن خلدون نعرف منه أن الهلائية دخلوا طهور الهجرة الهلائية ، وإذا رجعنا لابن خلدون نعرف منه أن الهلائية دخلوا إفريقية في نفس عام ### هـ . فقد قررت حكومة القاهرة التدخل بطريقتها الخاصة ، كما تدخلت في عملية ، كتامة وعملية طرابلس . فكان على القاهرة تنظيم مصير إفريقية ، بدون التدخل المباشر ، ولكن عن طريق وسيط ثالث ، وبأرخص الأثمان ، ومهما كانت النتيجة فسوف تحصل القاهرة على ما كانت تنتظره . فهي تقرم بمعاقبة تابعا متمردا ، وفي الوقت نفسه تتخلص من ضيوف ثقلاء ، ولم تكن تتوقع أن العقاب سيحدث كوارث بهذا الاتساع ، إن رحيل عرب بني هلال المستوطنين أصلا على الضفة الشرقية للنيل ، ودخولهم بلاد البربر الشرقية ، سيتبعه توقف النشاطة الاقتصادي ، وانقلاب الأحوال السياسية ، وتدهور الحضارة . ولنحاول الأن تحديد صورة هذا العالم قبل أن السياسية ، وتدهور الحضارة . ولنحاول الأن تحديد صورة هذا العالم قبل أن يؤول بمفعول التحلل .

ب -- شعب إفريقية

لم تكن مملكة بنى زيرى بنفس الاتساع ، الذي كانت عليه ، عندما وهبها الخليفة الفاطمى لبلكين مؤسس الأسرة . لقد رأينا كيف تصرف خلفاء بلكين لمسالح ينى عمومتهم من بنى حماد ، فقد وهبهوهم مقاطعة حربية لحمايتها ولكن سرعان ما تحولت هذه المقاطعة إلى دولة مستقلة . ولقد أقرّت هذا التقسيم إتفاقية سنة ١٠١٧ م (٨٠٤هـ) وبذلك فقد أمير القيروان السيطرة على الجزء الأكبر من بلاد صنهاجة القديمة ، من تاهرت حتى حدود الأوراس ، ها فيها العاصمتين أشير القدية والجديدة ، وكذلك قلعة بنى حماد . كان الأمير الزيرى لا يحتكم إلا على مقاطعة إنريقيسة القديسة التى أصبحت وفريقية » وتشمل قسطنطينة وميله من ناحية وطرابلس من ناحية أخرى ، أما المدود التى تفصل بين الدولتين المتنافستين ، فكانت غير واضحة المعالم

وموضوع جدال حتى بعد اتفاقية ١٠١٧ م مما جعلهما ضحية لهذه الكارثة ، لأن التقسيم جعلهما أكثر تعرضا للهجوم ، ولن غيز بين هاتين الدولتين عند تناول الوضع السكاني والاقتصادى .

نقى كل من البلدين يتكون قاع المجتمع من البرير ، والقباتل التى يذكرها البكري ، هى ذاتها تقريبا التى كانت تقيم علي نفس الأرض فى الترن التاسع ، زمن البعقوبى ، وإذا كان البعقوبى قد أهمل ذكر كتامة منطقة القبائل ، قالبكرى يذكرهم دائما ، ويرجع ذلك للدور التاريخى الذى لعبوه ، ولقت إليهم الأنظار .

أما بالنسبة للعناصر الأخرى والتي سبق أوردها اليعقوبي في القرن التاسع الميلادى : الفرس ، الروم ، الأفارقة وأخيرا العرب . قالجدير بالذكر هو إختفاء الروم والقرس ، أي سلالة الحكام البيزنطيين القدامي الذين استقروا في البلاد بعد تعريبه ، وبقايا الفرق العسكرية الفارسية المهاجرة منذ عهد العباسيين . والمكرى لا يعرف لا الفرس ولا الروم . قلا مدن الجريد تحتوي على روم ولا المراكز المحصنة في العلريق الشرقي تحتوي علي فرس ، ومن العبث الاعتقاد بأنهم تركوا البلاد ، بل يكن التسليم بأنهم اندمجوا مع أبناء الوطن الأصليين . والبكرى يسمح لنا يشرح هذا الاندماج خصوصا على حدود علكة الأغالبة القديمة ، ففي بلاد الزاب ببسكرة والمدن الصحراوية المحيطة ، حيث أنشأ البيزنطيون المحميات ، تقابل اليعقوبي مع فارسيين ، أما البكرى فلم يجد إلا البيزنطيون المحميات ، تقابل اليعقوبي مع فارسيين ، أما البكرى فلم يجد إلا المولدين (٧٣) . وتعتقد أنهم أبناء أجانب لازوجوا من بنات البرير ، مئلنا المولدين في العصر المديث في مدن الجزائر ، حيث كان الأتراك يحرسون المراتم

⁽۷۳) المعقرين ، البلدان ص ۱۰۲ ، البكري ، المقرب ص ۱۰۳ ، المرلدون مرجودون منذ اللان التناسع ،، أبو العرب ، طبقات علمناء إقريقية وتونس ص ۱۸۰ ، ۲۷۲ ، ۹۹۰ .

وتزوجوا من نساء البربر ، وتتج عن ذلك سلالة كلوغليس Qouloughlis . كذلك المال في طبئة عاصمة الزاب في ذلك الوقت حيث حل الهجنساء محل الروم ، وقد ثبت وجودهم مئذ مائة وخمس وسيعون عام من قبل . وعلى كل فلم يكن الاندماج كاملاً ، عا أدى إلى وجود الفروق بين سكان المنطقة ، وبقاء العنصرية العربية واضحة ، وبعطينا البكرى إيضاحات مقيدة في هذا الشأن حيث يروى : « إذا كانت الحرب بين العرب والمولدين ، استمد العرب بعرب مدينة تهوذا وسطيف ، واستمد المولدون بأهل بسكرة وما والاها » .

وعلى كل حال كانت هناك مراكز ، خلت من العناصر الأجنبية ، التى كانت تشغلها في الماضى ، بسبب الهجرة لمناطق أخرى ، أو أن الاندماج قد أذابهم مع أينا ، الوطن الأصليين . وفي « باغاية » المدينة المحصنة القدية ، التى كان يعيش قيها في القرن التاسع « قيائل من الجند ، وعجم من أهل خراسان ، وعجم من عجم البسلد من بقايسا الروم » لا يمذكر البكرى أى شئ هن هسلم المجموعات ، وقد لاحظ فقط أن « أهلها كلهم اليوم على رأى الإباضية » (٧٤) ، وقد قال لنا أن السهول المحيطة ، كانت محتلة بقيائل مزاته وضريسة البربرية ، وكلها تنتمى للخوارج . ونحن نفترض إذن أن البربر المين يمتنقون المذهب الخارجي الوطني القديم ، حلوا محل العناصر السابقة التي عرفناها ، في هذا المكان في النصف الثاني للقرن التاسع .

وقد بحثنا في عصر الأغالبة مسألة و الأفارقة به وقلنا أنهم من أبتاء الرطن الأصليين أو الأجانب ، وكانوا يتكلمون اللاتينية ويحتفظون بالعقيدة المسيحية . ولم تندهش لتضاؤلهم في القرن التاسع ، فقد قل استعمال اللغة اللاتينية وبدأت المسيحية في التقهقر . وبعد أن أشار البكرى عن وجسود

⁽٧٤) اليمترين : البلدان ص ١٠٧ ، البكرى : المقرب ص ١٤٥..١٤٥ .

وقبائل أفارقة في في برقة (شمال شرق ليبيا) يتكلم عن وجودها في كل من إفريقية وقابس ومنستير عثمان (قرية على بعد يوم من القبروان في الطريق إلى ترنس) (٧٥). نستطيم إذن اعتمادا على رواية البكرى أن تقرر تواجدهم .

تعن لا تشك في وجود مسيحيين في الجريد ، وقد قابلهم اليعقوبي ، وسيبقرن فيها طيلة العصور الوسطى وحتى القرن الرابع عشر وسوف يتكلم عنهم أبن خلنون (٧٦) . ومع ذلك فمن الواضح أن البكرى الذي كان عليما بأحوال قسطيليه ومراكز المنطقة ، لم يندهش من وجود الأفارقة (٧٧) وقد قابلهم في قابس ، حيث لم يلاحظ اليعقوبي وجودهم ، وقد ذكرهم البكرى بعد قرن من الزمان . وقد كونوا جزماً هاما من السكان لدرجة أن الإدريسي لقب قابس « بحدينة الأفارقة » . (٨٨) يهدو أند كانت هناك مراحل للتركيز التصاعدي للأفارقة وتجمعهم في المدينة حيث التقاليد اللاتينية والمسيحية كانت لا تزال موجودة .

لقد أشرنا أن في القرن التاسع كان هناك مسيحيون يزرعون شجر الزيترن في الساحل ، ولم يمد الوضع كذلك بعد مائتي عام ، فاليكرى لم يشر الي

⁽٧٥) البكرى : المغرب ص ٥ ، ١٧ ، ٥٩ ،

⁽٧٦) ابن خلدون : العبر ، ترجمة دى سلان ١ : ٣ ، ٢٣١ ، والمسافر مولاى أحمد لأكرهم أيضا في القرن الثامن عشر، رحلات في جنوب الجزائر والدول البربرية : أكرهم أيضا في القرن الثامن عشر، رحلات في جنوب الجزائر والدول البربرية : ألمياشي ومولاي أحمد ، ترجمة Berbrugger باريس ١٨٤١ ص ٢٨٩ .

⁽۷۷) في قفصه وكانت لفتها هي اللاينية في القرن الثاني هشر ، الإدريسي : صفة المفرب وأرض السودان والأندلس من نزهبة المشتاق تحقيق دوزي ودي قويسه (أمستردام ۱۹۲۹) ص ۱۰۲ .

⁽٧٨) الإدريسي : صقة المغرب ص ٢٠١ .

وجود أفارقة إلا فى منستير عثمسان وهو مركز زراعي لمنطقة مجاورة للساحل . وبالنسبة للأثار يوجد كشوف لنقشين ، على مقبرتين لخادمى الكنيسة (٢٩١ قس متوفى فى سنة ١٠٥٠ - ١٠٥١ م والآخر فى سنة ١٠٤٨ م ، هذه الكشوف تؤكد لنا استمرار العبادة المسيحية حتى فى القيروان عشية الغزو الهلالى ، وكان النقش باللاتينية الوحشية (عامية مبتذلة) تدل على وجود الطقرس الدينية وعلى التضامن الوثيق بين هذه اللغة والمسيحية الإفريقية .

وكان لمدينة المهدية نصرانيتها أيضا مثل مدينة القيروان . ويرجع تطابق عاصمة الفاطميين المهدية مع و جمه » الى قطنة حس حسنى عبد الرهاب . قفى سنة ١٠٥٣ كان أسقف مدينة جمه (المهديه) يدعى أنه متفرق على أسقف قرطاج (٨٠). وكانت مدينة و بونة » تزخر بالمسيحيين الذين كانوا يحتفظون بذكرى القديس أوغسطين (٨١) والبكرى لم يذكر وجودهم فى وطبئة » بينما تعرف اليعقوبي على كثير منهم . كما كانت توجد كنيسة للمذراء في قلمة بنى حماد (٨١). إن هجرة بنى حماد من القلمة إلى وبجاية »

Voir Saumagne dans le Bulletin archéologique, 1928, p. 370; (۷۹)
Seston, Mélanges de l'Ecole de Rome, 1936, pp. 101 ss.
Mas Latrie, Traités de paix et de commerce concernant les rela- (٨٠)
للذن مع المعالمة الم

⁽٨١) البكري والمقرب، ص ١٥٠ م ٥٠ .

Voir Cénival, Le prétendu évéché de la kal'a des Beni Hammâd, (AY) dans Hespéris. XV, 1932, p. 14.

البابا أسقفا ١٠٧٦ بناء على طلب بني حماد (٨٣)

علاوة على هذه النصرانية الإفريقية التي وصلت الينا مصادفة ، هناك نصرانية قرطاج التي كان الأسقف يطالب لها يأولوية وهمية ، وبذلك نكون قد قمنا ما عدا السهو والخطأ بحصر كل ما تبقى في بلاد البرير الشرقي ، من المجتمعات الصفيرة الأصلية التي احتفظت بعقيدة الأباء . والمقصود بذلك هم المسيحيون المولودن في الهلاد ، وعددهم كان يقل من سنة إلى أخرى ، ففي سنة ١٠٥٣ وصل عدد الأساقفة الى خمسة ، وكان عددهم مائتين تقريبا وقت الغزو الإسلامي (٨٤) لقد بقيت الكنيسة الإفريقية بصموية . لقد خنقها الإسلام (٨٥) بدون أي اضطهاد محكن أن نتخيله ، هناك ملاحظتان ينبثقان من المعلومات القليلة السابقة : أولا : إن المسيحيين ليسوا إلا حضريين (من أمل المدن) وثانيا: يخلاف المراكز القديمة حيث تمثل المسيحية تراثا أصلبا. مثل قابس وبونة وقرطاج نلاحظ أن المنن التي كان يفضلها ، ويتجمع المسيحيون فيها ، حيث توجد كنائسهم واسقفيتهم ، مثل القيروان والمهدية وقلمة بني حماد وبجاية هي مدن أنشأها السلمون وكانت عراصم إسلامية ، إن دلت هذه الملاحظات على شئ ، قهى تسدل على أنهم وجدوا في هذه الأماكن ، التي لم يستقروا فيها إلا من عدة أجيال فقط ، تساهلا لمزاولة عبادتهم ، ووجدوا أنشطة تجمل حياتهم أكثر أمنا في ظل الحكم الاسلامي .

أما بالنسبة للمنصر العربي ، فقد ازذاذ تراجده بإفريقية ، والبكرى قد ذكرهم إثنى عشر مرة ولكنا نشك في تعداده الفير كامل . فهخلاف القيروان

Mas Latrie, loc, cit. (At)

L'expression est de Seston, loc, cit., p. 118.

Voir Mas Latrie, Traités de paix et de commerce .. pp. 16-17. (AT) Documents, pp. 2-5.

فالمدن التى يجب أن نلاحظهم فيها حسب رأي البكرى هى : بالنسبة لمقاطعة إفريقيا القديمة (إفريقية) قابس ، والمهدية ، منستير عثمان ، ومجانه التى تقع شمال شرق مدينة تبسة ، ومدن ميله وسطيف وطبئه الواقعة على حدود إفريقية الشرقية ومدن ولاية الزاب مثل تلجا وتهوؤه .

يخلاف المدن ، هناك نصان يجب تسجيلهما : في ضواحي المركز القديم واجّر على مساقة أربعين كيلومتر شمال غرب القيروان في منطقة صخرية ووعرة أنجد يعض « قبائل من العرب ، ومن الهرر ضريسة ومرنيسة » (٨٦). وفي المسهول المعدة على شمال الأوراس غرب باغساية «تمشى ثلاث مراحسل» ثلاثة أيام « في مساكن العرب ، وهوارة ومكتاسة وكبيئة وأرجله » (٨٧).

ويخلاف سلالة المهاجرين ، الذين يقيمون في الحضر من أعضاء المكومات المتتالية والعلماء المسلمين أو حرس الجند ، تجذ في يلاد البربر الشرقى ، غرب يدو يسكنون الخيام ، ويعيشون في تكافل مع المجموعات البربرية ، وقد تشبهوا يهم تقريبا . ولم يحدد الهكرى إلى أية قبيلة في الجزيرة العربية ينتمي هؤلاء العرب : هل كان هذا إهمال من مُخيريه ، أم أن المعنين أنفسهم لم يهتموا بالأمر ؟ ومن الملاحظ أن مجموعة العرب في تهوذة ، الذين يتهاهون بأنهم قرشيون ، والعرب الذين يقيمون في قرى تلجة ، ويدعى البعض مئهم بأنه يني ، والبعض الآخر بأنه من الاوس القيسيين ، فاليعقوبي يكلمنا عنهم ، أما الهكرى وهو جغرافي القرن الحادي عشر فلم يقل لنا الى أي سلالة ينتمون . تراودنا إذا الرغية في الاعتقاد بأن ذلك يرجع إلى فقدان نسبى لشخصيتهم وغطرستهم العنصرية ، ودليل ضعف وافتقار واندماج في

⁽٨٦) البكرى : المغرب ص ٥٤ .

⁽۸۷) اليكرى: القرب ص ۱٤٤.

السواد الأعظم . ألم يتنق هذا التدهور مع زوال دورهم في الدولة 1 وبمقارنتهم بكتامة وصنهاجة فالعرب لم يصبحوا أسياداً في البلاد التي غزاها أجدادهم .

ح - الحالة الاقتصادية في إفريقية

بخلاف الإنفسال الديني القائم دائما بين شعب إفريقية والسادة المشرقيين ، هناك وضع آخر حرض بنى زيرى على إطراح الولاء لهم . هذا الوضع هى : الإحساس بالاستقلال الناتج عن الازدهار الاقتصادى للملكة . ولم يكن هذا الازدهار موضع جنال ، فبعد أربعة قرون سيدلى ابن خلدون بهذا الرأى عن إفريقية المعز « وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه » (٨٨). وغم أن رأيه متأثر بالتفاول الرسمى المؤرخ الرسمى لبنى زيرى ابن الرقيق ، إلا أن الجغرافيين المحايدين مثل البكرى أكنوا هذا الرأى ، والأكثر تأكيدا هو حصولنا على آثار فنية ترجع إلى هذا العصر . لدينا الانطباع بأننا أمام امتداد أو عودة أو قمة الحضارة التى ظهرت فى القرن التاسع مع الأغالبة ، والتي أوقف نهضتها الاستغلال الضرائبي للفاظميين ، وغزوات صاحب الحمار ، ثم أستعادت قوتها بفضل عودة السلام وأعطت أحسن ثمارها وأرقها وآخرها .

ويرجع كتاب البكرى إلى النصف الثاني من القرن الحادى عشر ، ولكنه يصلح للنصف الأول من القرن أى النترة التي تشغلنا ، فهو يقدم لنا إيضاحات كافية عن موارد إفريقية من الزراعة والصناعة والتجارة .

كانت بلاد البرير الشرقية منتجة للقمع والزيتون والبلع بكثرة متزايدة عن إنتاجها في عهد الأغالبة . أما البلاد المروفة بزراعة القمع ، فهي تتركز في

⁽۸۸) ابن خلدون : المير ۳ : ۲۱۰ .

الرلايات الشمالية (مجردة وواد مليح) ، وكان محصول القمع بهاجة مؤكدا ، منذ أيام الرومان في الرقت الذي كان فيه القحط يجتاح كل مكان . وفي بعض السنوات كان التصدير يقوق حمولة ألف دابة يوميا بدون أن يكون له تأثير على الأسمار . (٨٩) كانت مدينة « بل » تتباهى بأحسن أرض لزراعة الحبوب ، وتتباهى مدينة الأنصاريين بانتاج أحسن قمع بإفريقية (٩٠). وعلى كل فقد كانت هذه الزراعة تمتد أكثر نحو الجنوب في السهول الناخلية التي ستتصحر في الستقبل . ومدينة « فحص الدرارة » المعدة غرب التيروان كانت معروفة بالانتاج الرفير عندما تغيض الأنهار المجاورة وتروي أرض المنطقة . ويؤكد البكري أنه « يفجين الدرارة يصاب فيه في السنة المحبية المحبية المحبية المحبية المحبية المحبوب أنه » المحبوب الدرارة يصاب فيه في السنة

وكما هو الحال في أيامنسا هذه ، يوجابي شجر الزيتون في هذا السهل الفسيح ، الذي يتاخم الساحل الشرقي ، من صفاقس إلى حدود تونس . ويكلمنا الجغرافي البكري عن غاية الزيتون المسماة و الساحل » ، هذه الغابة تطرق مدينة صفاقس وهي المركز الكبير لصناعة الزيت (٩٢) ، وتمند المزارع في بعض المناطق نحو الداخل ، ولا يتارن سهل القيروان بما هو عليه اليوم ، ويتول البكري و ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها ليس لهم محطبة غيره وان ذلك لا يؤثر في زيتونها ولا ينقص منه » (٩٣)

⁽۸۹) اليكري : المقرب ص ٥٦ .

^{(.} ٩) البكري : المغرب ص ٤٧ ، ٥٤ .

Voir J. Despois, La Tunisie orientale. ، ٢٤ البكرى : المغرب ص ٢٤) Sahel et basse steppe, Paris, 1940, pp. 128, 159.

⁽٩٢) البكري المقرب ص ٧٠ ، ٢٤ ،

⁽۹۳) البكري: المقرب ص ۲۲ .

أما ثروة بلاد الجريد فهى « النخيل » ، « يخرج منها (توزّر) فى أكثر الأيام ألف بعير موقورة قرأ وأزيد » (٩٤) وبعطينا البكري تفاصيل محددة عن الأنواع الجيدة التى تنتجها واحة يسكرة .

ويرى البكرى أن إفريقية بلد غنى بهساتين الفواكه التى سيخربها الغزو الهلالى . ويغطى شجر الفواكه مرتفعات زغوان ويطوق تونس ، ويزين قرطاج وأطلالها . أما التيروان فتمونها الحنائق المحيطة بها ، والنارنج اللى يأتى من سردانية على بعد ثلاثين كيلومتر من الشمال الغربى . أما التين الطازج فكان يأتى من قلشانه على بعد خمسة عشر كيلومتر نحو الجنوب ، وإذا الجهنا أكثر جنوبا نجد مدينة قمونية مصدر التين المجفف . ومدينة مذكود الوطن الأم لهذه المنطقة الغنية و وحولها ثمار كثيرة من جميع الأصناف أكثرها شجر التين وهو يفوق تين إفريقية طعما ومنها يحمل التين تبيبا (مجففا) الى القيروان فيكون أعلى من سائر التين ثمنا وأكثر طلبا وهي في غاية من شجر التين لا تظهر لمن قصدها حتى يبلغها » (٩٥) ، كذلك مدينة قابس ، قهى تنتج جميع أنواع الغواكد ولكتها تصدر لمدينة القيروان انتاجها من المرز (٩٦) .

بخلاف هذه الزراعات التي لا تزال من زراعات شمال إفريقيا ، كانت إفريقية تقوم في القرن العاشر والحادي عشر بزراعة بعض المحاصيل التي ستترقف بعد ذلك . كان قصب السكر ينمو في قابس وواحات الجريد . أما الزعفران فكان يؤرج في قرطاج والمناطق المرتفعة من الداخل « أوية » ولربس

⁽٩٤) البكري : المقرب ص ٤٨ .

⁽٩٥) البكري : المقرب ص ٢٩ ، ٧٠ .

⁽٩٦) البكري : المغرب ص ١٧ .

ومجانة . (۹۷) والقطن في قرطاج وواد سهر (حوض هدنـــد) بالمسيلة ونجاوس (۹۸) .

والكلام عن القطن يجعلنا نتطرق الى الزراعات الصناعية ، وتبدو إفريقية العصور الوسطي بلذا للمصنوعات ، وقد وجدنا في القرن التاسع ورشا للتسيح وللسجاد ، وقد تطورت صناعات النسيج منذ ذلك الحين ، وقد اكتسبت شهرة في هذا المجال كل من قابس وصفاقس وسوسة والقيروان . وشجر التوت الذي ينمو في قابس جعل « حريرها أطيب الحرير وأرقه » . واكتسبت صفاقس شهرة في صناعة الجوخ ، ويقول البكري « وعمل أهلها في القصارة والكمادة (شهرة في صناعة الجوخ ، ويقول البكري « وعمل أهلها في القصارة والكمادة (حبيغ النياب) كعمل أهل الاسكندرية وأكثر وأجود » (٩٩) وفي القيروان تنسج الأقمشة الناعمة ولكنها ترسل للتجهيز عند قصار الأجواخ في سوسه ، التي تصنع الأقمشة التي يتخللها الخيوط الذهبية (١٠٠) وهي من ضمن الهدايا التي يرسلها سلطان بني زيري للخليفة في القاهرة . وأخيرا يجب ذكر مركزا هامسا في منطقة قفصة ، ويدعي « طراق » ، همذا المركز يصمدر مركزا هامسا في منطقة قفصة ، ويدعي « طراق » ، همذا المركز يصمدر الكساء الطراقي » وهو أساس قطع الصوف الكبيرة التي تنسج الأن في هذه المنطقة . (١٠٠)

لقد قيل أن صناعة الأقمشة من الصناعات الهامة في العصور الوسطى ،

⁽٩٧) أين حوقل: صورة الأرض ص ٨٤ ، ٨٦ .

⁽۹۸) این حوقل ؛ ص ۷۵

⁽۹۹) البكري: المقرب ۱۷، ۲۰،

⁽۱۰۰) البكري : المقرب ص ٣٦ .

⁽۱۰۱) البكرى : المقرب ص ٤٧ .

مثل التعدين في العالم الحديث . وبجانب هذا النشاط الإنساني الهام ، توجد صناعات أخري ذات طابع مفيد مزدوج القيمة الفنية . فالنحاس الذي يحصلون عليه من منطقة القبائل الصفرى ، كان يصنع بواسطة المنحاسيين لعمل الثريا ، ومصابيح المسجد الجامع في القيروان . أما صناعة المنزف ، فقد كانت مزدهرة في صهره (المنصوريه) وفي تونس ، وقد حصلنا على شقف كثيرة تعود الى القرن العاشر والحادي عشر ، ويقول البكرى « ويصنع بترنس آنيسة للما ، من الحزف تعرف بالربحية شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف » (۱۰۲) ونتخيل القلل الرقيقة جدا المصنوعة من الصلصال مثل التي استخرجت في بجاية . أما بالنسبة للزجاج الذي لم يذكر في أي نص ، فوجدوه كان مؤكمنا بفضل الاكتشافات الأثرية : لقد تم اكتشاف فرنا للزجاج في زويله ، وهي ضاحية من مدينة المهدية ، وفي صبرة المجاورة للقيروان وجدوا بقايا . زجاجية وقطعا جميلة جنا من الزجاج المنقوش ، وأكواب وقارورات للمطور مماثلة للصناعات المصرية في ذلك الوقت . كما ازدهر هذا الذن في قلعة بني حماد وبجابه اللتان ترتبطان ارتباطا وثيقا في جميع مجالات الذن .

كانت التجارة الداخلية والخارجية لإفريقية مرتبطة بانتاج الأرض والمصنوعات. وكانت القيروان أنشط مركز للتهادلات التجارية وكذلك صبرة (المنصورية) مدينة الفاطميين التي أصبحت مدينة بني زيري. فقد أسسها الخليفة المنصور سنة ٩٤٧ م (٣٣٦هـ) على أبواب مدينة عقبة فأخذت هذه المدينة أهمية اقتصادية كبري في عهد ابنه المعز الذي نقل إليها جميع الأسواق وجميع مصانع القيروان (١٠٣). كان لهذا القرار التعسفي ثلاث أهداف،

G. Marçais : " nos Faiences et poteries de ، البكرى ؛ المغرب من ، المغرب من ، المغرب عن ،

⁽١٠٣) ابن علاري : البيان ١ : ٢١٩ ، البكري : المغرب ص ١٩٠ .

[ولا : ضمان ازدهار المدينة الرسمية ، ثانيا : كان ضربة قاضية للقيروان ، المدينة القديمة المشاغبة المحتفظة بمذهب السنة ، والتى لا تزال تحقد على إلناطميين . ثالثا : الرقابة الفعالة على تداول المواد الغذائية الخاضمة المضرائب . كان يربط القيروان بصبره سوران مرتفعان لدرجة أنه لا يكن لأحد دخول القيروان ، إلا بالمرور على صبرة ودفع الضرائب ، كما أقيمت مكاتب المجباية على أبسواب صبرة ، ويقال أن مكتبا واحدا من هذه المكاتب كان يحصل يرميا على ستة وعشرين ألف درهم (أي ثلاثة عشر ألف فرنك غهب) (١٠٤)

كانت صفاقس وقايس من أنشط المراكد التجارية يخلاف صيره وتونس وسيسة والمهدية ، وتعتبر المتستير مركزا لأكبر سوق سترى في يرم عساشيراء (العساشر من المحرم) وهو اليوم الذي يتفق مع قبديند حامية ريساط المدينة (١٠٠٠) . فهي منن ساحلية يتردد عليها تجارها وراء اليحار . وكانت قابس سوقا لمنتجسات الجريد ووساحسل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكانء (١٠٠٠) . وتصدر صفاقس زيتها لمصر رصقلية والمغرب وأوربا (١٠٠٠) . وفي المستير تقوم البواخر الوافدة يشحن الملح من المسانع الكبيرة عي علنه المطنة . وتستخدم هذه المواتي التجارية في الصيد ، وخاصة منتيئة بوئة التي يزورها البحارة الأندلسيون . وتعتبر بحيرة بنزرت المصلة بالبحر منطقة صهد على أي شئ

⁽۱-۶) البكري : المقرب صن ۲۹ .

⁽١٠٥) اليكري : المغرب ص ٣٦ .

[.] ١٧) البكري : المقرب ص ١٧ .

⁽۱۰۷) البكري : المقرب ص ۲۰ .

أرسل شبكى فيتفق معهم على عده معلومة فيخرج العدة التي اتفقوا عليها لا يكاد يخطئ » (١٠٨) عما يرضى عميل الصياد .

تؤكد لنا هذه الموارد بأن الحياة كانت رغده في مدن إفريقية على أقل تقدير ، وتجعلنا نفترض بأن الدولة كانت غبيها .

تمن نفتقر لدقة النظام الضرائبى . ولكننا نفترض أن الفاطنيين كانوا يعتلظون بجزء من هذه الضرائب ، ويقول لنا ابن خلدون أن الخليف ة المعن عند رحيلت إلى مصر قد أوسى بلكين أن « لا يرفع الجهاية عن أهل الهادية » (١٠٩). كان يعنى بلون شك ضرائب الرعى التي يلفعها الرحل البرير ، والضرائب العي تدفعها القوافل . وكانت توجد أيضا مشرائب الجماوك والمنع ويقول لنا البيكرى : « ويعلية ساعل القيروان : سوسه والمهذية وصفافس وتونس لبيت المال خاصة ثمانون ألف متقال » (١٩٠١) (كان المقتال بساوى دينار وهذا الدخل يبلغ مليون وتصف المليون من الفرتك اللهبى) ، ويضيف بأن هذا المبلغ لا يشمل المنزائب الملفوعة عند الدخول والخروج من هذه المدن بأن هذا المبلغ لا يشمل المنزائب الملفوعة عند الدخول والخروج من هذه المدن لأن عائدها لا يدخل خرائن البيولة . إذا من هو المستفيد من هذه المبالغ التي تحصل في الاتجاهية عند ألساجل بغلاف ضرائب التبياية البحرية ؟ تحصل في المستفيد عن المساطى أبيا المبلغ النا عشرون ألف دينار (١١١) وهي المنالغ المسابي المسامر المسلطان ، ويقول انسا البكرى وهو يتكلم عسن بوند ومستخلص بونه غير جباية بيث المال عشرون ألف دينار (١١١) وهي المنالغ ومستخلص بونه غير جباية بيث المال عشرون ألف دينار (١١١) وهي المنالغ

⁽١٠٨) البكرى: المقرب ص ٥٧ م٨٠ ، ٨٤ .

⁽١٠٩) اين خلارن ، المير ٦ ، ٢٠٦ .

⁽١٩٠) اليكري : المقرب ص ٣٦ .

⁽۱۱۱) اليكرى : المقرب ص هه .

التي تورد لخزينة السلطان به

يضاف الى هذه الضرائب ، العائد الباهظ لممتلكات القصر . ويشير البيان (١١٧) أن السلطان باديس وهب ممتلكات وأراضى « يكل كورة من كور إفريقية » لصديق مفضل لديه . وهذا يعنى أن السلطان كان يمتلك ضيمات هامة في كل مكان .

لو افترضنا أن ميزانية الأمراء الزيريين كانت تعتمد على نفس موارد الخلفاء الفاطميين . فالمؤكد أن نظامهم الضريبي كان أقل جورا من نظام الفاطميين ، ولكن وكلاؤهم من كتامة هم الذين كانوا يجعلون هذا النظام كريها . كما أن استخدام الضرائب كان مختلفا في العهدين ، فلم يكن لهني زيرى خزانة حرب ، كما لم يكن لديهم فكرة الهجرة الى المشرق . فالمال الذي يجمع يبتى في الهلاد ، والأمير هو المتصرف فيه . ونتفق مع مؤرخي بلاد المغرب بأن المصروفات الكمالية للزيريين ، كانت قتص جزم كبيرا من المال المام ، والدخل الخاص للأمراء .

د - حياة القصر و الفن والأدب

إن ينى زيري ظهروا عظهر الأمراء المترفين ، أكثر من الأغالبة والفاطميين ، ولا يدهشنا ذلك إذا رجعنا إلى أصلهم . إنهم خلفاء الأغالبة كهار القواد العرب للإمبراطورية العباسية ، وخلفاء الفاطميين الذين ينتمون إلى أنبل سلف عربى . أما ينى زيرى فهم فى الواقع ليسوا إلا رؤساء عشيرة بربرية جبلية ، دفعتهم الظروف لحكم المقاطعة القديمة لإفريقيا . فالحرب هى التى

⁽۱۱۲) البيان ۱ : ۲٦۲ .

ثبتت مصيرهم ومصير ونقائهم ، وستبقى الحرب شاغلهم الشاغل ، ويديرونها بضراوة ، إما عن طريق سلب القبائل المستقرة في السهول المغربية ، اما ضد زناتد أعدائهم بالوراثة . كما أن الصراع بينهم وبين بني عمومتهم من بني حماد كان غير إنسانيا ، فقد كان ضاريا لا يقل قسوة عن صراعهم مع أعدائهم . ولكن إنتقال صنهاجة الى إفريقية هدئ من قسوة هؤلاء الشهد همجيين . كان بلكين لا يهتم بعاملة القيروانيين بمدرارة ، أما ابند المنصور فقد بدأ عهده باستقبال أعيان المدينة القدية وكان حليما للغاية . وكان تغيير مقرهم تجسيداً لتطورهم الخلقي . فأثناء الثلاثين عام الأولى تلبلب نشاطهم بين قطبين من ناحية : « أشير » قلعة جبال تيطري مركزا لمقرهم الخاص (١١٣) حيث يحدون بهطولة من خطر قبيلة زناته . ومن ناحية أخرى : القيروان وقصور صبره الجميلة حيث يستقرون لمزاولة مهنة الملوك .

وقد تخلص بلكين من هذه المهمة بالاعتماد على الموظفين الذين تركهم الفاطميين ، وعلى رأسهم حاكم إفريقية وهو سليل الأمراء الأغالية ، وكان رجلا مثقفا ويتمتع بثقة بلكين ، ويقوم إلى حد ما بدور ناتب الملك . وكان بلكين يقضى حياته كقائداً للحرب ولا يقيم في القيروان إلا نادراً . وتبدأ أول مرحلة للتطور على يد ابنه المنصور . فقد ولد في اشير وترعرع فيها ، وجاء الى إفريقية سنة ١٩٨٠م (١٣٧٠هـ) بأمر والده ، وعاد إلى أشير وهناك تدرب على الحكم . ثم ترك أحد اخوته حاكما على هذا الموقع الحصين ، وتخلص في القيروان من نائب الملك ، واختار رقادة مقرا له ، وهي مدينة المدائق

⁽١١٣) انظر مقالة ابن شنب في « موسوعة الإسلام » ،

notre article (Recherches d'Archéologie musulmane - Achir) dans la Revue Africaine, 1922.

التى أسسها الأغالبة فى سهل القيروان ، وابتداء من سنة ١٩٨٧م (٣٧٧هـ) استقر فى القصر الذى شيد له على أبوآب صبرة (المنصورية) عاصمة الفاطميين . ودفن فى هذا القصر فى عام ١٩٩٦م (٣٨٦هـ) (١١٤) . ومنذ اقامته فى رقاده أمر المنصور بصناعة سرج مزود بالياقوت والأحجار الكرهة الأخري ، خرج به فى أحسن زى ، للحضور إلى المصلى ، فى يوم عيد الضحية ليتصدر صلاة الجماعة ، ويقبل ولاء أهل القيروان . (١١٥)

تكررت هذه المراكب بانتظام في عهد المنصور وخلفاؤه باديس والمعز ، وكانت مصحوبة أحيانا باستعراضات بها من الغرابة والطرافة ، ما يؤثر في خيال الشعب : عند ذهاب باديس الى المصلى كان يتقدمه فيل ضخم وزرافتان وإبل ناصعة البياض (١٩٦٦) وكلها هبات حصل عليها السلطان : الفيل هدية من الخليفة الفاطمي ، أما الزرافتان والإبل فقد تسلمها من رؤساء إفريقيين ، وصار المعز على نفس النمط عندما يتقدمه خمسة عشر راية منسوجة بالذهب ، وصلته من القاهرة .

بعرض تطور علاقات بنى زيرى مع القاهرة حتى وقت الانقصال ، نكون قد حددنا دور هذه السفارات الرسمية ، والألقاب الشرفية ، وهنايا الخليفة ومواكب السلطان ، التي شهدها شعب القيروان وشارك فيها . لم تكن هذه الاستعراضات الرسمية هي المناسبات الوحيدة التى يظهر فيها السلطان يكل جلال ، فالأحداث الهامة لحياته الخاصة وحياة ذويه كان يصاحبها مشاهد يشارك فيها الجمهور ، وقد تضاعفت في عهد الموز ، وقد شرح لنا المؤرخ ابن

⁽١/٤) اليان: ١: ٢٤٢ - ٢٤٢.

⁽١١٨) البيان ١ : ٢٤٠ .

⁽١١٦) البيان ١ : ٢٤٩ .

الرقيق عن ظروفها ، أما نحن فقد أشرنا بأنها تخضع لميل شخصى للأمير الشاب ، ورغبة منه فى التقرب الى شعبه ، تلك الرغبسة التى لم يهتم بها والده (١١٧).

لقد رأينا في الأيام التي تلت إعلان بيعة أهل المهدية للمعز ، كيف حضر بنفسه المأدية المقدمة لهم ، وفي سنة ١٠٠١ (٤١٧ هـ) خصص ١٠٠٠ (مائة ألف) دينار لجنازة أمه « عمل لها تابوتا من العود الهندي مرصعا بالجوهر وصفائح اللهب ، وسمر التابوت بمسامير اللهب وزنها ألف مثقال ، وأدرجت في مائه وعشرين ثوبا ، وذر عليها من المسك والكافور ما لأحد له ، وقلد التابوت بإحدي وعشرين سبحة من نفس الجوهر وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاه ، فنحرت وانتهبها الناس ، وفرق في مأتها على النساء عشرة آلاف ديتار » (١١٨)

و وفي سنة ١٠٢٧ (٤١٣ هـ) تعرس المعز .. فكان له عرس ما تهيأ قط لأحد من ملوك الإسلام » . وفي سنة ١٠٢٣ (٤١٤هـ) فقد عمته أم ملال فحضر مأتمها بالطبول والأعلام وكانت من الترف والبلاخ و لم ير لملك ولا لسوته مثلها » (١١٩) وفي سبتمبر سنة ٤٢٠١ (١١٥هـ) قامت الاحتفالات بمناسبة زواج الأميرة أم العلو شقيقة المعز ، قفي يوم الأربعاء من غرة شهر شعبان زين الديوان المعظم تجيدا لها ، ودخل الشعب كله ليشاهد جميع الأحجار الكرية

⁽١١٧) البيان ١ : ٢٩٨ ، ٢٩٨ . وضع المعز ابنه قيم على قرس وعرضه على الشعب وكان يبلغ من العمر عامين .

⁽۱۱۸) البيان ۱ : ۲۷۱ ، القيروائي (ابن أبي دينار) : المؤنس في أخيار إفريتية وتونس ص ۸۳ .

⁽۱۱۸) البيان ۱ : ۲۷۰ ـ ۲۷۲

والمنسوجات والأشياء الثمينة والأواني الفضية والذهبية المقدمة لها ، وكانت هذه الهدايسا من أجمل ما صنع أو سمع عشم حتي الآن ، ويقول ابن الرقيق « فيهر عيون الخلق حال ما عاينوه ، وأبهتهم عظيم ما شاهدوه » (١٢٠)

وحمل كل ذلك إلى مكان ، شيدت فيه المباني والقباب والأخبية ، وكان مهر العروس محملا علي عشرة بفال ، وعلي ظهر كل بفل توجد جارية حسناه ، وكان جملة الأحمال ما يعادل مائة ألف دينار نقدا . وقد قوم تاجر ماهر هدايا الأميرة ، فقدرت بما يزيد علي المليون دينار ، وهذا شئ ثم ير قط لامرأة مثلها في إفريقية ، وتقدم الموكب الذي تم يوم الحميس ، جميع عبيد أخبها المعز ، وعبيد أبيها باديس ، وعبيد جدها المنصور ، والشخصيات أخبها المعر . وقام الفرسان باستعراض مهاراتهم ، وقد انشغلت بذلك ولمدة طويلة جميع المقاطعات في وصف الموكب الأسطوري .

ونستنبط من وصف هذه الأيام المشهودة لملكة بني زيري ، بعض الملامع المتي لم يشهد التاريخ مثيلا لها في أية أسرة حاكمة في شمال إقريقيا . كما نلاحظ المكانة التي تشغلها نساء العائلة الحاكمة ، والتقدير والاحترام الودود الذي يحيطهن به الأمير . وعلي كل لا يجب تشبيه تلك النساء ، بالجوارى الجميلات اللاتى يتكلم عنهن تاريخ الأغالبة . إنهن من سلالة أمراء أصليين ، لا يخضعن للاحتجاز ووضع الحجاب : كان المن يسمح لرجاله وعبيده بالدخول إلى عمته ، التي أدي بها المرض إلي الموت (١٢١) وقد شاركت أمه وأخته في جنازتها . وعندما مات باديس ذهب إلى المهدية قاضي القيروان وشيوخ صنهاجة لتقديم العزاء إلى شقيقة المتوفي (١٢١) . لا تظهر تلك النساء

⁽۲۲) البيان ۱ : ۲۷۲

⁽۱۲۱) البيان ١ : ۲۷۲ .

⁽۱۲۲) البيان ۱ : ۲۲۷

عظهر الشخصيات الرسمية فحسب ، بل تشغل في العائلة دورا ليس بخفي ، وتؤكد شخصيتها في شئون الدولة . كانت أخت باديس ترسل الهدايا إلي أخت الخليفة الفاطمي . وعند جلوس المعز علي العرش ، كانت أمر تتدخل في كل قراراته ، ويقول البيان أن الموظف الكبير الذي كان يدير أملاك الأميرة الأم ، كان يدير بواسطتها أمور الأمير الشاب (١٢٣) .

هؤلاء البربر الذين انتقلوا إلى أفريقية ، واستنفروا فيها ، تعودوا على البذخ ، وقد ساعدتهم الوفرة على اشهاع هذا الميل . يكلمنا المقريزي عن كنز بني زيري الذي يكيلون منسه هذه الثروات ، وفي رأينا أنه يشابه كنز الفاطمين . وتراودنا الرغبة في التشكك في شهادة المؤرخين لو لم يؤكدها ما وصلنا من مؤلفات أخرى .

نحن مجردون من أى تعصب ، لتقدير أهمية وجمال المقرات التي شيدها الصنهاجيون ، ولا يسمح لنا بتخيل طراز المباني ، إلا أطلال قلعة بني حماد . فرغم غلظتهم وخشونتهم ، وفنهم الذي يبدو إقليميا ، إلا أن بناء القلعة وطابية الفنار ، وقصر البحيرة ، يعطينا فكرة عما كانت عليه مباني بني زيري في صبرة (المنصورية) (١٩٤٤). ويتضح تأثير مصر ، وما بين النهرين العراق) في التخطيطات ، والنسب الفسهيحة ، وفي الواجهات المزودة طنوف والمشاك ، المعتدة من القاعدة حتي القمة . وأثبتت إفريقية على أنها مقاطعة فنية للمشرق ، متقبلة الطرز الوافدة من القاهرة ، بل من الرقية ويغداد ، وظهر هذا جليا أكثر مما كان عليه في عهد الأغالبة .

⁽۱۲۳) البيان ١ : ٢٦١ ـ ٢٧٦ ، التيرواني : المؤنس ص ٨١ ،

B. Roy dans Bulletin archéologique, 1921, pp. 123 ss. de Beylié, La Kalaa des Beni Hammad; G. Marçais, Manuel (۱۷٤) d'art musulman, I, pp. 120 ss.

كانت المباني التي شيدها بني زيري في صبرة (المنصورية) ، تشابه مباني بني حماد ، ولكننا نتخيلها أكثر رشاقة في خطوطها وشكلها ، وأغني في تزيينها ، وعوضا عن المباني الملكية ، نستطيع الحكم عليها بالأجزاء التي جمعتها القيروان والمسجد الجامع . فالمدينة القديمة التي خلدت استطاعت ترميم ثغور أسوارها بالقرميد التي حصلت عليه من أطلال منافستها (المنصوريسة) وزينت نفسها بسلخها . والعصابة الكهيرة المنقوش عليها وعظمة الإسلام » (١٢٥) التي كانت تزين بوابة صبرة تحيط اليوم باب من أبواب القيروان . وتيجان الأعمدة والاسطوانات الرخامية ، المطوقة بالزخارف المنقوشة علي شكل أوراق الشجر ، وذات البروز الخفيفة ، انتقلت من الفناء المناطرة ي وحجرات القصر ، إلي عرات المسجد ، والمعايد الآخري في القيروان فرخرفة هذه المعاصر المعمارية ، وزخرفة شواهد القبور التي تعود إلي النصف الأول من القرن الحادي عشر ، والتي لا تزال منتشرة في المقاير التي تحيط بالمدينة ، تنم عن ذوق رقيق .

كثير من هذه الشواهد كتبت بالخط الكوفي ، وذات زخارف رقيقة توحي بذكري آباء وحاشية السلطان المعز وخاصة نساء أهل بيته . ونحن نجد المعز ذاته حاضرا في المسجد الجامع لسيدي عقبة ، لأن اسمه هو المنشور على إفريز المقصورة (١٢٦) المشبكة التي كان يحضر بداخلها صلاة الجماعة ، وهي بدون جدال تحفة من أروع ما وصل إليه الفن الإسلامي في حفر الخشب . ويقرأ

Voir Houdas et Basset, Epigraphie tunisienne, dans Bulletin de (*) correspondance africaine, 1882, pp. 191-192.

أيضا اسم الأمير على فانوس نحاس مثقوب كان يضئ القاعة . اذ أمر الأمير عضاعفة هذه الثريات البرونزية التي تتدلي من السقف حتى الآن لزيادة إضاءة المسجد . كما أمر يطلاء أسقف المسجد نما أعاد لها شبابها (١٢٧) بزخارف زهرية ذات إبداع ورشاقة وانسجام تام في الألوان ، يغطي زخرفة الأسقف والعوارض الصغيرة ، هذه الزخارف تمت بوضوح إلي زخرفة الفاطميين في القاهرة ، لكن مصر لا تمتلك مجموعة يكن مقارنتها بهذه المجموعة . يكني هذا لتأكيد تعلق الأمير المعز بالمسجد القديم لسيدي عقبة والمكانة البارزة التي تشغلها إفريقية في الفن الإسلامي .

وإذا علقنا علي الشهادة المشكرك فيها لإبن خلدون لا يبدو الأدب العربي مهملا في هذا البلد . وبوضع قائمة مختصرة للأدب في بلاد البربر ، يلاحظ المؤرخ الكبير أن جميع الشعراء الهامين الذي اشتهروا في القرن الرابع عشر (وهو العصر الذي عاش فيه هذا المؤرخ) كانوا غرباء عن البلاد ، ولم يستثني إلا اثنين من أبناء الوطن : ابن شرف وابن رشيق (١٢٨). فالإثنان من أصل بربري ، ويتكلمان العربية ، وينتميان إلى عهد الأمراء الصنهاجيين ، لقد كان ابن خلدون قاسيا في حكمه بعض الشئ ، ولكن هذا الحكم يرحي لنا علموظنين :

أولا: إن إفريقية في بداية القرن الحادي عشر الميلادي (٤ هـ) تهدو متأخرة ثلثمائة عام لتدخل بفخر تاريخ الأدب العربي في المشرق .

G. Marçais, Coupole et plafonds de la Grande Mosquée de Ka- (\YY) trouan, Tunis-Paris, 1925, pp. 32 ss.

⁽۱۲۸) ابن خلدون : المبر (المتدمة) ۱ : ۷۷۸ ـ ۷۷۹ . عن خطاب العمدة لابن رشيق (۱۲۸) المصدر نقسه ۷۹۱ ، ۷۹۲ ، حسن حسنى عبد الرهاب ترتس سنة ۱۳۳۰هـ "بساط المقيق في حضارة القيروان رشاعرية ابن رشيق " .

ثانيا : أصبحت بلاد البربر مركزا فكريا مستقلا ، فالظروف التاريخية كانت ملائمة لانتاج أدبى وازدهار فني .

لقد عاش هذان الأديبان في بلاط بني زيري . ولد ابن شرف في القيروان رمات سنة ١٠٩٨ م (٤٦١هـ) في مرسيه ، حيث استقر بعد الفزو الهلالي . فقد كتب تاريخ بني زيري ولكنه فقد ، ولم نعثر عليه لكن ابن عذاري استعار مند الكثير . وعوضنا عن ذلك احتفظنا له بدراسة نقديسة لشعراء مشهورين (١٢٩) . إن هؤلاء البرير المستعربين يشبهون الفارسيين : إنهم كتاب مبتكرون ، وفي نفس الوقت متبحرون في فقد اللغة ، وشاغلهم الشاغل هر جبع النماذج الكلاسيكية التي يسترشدون بها . أما ابن رشيق فقد ولد في المسيلة سنة ١٠٠٠ م (٣٩٠ هـ) تقريبًا ، ولجأً إلى صقلية ومات فيها ولقد ألف مختارات شعرية ، وكان من حاشية المعز الزيري ، وكرمه في شعره . وبمتبر كتابه و خطاب العمدة » بمثابة توجيد للشعراء . في هذا المؤلف يقصح الشاعر بالبحث عن القافية ، والنقد القاسي الذي يجب على الشاعر أن يذرضه على نفسه ، وينصح أيضا بتجنب الأخطاء خصوصا الغموض وعدم السمو بالماني . هذه النصائح تتيم لنا الفرصة بمقارنتها بنصائم «بوالو» (*) Boileau . فالشعر بالنسبة للشاعرين هو ثمرة ثقافة ارستقراطية ترضى ميول مجتمع ملكي وصفوة حضرية . تشابه آخر غير مترقع يخص الإلهام الديني الذي يعتبره النقاد أن أبن رشيق وبوالو Boileau لا يقدم الابداع الكافي للشاعر . لكن الشاعر المسيحي يري فيه « عدم تقبل الزخارف المهجة ، بينما

⁽۱۲۹) حسن حبيتي عبد ألرهاب " رسالة في التقد الأدبى لاين شرف " دمشق ۱۹۹۲ .
(ب) بوالر (نيقرلا) ١٦٣٦ ـ ١٧١١ م أديب وتاقد فرنسي له " الأهاجي " و " الرسائل "
تتاز أشعاره بالنفحة الأخلالية والهجائية .

يمتقد الشاعر المسلم أنه يؤدي حتما إلى توسيع المبتذلات . وعلى كل فمعاصرو ابن رشيق لا يشاركونه الرأي في هذا الموضوع ، وكثير منهم يري في التقوى إلهاما للشعر ، فالشقراطسي .. الذي استمد أسمه من قرية في الجنوب التونسي .. معروف لدينا كصاحب قصيدة في الإشادة يذكري الرسول . وأبر النصل المروف بابن النحوى (١٣٠) .. الذي ينتسب إلى منطقة إفريقية نفسها _ نظم عدة قصائد مماثلة ويهدو لنا على أنه العقلية المثلة للتدين وثقافة المجتمع الذي عاش فيه أو بالأحرى رائد التطور المقبل. لقد تتلمذ على يد الغزالي .. هذا الصوفي المشرقي والعالم العظيم .. واجتهد في نشر مذهب أستاذه في المفرب الأقصى خاصة في سجلماسة وفاس . ولكن هذه المستحدثات لم تجد رواجا ولا نجاحا لأن المفرب لم تكن مؤهلة بعد لتقبل تأثير الغزالي . ويقول ابو الفضل : « إنني بين أناس البعض منهم متدينون ولكن . ينقضم التربية والبعض الآخر لديهم التربية ولكنهم يفتقرون إلى الدين » . رعاد ابن النحوي إلى قلمة بني حماد وهاش فيها زاهدا ومات فيها عام ١١١٠ م (٤٠١ هـ) وينتمي أبو الفضل المعروف بابن النحوى إلى الفكر الجديد الذي سينقتع ، ويرجع ذلك إلى صوقيته وميوله لمبدأ الغزالي . وسوف يثأر له المستقبل ، فضريحه يقام على القلعة التي خربت عن آخرها ، ويصبح ملادًا للشفاعات الشعبية ، بينما اسم أمراء صنهاجة اللين حكموا البلاد قد المحوا من ذاكرة الناس.

F. Provezali, Alger, 1910, pp. 331 ss . ابن مربم ؛ البستان ترجمة (۱۳۰)

الجزء الثاني الفذو الصلالي وأثاره المباشرة

- I

أرالغزو

ب - الفوضى في إفريقية

جد تقدم العرب نحو الغرب

- II

أ .. المساهمات المكنة للعرب المهاجرين .

ب .. الآثار الإقتصادية للفرو: الكارثة العربية

- M

توجه صنهاجة نحو البحر

إتغاقيات وصراعات مع نورماندي صقلية

الفزو الملالي وآثاره المباشرة

-I

أ .. الغزو (١)

ترجع فكرة إطلاق جحافل العرب الهدو المستوطنين في شرق النيل ، ضد إفريقية المتمردة إلى اليازوري وزير الخليفة الفاطمي « المستنصر » . إن الترحال الاعتباطي للسكان المستقرين أو الرحل لشئ مألوف في المالك الإسلامية ، ولكن لم يكن وصول بني هلال وبني سليم إلى مصر ، من محض إرادتهم ، بل كان نتيجة ثورة القرامطة التي شاركوا فيها . لقد قامت هذه الحركة في النصف الثاني للقرن العاشر الميلادي على أساس ديني زائف ، وكانت تمردا على العباسيين ، ومهدت لنجاح الفاطميين في مصر ، وأصبح خطرها على الفاطميين أنفسهم أكثر من نفعها ، فطردوا إلى الجنوب الشرقي للجزيرة العربية ، وأرسل بحلفائهم إلى شرق مصر ، وأصبحوا محقوتين بسبب عصيانهم وسلبهم ، الى أن أقنع الوزير اليازورى ، الخليفة الفاطمي بنقلهم الى إفريقية وتحقيق هدفين في نفس الوقت ، الأول تخليص البلاد منهم ، والثاني إطلاقهم على إفريقية للقضاء على الدولة الصنهاجية وإنشاء دولة عربية تابعة عرضا عنها . وينسب ابن خلدون الحديث التسالي إلى الوزير اليازوري (٢) : عوضا عنها . وينسب ابن خلدون الحديث التسالي إلى الوزير اليازوري (٢) : وتان صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة ، كانوا أولياء للدعوة وعمالا بتلك القاصية . وارتفع عدوانهم من ساحة الخلاقة ، وإن كانت الأخري فلها بتلك القاصية . وارتفع عدوانهم من ساحة الخلاقة ، وإن كانت الأخري فلها بتلك القاصية . وارتفع عدوانهم من ساحة الخلاقة ، وإن كانت الأخرى فلها بتلك القاصية . وارتفع عدوانهم من ساحة الخلاقة ، وإن كانت الأخرى فلها

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siécle, Con- (1) stantine-Paris, 1913, pp. 39 ss. et les sources citées.

⁽٢) المير ٦ : ١٩ .

ما يعدها ، وأمر العرب اليادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك» .

تحن تجهل صحة هذا الحديث ، ونجهل أيضا ما إذا كان الوزير يعتقد فعلا في إمكانية تكوين دولة عربية تابعة . ويهدو مؤكدا أنه أعطيت وثائق بتولية المدن والريف بأسساء شيوخ القبائل ولكنها إجراءات تقليدية .

اصطحب الأمراء العرب فرسانهم وعاثلاتهم وقطيعهم ، وكانوا مزودين بهذه الرثائق ، ويحمل كل منهم مبالغ مالية وزيا مشرقيا . عبروا نهر النيل والجهوا نحو المغرب ، أما بالنسبة لعددهم فنحن لجهله . وقد قدر معاصر العدد يخمسين ألف مقاتل والرقم الإجمالي بمليون مقاتل ، إنه تقدير مبالغ فيه بكل تأكيد ، إنها أول موجد للهجرة وقد تبعتها موجات أخرى ، تجلبها هذا السراب تنجو إفريقية الرومانية قات الأرض الخصبة ، وكانت مداوعة بأمل الأبتعام عن المحاعة .

إذا كان الخليقة قد توهم غزو إفريقية بإرسال تابعين بدو ، فالسلطان المفر تصور أخطر من ذلك ، عندما علم بقدومهم على حدود مملكته ، واعتقد أنه من الممكن الآنتفاع بهتم لحدمته . كان جيشه يتكون من السودان الأوفياء وصنتهاجة وعشرائة الجمردين يزناتة القير مرثوق قيهم ، والعرب الذين يمكن الاستفادة بهم كغرس . وقد اعتقد المغز في ذلك ، وَقَتْ معاهدة بيته وبين قائدهم و مؤلس » من قبيلة بني رياح ، ولم يرض البلو بقالم الأنفاق وهم يحلمون بالسلب والإغارة والخصول على ثروات الأرض المودة . وعندما وصلوا إلى أول قرية اعتقدوا أنها القيروان فانزلوا بها الجراب والنمار ("با أداد المرمعاقية وانتهاك المهد » . ولم تصل محاولة الوقاق إلى شئ وفقي الصراح المدر معاقبة وانتهاك المهد » . ولم تصل محاولة الوقاق إلى شئ وفقي الصراح قائما . فقي ربيع ١٩٥٠ (١٤٤٤) بعمغ السلطان قواته وزخف صد الفزاه د

⁽٣) ابن عداري : البيان ١ : ٢٨٨-٢٨٨ .

وتقابل معهم في حيدران في منطقة قابس ، لكن العدو فاجاً جيش القيروان وهر ينصب خيامه فتشتت الجيش وسلب العدو المسكر ، ولم يقاوم إلا الحرس الأسود الذي أبيد وهو يحمي السلطان المعز ، الذي هرب وعاد إلي قصره في حالة يؤسف لها . وعاشت القيروان أياما من الذعر يعد أن كانت تحتقل بالأمس بعيد الشهداء في جو من الطمأنينة والبهجة . ولم يلبث أن ظهر الفرسان العرب من جديد ، فاستعدت مدينة القيروان للدفاع وجلا السكان عن صبرة (المنصورية) التي سلبت وجردت تاما من كل ما تعتز به .

قضي البنو على القيروانيين الذين كانوا في السهول ، وفي فصل الأمطار رحلوا نحو الجنوب عما أعظى بعض الراحة والأمثل للحضريين ، وفي بداية الربيع بدأ العرب في الترجه نحو الشمال مرة أخري ، فحاول المعز صدهم من جديد ، ولكنه تكبد كارثة جديدة ، وعسكر الغزاة في سهل القيروان ، حاول المعز إعادة العلاقات مع القواد العرب حتى يبعد هذا الاختناق ، واستطاع البدو دخول المدينة للحصول على التموين ، لكن قام شجار قطع هذا الوفاق مرة ثانية وخشي الجميع من حرب ضروس عما أجبر السلطان علي إحاطة القيروان يسور متين كانت تفتقده من مائتي وثلاثين عام .

احتل العرب المن المنتوحة مثل أربة ولريس وباجه ، واستطاعت القيروان المحسنة مقاومة هجماتهم لكن الحياة فيها أصبحت صعبة جدا وبات من المستحيل زراعة الأراضي المعبطة بها وقريل الأسواق .

بذأ المعز يستعد للهجرة بعد أن تحمل لمدة خبس ستوات خده الحالة التي لا تطاق . وكان قد زوج ثلاث من بناته لثلاث من زعماء جبحافل بني رياح . فنقل أمواله إلى المهدية وخرج سرا في حراسة أصهاره نحو مدينة الشاطئ ، وفي اليوم التسالي أعلن ابنه أهل القيروان بأنه سيرحل بدوره مع الحرس الأسود ، فكانت الفوشي وترك المدينة ، ثم هجوم العرب والاستيلاء على

الفريسة التي وعد يها خليفة مصر ، هذه الفريسة هي القيروان ، فكان تخريب القصور وسلبها وكانت الكارثة الكبري التي لا نهوض بعدها .

ب الغوضي في إفريقية

شهدت أسرة بني زيري تفتت دولتها ، بعد أن فقدت النفرة الذي أولته لها القيروان ، وكل ما كانت قتله في ماضي الإسلام ، ، وسيثير هذا العجز في الحكم المركزي انفجارا فوضويا - لكن بنسب أقل - مثلما حدث في نفس الوقت تقريبا ، بعد انهيار خلاقة قرطبة ، أو تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية .

بدأت مدن إفريقية تتخذ حكاما مثل المدن والمقاطعات الأسهانية في أسهائيا ، ففي مدينة قايس وهي حالة نادرة (٤) . كان سلطان المهدية قد أقال بعض قواد صنهاجة فاتصلوا بزعيم قبيلة رياح الذي كلفهم يحكم قابس ، فأعلنوا البيعة له . هذا الاعتراف بالعاهل الذي ولاهم يجعل سيادته شرعية ، ويقول ابن خلدون في هذا الصند كانت قابس « أول قلك العرب » في إفريقية ولكن عادت المدينة مرة أخري للسلطان الزيري ، ثم انفصلت بعد ذلك واتخل سكانها حاكما عربيا من عائلة رياح من قبيلة بني جامع الذي أسس فيها أسرة ذات تأثير . أما أمرة م المعلقة (٥) الذين أستولوا على مبني من مباني قرطاج - ريا المدرج - وتحصنوا فيه ، كانوا من عرب رياح ، وسوف يعاونون سلطان المهدية في محاولة استعادة ملكه .

ويتدخل العرب أيضا في صفاقس (٦) ولكن بطريقة غير مباشرة .

^(£) أين خلنون : العبر ٣ : ٢٢١ .

⁽٥) اين خلدون ۽ المين ٣ ، ٢١٨ .

⁽٣) أين خلدون : العبر ٣ : ٢٢٤ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٩١ ، ابن عثارى : البيان

فالحاكم الذي كان يحكم المدينة باسم السلطان الزيري ، أعلن استقلاله معتمدا على التحالف مع القبائل المهاجرة المعسكرين في المنطقة ، ولكنه يقتل على يد فرد من أبناء عمومته الذي حل محله ، فيثور عليه حلقاء الضحية من العرب ويطالبونه بالدية .. فيكون صداقات من البدو حتى يتمكن من السيطرة على المدينة .

ويحدث في قفصة (٧) مثلما حدث في صفاقس ، يقوم الزالي الزيري ابن الرند بقطع علاقاته مع سيده ، ويتفق مغ العرب على أن يعم بلاد الجريد السلام ، وذلك مقابل دفع إتاوة لهم . فيقوي سلطانه ويزداد ملكه ويتكرن لديه بلاط يستقبل فيه الشعراء ، ويجد رجال الدين الاحترام اللاتق بهم ، وعند موته ٧٧٠ م (٢٥٥هـ) يترك علكة صغيرة مستقلة يسترلي عليها ابد من بعد ويقوم بتوسيم أرجائها .

وبجانب هؤلاء كهار المرطفين ، الذين استقلوا عن السلالة المخلوعة ، كما ظهر في إفريقية مغامرون وعصابات نصبوا أنفسهم مدافعين عن الحضريين ضد السلاب العرب ، مقابل إتاوة وحدث هذا في بنزرت ولربس والكاف (٨). وبجانب المستفيدين من تمزق المملكة الزيرية ، كان البعض غرباء عن البلاد . ففي قلعة ورغة التي اندثرت في شمال مجردة استعان أهلها بقائد كلطع علاقته مع رؤسائه من بنى حماد (٩) .

أما بالنسبة لأهل تونس (١٠) فقد أعلنوا البيعة لأمير بني حماد بالقلعة

⁽٧) اين خلدن : العبر ٣ : ٢٢٠ .

⁽٨) ابن خلدون : العيدية : ٢٢٦_٢٧ .

⁽٩) ابن خلدرن : العبر ٦ : ٢٢٩_٢١ .

⁽۱۰) بن خلدون : العبر ٦ : ۲۱٧ .

وطلبوا منه حاكما للمدينة ، فبعث يابن خراسان وهو قائد من أصل صنهاجي ، فاهتم بشئون البلاد وشارك الشعب وكسب مودته وبما أنه لا يستطيع معاقبة العرب المسيطرين علي المنطقة ، فقد قام بالتفاوض معهم ودقع لهم ضرائب مقابل السلام ووضع حد للسلب . وخلفه ابنه من يعده وكان حاكما مطلقا ، وبذلك تأسست في أفريقية القديمة عملكة مستقلة _ ملكة بني خراسان في تونس _ وحقق ميلادها الإنفصال مع الماضي والتطلع إلى المستقبل المجهول .

بعد أن تزعزع سلطان حكرمة بنى زيرى ، كان من الطبيعى اللجوء الى ينى عمرمتهم بنى حماد ، وكانت علكتهم مسالمة ، واستفادوا ولو لفترة من دمار المملكة المنافسة ، ولكنهم أحسوا بأن الخطر الذى أصاب القيروان سوق يصل القلمة عن قريب ، كما أن تصرفهم المتردد كشف عن هذا التخوف . نحن نتذكر أن فى سنة ١٠٠٤م (١٠٥هـ) تحلل حماد من طاعة ابن أخيه باديس وبالتالى تبد الولاء للخليفة الفاطمى ، طالما أن باديس كان ممثلا له ، ثم أعلن حماد البيعة للخليفة العباسى . وبعد ثلاثين عام عندما انفصل المعز بن باديس عن خليفة القاهرة قام أمير القلمة و القائد بن حماد » بمايعة الخليفة الفاطمى وحصل من القاهرة على لقب و شرف الدولة » (١١١) . إنها لعبة التوازن وتغيير المسكرات طبقا لتغيير الخصوم ولكن أيضا الاستفادة من وضع خسره الخصم ، وتجنب عقاب محتمل وقوعه ، ولا يمكن التنبؤ بخطورته .

إن الإحساس الغامض بخطر مشترك أو واجب التضامن العائلي جعل « القائد » يرد على نداء ابن عمد المعز أثناء الغزو الهلالي ويرسل له ألف فارس ولكنهم تخاذلوا في معركة حيدران . ومهما كانت دواقع سياستهم ، قمن المؤكد أن أسياد القلعة استفادوا من العاصفة التي اجتاحت المملكة المجاورة ،

⁽١١) اين خلاون : العبر ٦ : ٢٧٩ ،

والهروب الذي أخلى القيروان والمدن الزيرية ، جعل الحضريين الأغنياء والتجار والصناع يفرون الى عاصمتهم ، وعرفت القلعة إزدهارا إقتصاديا كان مستبعدا بحكم وضعها الجغرافي . ويقول البكرى (۱۲) « وهى اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وساير بلاد المغرب » كانت تتسلق شعاب الجبال للوصول إليها .

إن ظهور العرب على أراضى بنى حماد لم يأخذ مظهر الكارثة ، بل بالعكس ، لقد اعتقدوا كما اعتقد المعز من قبلهم ، أن الاتفاق ممكن والتعاون مفيداً .

ويقع الحدث المتميز في تاريخ علاه العلاقسات في سنسة ١٠٦٤م (١٣). ففي المهدية كان المعز قد مات من عامين وبدأ ابنه قميم في معاولة استعادة مملكته. وطلب وقد من عرب الاثبج الهلالية مقابلة الناصر الذي يحكم قلعة بني حماد ، لمساندتهم ضد عرب رياح ، الذين يحتلون الجزء الأكبر من المملكة الزيرية ، فتلتى سعيهم هذا بحرارة ، لأن الحرب مع عرب رياح يعطيه فرصة التدخل في شئون مملكة المهدية ، وضم منن أصبحت بدون رياح يعطيه فرصة التدخل في شئون مملكة المهدية ، وضم منن أصبحت بدون حكام ، وربا محاربة ابن عمه في عقر داره لتصفية الحساب القديم . فعبأ المحاربين من صنهاجة ، وطلب من ملك فاس أن يرسل له امدادات من زئاته ، وسار بنفسه على رأس هذا الجيش الهائل لحسم النزاع بين قبيلتين عربيتين . استولى في أول الأمر على لربس ثم الجه نحو الجنوب وتقابل مع المعمم في سبيبه بالقرب من سوفس Sufés المدينة الرومانية القديمة ، وتشتت زناته في

⁽۱۲) المغرب ص ٤٩ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ١ - ١ - ٢ - ١ .

Sur l'expédition qui aboutit à la bataille de Sbiba, cf. G. (\\mathbf{r}) Marçais, Les Arabes en Berbéric, pp. 136-137.

بداية المعركة نما سبب اندحار صنهاجة ، وبقى ٢٤,٠٠٠ رجل من جيش بنى حماد مجندلين في ساحة القتال ، ولم ينج الناصر إلا بتضعية أخيد الذي أخل منه عمامته ورأيته محاولا جمع القوات . وعاد الأمير الهارب إلى القلعة بمساحية مائتى قاوس تتعقبه عرب رياح ، الذين بدأوا في سلب جوانب القلعة والمدن الاخرى كما كانت عادتهم .

رغم هذه النهاية المأسوية لهذه التجربة ، إلا أن الناصر أعادها عدة مرات بدون نفع يذكر ، والأسوأ من ذلك هو التدخل المتزايد من جانب العرب في حياة مملكة بني حماد . لقد أصبح الجانب الهلالي حليفا غير مجدى ، وجارأ غير محتمل وخطير في معظم الأحيان . فغي كل صيف يستقر عرب بني هلال حول القلعة ، ويصبح من المستحيل المرور في الطرق أو الزراعة ، وللتقليل من أضرارهم تعهد المنصور بن الناصر بتسليم نصف محصول ضيعته الخاصة من البلح والحبوب لهم . وساحت الحالة تدريجيا وبدا وجود القلعة وزوارها شاقا ، لدرجة أن المنصور قرر ترك المدينة التي شاهدت عظمة أجداده ووصلت إلى الدروة ، ولقد مهد أبوه لهذه الهجرة ، إذ كان الناصر قد ضم المنطقة الساحلية لبلاد القبائل ، وكذلك الخليج الجميل المسمى في الحضارات القديم بيناء صلداء وأسس مدينة هامة سبيت بالناصرية ، ولكنها احتفظت بالسمها القديم بيجاية (١٤) وشيد فيها قصر اللؤلؤ الفخم حيث استقر فيه مرقتنا ، وأقام قيد المنصور من بعده ، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيا ، فغي عانبيه مؤقتا ، وأقام قيد المنصور من بعده ، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيا ، فغي عانبيه مؤقتا ، وأقام قيد المنصور عن عده ، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيا ، فغي عانبيه مؤقتا ، وأقام قيد المنصور عن عده ، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيا ، فغي عانبيه مؤقتا ، وأقام قيد المنصور عن عده ، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيا ، فغي عانبيه مؤقتا ، وأقام قيد المنصور عن عده عاصمتان يربطهما طريق نشأت على جانبيه عهده كان لدولة بني حماد عاصمتان يربطهما طريق نشأت على جانبيه علي عانبيه عليه ، ومع ذلك لم يترك القلعة علي جانبيه عليه ، ومع دي المناه المناه القبية عليه عنه عليه عنه عانه عليه عانه عليه عليه عليه عنه عليه عنه المنتم المنت

G. Marçais, Sur deux stéles funéraires hammâdites, dans le Bul- (\1) letin de la Société historique de Sétif, 1941, p. 174. Sur Bougie, voir Féraud, Histoire des villes de la Province de Constantine, dans le Recueil de la Société archéologique de Constantine, 1869, pp. 85 ss.

الاستراحات الخاصة به ، وانتهت هذه الثنائية مع باديس بن المنصور فغي سنة الاستراحات الخاصة به ، وانتهت هذه الثنائية مع باديس بن المنصور فغي سنة ١٩٠٤ م (٩٨٤هـ) كانت القلعة قد فقدت قاما حظوتها كمقر ملكي ، ولم تعد إلا مركزا به بعض الصناعات مثل النسيج والفخار (٩٤٠) ، لكن بجابة الواقعة لحسن الحظ في منطقة لا يبلغها الهدو يسهولة ، افتتحت دورها التاريخي وتلقت الميراث الفني للعاصمة القديمة .

ج - تقدم العرب نحو الغرب

هناك ثلاث نتائج للغزو الهلالى وهى نتائج ملموسة ومسجلة من المؤرخين ومدونه على الخرائط ، هذه النتائج هى : الانتقال من القلمة الى يجاية ، وهروب بنى زيرى الى المهدية قبل ذلك بخمسين عام ، وتأسيس مملكة مستقلة في تونس . وسيتبع ذلك نتائج أخرى سوف توثر على أبعد المناطق في بلاد البرير .

لقد نتج عن الانهيار الأساسي تيارا شبه مستمر ، وتتابعت الموجات الراحدة تلو الأخرى لتغطى بعضها أو تنرب عن بعضها ، وإذا ما اعترض هذا الموجات عائق ، تحولت الموجة الى طريق جانبي لتنتشر في مكان آخر . وسون يؤثر التقدم من الشرق الى الغرب على الأقاليم المختلفة ولكن لن يدمغ إلا يقليل من الأحداث الجديرة بالذكر لدرجة أن المعاصرين لم يدرجوها في تأريخهم .

إن استيلاء بني هلال على ريف مملكة بني حماد ، سمح لنا بالتعرف على

G. Marçais, Les poteries et faiences de la Qal'a des Beni (10)
Hammad, Constantine, 1913 ; Id., Sur les poteries estampées du
Moyen âge, dans les Actes du IV^e Congrés de la Fédération des
Sociétés savantes de l'Afrique du Nord, 1938.

هذه المنازعات الغامضة ، إنهم أقل بأسا من قبائل رياح ، وقد نزحوا الى إفريقية بمدهم ليحصلوا على نصيبهم من الأرض الموعودة ، لم يستطيعوا ابماد قبائل رياح لذلك اضطروا للتوغل نحر الغرب ، حيث سمع لهم ملوك القلمة بالاستقرار غير مقدرين خطورة هذا الموقف . وسوف نجدهم في نفس المنطقة بمد ثلاث قرون ، لم يفكروا في التوسع أو الإثراء (١٦) .

أما حينما نتناول قبيلة عربية أخرى لا قت للهلالية بصلة ، وهى قبيلة المقل ، نلاحظ تطور يختلف عما حدث لبنى هلال (١٧) لقد جاء هؤلاء المهاجرون مع الموجة الأولى أو بعدها مباشرة ، ولكنهم لم يتوغلوا فى قلب بلاد البرير الشرقى لقلة عندهم ، واكتفوا بالبقاء على حدود صحراء إفريقية والمغرب الأوسط ، وبيتما اقتربت ثعلبة من قبيلة المعقل واستقروا فى سهل متيجه المجاور للجزائر ، نجد معظم عائلاتهم زحقت نحو تافيلالت نتيجة لهجوم الوافدين الجدد . حيث وجدوا ظروف معيشية أفضل وازداد عندهم وتشاعف قطيعهم ، وفى القرن الرابع عشر امتدت البطون المختلفة لقبيلة المقل فى جنوب جبال الأطلس المغربي حتى المحيط الأطلسي ، وشغلوا من ناحية أخرى وادى ملويه حتى البحر المتوسط ، وكانوا ذا سلطان وجيران موعجن للوك فاس ، وسندا نافعا أحيانا لسياسة ملوك تلمسان .

التحالف مع التلمسانيين عزز من وضع بنى معقل ، أما بني سليم فكان حظهم من صنع ملوك تونس ، وهاتان القبيلتان لا يتان بصلة لبنى هلال ، ولم يكن لهما نصيب فى وليمة القرن الحادى عشر ، التى لم يستقد منها إلا بنى رباح .

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, pp. 634 ss. et passim. (17)

G. Marçais, loc, cit., pp. 548 ss., 603 ss. et passim. (\Y)

ولقد استقر بنو سليم في طرابلس ولم نسمع عنهم إلا نادرا في القرن الثاني عشر ، ولم يكن ميعادهم مع التاريخ إلا في بداية القرن الثالث عشر . ففي سنة ١٢٢٨ م (١٢٥هـ) طلبت منهم حكومة الحقصيين في تؤنس ترك مقرهم واحتلال سهل القيروان صيفا ، فقاموا باخراج بني رياح منه وتخلصت تونس من بني رياح الذين دحروا واستقروا بدورهم في منطقة قسطنطينة وعاش بني سليم حياة رغدة في إفريقية . (١٨)

يتضع من ذلك أن ملوك البربر كانوا يساعدون على تقدم العرب عن قصد كما فعلوا أيام المعز الزيرى حتى ولو ندموا على ذلك بعد سنوات . وسنكتفى بالمثل الأكثر تأثيرا ألا وهو كيفية وصول بدو الهلالية الى سهول المغرب ، وذلك بارادة خلفاء المرحدين ورغم أنف البدو أنفسهم . ففى سنة ١٩٦٠ م (٥٥٥ه.) (١٩) بعد قتع بلاد البربر بأكملها ، كان الخليفة المرحدى « عبد المؤمن » يستعد لترك إفريقية ، والعودة الى مراكش ، وقبل رحيله طلب من عرب رياح ٠٠٠، ١٠ مقاتل لمساعدته لمحاربة مسيحيى أسبانيا ، فوافق العرب بحماس وأقسموا على القرآن وزحفوا معه ، ولكنهم تخلوا عنه بعد عدة مراحل . فرجع عبد المؤمن على أعقابه وأراد الانتقام لنكث الوعد ، ولكنه حصل منهم على وعد جديد للتعاون معه ، فذهبوا معه هذه المرة حتى وهران وهناك توسلوا الى الخليفة بالعودة ، قلم يحتفظ الخليفسة إلا بألف

ولقد نجح بعد ذلك ، وسوف يصبح مألوفا بل تقليديا ، انتقال العرب من بلاد البربر الشرقية الى المغرب : نزوح اختيارى أو اعتقالات غفيرة مثل التى

Sur les Solaym, G. Marçais, loc. cit, pp. 227, 429, 662 ss. (\A)
G. Marçais, loc. cit., pp. 180. ss. (\A)

حدثت فى ١١٨٧ م (١٩٨٣هـ) كان الخليفة الموحدى و المنصور » هو الذي قرر هله الهجرة الجماعية ، وعند موتد بعد ثمان سنوات اعترف لابند بأن هذا القرار يعتبر واحد من ثلاث قرارات يندم عليها في أثناء حكمه .

إن « اتجاه العرب نحو الفرب » يبرز لنا يعض الملاحظات التي تأخذ شكل المفارقات.

تلاحظ أولا أن هذا الغزو الذى ظهر من الوهلة الأولى كإعصار مخرب ، لم يشمل إلا إفريقية ، ولم يكن له شكل ملحمى ، إذ لم يقابل العرب ساحة قتال بعد دحر الصنهاجيين مرتين في سهل حيدران ، ولكن في سطيف وجبل القرن والحمة هزم العرب بواسطة جيش الموحدين ، إنها هزيمة مدوية والغريب هو نتائج هذه الهزيمة فقد نقل المهزومين العرب الى المغرب ، أى أنه أهم تصاعد في تقدم العرب نحو الغرب .

طريقة تحقيق هذا التقدم يوحى لنا بجلاحظة ثانية ، وهى ملاحظة عامة عن رغبة العرب فى المغامرة . فمن الخطأ الجسيم اعتبار البدو صعاليك أو متشردين أو مستكشفين ، فالبدو لا يميلون الى التنقل الغير مفيد ، وتحركهم منظم حسب ظروف حياتهم . ففى بلاد ذات موارد محدودة تتطلب حياة القطيع معرفة تامة بالمراعى ومراكز المياه ، والتنقل الموسمى يفترض الاستدلال على الآبار والفدران (البرك) التى تحدد جانبيا الطريق المسلوك ومراحله . حتى فى الصحراء فالقرافل لها مراكز ثابتة وموانى للراحة وهى الواحات ، هذه الراحات التى يُزرع فيها البلع ، ويأتى سيد البدو ليأخذ نصيبه منه ، ويخزن البدوى فيها مؤنته التى يجلبها من التل ، أو التى يحملها اليها فى الربيع النالى . وما لا شلى فيه أن رجال القبيلة يقومون بحملات السلب ، فالهجوم المفاجئ على المزارعين ، وخطف قوافل التجار ، وسرقة القطيع ، كانت فى الماضى الناشى النشاط الطبيعى للهدوى ، إن الجفاف الدائم الذى يسبب زوال المراعى ،

ونزح الآبار ، هو أحيانا الدافع الذي يدفع القبيلة على الاستكشاف عن مناطق أقل حرمانا ، واستعمال السلاح أذا لزم الأمر . هذا التنقل وترك المواقع المتوارث مع الأجيال ، لا يحدث عن طيب خاطر ولكند يحدث اضطراريا أو أن مسئولا ما يبين لهم مزاياه أو قرضه بالقوة .

هناك ملاحظة أخيرة عن تدخل العواهل المفارية في مراحل الهجرة العربية. إننا نرى الآن وعلى مر العصور أن هذا التدخل غاية في العشوائية السياسية، ونلاحظ الآثار الوخيمة لهجرة البدر الى المالك المختلفة ، ونذكر هنا حكم ابن خلدون وان العرب اذا تغليرا على أوطان أسرع اليها الخراب (٢٠٠). نحن نقدر مدى الكارثة الهلالية ، ونتسائل كيف لم يتبينها أسياد هذه البلاد ، الذين كانوا ضعية لها ، ولكننا لا يجب أن نندهش من ذلك أو نثور عليه ، نحن أنفسنا لا نعرف المرمى الحقيقي للأحداث التي نشاهدها الآن، واستحالة معرفة التازيخ الذي يحدث أمامنا ، يفرض علينا التسامح تجاه سلاطين العصور الرسطى المغاربة ، وعلي كل فنحن نعلل شذوذ هؤلاء الحكام الى حد ما بطروف التوازن للسلالات البربرية ، وبالصعاب المراد التغلب عليها، وبالوهم باطبي أن العرب أصبحوا بالنسبة لهم مرضا لا غني عنه .

П

أ - المساهمات الممكنة للعرب المهاجرين

إن الغزر الهلالى قد جدد كلية (تماما) ظروف الحياة فى شمال إفريقيا وهو ما نحاول شرحه هنا . ومع ذلك فقبل أن نبدأ فى الرسم التخطيطى لهذا التطور المتعدد ، سنحاول معرفة من هم المحتلون الجدد . ولتكوين فكرة عن

⁽۲۰) أين خلدون : المير ١ : ١٨٧ . -

ذلك لا نستطيع إلا اللجوء الى المشابهات التخمينية . يختلف عرب القرن المادى عشر اختلاقا بسيطا عن الذين يعيشون الآن فى اليمن أو فى نجد ، فهم من الهدو الرعاة . وهذا ليس إلا احتمالا ، وتأمل ايجاد عناصر عرقية محتفظة بالملامح الجسمانية الأصيلة للمهاجرين فى شعب البربر الحالى ، ومن المحتمل وجود سلالات أصيلة وقليلة التخليط من بنى هلال وبنى سليم فى الجنوب التونسى والجنوب الجزائرى ، ولكن لم تكن الصفات الجسدية لأبناء شهد الجزيرة العربية موضع ملاحظة دقيقة حتى نستطيع تحديد النموذج العربى والاستدلال عند فى قبيلة ما فى الشمال الإفريقى .

إن دراسة اللهجات لجديرة بعدنا بفاهيم أكثر فائدة ، نحن لا نشك في أن الغزو الهلالي قد ساعد في انتشار استخدام اللغة العربية في الريف البربري ، وكان هذا الانتشار مستقلا ومختلفا عن الانتشار الذي كان منذ الفتح الإسلامي ، حيث المدن والحاميات وأماكن التهادل التجاري ومراكز الثقافة الإسلامية . هناك مجال لم يفكر فيه أحد ويجب الشروع فيه ألا وهو : تحريات عن الجغرافيا اللغوية التي تحدد مساحات انتشار بعض الكلمات وبعض الصيغ الفعلية المميزة ، ومقارئة لهجات الهدو مع لهجات بدو شبه الجزيرة العربية ، دراسة الأشعار التي تخص الشعراء الهلاليين القدامي كل هذا يعطينا أرشادات قيمة .

يجب أن تمتد دراسات من نفس النوع فى المجالات المختلفة لدراسة السلالات وفئية وأدرات الحياة اليومية ، كما يجب دراسة الخلاف بين أسلوب وأدرات الهدو المستخدمة فى بلاد الهربر والتى جلبها العرب وبين مثيلاتها عند الهدو الهربر ، وبجب الفصل بين ما هو خاص بالمفارية وما هو خاص بالمشرقيين وما أضافه المشرقيون فوق ذلك .

لقد أدخل العرب في بلاد البربر أسلوب حياة غير مألوف لديهم . إن

الانتقال الموسمى للرعاة وقطيعهم من الصحراء الى المناطق القريبة من الساحل والأكثر خصوبة كان مطبقا في شمال إفريقية مئذ القدم (٢١) . يلاحظ استرابر Strabon - الجغرافي اليوناني الذي عاش في القرن الأول الميلادي --عند وصقه لعادات البربر القدامي في جنرب موريتانيا ونوميديا ومقاطعة إفريتيا ، أنهم يشبهون السبدر العرب . وهناك المؤرخ اللاتيني سالوست Salluste الذي كان حاكما على توميديا في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، والمؤرخ اللاهوتي الأسباني بول اروز Paul Orose الذي عاش في القرن الخامس الميلادي ... لقد ذكر الإثنان كذلك البداوة عند البربر . كان للبدو مساكن متحركة يكن نقلها على عربات ، ولكن ظهور وتعدد الإبل غير من ظروف حياة الرعاة وسمح لهم بالتقدم تحو الجنوب وجعل من الذهاب والإياب الموسمي شبه ضرورة . وترسع استعمال الإبل في إفريقية في القرن الثالث في عهد سلالة سينير Séveres (٢٢) . وزاد عدد الجمال وخصوصا وحيدي الصنم في القرن الرابع . ويقول لنا ابن حوقل أن البربر في القرن الماشر كانوا يمتلكون من الإبل أكثر عا يمتلكه البدو العرب (٢٣). وكانت قبائل زناته يتلكون منهم الكثير ، لأنهم كانوا يعيشون في الصحارى (الصحراء الكدى) . أما قبائل صنهاجة فلا شك في استخدامها للإبل لأنها كانت تنتقل في الصحراء ، ويكفينا ذكر جموع البدو الصحراويين (المرابطين) وهم لموذج تقليدي للبدو الجمالين اللين برزوا في التاريخ في عهد العرب الهلالية .

Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, V, 112,177,215. (Y1)
Gsell, I, p. 59 Cette notion, indiquée par Gsell (p. 60 n. 8) a (YY)
éte développée par E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du
Nord, p. 206.

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, . ٩٥ سورة الأرض س (٢٣) إبن حرقل : صورة الأرض س (٢٣) p. 4()

ويخلاف الإبل ، نحن نفترض أن العرب المهاجرين كانوا يمتلكون مثل الهربر الماشية ، وهي خراف وماعز ، وأيضا الخيل المستخدمة في الحروب .

والخيام هي سكن الهلالية والبرير ، وكانت النساء هي التي تقيم في الخيام وترقعها حسب مقتضيات الحياة البدوية . وقد لاحظ البكري عشية الغزو الهلالي أن خيام الواصلية والزناتية الخوارج في منطقة تاهرت كانت تشهد خيام العرب (٤٤) عما يجعلنا نفترض أن خيام الوطنيين في المناطق الأخرى تختلف عنها ، ولكننا مجهل هذا الاختلاف . كما أننا لا نعرف إذا كانت الحيام التي تأوي رضاة الشمال الإفريقي ، كانت عائلة للطراز القديم المستخدم في البلاد ، أو تماثل الطراز المستورد بواسطة الغزاة منذ القرن الحادي عشر . وعقارنة الخيام التي لا نزال نراها في صحراء الجزائر وتونس ، وخيام القبائل الصحراوية في الشام ، والتي تتكون من قطع من القماش الضيق المتلاصق ومدعم بالأوتاد ، عبد أن هناك تشابد ، وفي الوقت نفسد اختلاف بين يجب تحديده (٢٥). ومن ناحية أخرى يبدو أن عرب المشرق كانوا يجهلون الخيام الجلدية التي يستعملها ناحية أخرى يبدو أن عرب المشرق كانوا يجهلون الخيام الجلدية التي يستعملها الطوارق . فهل هي من أصل بربري ؟ أم أنها ميراث من المهاجرين ؟ *

⁽٢٤) البكري: المغرب ص ٧٧.

Alois Musil, Manners and customs of Rwala عن شيمة بدر العرب (۲۵) Bedouins, New-York, 1928, p. 61. A. de Boucheman, Matériel de la vie bédouine, Documents d'études orientales. Institut français de Damas, III, p. 108.

ومن الجدير بالذكر أن القبائل المربية توصلت الى صناعة بعض أنواع الخيام من الجلاد
 قبل دخولها الى بلاد المفرب إذ يروى الألوسى أن " من بيوتهم القشع وكائرا يتخلونه
 من الجلود ، والقشع ، الجلد اليابس ، قال متدم بن توبره يرثى أخاه مالكا :
 ولا برباً تهدى النساء لعرسه إذ التشع من برد الشتاء تقمقها =

أما بالنسبة لسرج الجمل والهودج اللى تعتليه النساء خلال السفر ile bacaur فالاختلاف هنا أكثر وضوحا . والهاثور le bacaur والأطوش l'attuch الجزائرى أو التونسى بكتلتها البصلية لا تشهه الكتاب ketab أو الدولا dolle بشكلها العريض والمنحنى لإبل القوافل العربية (٢٦) .

ومع ذلك فهناك تشابد كبير بين الأقمشة التى يستخدمها البدر الشاميون كستائر أو جراب للجمال ، وبين التليس Tellis ومزاده شاميون للبدر وأهل المضر الجزائريين . وتتكون الزخرفة من قطع من القماش المتوازية ذات العرض المتفاوت بها أشكال هندسية : مثلثات أو رقعة داما (شطرنج) . ويتميز هنا النوع من الزخرفة في شمال إفريقيا على أنه بربري أصيل (٢٧) . وليس من العبث أن ترجع هذه الزخرفة إلى غزاة القرن الحادي عشر ، وبذلك يبقى هذا الذكرى الحسنة التي احتفظت بها البلاد .

ب - الآثار الاقتصادية للغزو: الكارثة العربية

اذا كان العرب لم يدربوا أهل البربر على الحياة البدوية ، وعلى الأرجح لم يغيروا إلا قليلا حياتهم البدوية التى كانوا يميشونها ، فعلى الأقل رفعوا عدد البدو ينسب من المستحيل تحديدها . وما أن الحياة الرعوية تتطلب أراض شاسعة لذلك اضطر الرعاة الوطنيون إفساح المجال للغرباء .

فتبيلة زناته هم الذين كانرا يمثلون هذا العنصر البدري البربري ، ونحن

⁼ عا ينك على تأثر الطوارق بالقبائل العربية في مساكنهم ، انظر الألوسي ، بلرغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٣ : ٣٩٣-٣٩٤

Voir A. de Boucheman, loc, cit., p. 44 (73)

Voir L. Poinssot et J. Revault, Tapis tunisiens, Paris, 1937, (YV) I, p. 9 n 5.

نعرف من قبل هذه المجموعة العرقية في بلاد البربر ، ورأينا دورهم في انتشار وإبقاء البدعة الخارجية ، بساعدة أموبي قرطبة ، وخصومتهم الطويلة مع صنهاجسة الذين كانوا دعامة الفاطميين . فزناته كانوا أعداء تقليديين لعسنهاجة ، ويبدو أنهم يتميزون عنهم باللغة (يرمز اسم « زناتية » الى مجموعة لهجات بربرية) ، وبطريقة الحياة ، لأن صنهاجة كانت مستقرة ، بينما زناته يتنقلون بعائلاتهم وقطيعهم في محلكتهم ، التي كنت تشمل نطاق واسع في جنوب وغرب إفريقية والمغرب الأوسط من الجريد حتى سهول ولاية وهران (٢٨) .

لقد شبت الحرب بينهم وبين الهدو العرب عند أول اتصال ، ولكن بدو زناته اللهن يفتقرون لروح التضامن والتى عضدها عواهل من الهلاد أضعفت جبهتهم ، إلا أن بنى حماد رغم أنهم من صنهاجة ققد صمموا على تكوين تحالف أكثر جدية ، وكان على رأس هذا التحالف أميز زناتى من تلمسان يدعى « بختى » فقدم لهم القوات وعلى رأسها وزيره أبو سعده من قبيلة زئاته بنى يفرن ، دام الصراع عدة سنوات تخللها وقفات (هدئة) عندما كان الرحيل الموسمي للصحراء يقصل المحاربين ، لكن بموت أبى سعده قطع هذا التحالف وافسح الطريق للغزاة .

إن ابن خلدون هو الوحيد الذي يعطينا بعض المعلومات عن أحداث غفل عنها مؤرخر هذه الفترات ، ومع ذلك فالخلافات الفامضة للقبائل التي يرجع سببها الى السيطرة على الطرق التجارية ومياه الآبار تركت بصبتها في أساطير العرب أنفسهم ، فملحمة بني هلال تحكى لنا قصة نزحهم من نجد حيث المجاعة وأسباب هجرتهم ، كما أنها توضع أن عاهل البلاد التي غزوها ليس

Voir G. Marçais, article Zenâta dans l'Encyclopédie de l'Islâm (YA) et la bibliographie.

المن الزيرى عاهل القيروان ، بل خليفة الزناتي ملك تونس الذي نعرفه بالزناتي أبي سعده . أما غرامياته مع الجميلة الهلالية جازية فهي فصل خيالي لإثراء النص البطولي ، كما أن وفاة الزناتي سمح للعرب الهلالية بدخول بلاد السبع ممالك والأربع عشر قصر حيث سيكونوا دائما في مأمن من البؤس (٢٩).

إن اكتساب النصر ، نتيجة لوفاة الزناتى ، كان جوهريا اكثر منه وهما فزناته الذين دحروا نحر الغرب لم يعد لهم اتصال بسهول قسنطينه والزاب حيث استقر العرب كأصحاب أرض ، وكانت الحدود بينهما هي جبل عمور والزاب على خط طول الجزائر العاصمة .

إذا كانت المنافسة - التى قخصت عن حياة متشابهه - أراحت الهدو الرطنيين أو قللت كثيرا من أملاكهم ، فالخصومة الناتجة عن أساليب حياة مختلفة قد أثارت عند المزارعين المقيمين بؤسا عضالا ، ولقد ظهرت فى هذا المجال الكارثة العربية أكثر وحشية . والصورة المعهودة للخراب نتيجة هجوم المراد ببلاد المغرب يصور لنا بدقة نتائج الغزو فى جزء هام من الريف البربرى . فإطلاق القطيع وسط المحاصيل ، وتخريب الحداثق واساءة معاملة بسكان الريف وسلب القرى ، تلك كانت بدون شك الحلقات الطبيعية للمرحلة الأولى للغزو الهلالى . واستنادا لحكم ابن خلدون والذى أشرنا اليه والذى يوضع فيه التناقض بين حضارة الحضر والحياة الهدوية كما زاولها العرب وفالحجر مثلا إنما حاجتهم اليه لنصبه أثافى القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه حاجتهم اليه لنصبه أثافى القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لللك . والخشب ايضا انما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس

Voir J. Schleifer, article Hilâl, dans l'Encyclopédie de l'Islâm . (Y4)

وان رزكهم من خلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليد بل كلما امتدت اعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه » ثم يضيف بعد ذلك : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار وعراق العرب كللك قد خرب عمرانه الذي كان للغرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك وإفريقية والمغرب ، (٣٠) . والأذي كان أكير في يلاد البربر وخصوصا البربر الشرقي فبعد التدهور الطويل الذي يرجع في الفترة الأخيرة للاحتلال الروماني وتفاقمه باحتلال الوئدال والهيزنطيين ، ثم القعم الأسلامي وحركة الخوارج قبعد كل هذا عاد الرخاء الذي دللت عليه شهادات كثيرة . وقد تطرف هذا الرخاء المفقود بالتقهقر الى الماضي . وسيؤكد المراكشي بعد مائسة وخمسين عام أن قبل الغزو الهلالي و كانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان قشى فيها القوافل ليلا وثهارا » (٣١) كما أن صاحب « الاستبصار » المجهول يضيف إلى هذه اللوحة تقاصيل طريفة ووكانت القوافل إذا خطرت بين هذه القصور (بين تفصه والقيروان) تكم أبلها ودوابها لثلا ترعى ورق الشجر لكثرته على ذلك الطريق. وهي اليوم خربة لا أنس بها من وقت دخلت العرب بلاد إفريقية» (٣٧) وجدير بالذكر أنه في زمن المراكشي وجامع وثائق والاستهصار، اجتبحت إفريقية من جديد براسطة مفامرين شجعان ألا وهم ويني غانية، الذين وجنوا في العرب أتشط المساعدين ، وهكذا أعاد هؤلاء البدر الأقوياء دائمي التعطش للسلب ،

⁽۳۰) اين خلدون : العير (المقدمة) ١ : ١٨٧-١٨٧

⁽٣١) الراكشي : المجب في تلخيص أخيار الغرب ص ٣٣١ .

⁽٣٢) الاستيصار ص ١٥٤

القلاقل وساعدوا على استفحال التدهور الاقتصادى . وبذلك استمرت عواقب الغزر ، ففي المقاطعة الرومانية القديمة (إفريقية) حول البدو الحقول الخضراء الى صحارى التي لا نزال نراها حتى الآن . لقد قال ابن خلدون « وبدلت الأرض فيه غير الأرض » .

لقد انكمشت الأرض الزراعية حول المدن التي أصبحت وسط حقول مقفرة ، ومع ذلك قمن المهم التقرقة بين المستويات المختلفة قيما يخس الاتصالات التي كانت تربط هؤلاء البدو بهذه المدن ، والجغرافي الإدريسي يقدم لنا الرسيلة لللك ، فعند وصفه لبلاد البرير في القرن الثاني عشر قدم لنا إيضاحات عن توسع المد الهلالي والظروف المختلفة للحياة الحضرية للسكان البرير في المنطقة التي يضرها هذا المد (٣٣) .

بجانب تونس فالعرب يحتلون أيضا الجزء الأكبر من محافظة قسنطينة ، إنهم يحتلون فقط السهول ولا يتطلعون الى الجبال ... فهى فقيرة وذات منافذ صعبة لدوابهم ، وكانت تستخدم دائما كحصون للوطنيين الميمدين من البلاد . وبذلك توسعوا في حوض هدنه بأكمله في الجنوب الشرقي للجزائر العاصمة ، ثم وصلت حدودهم الفربية الى وادى ساحل في جنوب منطقة القبائل الكبرى ، التي يقيت خارج نطاقهم والتي تحتفظ بثيات مدهش بسكانها البربر من العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، ويقيت مدينة يجايسة - كما نعرف - في مأمن من غزوهم ، ولم يدخلوا منطقة القبائل الصغرى لكنهم سيطروا على طريق قسطنطينة - القل ، وقد اجتاحوا أيضا السهل البحرى للمدينة بونه وضواحي ميناء طبرقة .

Dozy et de Goeje, وكل ما يأتي Dozy et de Goeje, الإدريسي ؛ رصف إفريقيا راسانيا ترجمة G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 150

كانت القيروان أكثر المدن تأثرا بهذه الأحداث ، وبدون شك أكثرها انهيارا ، فقد ماتت فيها التجارة ، وهرب منها سكانها الذين اختنقوا من متطلبات عرب السهل . أما المهدية - العاصمة الجديدة للزيريين - فقد كانت في وضع أحسن مثل جميع مدن الساحل الشرقى : صفاقس والمنستير وسوسه ولكن بساتين ضاحيتها اختفت قاما . والخصوبة المشهورة لسهل « باجه ، جذبت إليها أطماح البدر ، فهم أسياد المنطقة وأصبح البربر يزرعون لهم الأرض التي يمتلكونها وكذلك الواحات . ومدينة باجه التي كانت مزدهرة في الماضي أصبحت بائسة تعيش في فزع ، ففي أواخر القرن الثالث عشر يروى لنا أحد المسافرين « أن أهلها لا يقارقون السور خوفًا من العربان ، وأنهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعدون ليوم الشراب والطعان » (٣٤) . وبالرغم من قيام علاقات بين سكان طهرقة وجيرانهم العرب وهي علاقات سلمية وعادلة ، ولكنها لم تحقق الأمان المتشود لأن هؤلاء العرب بؤساء بطبيعتهم ولا يحترمون معاهناتهم . وكان الرضع كذلك بالنسبة لخطوط البريد ، فهناك محطات محصئة وأماكن للأسراق على طول الطريق بين قلعة بني حماد وبجايه وخاصة في الجزء الذي تسلط عليه العرب . وخضعت هذه الطرق لتقاليد الهدنة ، فإذا قام شجار بين القبائل ودوريات حراسة البريد فالدية مطلوبة اذا كانت الضحية من البدر ، أما أذا كانت الضحية رجل من حامية الموقع فلا يجرؤ أحد على المطالبة بالدية . ومن البديهي أن الابتعاد عن المدينة يعرض الانسان للخطر . وفي « بادس » وهي القلعة الرومانية القديمة على السفح الجنوبي لجبل أوراس ، حيث كان المرب يسيطرون على حقول هذه المنطقة « قلا يتركون أحدا يخرج من هذه المنطقة إلا في حراسة رجل من القبيلة . » إن الأسوار الضخمة هي بلون شك المماية الفعالة ولكن لا تستطيع المديئة الحصول على التموين والحياة إلا

[.] M = W ltaying: W = W = W

بموافقة العرب. وفي باغاية وهي مدينة رومانية بيرنطية محصنة وتقع في شمال الأوراس فسكانها « زبائن بطريقة ما عند العرب » الذين فرضوا عليهم حماية باعظة . هناك بعض المدن التي حققت هدوما نسميا بدفع اتاوة ، وقد رأينا من قبل عدة أمثلة على ذلك بعد الغزو ، بالاضاقة لما يرويه الإدريسي عن مرمجانه الواقعة على الحدود الجزائرية الترنسية .

ومع مرور الأيام ، عرف الغزاة أن فى إمكان سكان المدن تقديم خدمات أخرى خلاف دفع الرسوم الاستبدادية ، فكانت بعض المدن الصحراوية تستخدم كمخازن للمواد الغذائية التى يجمعها البدو فى انتظار رحيلهم بها ، ويعرفنا الادريسى أن مدينة مجاند لعبت هذا الدور .

وكانت بعض المدن تتمتع بمقومات مؤقته للتعامل مع العرب ، ويرجع ذلك الى موقعها وقدرة جهازها الدفاعى وبراعة حكامها كل ذلك مكنها من عقد علاقات حسن الجوار مع العرب . وكان هذا موقف تونس عاصمة بنى خراسان ، التى قام العرب بتموين أهلها : كانت إلمهم تجلب لها القمع والعسل والزبد و لدرجة أن الحلوى التى تصنع فيها كانت من أجود الأنواع » وكذلك بالنسبة لمرسى الخرز (قاله أو بونه) . فقد كان العرب يمدونها بالمواد الغذائية لأنهم كانوا يعسكرون بأعداد وفيرة حول أسوارها . ولكن الوضع الأكثر قبولا هو وضع مدينة قسطنطينة : فقد تحدث أى عدوان على ربوتها وعقدت المدينة النوميدية القديمة مع الهدو و اتفاقيات مفيدة » وروابط تافعة للطرفين فيما يخص زراعة الأرض وحفظ المعاصيل .

بذلك وبعد قرن من ظهور بنى هلال أصبح التعاون بين البدو والمستقرين ، هو انعكاس (تعويض) طبيعى شصومتهم القطرية ، وقد كان استدراكا للأذى الذى سبهه الغزو .

خدمة أخرى قدمها العرب مقابل تعويض باهظ ، ألا وهى السهر على أمن السافرين ، وكان وجودهم فى المنطقة هو سبب هذه الحاجة ، وبدون اشراف القبيلة أصبح التنقل من مدينة الى أخرى مهمة خطيرة . وعلى كل قالأسهاب قليلة للتنقل بين المدن ، فقد أصبح نادرا إن لم يكن معدوما بين المراكز الحربة أو التي تعيش على مواردها الحاصة . وفى هذه النقطة أيضا يجب تحديد المناطق .

كانت يلاد البرير تحتفظ قبل الغزو يشبكة طرق موروثة من المهد الروماني والبيزنطي ، وكان وجودها استراتيجي أكثر منه تجاري ، مع الفارق الوحيد أن مراحل السفر الإسلامية كانت تبدأ من القيروان بدلا من قرطاج . والبكري يعدد المراحل التي كانت تسمح بالسفر لمدة أربعين يوم من القيروان الي فاس عن طريق سبيبه ومجاند أو تبسه ، وباغاية ، وبازمه ومنها يمكن الانعطاف نحو طيئه والوصول الى تافيلاك أو السير مباشرة نحو المسيله وقلعة يني حماد والاتجاه نحو تاهرت وتلمسان عن طريق السهول العليا التي تسلط عليها بدو زناته ولكن ليس هناك الآن ما يجعل التجار يستخدمون هله المراحل ونقرأ في الاستبصار أن و على الطريق من القيروان الى قلعة أبي طويل وهي قلعة حماد ... مدن كثيرة خربتها العرب عند دخولهم يلاه إفريقية » (٣٥) . وكانت سبيبه هي المرحلة الأولى وكانت مدينة قدعة ومركزا لترى مزدهرة لا نجد فيها الآن إلا عدة مساكن بائسة . والمدن التي لم يهجرها سكانها مثل تونس والقالة أو قسطنطينة اقتنعت بظروف حياتها الجديدة التي خلقها العرب ، فهذه المدن تقع على الساحل أو في منطقة التل الجيلية ، إن ميلاد علكة ترنس وانتقال نشاط القلعة الى بجايه ليست إلا الحلقات الأكثر بروزا لتطور عام وهو : انتقال النشاط الاقتصادي لبلاد البربر من الداخل نحو (٣٤) الاستيصار ص ١٦١ .

YLO

الشمال (البحر) ويتحول الطريق التجارى وكذا انتقال القوات الحربية منذ تلك المرحلة فصاعدا عبر وادى مجردة متجها نحو المغرب ، دون الابتعاد عن الشاطئ.

ولقد أدى ذلك الى تطور ، تجاوز الغائدة الاقتصادية والاطار المرسوم لتاريخ بلاد البربر الإسلامية ، إذ أن شكل الحياة الداخلية للبلاد ، وأضطرار حكام يلاد المقرب وعدد كبير من رعاياهم الأغنياء والعاملين الى الاحتماء بسواحل البلاد بعيدا عن أيدى العرب ... أدى ذلك الى ابراز دور الغزر الهلالي بتوجيد هؤلاء تحو البحر .

Ш

ترجع صنهاجة تحو الهجر : اتفاقيات وصراعات مع تورماندي صقلية

إن مشكلة صقلية تحتل فى العصور الرسطى ، كما كانت تحتل فى العصور المسور القدية ، كل التاريخ البحرى لبلاد البربر ، والفتح الذي حققه الأمراء الأغالبة فى القرن التاسع ، أبدى زروة القرة الإسلامية فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، لقد كانوا يملكون الجزر والجزء الأكبر من شواطئ القارة ، وكانوا يسيطرون على البحر ويبحرون بحرية فى جميع الاتجاهات .

خلف الفاطميون الأغالية وورثوا عنهم هذه السيادة ، وكانوا يتقاسمونها بل يتزاحمونها مع أمويي اسهانيا ، وتثاقف الأسطولان في عدة لقاءات ، وأصبح الهجر الأبيض بحيرة إسلامية ، وخصوصا الحوض الغربي منه ، حتى كان المسيحيون لا يستطيعون ابحار لوحا من الخشب وحسب التعبير المهر لابن خلدون « ولم تظهر للتصرانية فيه ألواح » (٣٦)

⁽٣٦) أين خلدون : المير (المقدمة) ١ - ٣١٥ .

نهمد رحيل الفاطميين وانهيار خلافة قرطبة تمكنت البحرية المسيحية من خاف بعض المرية في الحركة والحصول على بعض المزايا .

عندما ترك الخليقة المعز إفريقية ، كان قد فصل طرابلس وصقلية من للم التي وهبها لبلكين الزيرى ، وقام المعز بتخصيص طرابلس لكتامى ، فا عادت بعد ذلك الى الدولة الزيرية لتنفصل من جديد ، وتصبح من سمات عائلة « بنى خزرون » الزناتيد (٣٧) أما بالنسبة لصقلية وكلابريا ، كانت ملحقة بها ، فقد اعطيت لعربى يدعي حسن بن على الذي كان قد ، مقدرة في حكم الجزيرة . (٣٨)

م تكن المهمة سهلة بالنسبة لحكومة صقلية ، فقد كان الوضع الداخلى لحربا ، وكان الشقاق سائدا ومستمرا ، فالمسلمون من العرب والبربر كانوا لون عصبيات تتصدى بعضها لبعض ، وكان المسيحيون يكونون جمهورا ، كل آماله متجهه تحو القسطنطينية وينتظر منها الخلاص .

دلكن الخلاص سوف يأتى من مكان آخر ، سيكون هذا الخلاص على أيدى اليس لهم أية صلة بعالم البحر الأبيض المتوسط ، إنهم النورمان ، سلالة الشمال السكندنافيين الذين خرجوا من ضباب بحر المائش لتكوين علكة إفريقية ، وكان ذلك أثناء غزو آبائهم لبريطانيا العظمى .

رابتدا، من سنة ١٠٩١ م (١٨٤هـ) عادت صقلية مسيحية ، وانقلب نع في البحر الأبيض على حساب الإسلام ، وحاولت صنهاجة المهدية وقف الانقلاب . ويعتبر استقرار نورمان الشمال في صقلية وضع عجيب

<u>!) أين خلدون : المير ٧ : ٥٥-3.</u>

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧ : ٤٥

ومفارق إذ أن قبيلة صنهاجه التى فرض عليها الاتجاه الى النشاط البحرى ، قبيلة جبلية عاصمتها قلعة أشير برتفعات تيطرى ، ويهدو أن أفرادها يخشون البحر ويحدرونه كفالبية أهل البربر ، ويحبون الأرض وليس يعناك ما يدفعهم الى المفامرة فى البحار ، واستنفلوا نشاطهم فى الصراع مع جيرائهم من زناته ويتى عمومتهم بنى حماد ، ولكن عندما استقروا فى إفريقية كخلفاء للفاطميين ، وجدوا أنفسهم حكاما لمناطق ساحلية حيث تلتقي فيها تجارة ما وراء البحار ، ومسئولين عن الجهاد البحرى فى إفريقية . رغم طبيعتهم الجبلية التي تبعدهم عن ذلك ، ورغم جهلهم التام بالملاحة لم يلهثوا أن عرفوا أهمية الأسطول فى نجاح عملياتهم فى المغرب . يقول لنا ابن الأثير أن بلكين سلم بأن مدينة سبته لا تؤخذ إلا بأسطول لمحاصرتها (٣٩) ، ويوقف الامدادات الأتية اليها من الأندلس .

يبدو أن دواقع انشاء هذا الأسطول قد بدأت قعلا ، لأن المائتي سفينه التي كان يتلكها الفاطميون قد تبعتهم الي مصر ، وإذا كان قد بقي منها شئ فهي سفن غير مسلحة وخالية من الطاقم ، وقد سعى الي ذلك بلكين أو بالأحرى واليه عبد الله الذي أنابه في إفريقية ، كانت النتيجة تدعو للرثاء ، إذ يبدو أن الوالي اتبع لتجنيد الرجال طريقة و الحشد » التي كانت مستخدمة في البحريتالأوربية القدية ، هذا ما يجعلنا نصدق نص ابن عداري (٤٠٠) فهو يجكي لنا أنه عند ذهاب عبدالله إلي المهدية حيث يتجمع الأسطول و أخذ في يحمد البحريين في كل بلده وأمر أن يؤخد كل من بقي منهم بالقيروان وغيرها وملأ بهم السجون ، وأدرك خاصة البلد وعامتهم من الخوف ما لزموا لسه الهيوت ، وانتهي حالهم إلى أنه إذا مات أحد عندهم لا يخرجه إلا النساء » .

⁽٣٩) أبن الأثير : الكامل ٧ : ٧٨

⁽٤٠) البيان ١ : ٢٢٩

(هل كان المتصود من ذلك الحصول علي الذين كانوا قد خدموا في البحرية سابقا ، أم أن هذا التدبير أصاب كل رجال المدينة ؟ إن هذا التصرف يجعلنا نقترض أن المجندين كانت لديهم بعض المعلومات البحرية ولكند لا يستبعد الافتراض الثاني) .

« وقى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م) خرج الأسطول من المهدية في أول المحرم (٢٩ من أغسطس) فتعدّرت الربع عليها ، قأقاموا حتى قرغت أزوادهم وعدموا الماء ، قهرب جميع من قيها من التواتيد والبحريد ، وصاروا الى البر ، قنهوا ما في المراكب من عده وسلاح وهربوا الى كل ناحيد قجعل عبد الله الطلب عليهم ، قمن ظفر بد قتل »

نحن تجهل الأسلوب الذي حُلَّ محل هذه الطريقة الوحشية ، ونرجع أنه قد يكون التطوع الاختياري الذي يشجعه توزيع الأموال كما هو الحال في تكوين القوات البرية ، والمؤكد أنه في عهد المعز كانت البحارة تكون عنصرا ملعوظا من سكان زويلة ، ضاحية المدينة إذ تجدهم في سنة ١٠٥٦ م (٨٤٤هـ) منضمين مع الدهماء في فتنة خطيرة جدا (٤١) .

وفي سنة ١٠٦٨م (٢٦١هـ) في عهد قيم ابن المعر قام عدد من البحارة المسلمين بالجلاء عن صقلية إلى إفريقية بعد أن غزاها النورمان. (٤٢)

" أما بناء السفن فقد كان يواجد صعوبات أكبر من تجنيد الرجال ، كان لإفريقية بالتأكيد ترساناتها : هناك تونس حيث جلبوا لها المتخصصين المصريين الذين يعتبرون من الرعيل الأول ، وسوسة حيث تكونت حملات

⁽٤١) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٤

⁽٤٢) ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٥٨

صقلية ، والمهديد إذ يروى البكري عن ترساناتها أنها كانت تحتوي علي مائتي سفينة وتشمل « قبوان كبيران طويلان الآلات المراكب وعددها لئلا ينالها شمس ولا مطر » (٤٣) .

لكن المسألة العضال والأكثر حرجا في حلها ، كانت بالنسبة للزبريين نقص الأخشاب لأن شجر زيتون الساحل لا يصلح لهياكل السقن . ولذلك أصبحت بجاية بعد ذلك أكثر ملائمة من المهدية لصناعة الأساطيل ويروى الإدريسي (القرن الثاني عشر) : « وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيسل ، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير ، ويجلب إليها من أقاليمها الزيت الطيب والقطران »(٤٤) كما يذكر صاحب « البيان »(٤٥) حدثا يوضح بطريقة مؤثرة كثرة مواد البناء في بجاية وافتقار المهدية لهذه المواد : ففي سنة ١٩١١ م (٣٥هـ) استولى الزيري « الحسن» على سفينة مشيدة في يجاية وكانت هذه السفيئة عائدة من مصر ، ففرغ عمولتها وتركها في الميناء وحينما هبت عاصفة حطمتها في شهر اكتوبر ، أمر الحسن يجمع حطامها بعناية وشيد بها مفئة جديدة .

ورغم هذه الظروف المعاكسة استمر بنر زيري وخاصة المعز وخلفاؤه في محاولات منتظمة لإنشاء أسطول قري ، ولقد رأينا المحاولة الياقسة وهروب الطاقم الذي جنده عنوة ، إن هذا الفشل يوضح لنا عن عدم وجود أي إشارة لإنشاء مشروع اسطول بحري لا في عهد المنصور بن بلكين ، ولا في عهد باديس بن المنصور ، أما في عهد المعز ققد قامت أحداث خطيرة جملت النشاط

⁽⁴⁴⁾ البكرى : المقرب ص ٣٠

⁽¹¹⁾ الإدريسي : صفة المفرب وأرض السودان والأندلس ص ٩٠ _ ٩٢ .

T16-T17:1 (60)

البحري في المرتبة الأولى ، فالإعتراف بدولة بني حماد طبقا لوفاق سنة البحري في المرتبة الأولى ، فالإعتراف بدولة بني حماد طبقا لوفاق سنة ولام (١٠١٨م (١٤٠٤هـ) أنهي نظريا السراع مع أعداء الغرب . ولكن إقامة دولة وثاتية في طرابلس خلق في الشرق جبهة صراع سيكون البحر مسرحا لها . ففي سنة ٢٠٠٣م (١٤١٤هـ) ذهب المعز إلى المهدية وباثر ينفسه عملية تجنيد البحارة وإعداد السفن التي ستعاون جيشه الزاحف ضد ابن خزرون حاكم طرابلس (٤٦) .

لقد أصبحت الحياة البحرية وتجارة ما وراء البحار والقرصنة من اهتمامات الأمير الزيري . ورغم أن صقلية وجنوب إيطاليا كانت بعيدة عن ملكه إلا أنه لا يحدد عدم الميالاة أمام المخاطر التي يواجهها الإسلام هناك ، وتهديد المسيحية للازدهار الاقتصادي في إفريقية . ففي سنة ٢٠٠٥م (٢١٦هـ) أرسل الأميراطور باسيل الثاني جيشا لمهاجمة صقلية وكلا بريا ، وأقام هذا الجيش تحصينات قوية فيها بقصد الاستعداد للعمليات الحربية المستقبلية ، فقام المعز بتجهيز أسطول ضخم ، يحددها ابن الأثير بأربعمائة قطعة ، وتعتقد أنها قوارب مستأجرة بهدف نقل القوات ، كانت تحمل المجندين والمتطوعين الذين جاءوا للجهاد وأبحر هذا الأسطول في يناير سنة ٢١٠١م (٢٧١هـ) وبالقرب من جزيرة قوصره هبت عاصفة قوية أودت بهذا الأسطول ولم ينجر من الرجال إلا القليل (٤٧) .

بعد خبسة وعشرين عام من هذه الحادثة ، جاء الغزو الهلالي والهروب من القيروان والهجرة إلى المهدية وتعرضت الهلاد للسلب والقوضي ، وانسحب

⁽۲۱) البان ۱ : ۲۷۰

Amari, Storia dei Musulmani di Sicil- ، ۳۲۳ ، ۲ اين الأثير ، الكامل (٤٧) ia, II, p. 423 .

النشاط الاقتصادي نحو الشاطئ نتيجة لاحتلال العرب لجنوب إفريقية وطرابلس وبرقة ، وأصبحت الطرق البرية المؤدية لمصر والشرق غير صالحة ومحرمة علي القواقل ، لذلك كان الطريق البحري هو السبيل الوحيد للتبادل التجاري والحج .

وابتلي السلطان الزيري بهذه المسادقة المؤسفة ، التي تزامنت مع الحطر المسيحي المثل في النورمان ، وكانت الحسارة على الجبهتين . *

وفي سنة ١٠٥٧ م (٤٤٤ه) نفس العام الذي دحر قيد العرب وللمرة الثانية القرات الصنهاجية ، تلقي المعز نداماً من مسلمي صقلية يلتبسون فيه مساعدتهم ضد النورمان بقيادة روجر الأول ، فجمع السلطان مرة أخري عددا هائلا من السفن وشحن فيها الجنود والمؤونة ، وللمرة الثانية بالنسبة للمسلمين كانت النتيجة مشئومة في تواحي جزيرة قوصره ، لأن عاصفة شتوية التهمت معظم الأسطرل ، ويروى ابن الأثير علينا الواقعة مبينا نتيجتها المزدوجة و كما أضمف المعز وقوي عليه العرب حتى أخلوا البلاد منه ، فملك حينئذ الفرنع (النورمان) أكثر البلاد علي مهل وتؤده لا ينعهم أحد واشتغل صاحب افريقية عادهمه من العرب » (٨٨) .

ومع ذلك فسيحاول قيم بن المعز مرة أخرى العودة الى صقلية سعيا وراء المصول على ما يعوض الكارثة الإفريقية (٤٩). إذ نزل أبناؤه الإثنان مع القوات الزيرية في موقعين على الساحل ، واستقبلوا استقبال المنتذين من سكان الجزيرة المسلمين ، ولكن تصرف الحرس الأسود الذي جلباء معهما أفقدهما الشعبية لدرجة أنهما اضطرا للعودة سنة ١٠٦٨ م (٢٦١هـ) تاركين

⁽ ٨٤) أبن الأثير : الكامل ٨ : ١٥٨

⁽٤٩) ابن الأثير ؛ الكامل ٨ : ١٥٨

صقلية في أيدي النورمان الذين لن يجدوا أمامهم أية مقاومة .

اذا كان بنر زيرى قد تنازلوا عن الاستئثار بملكة ما وراء البحار (صقلية وغيرها من الجزر) ، قلم يققدوا الأمل في المصول على الثروة ، على حساب جيرانهم بالبحر الأبيض المتوسط . ويستحقوا منا كل الإعجاب والتعظيم للمقدرة التي أثبتها المعز وخلفاؤه الأربع في محاولة معالجة وضع ميتوس ، مند وهو المحافظة على مملكتهم ، وهذا ما توصلوا إليه ولمدة تسعون عام عن طريق استعادة مملكتهم قطعة بعد أخرى ، وتنظيم الحملات البحرية التي كانت بثابة جهاد مقدس ، وأخيرا محاولة الإثراء بفضل التجارة البحرية .

كانت قرصنة بنى زيرى ذات نشاط ملموس ، فقي عهد قيم بن المعز بلغ العدوان على الهلاد المسيحية درجة جعلت الدول الضحية تقرر عملا جماعيا ، فتكون اتحاد حول بيزا وجنوه وشجعه البابا فيكتور الثالث . ودامت الاستعدادات أربع سنوات ، وفي سنة ١٠٨٧ م (١٨٤٠) الجهت ثلثمائة سلينة تعو المهدية (١٠٠) ، ورغم وصول رسالة بالحمام الزاجل من قويصرة تحدر المدافعين عن المدينة إلا أنهم فوجنوا بالعدوان . كان قيم غائبا عن المدينة مع الجزء الأكبر من القوات ، كما دب خلاف بين الوزير وأمير البحار ، هذا الخلاف شل حركة أمير البحار ومنعه من المجازفة بمركة بحرية وحماية الشواطئ . وفي ٦ أغسطس تحطمت السلاسل التي كانت تعترض مدخل الميناء ، ودخل المسيحيون المدينة وسلبوها كما نهبوا ضاحية زويله ، ولم يمحوا إلا بعد منحهم غرامة حربية فادحة واستعادة الأسرى النصاري .

^(• •) ابن خلاون : العبر ٦ : ٢١٧ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٤٧ ، البيان ١ : ٣٠١ ، التبائل و • ٣٠١ ، التبرواني (ابن أبي دينار) : المؤنس في أخبار إفريلية وتونس ص ٨٣٠ ، الاتبرواني (ابن أبي دينار) : المؤنس في أخبار إفريلية

كانت حملة ١٠٨٧ انتصارا له دوى كبير لدى النصرانية ، أما حملة ١١٠٤ م (١٩٨ه) التي لم يذكرها إلا ابن علاري فقد كانت كارثة عليهم (٥١) . لقد نظمها الرومان بساعدة الخزانة التبشيرية البابوية وكانت تستهدف أيضا المهدية ، لكن في هذه المرة أبحر الأسطول الصنهاجي للمواجهة وفشلت المحاولة تاما .

هذه الهجمات المسيحية المظفرة كانت أو المخيهة للآمال ، لم تفتر أبدا من نشاط الأسطول الهجرى بإفريقية ، بل زادت في عهد يحيى بن قيم ، ويبدو أن التطور الهجرى مع الكيمياء كانا الشاغل الأساسي للسنوات الثماني التي قضاها في الحكم ، فقد شيد السفن التي كانت تخرب كل عام الشواطئ الأوربية وتعود منها بالأسرى ، ويقول ابن خلدون « وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة » .

وجدير بالذكر أنه لا توجد في هذه الحملات ، وهذه الصراعات ، أية اشارة عن صقلية وحكامها من النورمان ، فقد كان بينهم وبين بنى زيرى حالة هدنة بل تحالف يحترمه كل من الطرفين ، لقد عقد هذا التحالف في سنة ١٠٧٥ م (٤٦٨هـ) « قيم بن المعز وروجار الأول » (٤٩١) وبقى في عهد يحيى وعهد ابنه على أي بين هذان الأميران وروجار الثاني . كان يحتوى هذا التحالف على اتفاقيات اقتصادية ، ولكن المنافسة التجارية كانت سببا في إهماله وفشله .

نحن لا نشك في أن بنى زيرى كمن سبقوهم فى الحكم ، قد نظروا نظرة استحسان الى وجود التبادل بين مملكتهم وبلاد ما وراء البحار ، إذ أن الرسوم

⁽١٥) البيان: ١ : ٣٠٣-٣٠٣

Mas Latrie, Traités de paix, d'aprés Malaterra, p. 28-29. () Y)

الجمركية كانت تساعد على قويل الخزانة ، ومع ذلك نحن نفترض أن هذه المتجارة لم تكن حرة مطلقا ، فالامراء أو البعض منهم كانوا يقرمون باحتكار السفن المهيئة لنقل البضائع أو منع حق الامتياز للفير مقابل مبلغ متفق عليه من المال .

لقد رأينا بعد تقسيم إقريقية وبعد نوائب الدهر المغتلفة كيف تكونت مملكة صفيرة عربية في قابس ألا وهي مملكة « بني جامع » (٥٣) ، واضطر سلاطين المهدية لقبول هذه السيادة ويبدو أنهم اكتفوا ببسط سلطة شكلية على « بني جامع » للحفاظ على المظهر ، وكان أرباب قابس يحاولون جاهدين أن يعملوا على ازدهار مدينتهم ، وانتهه واحد منهم وهو « راقع بن مكن » الى بناء سفينة للتجارة الخارجية . ويقول لنا ابن الأثير أن ﴿ الأمير يحيي فلم يتكر ... ذلك جريا على عادته في المناراة . فلما ولى على الأمر بعد أبيه آنف من ذلك وقال لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناويني في اجراء المركب في البحر بالتجار» (٥٤) لكن الحاكم العربي لم تكن لديد النية للخشوع الي هلا المطلب ، واستعان بروجار الثاني حاكم صقلية الذي كان ينوى بدون شك الاتجار مع قابس ، فأرسل هذا الأخير أسطول ليحمى مدينة قابس ، فهعث السلطان الزيري بسفنه أيضا فاضطر الأسطرل الصقلي الى الانسحاب تاركا للمسلمين تسوية خلافهم ، وسرعان ما شب الخلاف بين سلطان المهدية والملك النورماندي الذي خاطب الأمير المسلم باسلوب غير لاتق ، وكانت القطيعة . واستعد على بن يحيى للحرب وأعد أسطوله ، ولعنم مقدرته على مواجهة القوه التورمانديه طلب مساعده أيناء عمومته من صنهاجه مرابطي المغرب

⁽۵۳) عن تاريخ بني جامع ، انظر ابن خلدون : المير ٦ : ٢٧١-٢٢٢

⁽¹⁴⁾ أبن الأثير: الكامل ٨: ٢٧٨

الأقصى والأندلس ضد عدوه الكافر (٥٥) . وفي غضون ذلك مات و على » وخلفه ابنه و الحسن » آخر امراء بني زيري ١٩٢١ م (١٥٥هـ) .

وقى العام التالي أرسل « على بن يوسف » المرابطي أسطَّولا الى كلابريا ، وأنزل قوة من المرابطين استولت على مدينة نقوطرة Nicotera وقامت بالسلب وذبح السكان وأسرهم ، ولم يشك الملك روجار الثنائي يأن العشرية جاءتد من المهدية . فقام بإعداد حملة واسعة ضد المدينة المنافسة ، وأخلت هذه الحملة مظهر الحرب الصليبية ، وفي يوليو سنة ١١٢٣ م (١٧٥هـ) أيحرت للثمالة سفينة من ميناء مرسلا Marsala (صقلية) تحت قهادة جورج الانطاكي (٢٥١). وعند خروجها من الميناء هاجبتها عاصفة أودت ببعض السفن ، ووصلت بقية السفن الى الشاطئ الإفريقي ، وأنزلت قوات بالقرب من المهدية ، واقتحموا حصنا ولكنهم حوصروا فيه بينما الأسطول كان في عرض البحر ، ولم يستطع التدخل ، فانسحب أخيرا تاركا المسيحيين داخل الحصن ، وقد أبيدوا جبيعا . هذا الفشل جعل الملك روجار الثاني يدرك أن مهاجمة المهدية مهمة خطيرة ، وينبغي عليه إدارتها بحذر ونظام ، وبدأ سرا في إعداد حملة جديدة وعلى كل فقد كان واضحا أن حكم بني زيري كان قد آل الى الانهيار ، فالعرب يسيطرون على السهول ، والمجاعبة دائمة في البلاد ، وبنو حماد دائمو التهديد . وفي سنة ١٩٣٥م (٥٣٠هـ) أبحر من بجايد أسطرل يحيى بن عبد العزيز (بني حماد) الى المهدية وفي نفس الوقت كان جيشه يزحف نحر المدينة (٥٧) . وأمام هجوم ذي القربي لم يفكر السلطان في طلب المساعدة إلا (٥٥) ابن الأثير: الكامل ٨: ٢٧٩

٣١٣ ، ابن أبي دينار) : المراد : ١ ، ٢١٤ ، ابن الأثير: الكامل ٨ ، ٣١٣ ، ٣١٣ ، ابن الأثير: الكامل ٨ ، ٣١٣ .
 Amari, Storia, III, p. 385 ، ٩٧ ، المؤلس ص ١٩ ، 385 ، ٩١ .

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 141-142. () Y)

من أعدا - الأمس والغد وهم العرب البدو الذين لبوا الندا - ، والتورمان إذ عقد تحالفا جديدا مع الملك روجار الثانى الذى بعث بعشرين سفينة فانسحب الأسطول والجيش التابعان لبجاية أمام هذا الإمداد المزدوج . فزال الخطر من ناحية وعاد الرفاق بين الحسن والملك المسيحى من ناحية أخرى . كان الحسن مستعدا للتسامح طالما إفريقية البائسة أصبحت تنتظر من صقلية تزويدها بالقمح . أما الملك المسيحى فسوف يستغل هذه الهدنة لإعداد خطه الاستيلاء على المهديد الذى لا مغر منه .

قام الملك بهاجمة المناطق المجاورة للحدود الزيريد والمناطق الشاذة التي تهمد عن سلطة بني زيري بحجة معاقبة القراصنة ولم يقصد قلب المملكة هذه المرة.

إبتدا من عام ١٩٣٥ م (١٩٥٠) استولى الأسطول الصقلى على «جربه» وكان محملا بقوات غفيرة « من مشهورى قرسان الفرنج جماعة » وقضى على السكان وايتزهم (٥٨) . ومن عام ١٩٤٣ م (١٩٣٥) توالت الحملات بانتظام وبدأ ذلك بهجوم غير حاسم على طرابلس (٥٩) ، وفي نفس العام سقطت صفاقس وجيجل التي سلبت وحُرقت (٢٠). وانتقلت الحركة نحو المغرب . ففي سنة ١٩٤٤ م (١٩٥هم) سُلبت مدينة برشك واستولوا على سكانها (٢١) ، وفي عام ١١٤٥ م (١٩٥ هـ) حدث إنزال في جزيره قرقنه التي تقع أمام مدينة صفاقس عما أثار الحسن فأرسل الى حليفه المسيحى يذكره مدينة المسيحى يذكره

⁽⁴⁴⁾ أين الأثير: الكامل ٨: ٣٥٠، البيان ١: ٣١٢

⁽٥٩) ابن الأثير: الكامل ٩: ٦، البيان ١: ٣١٣

^{(.} ٦) البيان ١ : ٣١٣ ، ابن الأثير : الكامل ١ : ٦

⁽٦١) ابن الأثير : الكامل ٩ : ١٠

بالماهده (۲۲) فاعتلر الملك قائلا بأن سكان الجزيرة لا يطيعون الأمير وسمح لنفسد بماقية قرصنتهم . وفي سنة ١١٤٦ م (١٤٥ه) تجددت مهاجمة طرابلس بقرات ضخمة (۲۳). وبعد قتال دام ثلاثة أيام ، دب الخلاف بين المنافعين نما ساعد المسيحيون على اقتحام المدينة فسلبوها واحتلوها ستة أشهر ثم انسحبوا منها بعد تعيين واليا عليها من أهلها مقابل الرهسائن لضمان طاعته . وفي سنة ١١٤٧ م (٢٤٥هـ) تدخل الملك في قابش (٤٢) فقد اغتصب مولى لبني جامع الحكم ، فاستعان أنصار الأسرة المبعدة بالسلطان الزيرى نما جمل المفتصب يطلب الحماية من ملك صقلية . زحف الحسن نحو قابس واستولي عليها وأعدم المغتصب بعد تعذيبه . وكانت هذه هي حجة الملك وجار الثاني لنقض المعاهدة ومهاجمة المهدية .

كان الوضع مناسبا هذه المرة لمحاولة جديدة لغزو المهدية . قمنذ ست سنوات والمجاعة تجتاح إفريقية أكثر من أى وقت مضى ، وفى نفس الوقت كان سكان إفريقية يتناقصون : لقد هاجر الكثير منهم إلى صقلية على أمل وجود حياة أفضل فى أرض مسيحية ، وفى نهاية يونيه سنة ١١٤٨ م (١٩٥٥هـ) وصل الأسطول الصقلى أمام المهدية (٥٠٠) بقيادة جورج الانطاكى ، نرأى السلطان المستحيلة وترتب على ذلك الجلاء عن المدينة .

 ⁽ ۲۲) ابن الأثير : الكامل ٩ : ١١

⁽٦٣) ابن الأثير: الكامل 4: ١٢

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, ، ١٦ ؛ 1 ابن الأثير ، الكلمل ٩ : ١٦ ، ١٦٥- ١٦٥ . 173-174

[،] ٢١٥ : ابن الأثير: الكامل ٩ : ١٨-١٩ ، البيان ١ : ٣١٣ ، ابن خلدون: العبر ١ : ٢١٥ . Amari, Storia dei Musulmani, III p.422 - ٣٤١ - ٣٤١ العجائي: رحلته ص٠٤٣-

وبينما كان آخر بنى زيرى لاجنا عند سيد قرطاج المستقل ، ثم عند ذى القربى السلطان الحمادى فى بجايه ، قمكن الصقليون من فتح إفريقية المحرية ، فهمد المهدية جاء الدور على سوسه وقابس وصفاقس . وماعدا تونس وقليبية فى شهه جزيرة رأس بونه ، كانت جميع مدن الساحل تدفع إتارة للملك روجار الثانى ، الذى أضاف لقب ملك إفريقية إلى لقبه القديم ملك صقلية وإيطاليا . لكن فتحد الجديد كان بلدا شعبه فقير فتفنن فى تسكين آلامه ، وسيكتب عنه فى المستقبل المؤرخ التونسى و ابن أبى دينار » : أنه و دفع للتجار رؤوس أموال . وأحسن لفقهائهم ، وجعل قاضيا مرضيا يحكم بين الناس وجبى خراج رعاياها برفق منه وإحسان » . ونحن لا نشك فى يقده الشهادة ولا تدهشتا لأننا نعرف آلتسامح ورحاية الفكر الجديرة بالمستعمرين المتساهلين والتى تتمثل فى روجار الثاني وقيزه فى مملكته صقلية .

لم يكن ضم شواطئ إفريقية للدولة المسيحية بعد خمس قرون من الفتح الإسلامي إلا إحدى النتائج الفير متوقعة للغزو الهلالي ، لكنها والحق يقال نتيجة غير ثابتة ، فبعد أقل من عشر سنوات ، ثار مسلمو معظم المدن المحتلة ضد الحكام الصقليين ، وفي سنة ١١٥٩ م (١٥٥٤) جاء من مراكش الخليفة الموحدي و عبد المؤمن و وعبر كل بلاد البربر في سبيل تحقيق هدف واحد ألا وهو : إعادة المهدية للإسلام .

كان لترجد مسلمى شمال إفريقيا نحو القرصئة تطور تاريخى خطير. فقد كان استثنافا لتقليد يعود الى آلاف السنين ، فالقرصئة كانت مشروعة من أجل الصناعات فى العالم القديم ، ففى البحر الأبيض المتوسط كانت القرصئة ترجع يدون شك إلى ما يعد الانتشار الفينيقى ، ولم تتوقف إلا عندما استولت روما على كل الشواطئ وتحكمت فى البحر كله . لكنها عاودت

تشاطها مع الإسلام ، وأصبح سلب الشواطئ المقابلة حسنة من الحسنات ، إذ أن ظروف الحياة التى خلفتها هجرات القرن الحادي عشر الهدويه داخل الهلاد ، جعل من القرصنة ضرورة لأن المن الساحلية وجدت فيها أهم مواردها . وقد حدد هذا التطور مصير هذه المدن للقرون المقبلة . أما فيما يخص المهدية ، فدورها القتالي وردود فعل الدول المسيحية ينتهي مع فتح الموحدين . لكن السقليين في سنة ١٩٨٠ (٢٥٥هـ) سوف يسترلون عليها . وسوف توقع معاهدة سلام جديدة مع وليم الثاني . وبعد ماثتي عام ازدادت جرأة قراصنة هذه المدن المهيبة التي يسميها مؤرخونا و مدينة إفريقيا » وقد نتج عن هذه القرصنة حملة كان فرواسار Froissart مؤرخها (٢٦٠) ففي عام ١٥٣٩ م البحار التركي و دراغوت » بطرد هذه الحامية أسبانية ، وبعد عام قام أمير البحار التركي و دراغوت » بطرد هذه الحامية . لقد وقعت هذه المدينة في أبدئ المسبحيين بعد أن كانت إسلامية كما كانت أحيانا مهاجمة وأحيانا أبدئ المسبحيين بعد أن كانت إسلامية كما كانت أحيانا مهاجمة وأحيانا مفطرة للدفاع عن نفسها وسوف تواصل دورها البطولي كمركز دائم للجهاد المقدس الإسلامي .

وتونس التى كانت عاصمة إفريقية القديمة سوف تتسلح هى الأخرى للصراع وستعانى من هجمات النصرانية . وسيقود لويس التاسع-(القديس لويس) حملته الأخيرة إليها وسوف يضمها شارل الخامس إلى إمهراطوريته الشاسعة.

هناك أيضا كثير من المدن الهجرية لهلاد الهربر الشرقى التى خصصت مجهودها للعمليات ضد أورسا ، والهكرى يقول عن مرسى الحسرز و وفى هذه المدينسة تنشأ السفن والمراكب الحربيسة التى تغرى (تغرو) الى بلاد

(77)

Froissart, Chroniques, éd. Buchon, III, p. 79.

الروم » (٦٧) ، ويحدد أنهم كانسوا يتجمعون فيها للانزال في الجزيرة القريبة و سردينيا » وقد هدمت هذه المدينة سنة ١٢٨٦ م (١٨٥ه) وستقام مرسى المخرز مرة أخرى تحت إسمها الفرنسى القل وستكون قاعدتنا الأمامية لتاريخ إنتشارنا الإستعماري .

وسوف تنضم بونه لهذا التاريخ ، حيث تتنارب تقديم المساعدات ضد الكفار من ناحية ، ثم عقد الاتفاقيات التجارية معهم من ناحية أخرى .

ومن أهم عواصم القرصنة مدينة بجاية - العاصمة الثانية لبنى حماد - التى ستفتح الطريق اللى ستسلكه مدن الساحل الأكثر من ثلاث سنوات . لقد تكلمت عن التسهيلات المجهولة للساحل التونسى ، والتى تقدمها منطقة القيائل لبناء وتجهيز السفن فى بجاية ، وسوف يدوم الحال على ذلك ، فاستغلال الخشب للبحرية سيكون على عاتق إحدى العائلات الكبيرة في بلاه القيائل ، التي ستستخدم العبيد المسيحيين لذلك (هذه العملية يسميها الأتراك وكرستا ») . سوف يستخدم الأتراك هذه الموارد المحلية لصالحهم ، ولن يأترا بجديد فيما يخص القرصنة ، وإذا عننا الى ابن خلدون وروايته عن بجاية عصره - ووصفه كيفية تنفيذ القارة البحرية بالطريقة الآتية :

« يجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ، يضعون الأسطول ويتخيرون له أيطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة ، فيتخطفون منها ما قدروا عليه . ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالفنائم والسبى والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربيسة من بجابسة بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل

⁽۲۷) البكرى : المغرب ص ٥٥

والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في قدائهم بما يتعذر مند أو بكاد ير (٦٨)

ورغم أن هذا النص يعود إلى حوالي ١٣٩٠ م (٢٩٧ه) يضيف المؤرخ ابن خلدون أن الغاوات البحرية بدأت بالمدينة قبل ثلاثين عاما من هذا التاريخ ، كما أن هذا النشاط البحرى سوف ينتقل الى مدينة الجزائر العاصمة ويكون محور نشاطها من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر . ومن المحتمل أن يكون هذا الغزو قد أخذ شكلا بديدا ومظهرا أكثر انتظاما ، ولكند كان موجودا من مائتى عام بشكل ما ، ويثبت ذلك ردود النمل المسيحية ، وتخريب الحقول بواسطة العرب البدو ، واستقرار حكام البلاد في مدن الشاطئ كل ذلك كاف لتنسير هذا التوجد تحو النشاط البحرى والمقام الذي ستحتله من الآن فصاعدا القرصنة والتجارة لإقريقية مع الشعوب المسيحية ولكن الأخيرة تأتى في الأهمية الثانية . من هذه الوجهة نستطيع المسيحية ولكن الأخيرة تأتى في الأهمية الثانية . من هذه الوجهة نستطيع اعتبار القرن الحادي عشر فاتحة لتاريخ الدول البريرية .

سوف يؤثر تطور مماثل على المغربين (الأوسط والأقصى) ، إنه تطور متراز والى حد ما تابع له ، وإذا كانت العرامل هنا مختلفة الى حد ما عن العوامل التي حدثت في بلاد البربر الشرقية إلا أنها مرتبطة بنكس المدث الأصلى : ألا وهو الغزو الهلالي . هذا الغزو خرّب المقاطعة القديمة الرمانية لإقريقية ولكته في الوقت نفسه دفع البلد البربري القديم الذي يشمل الموريتانيات الثلاث إلى المرتبة الأولى . وسوف ينصب نظرنا الآن على هذا الجزء من البلاد .

⁽۲۸) این خلاون ؛ العبر ۲ : ۷۸ه

الجز.، الثالث

بلاد البديد محددة من المشرق

مقدمة : الممالك البريرية من القرن المادي عشر إلى القرن السادس عشر الباب الأول : المرابطون و رُقى المغرب

المهمة الدينية والحربية للمرابطين

الأندلس وتطور العادات

الباب الثائي : الموحدون و قمة المغرب

مقلمد

أبن تومرت وتكوين مذهب الموحدين

الحروب والمهمة الدينية للموحدين

أهل اللمة و عادات وقن الموحدين

الباب الثالث: ميراث الموحدين و إتحطاط المغرب

مقامة

الممالك البريرية الثلاث

دورالمرب

الحياة الديئية

الأثر الأندلس و الحضارة الأسهانية ـ المغربية

خاتة

مقدمة

المالك البريرية من القرن الحادي عشر إلي القرن السادس عشر

لقد تحررت بلاد البربر من الرصاية المشرقية ، يقطيعة المعز الزيري مع خليفة القاهرة الفاطمي ، أما الغزو الهلالي فقد جعل هذا التحرر تاما . إن ابن خلدون يعطينا معلومة مدهشة : فهو يقول أن « يحيى» حفيد المعز اعترف من جديد بسيادة الفاطميين ، وكان ذلك بعد سعين عاما من الاتفصال ، ووصلته من القاهرة هذايا ثمينة (١) . لكن لم يكن هذا إلا تغييراً شكليا لم يعالج الكارثة ، ولم يغير شئ مما حدث . فالإنفسال لم يتحمل أى إصلاح ، فسوف يجري تاريخ بلاد البربر من الآن فصاعدا ، خارج أى تدخل فعلي فسوف يجري تاريخ بلاد البربر من الآن فصاعدا ، خارج أى تدخل فعلي المترقية ، وبعيدا عن تأثيرها المشرقي . وعلي كل قلم يعد مصير البلاد بأجمعها ، خاضعا لنفس المنطقة البربرية (إفريقية) . ففي منتصف القرن الحادي عشر (٥هـ) دقت ساعة المغرب وسيحصل شمال إفريقيا علي حكامد المتعاقبين من المغرب .

ولإيضاح المنهج المتبع في الجزء الهاقي لدراساتنا ، فمن الضروري ذكر هؤلاء الحكام ، وتقديم هؤلاء الأبطال ، وبيان الخطوط المريضة لتاريخهم ، وعرض تطور وتغيرات المواضيع ، التي سنعرفها خلال هذه الدراسة .

⁽١) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢١٣

إن المرابطين هم أول من يحتلون الساحة ، ولمنة مائة عام تقريبا ، من منتصف القرن الثاني عشر (٨٩) إلى منتصف القرن الثاني عشر (٨٩) فهؤلاء البرير البدو من قبيلة صنهاجة ، جاءوا عن طريق الجنوب الغربي ، وأسسوا فيها إمبراطورية ، خلال غزو العرب الهلاليين لإفريقية عن طريق الشرق .

لقد لقبوا بألقاب عديدة ، ولكن هناك لقب يتعلق بهلسهم ؛ وهو والملشمون » . كانوا مثل أحفادهم الحاليين المعروفين بالطوارق الذين يضعون اللثام وهو قطعة من القماش يقطي بها الرجال وجوههم من أسغل إلي أعلى . أما بالنسبة للقب و المرابطون » فهو يشير إلى الرباط الذي اتخلوه بانقسم الشمألي للسنغال ، حيث تلقوا تدريبا عسكريا ودينيا ، غير هؤلاء الرجال الذين يعيشون على تربية الجمال وتتاجها ، إلي محاريين في سبيل العقيدة . فيعد أن مسارسوا عقيدتهم في نشر الدين الإسلامي على الزنوج الوثنيين فيعد أن مسارسوا عقيدتهم في نشر الدين الإسلامي على الزنوج الوثنيين جنوبا ، عبروا الساحل الأطلسي شمالا واندفعوا نحو المغرب ، ثم المغرب جنوبا ، عبروا الساحل الأطلسي شمالا واندفعوا نحو المغرب ، ثم المغرب عبدوا الساحل الأطلسي شمالا واندفعوا نحو المغرب ، ثم المغرب عبدوا الساحل الأطلسي شمالا واندفعوا المدين إلى أسهانيا ، عبدوا المدين بحركة الاسترداد المسيحية .

وبانتصار الزلاقة الملوى سنة (١٠٨٦م ـ ١٧٩هـ) ، غيع سلاطين الأندلس في التخلص من الخطر المسيحي ، ولكن ليس هناك ما ينقذ هؤلاء السلاطين أنفسهم من خطر المرابطين . عندما انتصر هؤلاء الصحراويون أصبحوا أبطال الإسلام المعرض للانحسار ، والمدافعين عن تعاليمه المقاسة ، فأوقفوا فضائح البلاط الأنسلسي بعنم هذه الممالك ، وأصبحوا بللك حكاما علي مجال مزدرج : المجال الإفريقي والمجال الأوربي . ومع ذلك لم يليثوا أن وقعوا بنورهم صرعى اغراءات بلاد الأندلس الجميلة فقي خلال جيلين ، فقدوا صفتهم بنورهم صرعى اغراءات بلاد الأندلس الجميلة فقي خلال جيلين ، فقدوا صفتهم

الشبد بربرية التي كانت سببا في تجاحهم ، وهزموا بأفارقة آخرين تتوقر لديهم قوة جديدة .

وهم الموحدون الذين كانوا من البربر المغاربة ، وأصحابٌ دعوة ، والذين سيمدون نفوذهم على ضفتى البحر الأبيض ، ولكنهم يختلفون عن المرابطين ، فهم ليسوا بدوا صحراويين ، بل جبليين مستقرين ودُو قرابة لشلوح المفرب الحديث ، وكان مقرهم في جهال الأطلس الأعلى ، وكان ابن تومرث ـ مؤسس هذه الطائلة . يجند أنصاره من مصموده الذين يسكنون هذه المرتفعات ، فكون قوة قتالية لا تقل عما كان عليه المرابطون في الماضي . وقام ابن تومرث يترلية عبد المؤمن قائدا حربيا ستؤول إليه مقاليد الأمور بعد ذلك في سنة ١١٣٠ م (٢٣٥هـ) ويصبح هذا البربرى بدون منازع واحدا من أكبر الأسماء غى ماضى الشمال الإفريقي وأقوى خليفة إذ فتح بلاد البربر بأكملها ، ولم يحتق هذا أي حاكم من قبله : لقد استولى على الساحل التولسي من مسيحيى صقلية ، وعمل علي امتداد اميراطوريته العظمى التي حققت ايرادات ضربيبة ضخمة وقكن أولاد عبد المؤمن من ضم كل أسبانيا الإسلامية كما أوقفوا لفترة جركة الاسترداد المسيحى ، وانتصر حفيده يعقوب المتصور في موقعة الأول سنة ١٩٩٥ م (١٩٥ هـ) ، لكن الناصر بن يعقوب أنهزم في معركة حصن العقاب سنة ١٧١٧ م (٢٠٩ هـ) فكانت بداية الإضمحلال وضعف دولة الموحدين .

إن علكة بهذا الاتساع في بلد مثل شمال إفريقية ، وفي العصور الوسطي ، كانت معرضة أن تكون هشة وضعيفة وكانت المقاطمات الفير مستقرة ، معرضة أيضا لأن تكون فريسة سهلة للأعداء ، ومئذ عهد يمقوب المتصور أصبحت إفريقية مسرحا لقلاقل غاية في الخطورة . إذ حاول إثنان من الأخرة المقامرين (بنو غانية) من عشيرة المرابطين القدامي ، النهوض بحصير

المائلة المخلوعة ، وقد ساعدهم عرب بنى هلال الذين وجدوا هذه الفرصة للسلب المثمر ، وكان ينو غانية على وشك النجاح غير أنهم ساعدوا في خراب هذا الهلد ووصل الدمار حتى قلب المغرب الأوسط.

دأم الصراع مع هؤلاء الثرار لمدة أربعين عام ، وأنهك الدرلة المرحدية وألمقر المقاطعات ، وساعد علي الشقاق ، ولم ينتهى النصف الأول من القرن الثالث عشر (٧ه) حتى انقسمت امبراطورية المرحدين الى ثلاث أقسام . أعلن حاكم تونس الاستقلال بعد حصوله على صلاحيات واسعة لفرض الاستقرار في أفريقية . أما بالنسبة للمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، فقد استولى عليهما بدو زناته ، الذين أعادوا للأذهان مغامرة المرابطين ، فزحفوا من الصحراء بجمالهم ، واستولوا على البلاد الخالية من وسائل الدفاع . وبذلك انقسم الشمال الإفريقي إلى ثلاث ممالكة المفصيين في تونس ، وعلكة انتسم الراد في تلمسان ، وعلكة بني مرين في فاس .

كانت مملكة بنى مرين فى فاس من أقوى هذه المالك الثلاث وأكثرها حربة فى ألحركة ، وقد حلت محل المرحدين فى مقاطعتهم . واعتقد المرينيون أنهم الوحيدون القادرون ، على القيام بالدور المزدوج لحلفاء القرن الثانى عشر . فقد حاولوا فرض سيطرتهم على أملاك الموحدين ، وقكتوا من ذلك ، فضموا مملكة تلمسان ، ثم مملكة تونس ، وكلفهم ذلك الكثير ، ولكتهما لم تبقيا فى أيديهم إلا قليلا وقمل الدور الثانى فى إسبانيا ، ولكنهم واجهوا نصرائية قوية ، وبعد فترة من النجاح تكبدوا هزية سنة ١٣٤٠ م (٧٤١ هـ) (*)

^(*) سميت هذه المرقمة في المصادر العربية باسم موقعة طريف ـ أما المصادر الأسبانية فقد سمتها موقعة نهر سلادو del rio Salado على اسم النهر المجاور لطريف في جنوب إسبانيا ، كما سمتها أيضا برقعة الملوك الأربعة لاشتراك كل من الفرنسو =

أفقدتهم الى الأبد الرغبة في عبور المضيق.

وبعد ٧٥ عام يعبر المسيحيون المضيق لينزلوا هم الى الأرض الإفريقية .

فغى سنة ١٤١٥ م (٨١٨ هـ) أصبح البرتغاليون حكامًا لسبته ، وهاجم المسيحيون المملكتين الآخريتين ففى سنة ١٤٠٥ م (١٠١ هـ) استولى اسطول أسبانى على المرسى الكبير ، وبعد ٣١ عام دخل شارل الخامس تونس . هل كان هذا فيض أسهانى على إفريقية امتدادا لحركة الاسترداد المسيحية ؟ هل هي حرب صليبية ردا على حركة الجهاد المقدس ؟ هل هو عقاب للقرصئة البريرية ؟ هلى هو البداية لإمبراطورية استعمارية ؟ مهما كانت الأسباب ، فلخول أوربا مسرح الأحداث الإفريقية سوف يثير ردود فعل عميقة : مثل ظهور المقارمة المسلحة في المغرب الأقصى وانتصارات المملكة الشريفية الأدولة العلوية) . وكذلك الترحيب بالأخرة عروج القراصنة الأتراك في المغرب الأوسط بإفريقية كمنقذين وممثلين لخليفة القسطنطينية ، وكذلك عادت بلاد البرير مرة أخرى تحت وصاية المشرق ولو نظريا .

إن المرضوع الأول الذي سنتتبعه في تطوره خلال أربعة قرون ، هو التحرر من هذه الوصاية ، تتيجة للغزو الهلالي ، وقد وصفتا هنا بيانه ، إذ بينما كان المرابطون والموحدون والحقصيون وبنو عبد الواد والمرينيون ، يعيرفون بسلطة المشرق الروحية ، كانوا يستمدون سلطانهم من أنفسهم ولا يخضعون لأحد .

إن هؤلاء الحكام المستقلين سلالة بربرية ، رغم ادعائهم النسب العربى ، بل والعلوى ، كما يخصهم به مؤرخو عصرهم المجاملون . ويعتبر هذا الأصل البربرى لهؤلاء الحكام نقطة بداية ثانية وجب علينا التنويد على استمرارها .

سَ الحادي عشر ملك قشعالة ، ويدرو الرابع ملك أرجوان والقرنسر الرابع ملك البرتقال ، وأبر الحسن المربئي في المركة. انظر أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المرب والأندلس من ٤١٩-٤١٩ .

إذا كانت حكوماتهم لها الطابع البربرى ، قدينهم أكثر قيزا بهذا الطابع ، فالمكانة التي تحتلها المعتقدات في مهام الحكام ، وفي حياة الشعب ، وفي سير الممالك ، هو حدث لاحظناه في الجزء الأول من هذا التاريخ ، لكنه يتأصل بكل قوة في الفترة التي نخوضها الآن . قليس للإسلام قلمة أقوى من المغرب ، ولكنه اسلام بربرى . قهو يأخذ مظهر إسلام شبه وطنى في عهد الموحدين ، اللي يمتبر قمة السلطان المفربي ، إنه تزييف بربرى للإسلام السلفي المشرقي .

إنه إسلام نشالي ، فبعد أن تقل الغزو الهلالي مركز ثقل شمال إفريقيا من الشرق إلى الغرب ، كان له هذا الأثر الغير مباشر ألا وهو : إعطاء الدور الأول للمغرب الأقصى الذي سيصبح الجيهة الأولى للجهاد المقدس. فموقعه الجغرافي وتقاليده ، تربطه باسبانيا برباط وثيق . وتعتبر أسبانيا الميدان المغلق الذي تصدى فيه الهلال للصليب منذ أربعة قرون ، وكان لا محكن استمرار هذا الصراع إلا بساعدة البرير . فالبرير هم الوحيدون تقريبا الذين. ضموا شبه الجزيرة للإسلام ، ولم يحتفظ أميو قرطبة بحدودهم ولم يمدوها ، إلا بالقوات البريرية . فتضاؤل هذه الحدود والمحاولة الناجحة لحركة الاسترداد المسيحية ، جعلت تعاون المفاربة أكثر ضرورة ، وكانت أسبانيا الاسلامية تستسد قواتها المناضلة من هذا الخزان الذي لا ينضب ، وتتناوب الغرق ويتعساقب المثلون . ويبدو أن الوظيقة الرئيسية للجميع هو « الجهاد » و « المجاهدون » هم جنود الحرب المقدسة ، أو « المرابطون » كما لقب الأواثل أنفسهم قهم محاربون ورجال دين . نحن نعرف أن البعض وجدوا في هلا السهيل الفرصة في توسيع مملكتهم ، ولكنهم حصلوا أيضا على إثراء غير مادى ، لأن التضامن الذي يربطهم بإسبانيا وضعهم أمام حضارة مزدهرة استفادوا منها ونقلوا فوائدها الى المغرب بأجمعه .

ومن الناحية الثقافية ، لم تأنف بلاد البربر المتحررة من المشرق ، أن تكون أرضا تابعة ، ولكن لم تأت إليها النماذج الفنية والمؤثرات الأدبية من مصر أو العراق ، بل كانت تأتى من الأندلس المجاور الذي أصبح امتدادا للمغرب . فسوف يحارب في شبد الجزيرة كل من المرابطين والمرحدين والمرينين ويأتون للملادهم بالأذراق الجديدة وسلوك جديد في التفكير والإحساس . وهكذا استجاب المفارية لدروس قرطبة وغرناطة وأشبيلية الفنيه ، فتزينت المغرب بالمهاني التي لا تقل في رونقها عن مبائي أمراء المسلمين في أسبانيا بل تتمداها أحيانا . وينتشر هذا الذن الأسباني المغربي عبر بلاد البربر من الغرب الى الشرق وبصل الى إفريقية التي سرعان ما نسيت ماضيها الذهبي .

هذه الخصائص العامة التي ترتسم فيها آثار إنفصال العالم البربري عن المشرق ، إذا أضفتا إليها الظروف التي خلقها وجود العرب البغو في الحياة الاقتصادية والسياسية في الأجزاء المختلفة للبلاد ، تكون قد أحصينا النقاط الرئيسية التي استهدفنا دراستها في الصفحات التالية .

الفصل الأول المرابطون و رقم المفرب

ما أن تظهر قبيلة قوية من الرعاة الهدو أو أكثر من قبيلة في الصحراء ، وتشعر بالمقدرة على غزو أراض أغنى حيث الحياة أسهل ، حتى تستولى على هذه الأرض وتستبد بالمستقرين قيها ، ثم تقلع عن الصناعة الرعوية والتنقل الموسمى ، وتستقر في المدن المقتوحة ، إن هذا التطور طهيمى ، ويرى ابن خلدون في ذلك التدرج الطبيعي أحد المقومات لتأسيس الإمبراطوريات . هكذا كان تاريخ المرابطين ، غير أن حلقة هذا الصراع للحياة تصطبغ عادة بهدف سامى ، لذلك كانت حركة المرابطين تبدو من الأساس حدث تصطبغ عادة بهدف سامى ، لذلك كانت حركة المرابطين تبدو من الأساس حدث التقطموا فيد لدراسة أمور الدين وعارسة التقوى ، إنهم رابطة تخضع لإرشاد انتظموا فيد لدراسة أمور الدين وعارسة التقوى ، إنهم رابطة تخضع لإرشاد استاذ ، لقد تقدموا لنصرة المهذأ الديني وكانوا معروفين بصلابة العقيدة .

1

المهمة الدينية والحربية للمرابطين (١)

ليس في هذا المبدأ أي ابتكار ، فهو الميراث القديم لفقهاء القيروان ، ففي

⁽١) عن المرابطين انظر المراكشي : المعجب في تلخيص أخيار المقرب ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض الترفاس ، ابن خلدون : تاريخ العبر وديران المبتدأ والخبر ، البكري : المقرب في يلاد افريقية والمقرب ، =

سنة ١٠٣٥ م (٤٢٨ هـ) وعند العردة من الحج ، توقف زعماء من قبيلة لمتونه في القيروان ، وسنحت لهم الفرصة لحضور دروسا في الفقه لأبي عمران الفقيد الفاسي المقيم في المدينة الإفريقية المقدسة ، لتعليم وتدريس الملهب المالكي . لقد أعجبوا هؤلاء الزعماء بعلم ذلك الفقيد المالكي ، وذكروا له ما في قومهم من جهل بالكتاب والسنة ، وظلبوا منه تعيين واحدا من تلاميله ، للحضور الى الصحراء ليعلمهم العقيدة والشريعة . لقد تأثر الفقيد من صدق عزيمتهم ، وأراد تلبية رغبتهم ، لكن تلامذته استصعبوا دخول أرض الصحراء وتعليم المتوحشين . فلما لم ينجع الفقيد أبو عمران في إقناع أحد تلاميله بالقيروان ، زودهم برسالة موجهة الى تلميله المغربي « وجاج بن زولو » بسجلماسة الذي جمع تلاميله بعد استلام الرسالة وعرضها عليهم ، فوافق بسجلماسة الذي جمع تلاميله بعد استلام الرسالة وعرضها عليهم ، فوافق واحد منهم وهو و عبد الله بن ياسين » ، وكان عالما من أهل الورع والفضل ، لقد استقبله الرؤساء الصحراويين بكل السرور والترحيب وبدأ عبد الله في تعليمهم شرائم الإسلام ويفقههم في دين الله .

هدأ الحماس بعد قليل لأن ابن ياسين كان مصلحا متشددا ، فقد حرم على الهدو الزواج بأكثر من أربع ، ولكنهم لم يتحملوا هذا النهى ، وقروض أخرى مثل الضريبة الشرعية ، فأمام ما وجده من صعاب ، فكر ابن ياسين في السفر الى السودان ، للبحث عن تلاميذ أكثر طاعة ، لكن زعيم قبيلة لمتونة ، الذي كان سبها في وجوده بينهم ، لم يتركه فارتبط به وانشق عن رفاقه المتصلين

Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides, Sara-m gosse, 1899; A, Bel, Les Benou Ghanya, Paris, 1903; Id. article Almoravides dans l'Encyclopédie de l'Islâm; Lévi-Provençal, Réflexions sur l'empire almoravide au début du Xle siècle dans Cinquantenaire de la Facuthé des Lettres d'Alger, 1932.

فى الدناسة . فاتجه الإثنان الى جزيرة فى مصب نهر السنفال (*) وتبعهم عدد صغير من وجوه القبائل حيث اعتزلوا وانقطعوا للعبادة ، ودراسة أمور الدين وعمارسة التقوى . كان لهذا التصرف تأثيرا أقوى من المواعظ واللعنات .. ولم يم عليهم وقت طويل حتى اجتمع له ألف رجل من الأشراف .

لم يكن ابن ياسين من علماء الكلام ، مثل فقهاء القيروان ، بل كان فقيها مالكيا لا ينرس إلا القرآن والشريعة والعبادات .. كان مالكيا لبدو صحراويين ، رعاة للجمال .

إذن قلا ضرورة للعودة الى الوراء ، قدراسة القرآن رحديث الرسول غير مجدية وخطيرة سوف تثير قضول مشكوك في أمره لذلك هجر المرابطون دراسة " الأصول " في الدين والشريعة ، وخصوصا دراسة الحديث ، واهتموا بدراسة " الفروع " وتشمل الفقه (القانون المدني) والعبادات .

وعلى كل فنحن لا نهتم بالمذهب الذي لقنه ابن ياسين لتلاميذه ، بل بالمتهج الذي أخضعهم اليه (٢) . لقد مرس هؤلاء المستقلين ، على الطاعة اللازمة ، وعاقب أخطاؤهم بشدة . ولقد وضع جدولا صارما للمقربات : حد المفتري عقوبتها ثمانون سوطا ، والتأخير عن ميعاد صلاة الجماعة عشرون سوطا ، ومن فاتته ركعة ضرب خمس أسواط ، وهناك بعض المقاب الذي ينزل بالفرد تهما للتقصير المرتكب ويجب على الفرد تحمل ذلك بروح التوبة . كما يجب على قريب العهد بطائفة المرابطين تحمل مائة جلدة ، كمقاب للنوبه السالفة ،

^{*} لعلها جزيرة تيدرة ، الواقعة بين أنوا كشوط وانواذيهو ، انظر محمد ولد داده : مقهرم الملك في المغرب ص ١٠١ .

⁽٢) عن بناية المرابطين وحياتهم في الصحراء حتى سنة ١٠٦٧ انظر البكري: المغرب ص ١٦٢ ـ ١٦٢

وتعبيرا عن التوبة الصادقة . وليس هناك ما يخفف شدة الجزاء حتى لو اعترف القاتل بجريته تلقائيا ، وأبدى الرغبة في السلوك المستقيم وجب عليه الإعدام . أما الأخطاء الأخرى الخطيرة فهى تؤدى الى الحرمان الحقيقى المماثل لحرمان الخوارج الإباضية التى تشترك مع المرابطين في عديد من التعاليم .

وتعطى هذه الطائفة اهتماما كبيرا للمسائل المتعلقة بالطعام وقد رفض ابن ياسين أكل لحوم وشرب لبن القطيع الذى لم يدفع عند الضريبة تلك الضريبة التي تحلل أكله .

والمرابطون طائفة دينية يعيشون داخل الرباط ، ولكنهم في الوقت نفسه زمرة من المحاربين . لقد اختار ابن ياسين القائد الحربي يحيى بن عمر الذي بتي هو ورجاله خاضمين للزعيم الروحي وحارس القانون، ويقولون له و أيها الشيخ المبارك : مرتا بما شئت تجدتا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا للملنا »

إن صاحب « القرطاس » (٣) الذي يقص علينا هذا الحديث ، قبالرغم من عدم التأكد من صحة روايته ، فهي غير مستبعدة ، وتسمح لنا يتصور القرة التي قتلها هذه المجموعة التعصبة التي أصبحت آلة للحروب .

وترجع هذه الرواية الصور التي يرسمها لنا المؤرخون للأمراء المرابطين ، فقد قلموا لنا يوسف بن تاشفين ، كتموذج تام للجندى الراهب ، وقد تولى الحكم في سنة ١٠٦١ م (٤٥٣ هـ) ودام حكمه سته وأربعين عام ، وعاصر ميلاد وقمة الاميراطورية ، ويقول عنه القرطاس : « كان جرادا كريا ، سخيا ، زاهدا في الدنيا ، لياسه صوف ، لم يلبس قط غيره ، وأكله الشعير ولحوم الإبل

 ⁽٣) أبن أي زرع : الأنيس المطرب بروض الترطاس في أخيار ملوك المقرب وتاريخ مدينة قاس ص ١٧٥

وألبانها ، مقتصرا على ذلك ، لم ينتقل عنه مدة عمره الى أن توقى . ، (1)

هذه البساطة وهذه التناعة تناسب البدوى الذى يعيش فى الصحراء والمعتاد على الحرمان ، وقليل الاهتمام بجاهج الحياة ، التى يزحم الحضرى بها حياته . إن هذا الزهد المتباهى يتاسب عادات المصلحين المسلمين ، خصوصا فى بلاد البربر . إذ كانت معظم الإصلاحات فى جميع الأديان تدعى بأنها عودة الى الطهارة الأولى (المنابع الأولى للدين) ، قهذه النزعة تبدو طبيعية فى الإسلام عن أى دين آخر . ليس هناك إصلاح إسلامي ، لم يأخذ منذ المبدأ مظاهر المفالاة في السنة ، والإدعاء بتجديد إسلام أفضل ، أكثر تجريدا ، وخلوا من كل البدع والعبادات الكمالية ، وأقرب الى التقشف الأولى . كان يوسف بن تاشفين زاهدا بالوراثة وبنزعته الدينية ، وبنشأته الصحراوية ، لذلك بيرسف بن تاشفين زاهدا بالوراثة وبنزعته الدينية ، وبنشأته الصحراوية ، لذلك بيدا لموزد بالله المطل الاسلامي الذى استردته العقيدة المعرضة للخطر ، أو المجهولة بهذه المناطق .

إن صورة ابنه وخليفته «على» طبقا لما وصفه المراكشي ورغم أنه بعيد عن التقريظ إلاأنها صورة بناءة : « فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد ، وإخافة المعدو وحماية الهلاد ، وكان حسن السيرة ، جيد الطرية ، نزيه النفس ، بعيدا عن الظلم ، كان الى أن يعد في الزهاد ، والمتبتلين ، أقرب منه الى أن يعد في المراد والمتبتلين ، أقرب منه الى أن يعد في المراد والمتبتلين ، أقرب منه الى أن يعد

تشير هذه السمة الأخيرة الى أهم وجه من أوجه الحياة الدينية للمرابطين . لقد مرت السلطة الروحية بعد ابن ياسين منشئ الحركة ، الى ابن حمدين اللى

⁽٤) المصدر السابق ص ١٣٦ ،

⁽٥) الراكشي ؛ المعجب في تلخيص أخيار المقرب ص - ١١

لم يكن له خليفة ، وتلقاها من يعده الفقهاء المتخصصين في الفقه المالكي ولازموا عمل ابن ياسين واستمروا في توجيه أعمال الخلفاء . وفترة المرابطين هي عهد الفقهاء ، ويذكرنا دورهم ، يدور رجال الدين القيروانيين أيام الأغالبة ، والإباضية في مملكة تاهرت ، ولكنهم يختلفون عنهم قليلا ، أنهم مشتركون اشتراكا مباشرا في سير أمور الدولة ، وفي حياة السلالة الحاكمة . لقد خصص لهم ابن تاشفين مرتبات وسوف يقوم ابنه بزيادتها ، إنهم يحضرون مجلس الأمير ، ويرافقونه في تنقلاته ، وها أنهم يساهمون في الحكومة المركزية ، فهم يعاونون الحكومة والعدالة في المقاطعات ، ويصبح هذا التعاون كاملا ودائما في عهد على بن يوسف . ويقول المراكشي كان إذا ولي أحدا من كاملا ودائما في صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء .

إنهم يختلفون عن رجال الدين الإباضية ، فلا يكونون مجلسا قويا له سلطة روحية مستبدة ، لمراقبة الحكم والتصديق على تجاوزاته . فالفقهاء ليست لهم السلطة ، إلا اذا طلب منهم ذلك ، إنهم فقهاء بالمعنى الحقيقى للكلمة . إن الفقهاء يبدون رأيهم و بالفتاوى به علاوة على الارشادات ، التى يطلبها منهم الأمير وعملاؤه فى كل مناسبة ، وفيما يخص مزاولة الحياة اليومية ، والفتوى بوجه عام هي إجابة يطلبها المسلم المتردد فى الحصول على حقوقه ، والحريص على واجباته ، أما بالنسبة الى موضوعنا فهى أسلوب تتصرف الحكومة فى حدوده ، وطريقة يطلبها الأمير لتعلبيق عمل نافع تتصرف الحكومة فى حدوده ، وطريقة يطلبها الأمير لتعلبيق عمل نافع مشكوك فى شرعيته . ويهدو أن الفتاوى لم تكن معروقة قبل وصول المرابطين الى أسبانيا ، وقد صدرت الفتاوي الأولى ... عدا السهو والفلط ... بمناسبة المنازعات التى نشبت بين الأمراء الأفارقة وأمراء الأندلس ، هذه المنازعات التى أدت الى قتال المسلمين بعضهم البعض . ومن السهل معرقة الأسباب : إن

الفتوى الصادرة من سلطة لا جدال عليها ، لا تملى على الفرد سلوكا معينا فقط ، بل تفرض على المتضرر قبولها لشرعيتها ، مهما كانت صارمة . عندما قص علينا المؤرخون أن أبرز الفقهاء في أسبانيا حينما طالب ابن تاشفين بحاربة المسيحيين ، كان يتكلم عن رسالة وعن توجيه . ولكن عندما أراد ابن تاشفين الحصول من المعتمد ملك أشبيلية على الجزيرة الخضراء كقاعدة لعملياته الحربية ، طلب الأمير المرابط من الفقهاء إصدار فترى معلنين فيها أن من واجهه محاربة ملك ليون وقشتالة المسيحى ، وأن عليه الاستيلاء على الجزيرة الخضراء للقيام بواجهه ، إذا لم تقدم له من قبل ملك أشهيلية ، وقد حصل فعلا على هذه الفتوى .

إن الفقهاء الأندلسيين هم أنقع المساعدين لسياسة الرابطين ، فالبطل الإفريقي هر المنتقم للإسلام ، وفي نفس الرقت محافظ على الطائفة الدينية ، ويجد دائما في هؤلاء الصالحين في شهه الجزيرة المساعدين الأكثر إخلاصا . فقى سنة ، ٩ ، ١ م (٤٨٣ هـ) حصل منهم على فترى جماعية تبيح استبعاد جميع أمراء المسلمين الصغار ، إنهم رؤساء الطوائف الذين طلبوا منه المساعدة . فقد أدينوا بالاستهتار والفجرر والكفر ، والمثل السيئ لشعربهم ، فقد عابوا عليهم جباية الضرائب التي لا ينص عليها الدين رغم أوامر ابن تاشفين ، وعقد تجاههم ، والعمل المجدى هو خلعهم من على عروشهم ،

كانت هذه الفتوي قيمة ، وأقرها الأمير المرابط من فقهاء المغرب الذين لم نتكلم عنهم بعد في هذا الصدد ، كما وصله من المشرق استحسان وموافقة من إثنين من أكبر علماء الدين في ذلك الوقت وهم : الطرطوشي والغزالي .

إن علماء الدين في العالم الإسلامي يتابعون بإعجاب أخبار المفاربة الذين يدافعون عن حدود الإسلام ، ولكن من الخطأ اعتبارهم أداة طبعة لرفعة

المرابطين ، فإنهم يشعرون أمام هذه السلطة بقوة سلتطهم الروحية لترجيح السنة ، إذا أرادت السلطة الدنيوية الحصول على بعض الحريات . لذلك بجب من الناحية الشرعية تبرير تدخل الفقهاء في الملاقات بين المرابطين وخلفاء بغناد .

إن تسلسل الأحداث غير مؤكد ، ويعطينا المؤرخون ، وعلم المسكوكات ، معلومات غير متطابقة ، وقد ناقشها ماكس فان برشم في موضوع عتاز تحت عنوان ﴿ أَلْقَابِ خَلْقَاء المُغْرِبِ ﴾ (٦٠) . وتربيع لابن الأثير رغم أنه مشرقي إلا أند شديد الإلمام بتاريخ البربر ويعطينا ولمرتين شرحا مقبولا للأحداث (٧). إنه يضع هذه الأحداث بعد انتصار الزلاقة إذ بعد أن يعود ابن تأشقين الى المغرب منتصرا ، ويحصل وهو في عاصبته مراكش على استسلام المناطق المختلفة التي كانت متمردة عليه ، يقوم الفقهاء بتخفيف الغرور الذي قد يصيبه تتيجة لهذه الانتصارات فقالوا له ينهغى أن تكون ولايتك من الخليفة ، لتجب طاعتك على الكافة فأرسل الى الخليفة المياسي رسولا رمعه هدايا كثيرة وكتب معد كتابا يذكر ما قتع الله من بلاد القرئج وما أعتمده من نصرة الإسلام ، ويطلب تقليدا بولاية البلاد ، فكتب له تقليد من ديران الخلاقة عا أراد ولقيد أمير المسلمين وسيرت إليه الخلع قسر بذلكدابن تاشفين سرورا كثيرا ، وجعل الخطبة باسم أمير المؤمنين العباسى ولقب نفسه بأمير المسلمين . ويقول فان برشم « إنه لقب خليفة مزيف » . هذا اللقب كان غير معروف من قبل في بلاد البربر وقد متع للمرابطين ، إن لم يكن قرروه لأنفسهم . هذا اللقب أولاهم سمة شهه دينية ، اتجهوا بفضلها ، ورغم الفقهاء ، نحر التحرر الذي سيحققه الموحدون بعد أربعين عام .

Journal asiatique, 1907, 1, p. 270 . (٦)

⁽٧) ابن الأثير: الكامل ٨ : ٧١ ، ٢٣٦

لقد حكم المرابطون غرب إفريقية (موريتانيا والصحراء) والمغرب وأسبانيا ، بعيدا عن أية رقابة مشرقية ، في مقابل هذا الاحترام للخليفة البعيد ، وقتمت علكتهم باستقلال تام . إنها علكة بربرية ، وهم أنفسهم يحتفظون في ظاهرهم بالطابع البربري الصحراوي الذي كانوا عليه في الماضي . ففي المدن الأندلسية التي حكموها ، أصبع اللئام علامة شرف وإشارة المنتصرين ، ولبسه محرم على غيرهم ، وسيبقى حتى آخر يوم من سلطانهم (٨) وحتى بعد ذلك ، لدرجة أنه بعد نصف قرن ، عندما جاء أخوتهم « بنو غانية » من جزر البليار ، ونزلوا في بجاية لإعادة حكم ابن تاشفين وسلالته ، كانوا لا يزالون ملثمين بالقناع الأسود (٩) .

إلا أن نساءهم مثل نساء الطوارق المعاصرين ، كن يخرجن سافرات ، ويتمتعن بحرية في المظهر ، تؤكد أصلهن البربرى ، وعادتهن البدوية . إن الأحداث المعاصرة لقيام الدولة تمنح لنساء العشيرة مكانة مرموقة ، وخاصة لزينب الحسناء ، وكان الحصول على هذه المكانة شرطا أساسيا للمارسة القيادة ولقب « ساحرة » المطلق عليها يوحى إلينا بلكرى الكاهنة ، البطلة المشهورة للمقاومة البربرية . وسوف تشترك النساء في تاريخ المرابطين حتى النهاية ، وحتى في تاريخ المرابطين حتى النهاية ، وحتى في تاريخ المرابطين عن قلعة وحتى في تاريخهم الحربي ، فقد قامت واحدة منهن بقيادة الدفاع عن قلعة مراكش ، وقد احتفظن بطبيعة الحياة التي كن يعشنها في المسكرات الصحراوية . ويتأكد لنا ذلك بحلقة من ملحمة المصلحج الموحدي ابن تومرت .

Lévi-Provençal, Documents ه٧ ـ ه ٦ تومرت ص ١ه لهدي بن تومرت ص ١ه . (٨) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص ١٩٥ ـ (٨) inédits d'histoire almohade, Paris, 1928, p. 108

⁽٩) القبريتى : عنران الدراية قيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بيجاية ، تحقيق Journal asiatique, رابح بونار ، الجزائر ١٩٧١ م ، ص ٦٨ ، ، ابن عبدون في 1934, II, p. 218 .

ونرجع بهذه القصة الى ابن الأثير (١٠) عندما كان فى مراكش « قبينما هر فى بعض الأيام فى طريقه ، إذ رأى أخت أمير المؤمنين فى مركبها ومعها من الجوارى الحسان عدة كثيرة وهن مسفرات ، وكانت هذه عاذة الملثمين يسفر تساؤهم وجوههن ، ويتلثم الرجال قحين رأى النساء كذلك أنكر عليهم وأمرهن يستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المؤمنين عن دابتها » .

وهكذا ترى أن الذى يثير سخط ابن تومرت هو التأصل عند المرابطين لهذه المادات البدائية التى لم قحها حياة المدن . إنه يلمن أيضا الممارسات التي أصيبوا بها من العدوى الأجنبية والعادات التى تعودوا عليها في أسبانيا .

П

الأندلس وتطور العادات

عندما نزل الصحراويون للمرة الأولي في شهد الجزيرة ، كان ذلك في سنة المدرد (٢٧٩هـ) وكان قد مضي علي انهيار خلافة قرطبة ستة وخمسين عام إنه نصف قرن لتاريخ غامض ، ليس بد مجد ، نحن نعرف أنه يعد فترة من الفوضي والشقاق ، عاد توازن نسبي بتقسيم الدولة الأموية الأندلسية بين أمراء صفار. وقد قرن المؤرخون العرب والمؤرخون الأسبان هذه الفترة بتسمية سخيفة وهي : ملوك الطوائف أو رؤساء الطوائف . لم تضف هذه الأسرات أي شئ للمجد الحربي للإسلام ، حتي أسرة العباديين في أشهيلية وهي أقوى هذه الأسرات . ومع ذلك تهدو هذه الفترة بصورة مشرفة في تاريخ الحشارة

⁽١٠) ابن الأثير: الكامل ٨: ٢٩٥، عن دور النساء انظر المراكشي: المجب في تلخيص أخيار المقرب ص ١١٤ ـ: ١٢٠

الإسلامية . لقد تقاسم الأمراء ميراث الأمويين بها قيسه الفن الذي غا في قرطبة ، وازدهار قصور هؤلاء الأمراء ، غرس هذا الفن في الأقاليم وساعد على تطوره ولقد وجد الأدب أيضا حظه في هذه القصور الجديدة وازدهر الشعر (١١) ، والشعر الوصفي وشعر الغزل الذي يتفني بجمال الحياة ولكن يتنظله أحيانا إحساس عميق بعدم الأمان الذي يحيط به وبعمل على زوال سعادته ، لقد قال المعتمد الملك الشاعر الذي مات بائسا في سجن مغربي - ت وأنفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا به (*) أما تطور العلوم الدينية فلم يكن لها مجال عند رؤساء الطوائف .

سوف يحكم المرابطون الذين نزحوا من الصحراء هذا العالم الأندلسي ، حيث الفن والحقلات الدنيوية التي تُشغل عن هموم الساعة . لم تكن هذه الأباطيلُ الدنيوية في بادئ الأمر خلابة بالنسبة لهم ، بل كانت تثيرهم . وقد أصر المؤرخون على التناقض القائم بين أمراء الأندلس والذين جا موا لنجدتهم . فبالنسبة لشعراء بلاط أشبيلية يعتبر يوسف بن تاشفين ، فمؤجا للرجل الهمجي لأند لا يستسيغ الشعر العربي . أما بالنسبة للذين يروا في هذا المترحش ، المنقذ الفير منتظر للإسلام ، فقد أرخوا لنا أحاديثه الأخلاقية مع المعتمد والمحيطين به ، عن رغباتهم التافهة ، والنفقات الباهظة لإشباع هذه الرغبات ، والعبء الذي يقع على الشعب نتيجة لذلك (١٢) .

Henri Pérés, La poésie andalouse en arabe عن منا الشعر ، أنظر (١١) عن منا الشعر ، أنظر (١١) classique au Xle siécle, Paris, 1937 .

⁽⁴⁾ أنظر ابن خاقان ؛ قلائد المقيان ص ٣٢ .

⁽١٢) ابن خلكان : وقيات الأعيان وأنباء أبتاء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت

^{- . 1}Y . : Y . 14Y1

لكن هذه الشدة في المبادئ لن تلبث أن تلين ، فالسحر الأندلسي له مفعوله ، نحن نقر أن ابن تاشفين احتفظ حتى النهايـة بتقشف الجندي الناسك ، لكن هذا الفاتح كان من البراعة ليأخذ من نهاية هؤلاء الملوك عبرة . ومن المحتمل أند لم يتلوق شخصياً الشعر الأندلسي ، لكنه تنبه أن الشعراء كانوا من لوازم البلاط الأندلسي ، ومن الصالح اختيار رجال حكومته من بين المثقفين في البلاد ، خصوصا إذا أثبترا مقدرة على ذلك ، ومن البديهي أن الشعراد أنفسهم كانوا مستعدين لتقديم الولاء لهؤلاء المنتصرين الأفارقة : ابن عبدون شاعر ملوك بطليوس رثا أسياده في مرثية مشهورة وشبَّه فيها سقوطهم بأكبر كوارث التاريخ (١٣) ولكته لم يتردد في خدمة الذين أسقطوهم ، وبعد أن ذكر الراكشي أن « عامة الغضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها (الأندلس) فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها ، يقول لنا بعد فتح ابن تاشفين لاشهيلية واعتقال المعتمد « فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولاينه من أعيان الكتاب وقرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » (١٤) . ونفس المؤرخ قدم لنا « على بن تاشفين » كنموذج للزهد والتقوى . ورأى عهده انتصار الفقهاء ، وفي نفس الرقت يشير إلى تطور الأذواق والعادات عند الأفارقة الملحوظ. إن «على»

Dozy, Recherches sur l'histoire politique et littéraire de - l'Espagne, 2e éd. Leyde 1881, I. p. 343, et contra, F. Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides, p. 191.

Dozy, Commentaire historique sur le poéme d'Ibn Abdoûn par (\\") Ibn Badroûn, Leyde, 1846.

⁽١٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٤ .

لم يذهب أبدا إلى الصحراء مسقط رأس أبيه ، وكانت أمد جارية مسيحية وقد ولد في سبته وهي مدينة شبه أندلسية ، كما قضي الجزء الأكبر من حكمه في أسبانيا . هذا الحكم دام ستة وثلاثين عام (١١٠٦ - ١١٤٢) . وقد رأت هذه الفترة التعجيل في أسبانيه المغرب ، وتبني أمير المسلمين لعادات رؤساء الطوائف دون مراعاة لمبادئ المرابطين .

ومن المحتمل أنه في عهد علي بن يوسف ، يرجع تكوين الحرس المسيحي (١٠) نحن نعرف المكانة التي كان يحتله هؤلاء المرتزقة في الجيوش الأسبانية في ذلك الوقت ، ونعرف على الأقل أشهر قوادهم « رودريج دياز دو فيفار الكمبيادور (١٦) وشهرته « السيند » . لم يستحق هؤلاء المرتزقة المكانة التي استحقها « السيد » عند الشعراء وكتاب الدراما ، ومع ذلك فكثير منهم كانت له سمات مشتركة معه ، هذه السمات هي : العزم والشجاعة وحب المفامرة والرغبة في الإثراء التي تتفق مع المثل الأعلى الشريف ، روح الاستقلال المتعادلة مع الإخلاص تجاه الرئيس الحالي مسلما كان أو مسيحيا ، عدم الإنسانية المخيبة للأمال أحيانا وهي ترجع إلي متطلبات مهنتهم . هكذا كان الثارفنيز Garcia Ordenez أو جارسيا اوردنيز Garcia Ordenez وهما من قشتالة وكذلك الربرير Reverter من قطلانيا أشجع المدافعين عن

J. Alemany, Milicias cristianas al servicio de los sultanes mu- (*) sulmanes, dans Homenaje a D. Francisco Codera, Saragosse, 1904 p. 135.

R. Menendez Pidal, La Espana del Cid, 2 vol. Madrid 1928; R. (\n) Dozy, Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne, p. 128, E. Lévi-Provençal, Le Cid de l'histoire dans la Revue historique, 1937, p. 58.

المرابطين وقد استشهد في معركة مع الموحدين (١٧).

لقد عينه على بن يوسف « قائدا للروم » وكان تحت قيادته كثير من المسيحيين المجندين مثل الربرتير نفسه ومن بين أسرى حرب أسهانيا ، ولكن كثير منهم كانوا متطوعين ، جاءوا بمحض إرادتهم إلى أرض إسلامية ، مثل طائفة الأغزاز المرتزقة الأتراك الذين جاءوا أيضًا في نفس الوقت. قالأتراك والمسيحيون كانوا يقدمون للمرابطين الخيالة التي تنقصهم ، وكان المسيحيون موضع تفضيل من قبل العاهل الإسلامي ، فكانت لهم كنيستهم (كانت في مراكش كنيسة مهداة إلى القديسة أولالي Sainte-Eulalie) وقسارستهم رأسقفهم . ويروي تاريخ الإمبراطور الفونس السابع أن عدة آلاف يختهم ، عادوا مع أقراد الكنيسة إلى طليطلة سنة ١١٤٧ (٥٤٢ هـ) أثناء احفِّلال الموحدين لمراكش ، وتحن لا تقبل هذا الخير يسهولة إذا كان المقصود يهم عبيدا (١٨) إن حملات المرابطين على أسبانيا ، وغزواتهم في البلاد المسيحية ، كانت تحتفظ يطابع الجهاد المقدس الذي يقوم المرابطون وأتباعهم المسلمين به أما عمل الخيالة المسيحية المرتزقة فقد كان في بلاه البربر ، وكانوا يشغلون القلاع التي تحمى البلاد المفتوحة ، ويقومون بتحصيل الضرائب فكان هذا العمل موضوعا للتعاية الموحدين ضد المرابطين ، بجانب المُراضيع الآخرى التي خدموا بها طائفتهم.

قدمت مسألسة الضرائب حجة قويه لأعداء الأسرة الحاكمة ، ففي بلد

Codera, Decadencia y desaparicion, ، ۳۰۷ : ۱ ابن خلدون : العبر ۱ (۱۷) p. 27.

de Cenival, L'église chrétienne de Marrakech au XIIIe siécle, (1A) dans Hespéris, 1927 p. 69.

إسلامي مسألة الضرائب لها طابع ديني ، وكان ابن تاشفين وفيا لتعاليم ابن ياسين القائد الروحي للصحراويين وقد امتنع عن جاية أية ضرائب غير شرعية (١٩) ووازن بين الموارد الشرعية وموازنة اللولة ، والموارد الشرعية شرعية الأرض المفروضة في : الزكاة المستقطعة من دخل المسلمين ، والجزية وضريبة الأرض المفروضة على خمس على المسيحين واليهود المقيين على أرض إسلامية ، علاوة على خمس الفنيمة المأخوذة من الكفار . إن العردة إلى الجهاد المقدس ونجاحها قد ساعد على ازدياد هذا اللخل . كما كان الفقهاء يشجعون الأمير على استغلال اليهود ، الذين يقيمون بكثرة في المدن الأسبانية ، وكانوا أغنياء ويربحون الكثير من أعمالهم . وطبقا لنصيحة أحد الفقهاء ، قام ابن تاشفين بانذار البهود الأغنياء الذين يكونون سكان ليسانه Lucena على اعتناق الإسلام ، البهود الأغنياء الذين يكونون سكان ليسانه الصحراويين للذهاب إلى شبه ثم وافق على إعفائهم من ذلك مقابل دفع ضريبة باهظة . وقد ساعد الاعتدال في المطالبات الضريبية للمسلمين ، على رغبة الصحراويين للذهاب إلى شبه الجزيرة ، وجعل وجودهم مقبولا ، ونحن لانزال نتذكر عتاب ابن تاشفين الرئساء الطرائف في هذا الصدد . كما أنه حاول جباية ضريبة استثنائية من المؤان المربه إلا أنه واجه معارضة صارمة من قاضى المدينة . (٢٠)

ويبدو أن ابنه «علي» الذي كان يكن للسلطات الدينية كل الاحترام ، قد أعاد في المغرب الضرائب الغير شرعية ، وخاصة ضريبة الأسراق والمسماة وقبالة» وهي ضريبة غير مقبولة من الشعب ، إلا أنه كان في حاجة إليها أو كان من المهارة ليجمل الفقهاء يقبلون مخالفة تتطلبها الحالة الإقتصادية

⁽١٩) أبن أبي زرع: الأنيس الطرب بروش القرطاس ص ١٣٧.

Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. 1932, III, (Y.) p. 158, 159, 161.

للدولة . إن الجغرافي الإدريسي (منتصف القرن الثاني عشر) عندما يكلمنا عن مراكش (٢١) يخبرنا عرضا « وأهل مراكش يأكلون الجراد ، ويباع فيها كل يوم منه ثلاثون حملا ، وعليه قباله ، وكان أكثر الصنائع بحراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والتحاس الأصفر وغزل النسيج وغيرهما ، وكانت القبالة على كل شئ يباع ، فلما صار الأمر للموحدين قطعوا تلك القبالات وأرحوا منها ، واستحلوا قتل المتقبلين لها ، فلا ذكر لها في يلادهم » . ويذلك استأنف الموحدون ضد المرابطين وبنجاح الحملة التي سهلت نجاح المرابطين في خلع الملوك الأندلسيين ، فهؤلاء الملوك قد اقترحوا وبدون قصد على المنتصرين هذه الضرائب في نفس الوقت الذي بثوا فيهم حب الشعر وأشياء حديثة أخرى مشبوهة ا

وعلى كل فقد تأثرت حياة المغرب بهذه العدوي ، والمقصود هناحياة المضر فيعد أن انهارت الخلافة ، وفقدت الممالك الصغيرة الاستقلال الزائل ، قامت الأندلس بضم المغرب الغربي وجعلت منه مقاطعة لثقافتها الأدبية واللنية . والقليل الذي تبقي من معمار نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر يؤكد تأثير قن قرطبة ومديئة الزهراء أو العراصم الأسبانية الأخرى مثل طليطلة وأشبيلية وسرقسطة على فن المرابطين . والمسجد الجامع في تلمسان الذي يعود إلى ١١٣٦ (١٣٥هـ) هو أحسن ما تبقي من آثار الأسرة الإفريقية الحاكمة (٢٧) فتصميمهم ساحة الصلاة ، وخطوط الأقواس ، ويناء القبة

⁽۲۱) الادریسی : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس من نزهة المشتاق ، تحقیق دوزی ودی خویه . (أمستردام ۱۹۹۹ م) ص ۹۷ .. ۹۸ .

H. Terrasse, L'art hispano-mauresque des origines au XIIIe sié- (YY) cle, Paris, 1932, G. Marçais, Manuel d'art musulman, p. 213; W. et G. Marçais, Les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903, p. 140.

وتكوين المعراب وكل ذلك اتبع أسلوب المسجد الجامع في قرطبة . ولقد استمر هذا المسجد رغم سقوط مؤسسيه ، الأثر الرئيسي للإسلام المغربي . إنه كالكوكب الميت ، فبؤرتد المضيئة استمرت في إلقاء ضوئها بعيدا رغم أنها أطفئت من أكثر من قرن .

الباب الثاني الموحدون (۱) و قمة المغرب

مقدمة

بستوط مراكش ١١٤٧ م (١٥٥ هـ) ، نصب الموحدون أنفسهم حكاما على مصير بلاد البرير ، ولم يكن قد انتهى بعد تاريخ المرابطين ، قبفضل هؤلاء الحكام الجدد ، ستحقق البلاد مرحلة قاطعة نحر التحرر من الوصاية المشرقية . لقد خصص يوسف بن تساشفين المرابطى لنفسد لقب أمير المسلمين والجليفة المزيف» ، أما عبد المؤمن الموحدى فسوف يحمل لقب أمير المؤمنين . إن عهد الموحدين ، وبصورة أدق ، فترة المائة والعشرين عام ، التى تبدأ مع قدوم عبد المؤمن سنة ١١٣٧ م (٢٠٥ هـ) حتى كارثة العقاب سنة ١١٧١ م (٢٠١ هـ) ، تضع المغرب الإسلامى فى قمة جميع المجالات ، وغم التهديد والتخريب الذى قام به بنو غانية فى البلاد ، لقد مد الموحدون النفوة المسكرى أبعد من الحدود التى توقف عندها المرابطون ، وبذلك فتحواً جميع بلاد

⁽۱) عن تاريخ المرحدين أنظر المراكشي : المعجب في تلخيص أغيار المغرب ص ١١٥ وما عن تاريخ المرحدين أنظر المراكشي : الكامل في التاريخ ٢٠٤ وما عدها ، ابن أبي زرع : ٢٠٠ وما المدها ، ابن خلدون : العبر ٢٠٠ تاريخ العرفاس ص ١٧٧ وما عدها ، ابن خلدون : العبر ٢٠٠ وما الأنيس المطرب بروض الترطاس ص ١٧٧ وما عدها ، ابن خلدون : العبر ٢٠٠ وما المدها ، الزركشي : تاريخ الدولتين ، الدولتين العرف وما المدها ، الزركشي : تاريخ الدولتين ، الدولتين العبر ٢٠٠ وما المدها ، الزركشي : تاريخ الدولتين المدون المدها المدون العرف المدون العبر ٢٠٠ وما المدون العبر ٢٠٠ وما العبر ١٤٠ وما العبر ٢٠٠ وما العبر ١١٠ وما العبر ١٤٠ وما العبر

البرير ، فجميع الأراضي بين المحيط الأطلسي وخليج قابس ، احتلتها يد أ واحدة ، وهذا ما لم يحدث من قبل ، حتى أيام مجد الاحتلال الروماني . ركانت البيعة واحدة ، من شعرب هذه البلاد التي تفيض على الأندلس ، الى السلطة الروحية والدنيوية الموحدية ، كما أن الإيرادات التي تحققها هذه البلاد تؤول الى بيت مال (خزينة) واحد حيث مركز هذه الامبراطورية المترامية الأطراف في المفرب الأقصى . هذه الامبراطورية التي أسسها ابن تومرت ، هذا البريري من الأطلس المغربي ، بالدعوه ، ويقضل عزهة لا تعرف الكلل ، فقد قام بإعلان الدعرة ، وقرضها بعد ذلك برابرة من أمثاله ، وللمرة الأولى كان المغرب بسبيل القيام بدور تاريخي كبير ، وأن يصبح واحدا من أقطاب العالم الإسلامي حتى أن مكانة الخليفة المرحدي فرضت نفسها على بلاد إسلامية قديمة مثل مصر . وقد لاحظ ابن الزبير الرحالة ذلك ، كما سبق ولاحظنا أن السلطة الفاطمية ، نشأت هي أيضا عند البرير الجهليين ، ولكنهم لم يكونوا إلا أداة لطموح رجل مشرقي ، ولم تلبث الحركة أن خرجت من المغرب الي المشرق. أما حركة الموحدين ، فقد أثارها رجل مغربي واحتفظ بالمغرب مركزا له ، ويثبت طابعها المحلى ليس فقط شخصية مؤسسها ، بل في الأمال التي يبلورها ويحققها انتظار الرجل المناسب الذي حقق من ثلاث قرون مضت ، تجاح بنى برغراطة ، وحميم بنى غمارة ، إن هاتين البدعتين في القرن التاسع ، تسبق حركة الموحدين في القرن الثاني عشر . لم تكن هذه البدع ، إلا حلقات في سلسلة التاريخ الإقليمي ، الذي يقي دويه محدودا في الزمان والمكان . أما حركة الموحدين سيكون لها امتداد واسع ودائم . حقا إن كلمة الموحدين و لا تذكرنا بالاضطرابات التي هزت المغرب منذ إسلاميته ، بل تذكرنا هذه الكلمة بالأزمات الدينية الموسمية التي كان مسرحها شمال إفريقيا: مثل بدعة الاستف درنات ، والثوره الخارجية ، والحركة الموحدية . وتهدو هذه البدع على فترات عدة قرون ، كأحداث متشابهة جدا ، وطواهر لنفس روح الانفصال ، وازدهار موسمى للطائفية البريرية (٢)

I

ابن تومرت و تكوين المذهب الموحدي

مناك غموض يحيط عيلاد ابن تومرت ، والفترة التي سبقت تبشيره ، وقد زيف نسبه ليصبح من الأشراف ، ولا نستطيع أن نقرر شيئا حاسما ، فيما يتعلق بالنسب الشريف الذي ادعاه لنفسه . أما تحديد قبيلته « هرغة » فمشكوك فيه : هل نحددها في قلب الأطلسي الكبير المغربي مع قباتل المصامدة الذين تبنوا عقيدته ، أو من الأرجح تحديدها في الجنوب على الجانب الشمالي لجبال الأطلس الصغير ٢ نحن نجهل أيضا تاريخ ميلاده ، هل كان عام الشمالي لجبال الأطلس الصغير ٢ نحن نجهل أيضا تاريخ ميلاده ، هل كان عام ونجهل أيضا عمره عندما اتجه الى المشرق ، ونجهل مراحل سفره ذهابا وايابا ، وقد بين جولد سيهر Goldziher أسباب عدم التأكد من كل ذلك (٣) ولكند أشار أن الطالب المغربي الشاب لم يستطع مقابلة الغزالي العالم الديني

Goldziher, Mohammed Ibn Toumert et la théo- : من مثل اللحب انظر (۲) logie de l'Islam dans l'Afrique au XIe siècle, préface au Livre Codera, Decadencia y de- ، ابن ترمرت : المديدة . d'Ibn Toumert . saparicion de los Almoravides, Saragosse, 1899; A. Bel, La religion musulmane en Berbérie, Paris, 1938, p. 233 .

Goldziher, Mohammed Ibn Toumert, p. 5. (*)

المشرقى الكبير . لا نستطيع الوقوف على أرض صليه ، إلا عند وصول ابن تومرت الى تونس ، وذلك بفضل نص البيلة (٤) وكان البيلة هذا أحد رفاقه في رحلته ، ولكنه كان كاتب مذكرات متواضع . عاد ابن تومرت من تونس الى تنيملل ، مارا بقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس ومكناس ومراكش وأغمات . وكان يلقب نقسه و الفقيه السوسى » وكان يجوب القرى والمدن حيث تزايد أتباعه ، وكان ينام في مسجد المدينة التي ير بها ، ويأتي الناس اليه لسماع دعوته ، وكان يقيم مددا متفاوتة في المدن التي ير بها ، ليعلم الناس أمور الدين . كان قوي الحجة ، فأخذ في إصلاح العادات وأخلاق الناس ، وينتقد ما يشاهده في مختلف المجالات ؛ يتدخل في المغلات الريفية ، ويعارض في اجتماع الرجال والنساء ، ويشتت مجامعهم ، وينتقد الترف في الملبس ، ويكسر الآلات الموسيقية في احتفالات العرس ، وعند الباعة ، ويتفقد السلطات المحلية ، وإذا أحس بخطر ينجم عن تصرفاته هذه كان يسارع بالاختفاء ويتابع مسيرته بعد ذلك .

وتعتبر مراكش هى المرحلة الحاسمة فى طريق عودته الى وطنه ، إنها عاصمة دولة المرابطين ، وسيؤكد فيها موقفه النضالي تجاه حكام المغرب ، والكشف عن الدعوة التى أتى بها من المشرق . لقد وجد فى هذه المدينة الكبيرة « من المنكرات أكثر مما عاينه فى طريقه » (ه) فازداد حماسه للنهى عن المنكر فأينما رأى منكرا من آلة موسيقية ، أو أوانى الحمر إلا كسرها ، وقد أشرنا من قبل عن مهاجمته هو ورقاقه لموكب شقيقة الأمير ووصيفاتها السافرات .

⁽ع) البيذي : أخيار المهدى بن ترمرت ، تحقيق عبد الحميد حاجبان الجزائر ١٩٧٤م ، ص ٣٤ ومايعدها .

⁽٥) ابن الأثير: الكامل ٨: ٢٩٥.

إن دور الرقيب ، والقضاء الروحى ، الذى تولاه ابن تومرت ، قى كل مكان وزمان ، لهر فرض على كل مؤمن ، فمن وجد منكرا ، عليه التدخل لمتعه بيده ، فإن لم يستطع فيلسانه وإن لم يستطع فيقلبه و هو أضعف الإيمان » (١) لقد رأيتا كثير من المصلحين مثل أبى يزيد « صاحب الحمار » يضعون أننسهم حكاما متعصبين لتحقيق معتقداتهم الإصلاحية ، وعرفنا عن ابن تومرت نفس المراقف قبل وحيله الى المشرق ، ونفتر من أن التعاليم التى درسها هناك ، قد رسخت عنده هذه الرسالة . إن تغيير المنكر هو أساس الشريعة وركن من أركان الإسلام . فإذا كان ابن تومرت ، لم يحضر أحاديث أبى حامد الغزالي (٢) _ ويبدو هذا محتملا _ فإنه كان متأثرا بأفكاره ، ولقد استوحى من هذه الأفكار عندما كان في مراكش ، وجادل جماعة من الفقها ، أستوحى من هذه الأفكار عندما كان في مراكش ، وجادل جماعة من الفقها ، في حضرة الأمير على بن يوسف . أفحمهم جميعا ، وكشف عن جهلهم في الشريعة والعقيدة . وكان من بينهم الأندلسي مالك بن وهيب أحد كبار علما ، عصره وهو الذي أدرك خطورة أقوال ابن تومرت ولذلك سيصبح من ألد أعنائه . واستنادا الى الغزالي كان ابن تومرت يعتبر الفقه والفتاوى من العلوم الدنيوية قليس هذا هو الدين وليس علما من علوم الدين .

إن ابن تومرت يعلن بضرورة تفسير القرآن تفسيرا مجازيا ، استنادا الى الغزالي ، الذي استند الى الأشعري ، المتحدر من المعتزلة . إذا أخذ ما ورد في

Goldziher, Mohammed ibn Toumert, p. 85. (7)

D. B. Macdonald, art, Al-Ghazali dans هن النزائي أنظر (۷) l'Encyclopédie de l'Islâm; Goldziher, Le dogme et la loi de l'Islam, Paris 1920, p. 149; Wensinck, La pensée de Ghazzâli, Paris, 1940; M. Asin Palacios, La espiritualidad de Algazel, 2 vol, Madrid, 1924-1925; J. Obermann, Der philosophische und religioese Subjectivismus Ghazalis Vienne 1921.

القرآن بأن الله يرى ويسمع ... ألخ فهذه الصفات مجرد صور ومجازات ، أما اذا أخذت بالمعنى الظاهر ، وقيل أن لله عيونا يبصر بها ، وآذانا يسمع بها ، فقد اتصف الله بصفات من ذاته ، وأصبع على شكل إنسان ، ويذلك أخذ المتكلمين المرابطمون ، وبالتسالى هنموا التجريد ، ووحدة الله المطلقة أو و توحيده » ، وانتهوا الى الشرك والتشهيه . إذن تصور ابن تومرت لوحنة الله هي النقطة الأساسية في مذهبه ، وعلى أساس هذا التصور أصبح منافعا عن هذا المذهب ، الذي سماه « الترحيد » وسمى أتهاعه « المرحدون » .

لن يبقى ابن تومرت تلميذا للذين كونوا فكره بل تحرر بطريقته من الرصاية المشرقية . إذا كان قد إنجذب لتعاليم الغزالى ، أو أتهاعد ، فإنه لم يتبنى كل أفكار الغزالي ، الذي جدد العلوم الدينية ، الأنه يختلف عنه في الطباع . نحن نعرف أن الغزالي بعد أن كان الفقيه والمتكلم المشهور في المدرسة النظامية ببغداد ، أعتقد عند سن الأربعين ، أن العقلاتية لا توصل إلى الحقيقة ، فاعتزل الدنيا وبدأ يبشر بحب الله والخوف من علَّاب الآخرة ، وأصبح معلما لحركة صوفيه واسعة ، هزت المغرب نفسه . رغم أن ابن تومرت كان زاهدا ، إلا أنه لا يميل الى الصوفيه ، وليس في مذهبه أي شئ من دين المعبة ، ويختلف بتكوينه وثقافته وطباعه ، عن الاستاذ المشرقي العظيم ، المروف برونة الطبع والتسامع أحيانا . فاين تومرت مغربي جبلي ، وسوف يستخدم القوة والحيلة لنجاح المبادئ التي جلبها معه ، إنه يريد غرس هذه المبادئ في عامة الشعب ، على عكس الغزالي والفلاسفة الذين لا يرون أن تكون نتائج تفكيرهم « علفا للعامة » ، وسوف يفرض دعوته ومفاهيمه عن الترحيد والتجريد على المصامنة الجهلة الذين يسهل التأثير فيهم لقد عرض مذهبه بلغة البرير ، حتى يكون مفهوما أكثر ، وعلى كل فهو لم يهتم بالناعهم لأنه يفرض عليهم عقيدته ، لم يكن إذن مبشرا بل داعى لتجنيد

مناضلين للجهاد المقدس ، فهو المطاع لأنه لا يخطئ ولا يخدع : إنه الإمام المعصوم .

لم يكن قد وصل الى هذه المرتبة وهو في مراكش ، التي تركها خوفا من القبض عليه . وبنضل نص تابعه الوفي و البيلق » عرفنا مراحل جولته عبر بلاد الأطلس ، حتى وصل الى هرغة وهي القرية التي ولد قيها ، كما عرفنا وصوله الى تينملل بوادى تفيس ، حيث استقر وأعلن أنه المهدى . ومثلما فعل ابن ياسين ، النقيد البربري للمرابطين ، قام المهدى بجمع كبار المصامده ، وخاطب رؤساء العشيرة ، وشرع في تدريبهم تدريجيا . ودون لهم رسالة بها معتقداته ، بلغة اليرير ، وبعد أن كسب ثقتهم ، دعاهم الى اتباع مبادئه ، التي لا تهدف _ كما يدعى _ إلا إلى إصلاح العادات ، ومنعهم بطريقة قاطعة بعدم سلك الدماء ، ومتابعة خصوماتهم الداخلية ، وصراعهم العشائري ، الذي يضعف وحده المصامدة ، وفي نفس الوقت عمل على اختيار صحابته من الذين كانوا أكثر تأهيلا لنشر دعوته ، وأخذ يرسلهم الى القبائل ، لتجنيد أنصار من بين رؤسائها . وعندما وثق في ولاتهم بدأ يكلمهم عن ﴿ المهدي ﴾ المنتظر سليل محمد الذي ﴿ يرقع الباطل ويثبت الحق ويملأ الدنيا عدلا ، كما ملئت قبله ظلما وجورا » . وأشعل قيهم الرغبة لرؤيته ، ثم أعلن لهم بعد ذلك أنه المهدى . وعرض عليهم الأحاديث التي تنبئ بظهوره والنسب الذي يربطه بالرسول . ويقول المراكشي : « فبايعوه على ذلك ، وقال أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله (عليه) » (٨) . هذه النقطة بالذات تؤكد الفكرة المتسلطة عليه ، فقد حباول ابن تومرت الاقتداء بالنبي ، في كثير من المواقف ، وبذل كل وسعد في سبيل ذلك ، لأنه كان بعرف كل تفاصيل

⁽٨) المراكشي : المجب في تلخيص أخيار المغرب ص ١٢٠ _ ١٢١ .

سيرة النبى ، بما كان يحفظ من أحاديث . وكما فعل النبى بالهجرة الى المدينة ، كانت مدينة تنيملل المرحلة الأخيرة لهجرة ابن تومرت . ولكن قبل الرصول اليها فرض على نفسه وعلى أتباعه خلوة في غار إيجلي ، للتمهد والصلاة ، كما فعل محمد عندما اعتكف في غار حراء . أطلق على أتباعه اسم الأنصار اقتداء بما فعل الرسول بأنصاره سكان المدينة . قام ابن تومرت بإعلان النبوة تحت شجرة خروب ، ويذكرنا هذا الموقف بقسم الشجرة ، هذا المقسم الذي ربط المسلمين بنبيهم والذي ذكره القرآن . والكتاب الذي تركه لنا ابن تومرت ، محلوء بالأحاديث المزيفة ، المنسوبة للنبى ، والتي يكيفها ابن تومرت حسب الظروف .

بهذا الاقتداء ، استطاع ابن تومرت تأسيس امبراطورية جديدة ، غرسها قرية في أرض المغرب ، لأنه أراد خلق مجتمع فاضل محائل للإسلام الأول . لكن هذه الحركة بخصائصها وبروح صاحبها تعتبر حدث بربري ، كما أن الاعتقاد في المهدى والأمل في ظهوره كانت متأصلة كما قلنا في معتقدات البلاد . ويبدو أن المغرب من بين كل الأقاليم الإسلامية ـ كانت مشغولة بهذا الانتظار . وبالنسبة للمغرب كانت الأمال كلها متبلورة ولظروف غامضة نحو منطقة السوس ، وكانوا حتى نهاية القرن الرابع عشر لا يزالون ينتظرونه ، ويقول ابن خلدون وونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا مجاسة واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته ... فتقوى عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربقة المولة ومنال الأحكام والقهر » (٩)

ولا شك أن ابن تومرت قد استفاد من هذه المعتقدات التي كانت تجعل من المهدى بطلا للفلوكلور المغربي ، التي كانت تلمح بإمكان المغرب القيام بتجديد

⁽٩) أين خلدون : المتدمة ص ٣٢٨ .

الإسلام وهكذا كانت الأرض المغربية مجهزة لاحتضان ما يناسبها من معتقدات ، وأسرع الإمام المعصوم باستغلال ذلك ، فرغم أصلد البربرى ولهجند القروية ، فقد أضاف الى نفسد ألقابا شريفة أسوة بما يتبعد العرب ، هادنا لتأسيس دولة دينية على غرار دولة الرسول بالمدينة . هذه المدولة الإسلامية هى دولة بربرية تقتبس مقوماتها من المجتمع الذى نشأت بين جدرانه والذى سيساعد على فوها .

ورغم اختلاف آراء المؤرخين حول التنظيم الموحدى ، إلا أنه يمكن تصوره كالآتي : كان في قمة التسلسل « الجماعة » أو « جماعة العشرة » إنهم أتهاعه اللين رافقوه في سيرته والأشخاص المخلصون الموثوق بهم مثل الخليفة المستقبلي « عبد المؤمن » « وأبر حقص عمر » الذي سيكون أخلص المساعدين « للمهدى » و « البشير » الذي سيتكفل بالتخلص الدامي من المعارضين والمشكوك في إخلاصهم والذي مات وهو يحارب المرابطين .

مناك مجلس آخر للحكم وهو « مجلس الخمسين » الذي يضم ممثلين عن قبائل مصامده الأطلس ويكونون ركيزة الدولة الناشئة ، والقبائل الممثلة هي : قبيلة حرغة التي ينتمي إليها ابن ترمرت ، وقبيلة تينملل التي استقر فيها ، وقبيلة هنتاته وجدميوه وجنفيسة (۱۰) . ويكتب روبرت مونتاني : (كانت معظم هذه البطون تكون جمهوريات صغيرة يرأسها « مزوار» يشابه بنون شك «المقدم » وهو القاضي المعين لمدة عام ولا يزال حتى الآن يزاول مهمته في نفس الوديان . وخلال الاجتماعات العامة كانت تؤخذ القرارات الهامة ، وقد رأينا في بداية الحركة الدور الهام الذي لعبته مجالس هؤلاء الزعماء الصغار) . قلمت هذه الجماعات الريقية التماسك المطلوب للمجلس ، لكنه تماسك تسبى

R. Montagne, Les Berbéres et le maghzen dans le sud du Ma- (1.) roc, Paris, 1930, p. 62.

لأن مجلس القبيلة هو بمثابة مجلس شعبى وكانت اجتماعاته صاخبة بها الغيرة والمشاجرات. وكان ابن تومرت يعرف ذلك جيدا ، وتدخل في أكثر من شجار ، وشك في إخلاص البعض ، ووجد أنه من الأفضل التخلص منهم ، وكان « البشير » المخلص هو المكلف بهذه العملية . لم يدم قتل المشكوك فيهم وعائلاتهم أقل من أربعين يوما . وبعد هذا الفرز ونسد الفراغ ، يدخل أعضا عدد في جماعة الخمسين ، كان هؤلاء الأعضاء من يطون هنتاته ومن رجال تنيملل . ليس هذا كل شئ ، بل قام ابن تومرت يتقوية الركيزة القبائلية للموحدين ، بعمل رمزى ، يتجارب مع مطامع البربر وعاداتهم القدية ، ويذكرنا في الوقت نفسه بالمؤاخاة . التي قام بها الرسول بين المهاجرين . رفقاء هجرته .. والانصار في المدينة . لقد جعل أيضا أغضاء قبيلة هرغة ، يتبنون أتباعه الغرباء عن قبائل الموحدين . ليصبح أفراد هرغة وأخوتهم المزعومين ، من بين المجموعات التي تكون الشعب المختار . ويظهر هذا التفضيل الموجود بين القبائل من جهة وبين أفراد كل قبيلة من جهة ثانية ، في الاستعراضات التي تجمع المرحدين المسلمين ، وبطريقة جوهرية عند تقسيم الغنائم .

كان لهذه التنظيمات دور سياسى بجانب دورها الحربى . وكما يقول صاحب الحلل الموشية : « وكان ابن تومرت يمقد الأمور العظام مع أصحابه المشرة ، لا يحضر معهم غيرهم .. فإذا جاء أمر أهون أحضر الخمسين » وكان دورها استشارى ويتعلق بإعطاء المعلومات ، وإسناء النصائح (١١) .

بموجب مهادئ غير واضحة لنا ، ولكن تهدو حقا وراثيا ، استمر ممثلو هذه العائلات في المساهمة في الحكومة ، وتكوين مجلسا للشيوخ الموحدين ، لقد

⁽۱۱) الحلل المرشيد في ذكر الأخيار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامد ، الدار البيضاء ١٩٧٩م ، ص ١٠٨ ـ ١٠٠٩ .

أعطى المهدى للهيئة الحاكمة ، نفس هيكل التنظيم القبائلي ، وبذلك وهب الاستقرار للارستقراطية بالامبراطورية الموحدية ، واستقرار العشيرة ، التي ستبقى حارسة على تراث المهدى من جيل الى جيل .

وأسرة أبي حفص عمر الهنتاتي كانت من أبرز هذه الأسرات ، وكان أبو حفص من أبرز زعماء المرحدين الأوائل ، ويقول عنه ابن خلدون : « كان يسمى بين المرحدين بالشيخ » .

كان أبو حقص صاحبا مخلصا ، رتلميذا أمينا للمهدى ، وكان شديد الإخلاص لدعوة الموحدين ولعبد المؤمن ، مات المهدى واستمرت وقاته سرا لمدة ثلاث سنوات ، تسأكد قيها أبو حقص أن عبد المؤمن هو الأجدر بالسلطة العليا ، ومهد مع عضوين آخرين في الجماعة لإعلان ذلك على الموحدين . ويجب أن تدار الأمور بكل حلر ، لأن المرشحين كثيرون ، وكل منهم يعتمد على قوة وأهمية قبيلته ، لكن الخوف من اختيار حاكم يتجاوز في حكمه ، اعتمادا على قوة عشيرته ، جعل أبو حقص يرشع عبد المؤمن « لكونه غريبا بينهم » (۱۷) ، ويهدو أن الدعاية التي قام بها الشيخ أبو حقص قد دعمت هذه المجة .

إن عبد المؤمن لا تنقصه المهارة في المناورات ، وكان هليه استخدامها تجاه الشيخ أبى حقص تقسه ، ويروى ابن الأثير في هذا الصدد ، أن أبا حقص كان ينوى خلاقة عبد المؤمن ، بوجب اتفاق مبرم بينهما (١٣) . لكن عبد المؤمن كان كثير الذرية ، (يعرف من أولاده ثلاثة عشر) وكان يريد تأسيس أسرة

⁽١٢) ابن أبي زرع : الأنيس المارب ص ١٨٤ .

⁽۱۳) ابن الأثير : الكامل ٩ : • 4 .

حاكمة ، ولكن كان من الصعب تحقيق ذلك ، لعدم وجود عشيرة ينتمى إليها تسانده . إن الغربة التي كانت سببا في انتخابه ، هي نفسها التي جعلته عاجزا عن تحقيق آماله أمام تحالف الموحدين .

لم يكن بعد ، قد قام بإحضار أقراد من قبيلته كرمية وهران الى مراكش للمجهم قى قبائل مصمودة كما نظمها المهدى (١٤) . وعوضا عن حلفاء طبيعيين ، لجأ عبد المؤمن الى العرب ، للحصول على تعيين خليفة لضمان المستقبل .

كان هؤلاء العرب، عثلين للعائلات الهلالية الكبيرة، التي هزمها الخليفة المرخدى أثناء معاركة الحربية في إفريقية وأحضرها الى المغرب، أو التي طلبها بعد ذلك لمساعدته في محاربة المسيحيين في أسبانيا (١٥). وكان كريا معهم، فجعل منهم أنصارا أوفياء، قادرين على موازنة السلطة المشككة لشيوخ الموحدين، اقترح عبد المؤمن على العرب فكرة طلب تعيين ابنه محمد وريثا للخلافة، فصمم العرب على ذلك، ولكنه صاح وتمسك بالادعا الت الشرعية للشيخ و أبى حقص و في الخلافة. أما أبو حقص فقد وجد أنه من الحلر عدم طلب هذا الحق ، وكان من نتيجة هذه الحيلة، أن استسلم عبد المؤمن الى هذا الاجبار، وبذلك تأسست أسرة عبد المؤمن وقام الخليفة بإشراك أفراد عائلته في الحكومة. ولما كان عبد المؤمن حاكما على المبراطورية إفريقية أندلسية، فقد جزءها الى مقاطعات، وخصص إدارتها المبراطورية إفريقية أندلسية، فقد جزءها الى مقاطعات، وخصص إدارتها النبائد « عثلين لعبد المؤمن ». لقد حصل عبد المؤمن على هذه النتيجة،

ابن خلدون ؛ المبر ؟ ؛ ١٦٧ .. ١٦٨ ، جزء من خطاب التنصيب على المرش في (١٤) Levi Provençal, Documents inédits d'histoire almohade, p. 66.

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 180. (*)

بنضل مهارته وعزمه كزعيم بربرى كبير ، زعيم يعرف كيف يوارى نواياه ، بدلا من فرض رغباته بالقوة ، ولكنه لا يتراجع أمام أبشع الأساليب ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، مثل الذبح الجماعي للقبائل المغربية الانفصالية ويعطينا البيذق وبهدو، مخيف إحصاء رسميا عنها (١٦)

إذا كان مستقبل الأسرة الحاكمة قد أصبح مضمونا ، إلا أند كان خاضعا للظروف التى يقرضها النظام الموحدى . لقد عين عبد المؤمن ابنه « يوسف » وليا للعهد ، بدلا من ابنه محمد الأكبر الذى أظهر عجزا عن ولاية العهد فى الحلافة ، فكان لابد من التصديق على هذا التغيير من الموحدين ، وخصوصا موافقة الشيخ الجليل و أبو حفص » الذى تأخر فى إبداء رأيه . وقد قال ابن خلدون : « أن أبا حفص لم يقر هذا القرار ، إلا بعد أربع سنوات من وقاة عبد المؤمن » حتى استبد غرضه فى حكم أمضاه بمقعد سلطانه وأعجب بقضله ، وأعطاه صفقة بينه وأعلن بالرضا لخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣٦٥ ه (١٩٦٧ م) (١٧)

كان دور أبى حنص هو إقرار المرشح للخلافة ، والإشراف على السلطة العليا ، ولم يخرج هذا الدور من عائلته . ومع دوام سلالة بنى عبد المؤمن ، دامت سلالة الحقصيين متقلدة سلطة روحية يعترف بها الجميع . ونّحن تفترض أن الشيوخ الموحدين الآخرين كانوا يتمتعون بسلطة عمائلة ، ولكنها أقل منها في النفوذ ، عما يدل على استمرار النظام الذي أسسد المهدى ، والمستوحي من العادات البربرية ، ولكن ينقصنا فقط التعرف بدقة على دور هؤلاء الشيوخ في الدولة .

⁽١٦) البيلق : أخبار المهدى بن تومرت ص ١٠٣، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٤ .

⁽١٧) أين خلنون : العير ٦ : ٣٧٣ .

يبدو أنهم كانوا يقومون بالقيادات الحربية مثل أبى حنص وأولاده . وكانوا يوكلون لهم بوحدات قتالية للحرب في بلاد البربر وفي أسبانيا .

كانرا يشاركون في الحياة السياسية ، مثلما كانوا يفعلون قبل موت اين تومرت ، الذي لم يكن يتحمل أقسل معارضة له ، لكنه كان يستمع لنصائحهم ، ولا يحرم أهل بيته من المسائدة الروحية لهؤلاء الشيرخ ، عندما كان يكلفهم بتمثيله في الأقاليم ، وعند تعيين أحد أمراء بني عبد المؤمن حاكما لإقليم ما ، يضم له شيخ له صفة الوزير ، ونحن نتصوره مستشاوا فو خبرة ، وباعثا للإحترام ، يعطى صفة الشرعية للأعمال الحربية التي يقوم بها الأمير الشاب ، وهو في الوقت نفسه حافظاً على التقليد الموحدى المفروض على الخليفة نفسه .

سوف يلجأ خلفاء عبد المؤمن إلى أراء الشيوخ ، أو يتحملون وصايتهم بشئ من الخضوع ، أو الصبر حسب طياع كل منهم ، وحسب مبادئ حكومتهم والسلطة المتوفرة لهم . قفى عهد أبى يعقوب يوسف (١١٦٣ ـ ١١٨٨ م / ٥٨٠ ـ ٥٨٨ م) وعهد يعقوب المنصور (١١٨٤ ـ ١١٩٨ م / ٥٨٠ م) عهد عمو المناصور (١١٩٨ ـ ١١٩٨ م / ٥٨٠ م) عهد المناوم وفي عهد الناصر (١١٩٨ ـ ١١٩٨ م / ٤٩٥ ـ ١١١ هـ) بدأت تظهر المحن ، فئورة بئى غانية التي عاونها العرب ، كانت تسود المغرب الشرقى (١٨٨ ولجأ المنافقة الى شيوخ الموحدين في هذه الظروف الخطيرة ، وارتأى الجميع عقد المناف معهم ، لكن أبو محمد بن الشيخ الجليل أبي حقص هو الوحيد اللى المترح الشروع في حملة كللت فعلا بالنجاح . وبعد ست سنوات استشاره الناصر مرة أخرى ، ليعرف إذا كان من الواجب التدخل في أسبانيا أم لا ،

A. Bel, Les Benou Ghânya, Paris, 1903.

وخلافًا لما أبداه الشيخ الموحدي من رأى يتلخص في عدم التدخل ، اشتبك الناصر مع المسيحيين ، وكانت كارثة العقاب سنة ١٢١٢ م (٢٠٩ هـ) .

مات الناصر في العام التالى ، وترك العرش لابن يبلغ من العمر ستة عشر عام ، والذي حكم تحت اسم المستنصر (١٢١٣ - ١٢٢٤ م/ ١٦٠ - ١٢١ه) ، وكان المستنصر قاصرا ، فأصبح للشيوخ أهمية لم يعهدوها من قبل ، كما أن صغر سنه جعل أبا محمد الحقصى ابن الشيخ الجليل أبي حقص يجدد مرة أخرى تصرف أبيد ، ويقول لنا ابن خلدون (١٩٠) : « وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره . وتأخرت بيعة أبى محمد ابن الشيخ أبى حقص من إفريقية لصغر سن المستنصر . ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبى زيد فوصلت بيعته » .

. تحرر المستنصر من وصاية الشيوخ بعد أن كبر . أما خليفته عبد الواحد ١٢٧٤ م (٢٧١ هـ) قلم يستطع التخلص من سيطرتهم ، قفى عهد هذا العجوز الصالح الوديع ، سجل الشيوخ تقدما حاسما ووخيما لمستقبل الأسرة الحاكمة . ثما اضطره بعد ثمانية أشهر لاعتزال العرش أمام استبداد الشيوخ ، وبعد ثلاثة عشر يوما كان قد شئق ، ويقرل صاحب والقرطاس» : و فكان أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن ، ولم يكن ذلك قيمن تقدمهم من ملوكهم ، ورجع أشياخ الموحدين كالأتراك مع بنى العباس ، فكان فعلهم ذلك سببا خراب دولتهم ، وهو أول باب فتحد دولتهم ، وهو أول باب فتحد القوم على أنفسهم للفتنة » (٢٠٠). نصب الشيوخ والعادل» ولكند شئق بدوره

⁽١٩) المير ٦ : ٣٣٧ .

⁽٢٠) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٤٤ .. ٢٤٥ .

بعد حكم دام ثلاث سنوات (١٧٢٤ ــ ١٧٢٧ م / ٦٧١ ـ ٦٧٤ هـ) . إن السلطة المتزايدة للشيوخ عجلت بانحطاط سلالة بنى عبد المؤمن ، وكان هذا الانحطاط محتوما . لكن المأمون الذى خلف العادل حاول وقف هذا النفوذ .

لقد ولد في مالقة وعاش حتى سن الرجولة في أسيانيا ، حيث حصل على ثقافة إسلامية واسعة ، وكانت له صلات ودية مع المسيحيين ، وجاء الى المغرب فوجد نفسه محاطا بأعداء ، أو بأنصار مشكوك في ولاتهم ، بدط بالشيوخ المرحدين الذين تتلوا اثنين من أسرته . وفي الحال قاطع علنا مذهب ابن تومرت ، وأعلن من على منير المسجد الجامع بحراكش : و أيها الناس لا تدعوه بالمهدى المعصوم ، وادعوه بالغوى الملموم فإنه لا معصوم إلا الأنبياء ولا مهدى إلا عيسى » (٢١). لقد قام الخليفة يتكران المذهب الذي حصل بوجبه على السلطة العليا ، إن هذه الإشارة المتناقضة للخليفة سوف يلازمها إعدام جماعي للشيوخ المشاغبين حراس المذهب الموحدى .

تعطمت وانهارت هذه الامبراطورية الشاسعة ، يعد أن فقدت الركيزة التي كانت تشكل أساس قوتها ، وسقطت الأندلس الشرقية في يد ابن هود أمير سرقسطة . وفي إفريقية أعلن حفيد الشيخ أبي حفص استقلاله ، وفي سبته قام أخو المأمون بثورة ، واستولى يحيى ابن الخليفة الناصر على سجلماسة ومراكش أيضا .

تولى الرشيد الحكم بعد أبيه المأمون ، وكان ذو عزم ومهارة كما حاول بدون جدوى تجديد عهد بنى عبد المؤمن ، وإعادة الوحدة بعودة مؤسسات المهدى ، لكن المغرب أصبح فريسة للمشاغبين ، فكبار الدولة فى ثورة ، ويطالبون بالعرش ، ويجدون مساعدين لا يكلون من القبائل العربيه المهاجرة . كل ذلك

⁽٢١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٥١ .

سهل نجاح أعداء الموحدى : إنهم الغزاة « المرينيون » . لقد أصبحت أيام دولة المرحدون معدودة .

II

الحروب والمهمة الدينية للموحدين

لا مبرر للدهشة ، إذا كان الضعف الداخلي لهذه الدولة ، قد واققه ازدياد الأخطار الخارجية ، فتاريخ امبراطورية الموحدين تاريخ قتال ، والمجتمع الموحدي في فكر مؤسسه هو آلة حرب ، كما أن القيائل السبع الموحديه (ست قيائل مصمودية زائد قبيلة كومية) كانت أهم نواة في الجيش . فالبعض كان بثابة حامية لمراكش ، والبعض الآخر باق في بلده تحت الطلب . وينضم لهذه القوة البريرية العرب الذين أتوا من إفريقية إلى المغرب عن إضطرار أو إختيار ، ثم المرتزقة الاتراك (الغز) ، ثم الأندلسيون المجندون من شبه الجزيرة للجهاد المقدس ، وأخيرا المرتزقة المسيحيون الذين جندوا بالجيش الموحدي ابتداء من عهد المأمون ، ويعتبر هذا التجنيد دليل متأخر على إهمال مبادئ المهدى .

كان استخدام كل من هذه القوى مستمرا ، فعهد الموحدين يقدم لنا مادة وقيرة لتاريخ حربى ، لن أقوم يسرد هذا التاريخ ولكنى سأكتفى بإحساء ملامحه الكبرى .

انحصرت أول معركة شرع فيها المهدى في المناطق المجاورة لتينملل ، وحقق يها إخضاع القبائل المتمردة على الدعوة ، أما أول مواجهة مع قوات المرابطين التي تسيطر على السهول ، فقد باحت بالقشل الدامى . بدأ بعد ذلك الانتشار المنتظم لدولة الموحدين عن طريق مرتفعات الأطلس ، ثم الريف حيث قاتل

المصامدة الجبليون على أرض ملائمة لهم .

يعتبر عبد المؤمن من الخلفاء الفاتحين ، لقد قاتل سبع سنوات حتى سنة ١١٤٧ م (١٥٤٧ هـ) وانتهي القتال بسقوط مراكش والاستيلاء عليها ، حيث ذبح آخر المرابطين . أصبع حاكما للمغرب الأقصى وحتى حدود المغرب الأوسط ، كما قام بعمليات جريئة في أسبانيا أخضع بها الأمراء الذين أعلنوا استقلالهم . وفي سنة ١١٥٧ م (١٤٥ هـ) شرع شخصيا في فتع إفريقية ، واستولى عليها سنة ١١٥٨ م (١٥٥ هـ) وتم النصر سنة ١١٦١ م (١٥٥ هـ) وضاع في العاصفة الموحديد كل ما تبقى من أسرات صنهاجة وبئي زيرى وبئي حماد والأسرات التي اقتسمت ما تبقى منهم. وأبعد المسيحيين عن المهدية ، وروض العرب الهلالية ، ودعاهم للمساهمة في الجهاد المقدس . وهكذا جمع عبد المؤمن كل بلاد البرير في يده القرية ، وقسمها الى مقاطعات ، ومسحها عبد المؤمن كل بلاد البرير في يده القرية ، وقسمها الى مقاطعات ، ومسحها بقصد جهاية الفنوائب ، وقد فاجاه الموت أثناء شروعه في اللهاب الى إسهانيا .

أما ردع الثورات التي تهز الدولة البربرية الواسعة ، ومحاربة المسيحيين ، فكان في عهد يوسف الذي استشهد على أبواب شنترين .

وفى عهد يعقوب سيجد مينان القتال هنا وهناك انتصارات مدوية ، وأيضا تهديدات ملحة . كان انتصار الأرك فى سنة ١١٩٥ م (١٩٩ هـ) ذروة مجهود الموحدين لانتصار الاسلام . وفى بلاد البربر ينبئ نزول بنى غانية بجاية _ المثلين لبقايا المرابطين _ بالصعوبات التى غرقت فيها أسرة الموحدين الماكمة .

وسوف ترى المهود التالية تطور هذين الحدثين المرموقين قمن ناحية هناك متابعة الجهاد المقدس الذي انتهى بكارثة العقاب سنة ١٢١٧ م (٢٠٩ هـ) ،

ومن ناحية أخرى استيلاء المشاغبين المرابطين على إفريقية ، وتطلب ذلك تميين حاكم نشط من سلالة الحفسيين الذي أعاد الوضع المتهدم ولكن في الرقت نفسه مهد انفسال هذه المقاطمة الشاذة عن الامبراطورية .

طلا النشاط الحربي للموحدين ، الذي لم ينعم إلا براحة محدودة ، نتيجة للمهمة الروحية ، التي اعتبر المرحدون أنفسهم مكلفين بها . إن أنصار ابن تومرت ، عشلون الاسلام المناصل أكثر من المرابطين ، قمحارية المرابطين وأنصار التشبيد » هي في الأصل حرب دينية ، وقبل أن يقضي عبد المؤمن عليهم قام بتثقية المغرب من بدعة يرغواطة الذين استقروا في السهول المغربية ، منل خمسمائة عام ، رغم هجوم الحكام المتساليين على بلادهم بما فيهم المرابطين (٢٢) . وبعد أن تحققت وحدة العقيدة بالحديد والثار في بلاد البرب المرحدون المسيحيين في إفريقية وأسبانيا ، يحتبر تحرير الفيي ، حارب المرحدون المسيحيين في إفريقية وأسبانيا ، يحتبر تحرير كان لكل من الانتصارين دويا عميقا في البلاد الإسلامية ، لدرجة أنه في سنة كان لكل من الانتصارين دويا عميقا في البلاد الإسلامية ، لدرجة أنه في سنة يطلب من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي إرسال أسطول لمساعدته في محاصرة عكا وصور وطرابلس المحتلة من الصليبيين (٢٣) . لقد انتلب الوضع بطريقة غير متوقعة : أصبح المشرق ينتظر المساعدة من بلاد البربر الإسلامية ليتحرر .

⁽۲۲) ابن أبي زرع : الأنيس المارب ص ١٣٢ ، ١٩٠ . ١٩١ .

⁽٢٣) ابن خلدرن ۽ المبر ٦ ۽ ٣٣٠ ــ ٣٣١ .

Ш

أهل الذمة و العادات والفن الموحدي

إن القتال هو العنصر الأساسى لتاريخ الموحدين ويتركز هذا القتال ضد الكفار ، ليس فقط بالمصادمات البطولية بل بالتدابير الشرعية ، نتيجة لنفس الحياس الدينى . فقبل الاستيلاء على المهدية ، استولى عبد المؤمن على تونس ، وكان يحكمها بنو خراسان ، ويروى ابن الأثير أن عبد المؤمن و عرض الإسلام على من بها من اليهود والنصاري ، فمن أسلم سلم ، ومن امتنع قتل ، (٢٤). لم تكن هذه الشدة ثورة تعصب حانق بسبب النجاح ، أو النتيجة الوحشية المباشرة للاستيلاء على مدينة كان أهل اللمة يمثلون فيها تسببة كبيرة ، لقد كانت هذه الشدة توافق روح الموحدين . هناك نص هام للمراكشي يثبت لنا فيه ، أن الاجبار على الإسلام ، كان القاعدة المفروضة على اليهود ، وأن هذه القاعدة لا تعنيهم ـ هم وأولادهم ـ من الإذلال على اليهود ، وأن هذه القاعدة لا تعنيهم ـ هم وأولادهم ـ من الإذلال على اليهود ، وأن هذه القاعدة لا تعنيهم الى كل أنواع المهانة . هذا هو عليس شاذ ، يساعد على مراقبتهم ، ويعرضهم الى كل أنواع المهانة . هذا هو التص (٢٥)

و وفى آخر أيام أبي يوسف ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) أمر أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، وذلك ثياب كحلية وأكمام مقرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوقات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزى فى جميع يهود

⁽٢٤) ابن الأثير : الكامل ٩ : ٦٣ .

Reccueil de la Soci- . ٢٠٣ ص اخبار المغرب في تلخيص أخبار المغرب عن المجب المعرب المعر

المغرب. ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابته أبى عبد الله إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله يلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزى إلى وقتنا هذا وهو سئة ١٣٢ ه. وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزى وقييزه إياهم به شكه في إسلامهم وكان يقول لو صبح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صبح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين ولكني متردد في أمرهم ».

حقا إن هؤلاء اليهود الذين أسلموا تحت طائلة الموت ، استمروا في صميم قلوبهم أوفياء لعقيدة أسلافهم ، وسوف يعودون علانية لمزاولة عباداتهم ، بعدما انتهى الاضطهاد الموحدي ،

أما النصرانية البربرية ، ققد كانت هي الأخري ضحية لنفس التعصب ، لكنها كانت ممثلة بمجموعات أقل كثافة ، ولم يتبن حتى وقت المحن ، لقد اختفت مع الموحدين الجماعات المسيحية التي شاهدناها متميزة عشهة الغزو الهلالى ، خصوصا في المدن التي أسسها الإسلام . أما أسقف قرطام الذي ظهر أثناء عقد الصلح سنة ١١٩٧ م (٥٨٨ هـ) لم يكن إلا صاحب جاه ، دو صفة شرفية ، وليس له أي سلطة ، كما تخيله ماس لاتري Mas Latrée (٢٦).

لا يزال يوجد والحق يقال مسيحيون في بلاد البربر ، ولكنهم ليسوا من أبناء الوطن ، ولكنهم أجانب ، ومسموح بوجودهم ، نظرا الى المنافع التي تأتى من وراحهم ، ولو افترضنا أنهم طردوا من البلاد أثر غزو عبد المؤمن إفريقية ،

Mas Latrie, Traités de paix et de commerce, Paris, 1865, I. In- (YN) troduction historique, p. 69.

إلا أنه خلال عصر عبد المؤمن نفسه ، وعهد يوسف ويعقوب ، أصبح مجئ تجار جنوة وبيزة مقبولاً . ومع ذلك يبدو أن العلاقات بين أوربا وبلاد البربر أصبحت أصعب عما كانت عليه خلال فترة حكم صنهاجة وبني خراسان . ففي سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) تضاعفت احتجاجات جمهورية بيزة ، ضد المضايقات التي كان يلاقيها مواطنوها ، من قبل المرظفين المرحدين في بجاية . وفي سنة ١١٨٦ م (٥٨٧ هـ) كان حق التجارة المنوح لرعايا بيزة مقصورا على أربع موائى إفريقية . ويبدو أن الملهب الموحدي يتنافي مع التسامع الديني . أما الموقف المضاد للخليفة المأمون ، فلد قيمة التجربة المحوسة ، لأن هذا الأمير كان أندلسها أكثر مند مقربيا ، وعندما أنكر علانية مذهب المهدى ، أظهر تعاطفه للمسيحية ، واستدعى المرتزقة المسيحيين اللين طردهم أسلاقه من المقرب ، وتعهد بعدم اجبارهم على الإسلام ، كما ترك لرعاياه حرية اعتناق دين المسيح . أما خلقاؤه فلم يستطيعوا الاستغناء عن الحرس الكفار والجند المسيحيين رغم أنهم استأنفوا علاقتهم مع التراث الموحدى ، وسوف يتبادلون بهذه المناسبة المراسلات مع البابوات . يا للغرق بين الرسالة التي كتبها جريجوار السابع للناصر سلطان بني حماد في بجاية (٢٧) ، والرسالة المرجهة من المرتضى آخر خليفة موحدي الى البابا اينوسنت الرابع . فالرسالة الأولى كلها ود وتسامح وتوحى بالرغبة للتفاهم المشترك للدينين . أما الرسالة الثانية فكانت تؤكد من بدايتها على التعارض المتشدد للإسلام تجاه عقيدة الثالوث المقدس ، ثم تصبح يعد ذلك مهينة وجارحة لو سلمنا أن الله ﴿ الْغَفُورِ فُولَ الآراء التي يجهر بها المعتقدون في الثالوث والوثنيون والملحدون» (٢٨). لقد

Mas Latrie, op. cit., pp. 22-23. (YY)

E. Tisserant et G. Wiet, Une lettre de l'Almohade Murtada au (YA) Pape Innocent IV, dans Hespéris, 1926, p. 34.

حدث فعلا انقلاب بين تحرير الرسالتين لأن الأميران المسلمان ينتميان الى عالمين مختلفين ، وألمالم الثانى حل محل العالم الأول ، وأراد إلغاء ذكراه المخجلة.

كان البابا جريجوار السابع صديقا لسلطان بنى حماد ، ركانت مدينة بجاية عاصمة لهم ، قاعتبرها ابن تومرت مدينة للصلال ، رأى قيها الرجال يلبسون ملابس تعطيهم مظهر النساء ، وعماماتهم كانت من الأناقة لدرجة أنها تذكرنا بالوثنية ، وينتعلون النعال ذات السيور المذهبة (٢٩) . بدا هذا البذخ لهذا الزاهد البربرى ، على أنه قمة الفساد ، قطاف بالمدينة وكسر ألات الملاهى وأوانى الخمر . ولم يكن الخلفاء بعيدين عن هذا التشدد ، قفى سنة ١١٨٥ م (٨١٥ هـ) اضطرب يعقوب المنصور من حب سكان أشهيلية للنهيذ ، قامر بإغلاق الحوانيت التى تبيعه ، وأمر بماقبة من يفاجاً وكان به رائحة النهيذ .

ومن بين التغيرات التى نتجت عن انتصار المذهب الموحدى ، العلاقات الاجتماعية بين النساء والرجال ، لقد أشرنا الى الدور الذى كانت تقوم به أميرات صنهاجة عشية الغزو الهلالى ، ورأينا الأمير الزبرى المعز يسمح لرجال بلاطه بزيارة عمته المريضة (٣٠) ولاحظنا أيضا المكانة التى كان يتبوأها النساء فى مجتمع المرابطين . أما تاريخ الموحدين فلا يقدم لنا شيئا من هذا القبيل ، ونحن نجهل كل شئ عن نسائهم ويناتهم ، وما عدا السهو والخطأ فهناك حالة واحدة يقدمها لنا صاحب القرطاس عن زوجة الخليفة المأمون وهي أم ولد رومية (مسيحية) تدعى حباب ويقول عنها « كانت من دهاة النساء

⁽۲۹) البيذق : أخبار المهدى بن ترمرت ص ٣٦ .

⁽٣٠) البيلق: أخبار المهدى بن ترمرت ص ٣٧ ، ٤٦ . ١٨ .

وعقلاتهن » (٣١) وتعتبر هــله من الحالات الشــاذة المتميزة . نعجب الافتقارنا الى صور نسائية فى أروقة ملوك بتى عبد المؤمن ٢ ألم نرى ابن تومرت فى بجاية وهو يلقى بلعناته على الجماهير ، حيث الرجال والنساء مجتمعون ٢ (٣٢) لقد جعل المذهب الموحدى سجن الحريم فى أسبانيا ، وفى بلاد البرير ، أكثر شيوعا وأكثر صرامة .

لم يقل الفن عن العادات ، في إعطائنا دليلا عن ظهور أخلاليسات صارمة ، ودين مناهض ، وبدون بسمة .

إن المنشآت المعمارية التى تركها لنا عهد الموحدين ، ليست إلا مساجد وأعمال حربية ، ولا نعرف شيئا عن قصورهم . ولكن يبدر من المحتمل أنها كانت تختلف بصورة محسوسة ، عن منشآت الأمويين والفاطميين ، وأي تمثيل لكائنات حية على وجد الخصوص كان محنوعا . ونحن نعرف أن هله المسور كانت لأسباب عديدة مريبة للمسلمين المتشددين . ومع ذلك فمعظم الأسرات الحاكمة ، تقبلتها في تزيين مساكنها ، والأدوات التي تستخدمها . كما نجدها في دمشق وبقداد ، وفي القاهرة وقرطبة ، وفي مديئة الزهراء والقيروان . لقد عرفت أندلس الخلفاء رواجا لصناديق العاج المزيئة بصور والتراض الصيد والحفلات الدنيوية . وترك لنا القرن العاشر والحادي عشر دنان من الرخام بها نقش بارز لأشكال إنسانية وحيوانية . والخزف المزخرف بالشخصيات ليس نادرا . إن كل ما اكتشف حتى الآن من قطع لا يمكن أن نخص يد عهد المرحدين . لقد اختفت الزخرفة من خيال الفنان الموحدي .

وعلى كل فهذا لا يدل على انحطاط الفن المعماري ، إن القليل الذي

⁽٣١) أبن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٥٤ .

⁽۳۲) البيلق : أخيار المهدى بن تومرت ص ٣٦ .

يتبقى لنا من المسجد في تينملل ، والمثلنة ومصلى الكتيبية ، وباب أجنار في مراكش ، وأبواب المدينة وبرج حسان بالرباط ، كل ذلك لا يقل في عظمته عن أحسن المنشآت في مصر وبلاد فارس ، ويشرف بدون منازع عبقرية الإسلام المعماريــة (٣٣) . ويهدو لنا فن الموحدين ، أكثر وحدة من فن الأمويين ، وأقل كثافة من فن المرابطين ، كما أنه يقرض علينا الإعجاب بتوازنه وجماله القوى ، حيث نجد فيه انعكاس زهد المهدى وفي نفس الوقت الرجولة البربرية ، لقد عرفت البلاد أشرف فنها التشكيلي بفضل حكام القرن الثاني عشر . ويتجارب النضح التام للنن المغربي مع عظمة القوى الحربية للمغرب ، ولا يمكن تجاهل العلاقات الموجودة بين اتسساع عملكة بني عبد المؤمن ، والخصائص الجديدة التي تبينها الماني المعاصرة لهم . إن الإحساس بالعظمة اللي نادرا ما تشعر به أمام المنشآت الإسلامية ، والذي يتجلى في المسجد ويرج جسان اللذين لم ينتهي بنائهما ، ألم يعبر هذا الإحساس عن قوة الامبراطورية وعظمتها بل وعن عظمة ملوكها ٢ وبطريقة أكثر إيضاحا : إن انتشسار الغزوات التي حققها عبد المؤمن والمنصور ، عبر عنها تطور في الطراز ، فالانتصار الحربي الذي جعل المفاربة حكاما لإفريقية ، وضع أمام أعينهم المهاني الغاطمية والصنهاجية ذات الإلهام المشرقي . ومع تردهم على البزخ الفنيوى للبلاد المنضمة ، قام المعماريون والمزخرفون الإسبانيو _ مغاربة بالحصول على تعاليم ودروس . حمّا إنه لم يكن وحيا كاملا . سوف نجد ني النن الأندلسي للقرن الماشر أكثر من علامة لأثر القيروان والقاهرة . ومع ذلك يتضاعف هذا الاقتباس في عهد الموحدين ، فمثلا شكل حديد أو رسم سعفة

Voir H. Basset et H. Terrasse, Sanctuaires et forteresses almo- (TT) hades (Collection Hespéris), Paris, 1932; H. Terrasse, L'Art hispano-mauresque des origines au XIIIe siècle, pp. 249 ss.

تهنتها مراكش ، إنها مستوحاة من قاذج في إفريقية . وبذلك تكون نوع من التوفيقية (الألفة) يشرحها ظهور سلطة واحدة لكل المغرب الإسلامي (٣٤) .

وعلى كل قنقل التعبيرات الفنية من المشرق للمقرب ، له تهار معاكس في الاتجاه المضاد ، وسوف تهقى نتائجه بعد زوال الإمهراطورية المرحدية ، والدول البربرية التي تقاسمت بقاياها وخصوصا مملكة تونس ، سوف يحتفظون بأثر هذه الامهراطورية حتى القرن السادس عشر ، وحتى بعد ذلك . ففي تونس أيام احتلال الأتراك لها ، كانت هتاك أكثر من تنظيمات حكومية ، وأكثر من عادة حضرية ، ترجع إلى الأمراء الحفصيين الذين يعتبرون الخلفاء الماشرين للمرحدين ، فقد أيقظوا الهلاد ذات الثقافة العربقة من سهاتها ، وجددوا إطار حياتها ، بتشييد مبانى عائلة للمنشآت التي تفخر بها المغرب وأسبانيا .

ربعد رواج الطراز المغربي والأنداسي نتيجة هامة لسيطرة الجركة الموحدية ، ذات الأصل البربري الريقي ، التي حركها ابن ترمرت وجعلها تتجاوز أعظم مراحل الثقافة الإسبانية المغربية ، وحقق لها الازدهار الواسع والمدوى . لقد قدر لهذا الوقت أن شاهد قمة الفكر الإسلامي بدون أن يكون لهم شأن كهير في ذلك ، وإثراء الميراث الفكري لشعوب لم يحرصوا أبدا على جعلها تستقيد منه . لا نستطيع إغفال أن أوربا المسيحية ، ستكون مدينة بأغلى ميراث ، للعلماء الناجحين عند المرحدين ، ربا رغم أنقهم ، إذ سوف بأخذ الغرب في العصور الوسطى وعصر النهضة ، كنوز العلوم والفلسفة بإخريقية من كتب الأطباء الثلاثة ندماء الخليفة يوسف ، إنهم ابن طفيل وابن زهير وابن رشد .

G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 424-425.

الباب الثالث

ميراث الموحدين وانحطاط المفرب

مقلمة

فى كتاب « المقدمة » يشهه ابن خلدون الامبراطوريات بأنظمة حية ، ويحدد فترة بقاءها فى المتوسط ، بمائة وعشرين عاما ، تتناوب خلالها ثلاثة أجيال ، وكل جيل يستمر لمئة أربعين عاما ، وقر هذه الامبراطوريات بالمراحل الثلاثة لحياة الإنسان وهى الشباب والنضرج والكهولة . (١) وبعد تهاية المائة والعشرين عام الحتمية ، قد تستطيع الامبراطورية البقاء بذاتها ولكن صمودها يظل ضعيفا ، وسوف يتهار بمجرد ما يصوب إليها خصم شجاع ضرباته الشابة ، ثم يحتل مكانها ويفتتح مرحلة جديدة نهايتها الطبيعية تأتى بعد مائة وعشرين عام كذلك .

وهذا الهيان المتشائم ليس من نسج الخيال ، فالأسهاب التي يهرزها المؤرخ الفيلسوف ، عن عظمة وانحطاط الامهراطوريات ، اقتبسها من دراسة الدول الإسلامية ، التي يعرفها أكثر من أى شئ آخر . كما أن القوانين الاجتماعية التي يضعها ، تصلح لمعظم هذه الدول بصفة عامه ، ولكن تراودنا الرغبة في الاعتقاد ، أن تاريخ الموحدين على الأخس هو الذي أوحى إليه بوضع هذه القوانين .

⁽١) ابن خلدون : المقدمة ، الطبعة التجارية بالقاهرة ، ص ١٧٠ . ١٧١ .

فى سنة ١٧٤٤ م (١٤٢ ه.) كان عمر الامبراطورية التى أسسها ابن تومرت مائة وعشرين عام ، والذلك بدأ صمودها يضعف . فأعلن أبو زكريا المغصى ـ حاكم إفريقية ـ استقلاله ، واعترف بسيادته كل من أمراء الأندلس المسلمون ، وسكان سبتة وطنجة . وعندما رفض أمير تلمسان المتمود على طاعة الموحدين ، هاجمه أبو زكريا وفرض عليه الخضوع الذى طلبه . وفى المغرب الأقصى شرع المرينيون الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من سهوله فى مهاجمة المدن ، فسقطت مكناس سنة ١٢٤٤ م (١٤٢ ه.) . ورغم أن امبراطورية الموحدين كانت تحتضر ، إلا أنها استمرت خمسة وعشرين عام وانتهت فى سنة ١٢٦٩ م (١٦٨ ه.) بسقوط مراكش . ومع ذلك فقبل هذا الحدث الأخير تخلص شمال إفريقية من حكام القرن الثاني عشر وتقاسمت ميراثهم ثلاث عائلك .

المالك البربرية الثلاث

لقد رأى القرن التاسع (٣ه) شمال إفريقيا عثلا في ثلاث عائله : علكة الأغالبة في القيروان ، والمملكة الرستمية في تاهرت ، وعلكة الأدارسة في فاس . لم تكن حدود هله الممالك متجاورة ولكن كان بينها مناطق فوضوية لتجمعات مستقلة الى حد مسا ، حدود مطاطة ، مناطق نفوة موضع جدال دائم . ولقد شاهد القرن الثالث عشر (٧ه) تقسيما عائلا بقيت ملامحه حتى يومنا هذا مع شئ من التغيير ، فخلال فترة أربعمائة عام وضع التاريخ أمامنا لوحتين ثلاثيتين من المفيد مقارنة كل منها . وترضيح الفوارق التي أبرزتها التطورات التي تكلمنا عنه ،

إن الشئ الذى لفت إنتباهنا فى القرن التاسع ، والذى قرض على المالك . فالأغالبة الثلاث دورا رئيسيا فى بلاد البربر ، هو أصل حكام هذه المالك . فالأغالبة والأدارسة كانوا عربا ، ونتج عن استقرارهم فى البلاد وصول كثير من المهاجرين من المشرق خلقوا حولهم حياة مشرقية . أما حكام القرن الثالث عشر ، فهم من البرابرة وينتمون الى قبيلتين كبيرتين ، وقد قام ابن خلدون وعلماء الأنساب الغربيون ، بتوزيع السكان الأصليين بينهما . فالحفصيون حكام إفريقية ما ينتمون لقبائل مصمودة ويعدون من البرائس ، والمريئيون وبنو عبد الواد الذين يتقاسمون بقية المغرب ، ينتمون لتباذل زناتة الذين يقال عنهم « البرابرة البتر » . ونحن نعرف مصمودة وزناته لتباذل زناتة الذين يقال عنهم « البرابرة البتر » . ونحن نعرف مصمودة وزناته المندمات التي قدمها الحفصيون للمرحدين ورأينا ولاحهم وبسالتهم . كانوا دائمنا مشتركين في القتال وخصوصا في الأندلس ، حيث أقاموا طويلا وكذلك في مقاطعة إفريقية التي أنقلوها من بني غانية ، وحافظوا عليها للخلفاء . ولكن انكار المأمون لعقائد المهدى برر انفصالهم ، كما أدى انهيار بني عبد المؤمن الي جعلهم حكاما مستقلين ، والخلفاء الشرعيين للخلافة الراحلة () .

R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides عن الملميين (۲) des origines à la fin du XVe siècle,

أهم المراجع ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الزركشى : تاريخ الدولتين الموجديه والحقصيه ، القيروائى (ابن أبى دينار) : المؤنس ، التجانى : الرحلة ، ابن القنقد : الفارسية. في ميادئ الدولة الحقصية ،

R. Brunschvig, Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle,

[،] عهد الباسط بن خليل ؛ اتفاقيات تجارة وسلام .

أما قبيلة زناتة التي ينتمى إليها المرينيون وبني عبد الواد ، فظهورهم ودورهم الذى قاموا به فى نهاية العصور الوسطى ، جاء نتيجة للغزر الهلالى . إنهم يمثلون هذا العنصر البدوى البربرى ، الذى اضطره انتشار البدو العرب الى الهجرة نحو الغرب . كما أنهم عاشوا لأكثر من قرن فى الصحراء بين الزاب وتافيلالت ، جنها الى جنب ، ورغم القرابة التي جمعت العشيرتين فى زناته ، إلا أنهما كانتا متنازعتين دائما ، وقد أتاحت الظروف لبنى عبد الواد ، (٣) الزحف نحو الشمال والحصول على حق الانتفاع بريف مقاطعة وهران الحالية ، وعندما غزا الموحدون البلاد اعترفوا لهم بهذا الامتياز ، فأصبحت تلمسان مقرا للزعيم « عبد الواد » ، ومع سقوط الخلافة أصبح بنو عبد الواد حكاما للمتاطعة والمدينة .

أما ظهور المرينيين (٤) فقد كان أكثر صراعاً ، إذ بدأوا هجومهم ضد

الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الراد : انظر ، ابن خلدون ؛ العبر ، أبو زكريا يحيى بن خلدون ؛ بنيه الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الراد ، التنسى: تاريخ بني زيان ، ملوك تلسان، Bargés, Complément á l'histoire des Beni Zeyan, rois de Tlemcen; Bargés, Tlemcen, capitale du royaume de ce nom; Brosselard, Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des Emirs Beni Zeyan; W. et G. Marçais, Les monuments arabes de Tlemcen; G. Marçais. Le Makhzen des Beni Abd el-Wad, rois de Tlemcen.

⁽٤) عن المرينيين ، أنظر ، ابن خلدون ؛ العبر ، ابن أبى زرع ؛ الأنيس المطرب بروض الترطاس ، ابن الأحبر ؛ روض النسرين فى دولة بئى مرين ، ابن مرزوق ؛ المستد الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن ، العمرى ؛ مسالك الابصار فى عالك الأمصاد ،

A. Cour, Les derniers Merinides; A. Cour, Les dynastie marocaine des Beni Wattas; A. Bel, Inscriptions arabes de Fés; G. Marçais, art. Merinides dans l'Encyclopédie de L'Islam.

الحدود الجزائرية المغربية ، في منتصف القرن الثالث عشر (٦ه) وقد هزموا ، فانتظروا أكثر من خمسين عام للقيام بمحاولة جديدة ، إذ بينما كانوا يتنقلون في وادي ملوية علموا أن أهم قوات الموحدين مشتبكة في أسبانيا ، وأن المقاومة في البلاد ضعيفة ، فوجهوا ضربة قوية نحو الشمال كللت بالنجاح ، كانت هذه أول مراحل غزو المغرب الأقصى الذي دام خمسة وثلاثون عام ، ورغم ما تخلل هذا الغزو من ترقف وهزائم وانتصارات ، إلا أنهم تمكنوا من ضم السهول التي دافعت عنها بسدون جدوى القبائسل العربيسة المهاجرة ، كسا استطاعوا الاستيلاء على مكناس وفاس وتازة والرباط وسلا ، وفي سنة استطاعوا الاستيلاء على مكناس وفاس وتازة والرباط وسلا ، وفي سنة

ها هم الحكام الجدد للأجزاء الثلاثة لشمال إفريقيا ، ولا داعى للخوض فى التفاصيل المتشعبة والغير هامة لتاريخهم ، وسرف نشير فقط الى المواضيع المهمة التي ساعدتا التاريخ على ابرازها ، وطبقا لمقصودنا فسوف نحدد التباين العميق الذي يقدمه تاريخ هذه الدول ، مع تاريخ كالك القرن التاسع .

ومن بين هذه الغرارق هناك فارق يغرض نفسه على المؤرخ ، لقد تعرضنا لمياة كل من الممالك الثلاث في القرن التاسع على حده دون التعرض للمملكتين الأخريتين ، ولكن يهدو اسلوب هذا العرض يصعب تطهيقه على الثلاث عالك التي نتكلم عنها الآن ، فالذي يمقد مهمة المؤرخ هو ترابط هذه الأسرات البربرية ، والمصالح أو الأمال التي تربط بمضهم البعض وتتعارض أحيانا ، والمنازعات التي تنشأ دوريا بينهما .

مند الصفحات الأولى لهذا التاريخ يوجد نزاع قديم بين يغمراسن مؤسس أسرة عبد الواد وبين ابن عمد بني مرين ، والمنافسة بين تلمسان وجيراتها صراع موروث من ماضى يعيد ، صراع كان سببه سرقة جمال أو احتلال بئر . ولن يتهى هذا الصراع بين مملكتى زناتة إلا بانتهائهم . لقد كان استقلال تلمسان

على وشك الانهيار لأكثر من عشرين مرة . وسوف يحدث عمليا من سنة ١٢٩٩ م (١٠٩٨ م (١٢٩٩ ميث يعاصرها الجيش المغربي ويعزلها ويشل حركتها ، واحتلت تلمسان قعلا من سنة ١٣٣٧ م (١٣٧٨هـ) حتى سنة ١٣٤٨ م (١٤٧هـ) من خلفاء قاس بعد طرد حكامها من بني عبد الواد . إن حياة تلمسان كانت غير مستقرة حتى قبل حصارها ، واحتلال المفاربة لها ، لأن مقاطعة بني عبد الواد كانت أهم موقع لانتشار واحتلال المرينيه في بلاد البربر . كانت الرغبة في الانتشار بالنسبة للمرينين تراث قديم طوال تاريخهم .

نشأت الممالك الثلاث بقضل انهيار الموحدين ، وادعت كل من مملكتى الحفصيين والمرينيين بأحقيتهما لوراثة الموحدين ، في هذا الغرب الإسلامي ، الذي كان يحكمه الموحدون بدون منازع . ادعى بنر حفص أنهم الورثة الروحيون لهذا الميسراث ، ولهم الحق في ذلك ، ألم يكن سلفهم أبو حفص صديقا ولحجيا المهدى ، والحارث الأمين لتراثه ، والسند المخلص لعبد المؤمن اليس الحفصيون أسرة نبيلة كأسرة عبد المؤمن الواذا كان أبو زكريا مؤسس الأسرة مد قد منح نفسه لقب أمير المؤمنين ، فقد أضاف ابنه من بعده كناية الخليفة المستنصر ، وحصل على تقدير شريف مكه ، وهي أكبر سلطة دينية في الإسلام (٥) ، وبعد عام ونصف بارك حاكم مصر هذا اللقب ، ولكنه لقب زائل ولم يبق المستنصر زعيما روحيا مقبولا من المشرق ، إلا لعدة سنوات ، لأن مصر لم تلبث أن فرضت حمايتها على المدن المقدسة بالجزيرة العربية . أما بالنسبة للمغرب فقد أبدت للأسرة الحفصية احتراما أكثر دواما ، فمنذ حكم أبي زكريا الذي تحرر من مراكش، فرض سلطانه على ملك تلمسان ، واعترفت

R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous ٤٠٢: ١ المبر ١: المبر ١: (٥) المن خلدون : المبر ١: المبر ١:

وطنجه وأخيرا المرينيون . وسيحصل المستنصر بعد ذلك على ولاء العاهل الزنجى لكانم وبرنو ، وقد جاء نواب من هذه البلاد البعيدة ، ودخلوا تونس محملين بالهدايا ومنها ظرافة كانت محل الإعجاب الشعبى . *

كما أن أحداً لم يستطيع أحد مزاحمة بنى حفص فى نفرذهم الروحى ، كذلك لم يستطيع أحد المجادلة فى أن السيطرة التي كانت للمرحدين فى بلاد البرير ، قد انتقلت الى بني مرين فى قاس ، فبعد أن احتل بنو مرين محتلكات المرحدين ، وغزوا عواصمهم ، ومهد قرتهم ، تطلعوا لإعادة ملحمة عبد المؤمن ويعقوب المنصور المجيدة ، ولكن بإمكسانيات محدودة وبالتالى كان نجاحهم أقل . إذ ذهبوا للجهاد فى أسهانيا ، تلبية لنداء المسلمين اللين كانوا عرضة لابتزاز ملك قشتالة (لقد طلب المسلمون من قبل النجدة من المرحدين) ، ولقد حارب إثنان من الأمراء شخصيا هناك ، ولكن سرعان ما أصبحت الأندلس ، المنفى لاقراد العائلة الحاكمة المشكوك فى ولاتها أو المشاغبة كما كانت أرض الاستشهاد للمتطوعين فى سبيل العقيدة (٢١) . مثلما كانت صقلية ميدان جهاد ومنفى إجهارى للمشاغبين أيام أمراء الأغالبة ، أما بخصوص الحملات المنتظمة ، فقد كانت هزية أبى الحسن فى سنة ١٣٤٠ م بخصوص الحملات المسيحيون على الجزيرة المنصراء نهاية المربيين .

إن تاريخ المرينيين صورة مصغرة لملحمة المرحدين ، حيثما اكتسحوا شمال إفريقيا ، فلم تكن تلمسان إلا مرحلة أولى للطريق الى تونس ، وضم علكة عبد الواد ، ما هي إلا الطريق الى ضم عملكة بني حفص أي انتشار السيطرة على كل شمال إفريقنيا . وقد تحقق ذلك في سنة ١٣٤٧ م (٧٤٨ هـ) بواسطة أبي الحسن المريني ولكن لم يستمر هلا الاحتلال إلا عام واحد ، ولا يمكن

⁽٦) ابن خلدون : العبر ٧ : ٢٥٢ .. ٣٥٠ .

لأحد انكار تفوق ملوك قاس رغم هذا السقوط ، إن هذا التفوق لشئ واقعى وقد ثبت ذلك خارج حدود المغرب الأقصى . ولمعاصر مشرقى مثل « العمرى » كانت الممالك الثلاث في بلاد البربر تعتبر تحت سيطرة بنى مربن ، " وحيث يقال اليوم صاحب الغرب ، فهو المراد (أبو الحسن المربني)" (٧) ،

هذا التقوق الذي يرتكز على قوة حربية عظيمة ، جمل كل من حكام بلاه البربر وأسهانيا يخشون المرينيين ويعاملونهم بمناراة .

قفى الأندلس ، بعد أن طلب ملك غرناطة مساعدة المرينيين ضد ملك قشتالة ، أحس أنه وقع ضحية طمع المنقذين ، قلجاً الى ملك قشتالة لحمايته . وإتفق الملكان ـ المسلم والمسيحى ـ مع ملك تلمسان المناقس التقليدي لجاره المريني ، ومقابل مناقع قيمة ، لحجز المرينيين العدو المشترك على أرض إقريقية ، ومنعهم من الرحيل للجهاد المقدس بالأندلس (٨) .

وكما كان يخشاه حكام أسبانيا ، المسلمين والمسيحيين في الطرف الآخر من المضيق ، كان يخشاه كذلك حكام بلاد المغرب ، إن أسباب الخلاف بين تلمسان وتونس كثيرة ، وأهمها بجاية ، فقد كان بنو عبد الواد غير قادرين على التوسع نحو الفرب ، بسبب قرة بنى مرين الحربية ، لذلك أرادوا التوسع تجاه الشرق وضم بجاية ، وانتزاع المدينة الغنية من بنى حفص ، فقام هؤلاء بطلب المساعدة من السلطان المريني لحماية المدينة ، لما بينهما من معاهدة ولاء ونسب ، تجعله يتضامن مع بنى حفص . كما أنه كان متعجلا لمحاربة أعداؤه ملوك تلمسان من جهة ، والتدخل في شئون تونس من جهه ثانيه . فحاصر

 ⁽٧) العمري : مسالك الايصار في عالك الأمصار ، من الياب الثامن إلى الياب الرابع عشر ،
 العقيق وتعليق مصطفى أبو شيف أحمد ، الناز البيضاء ١٩٨٨م ص ١٩٣٠ .

⁽٨) ابن خلدون : المير ٧ : ١١٩ - ١٢٠ ،

تلمسان واستولى عليها ، كانت المهمة موفقة مما يتعارض مع أمانى حاكم تونس . إذ يروى العمرى : « وحدثنى من له اطلاع على ما حدثنى به قال : وكان صاحب إفريقيسة مع انقياده الى المرينى ــ وعداوته لسلطان بنى عبد الواد ــ وقيام المرينى على عدوه فى هواه ، لا يؤثر فى الباطن أن المرينى يظفر بصاحب تلمسان عدوه ليكون له به شغل عن قصده ، وانتزاع إفريقية منه لعلمه أن تلمسان حجاب بينهما وإنه لا طاقة له بالمرينى ، ولا قبل له به ، ويعق له الخوف فإنه فى قبضته متى أواد ع (٩)

وهكذا نرى أن تضارب المصالح والتحالف بين الدول المغربية ، ينعكس على تاريخهم الداخلي ، ويجعل ترازنهم غير مستقر ، وبالتالى يجعلنا بعيدين كل النعد عن ممالك القرن الناسع ، على الأقل ظاهريا ، وخاصة بسبب وفرة المعلومات التى حصلنا عليها . لقد عرف أدارسة قاس ، وكذلك بنو مرين ، ومن عاصرهم من الأسرات الحاكمة ، المناقسين على الحكم ، والكارثة الوراثية عنصر يجعل هذه الأزمات تتفاقم ريساعد على ازديادها ، أما العرب المهاجرون ، الذين غيروا جميع ظروف الحياة ببلاد البرير ، قهو عنصر جديد لم يعرفه القرن الناسم .(١٠)

⁽A) المعرى : مسالك الإيصار في عالك الامصار ، من الياب الثامن الى الياب الرابع عشر ، ص ١٢٧ .

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, Paris-Constantine, 1913, (1.) p. 716 et passim.

دورالعرب

منذ وصول القبائل الهلالية الأولى عن طريق طرابلس ، رأت إفريقيا الشمالية خيامهم السمراء مرفوعة ، ودوابهم متتشرة في جميع أجزاها ، ما عدا الجبال وبعض السهول الساحلية . ولقد انتشر عرب بني هلال وبني سليم أو معقل حتى سواحل البحر الأطلسي باحتلال الأراضي بالقوة ، بعد دحر أو استعباد سكانها ، وبالتسلل من الشرق للغرب ، عبر الأراضي الشاغرة على الجوانب السحراوية ، وبالانتقال الاتفاقي لجماعتهم لخدمة الحكام البربر .

سواء عانى حكام البلاد من تعديهم ، أو تمنوا حضورهم ، فقد كان يجب على الجميع مراعاة وجودهم . كما كان على الجميع قبول ما نسميه « سياسة عربية » ، ولقد كان هذا منذ اليوم الأول كما رأينا ، فالمعز الزيرى الذي وأجه الصدمة الأولي لهذا الغزو ، منح ثقته لبنى رياح ، لأنه كان يأمل فى الحصول على معاونتهم المفيدة . وكان على كل أسرة حاكمة أن تختار عشيرة بدوية ، لتقوم معها بدور محائل لدور قبيلة « المخزن » فى المغرب القديم ، وهى قبيلة كانت تساعد الأسرة الحاكمة مقابل مزايا تمنح لها .

كانت الخدمات التى تطلب من العرب ، محصورة فيما يمكن أن تقدمه قوة مقاتلة ، مرابطة فى البلاد ومستنفرة للسخرة ، ورئيسها كان مستعدا لتجنيد الفرسان . كان فى وقت السلم مكلفا بجباية الضرائب ، أو مسائدة الأمير ، أو الموظف المكلف بالجباية ، وفى وقت الحرب يقدم القرات التى تضاف الى قوات السلطان ، والمشكلة من القبائل الخاصة ، والمرتزقة المسيحيين ، أو الأتراك ، والمعروف أن الموحدين نقلوا عرب إفريقية الى المغرب ،

لاستخدامهم في الجهاد المقدس ، ولقد ظهروا حقا في المكان المناسب ، ضمن التوات التي عبرت المضيق ، وبعضهم كانوا يعملون في الحراسة . وفي سنة ١٩٧٤ م (١٩٧١ هـ) كان عدد فرسانهم في حصون الأندلس خمسة آلاف عدا المشاة . وفي يلاد البرير ، كانوا يشاركون في جميع المنازعات الهامة ، لأن كل خصم كان يستعين بقوات من جنسه . كانت الخصومة بين الأمراء تنطلق عادة بسبب خلاف قديم بين القبائل . ومع ذلك فاستخدامهم كان بغاضما لبعض الظروف الزمنية والتاريخية . كعادة القبائل ، تقوم القبيلة بأكملها برافقة رجالها المعاريين ، لذلك يكون الرجال غير مستعدين لترك أرضهم . أو الابتعاد عن حدودها . وعا أنهم علكون النخيل في الواحات ، وجمالهم في حاجة للعودة الى الصحراء كل خريف ، فإنهم عمليا لا يستخدمون في المناطق حاجة للعودة الى الصحراء كل خريف ، فإنهم عمليا لا يستخدمون في المناطق ليوس على تونس في سنة ١٧٠٠ م/ ١٦٨ هـ) كان اقتراب موعد رحيل القوات العربية من الأسباب التي دفعت الخليفة الحفصي المستنصر ، الى عقد الصلح مع الأمراء المسيحيين .

ورغم أن هذه الخدمات التي يقدمها العرب محدودة ومؤقتة ، إلا أنها باهظة التكاليف ، فجزء كبير من الضرائب المحصلة تبقى في أيدى الجباء العرب ، كما أن الاستعداد للقتال يرافقه عادة توزيع الأموال والمؤن والعتاد عليهم ، ولا ينسى الأمير رؤساء القبائل عند توزيع الهسات على مدار العام بمناسبة بعض الأعيساد . بالإضافة الى أجر جوهرى وهر يعسألف من والاقطاع» ، (١١) إن هذه الكلمة غير محدد طبيعتها وتشمل أشياءا كثيرة متنوعة ، إن الإقطاع هو عبارة عن جزء من محتلكات العرش ، يسمع الأمير لأحد رعاياه أو لمجموعة من الرعايا بالاستفادة به . وتكور أحيانا منع امتياز

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 245.

أرض ، اغتصبتها القبيلة ، ولا يقدر الأمير على استردادها . أو منح الضرائب المحصلة من القروبين أو الحضر لمنطقة ما أو مدينة ، وقد يصبح الاقطاع وراثى ، ولكنه يتطلب الولاء للعاهل الذي وهيه ولخليفته ، كما يجب على الورثة المستفيدين منه تجديده كلما اقتضى الأمر . فهذا الولاء ، ومن الاقطاع ، الذي يعطى زعيم القبيلة الوسيلة لتسليح رجاله في حالة المرب ، يجعل هذا التنظيم الإسلامي القديم يتناسب مع ﴿ نَظْمَنَا الْأَمْطَاعِيدٌ ﴾ . وملخص القول هو أن الإقطاع يشابه منح حق استغلال ولاية أو مقاطمة ولكن ينقصه شئ هام وهو : إن الخدمات المتبادلة ، يجب أن توفر عند الأمراء العرب تضامنا عاثلا ، للتضامن الذي يربط التابع بالسلطان ، رغم ما اشتهر به زعماء القبائل .. إلا تادرا .. من عدم الثبات على المبدأ ، رعدم الإخلاص . والأمير يعرف ذلك جيدا ، وعنده الوسائل التي يتعامل بها معهم ، وعليه أن يعرف الأطراف المتعارضة ، والمشاكل التي تتمخض بين البدر المقيمين في ملكه ، لكي يشعلها أذا لزم الأمر ، ويتوم بتحريض خصم على آخر متمرد ، إذن سياسة « فرق تسد » كانت في الدول البربرية ، ألف باء السياسة العربية . وزيادة في الحرص كان يحصل الأمير منهم على رهائن : فالقصر الملكي يأري أولاد رؤساء القبائل ضمانا لحسن نوايا آبائهم .

وعلى كل فهذا النوع من كرم الضيافة المفروض ، مألوف في القصور البربرية ، فهناك أمراء من تلمسان يتمتعون في البلاط التونسي باعتقال مشرف ، كما أن هناك أمراء تونسيون يعيشون في مشوار تلمسان (*) في قفص من الذهب . إنهم رهائن ، أو بالأحرى لاجئين يحتمل ترشيحهم لعرش

⁽به) قصر وقلعة أقامها ملوك بني عبد الراد يتلمسان لتكرن مقرا رسميا لإقامتهم فليه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم، أنظر جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية ٢٠٩٠٧.

المملكة المنافسة ، ورعا يقدمون في المستقبل المبرر للتدخل في شئونها . إن القبائل العربية لا تجهل هي الأخرى هذه المؤامرات المدبرة ، ويجد طمرح الأمراء في الأسرة الحاكمة لدى هذه القبائل تشجيعا ومسائدة . وهذا بدون شلى ، شكل من أخطر أشكال الكارثة العربية في العصر الذي نقوم بدراسته . إذا كانت الأزمات الوراثية ، كما قلنا هي مرض فطرى للامبراطورية الإسلامية في بلاد البربر ، قوجود العرب يسهلها ويجعلها تتفاقم ، والمطالب بالعرش الذي يعيش في معسكر البدو ، يجد لديهم المساعدين المستعدين لمسائدة حقوقه ، فهي فرصة طيبة لهم لنهب وايتزاز السكان الأمنين . ولو فرض ولحج المطالب بالعرش ، سوف يعترف بخدماتهم وسيحقق لهم الثروة ، بمنحهم امتيازات الأراضي والضرائب .

بذلك يتدخل العرب فى تقلبات الأسرات البربرية الحاكمة ، ويصعبون لهم مزاوئة الحكم ، إن أهبية دورهم يعتمد بالطبع على عددهم ، ولكنه يعتمد كذلك على قوة أو ضعف المملكة . من هنا ترى اختلاف دور المشكلة العربية ، في الممالك الثلاث في بلاد البربر .

فى المغرب الأقضى يشكل العرب جزءا حثيلا من السكان ، والعاهل المرينى لديه من القوة ما يكفيه للسيطرة عليهم ، تنقلاتهم محدودة ولا ينتشرون فى الصحراء ، زعمائهم مراقبون ويعتمدون على مرتبات الدولة ، التي تمكنت من السيطرة عليهم تقريبا ، ولذلك كانرا مساعدين نافعين للحرمة فاس . أما فى إفريقية ، فوضعهم يختلف تماما وقد لاحظ ذلك أبو الحسن المريني . ففي سنة ١٩٤٨ م (١٩٤٧ هـ) بعد غزو تونس وجلاد بنى حفص عنها ، وجد أبو الحسن نفسه أمام عرب بنى سليم الذين احتلوا الأرض واستقروا بها منذ ثلاثة قرون ، واعتبروا أنفسهم أسيادا لها . فأراد القضاء على مكانتهم ، ومعاملتهم كما يعامل العرب في علكته ، ولكنه اصطدم على مكانتهم ، ومعاملتهم كما يعامل العرب في علكته ، ولكنه اصطدم

بتحالفهم ، وتعثر بأذيال الخيبة . وكانت هزيمة أبى الحسن فى القيروان أول ضربة أصابت سلطان علكة فاس .

إن العرب قرة مهولة فى إفريقية ، ولكنهم يشكلون فى المغرب الأوسط خطرا عينا ، إذ أن الصعاب التي كانت علكة تلمسان تتغلب عليها دوريا ، أعطت لمعض القبائل العربية فرصا ، لتحقيق كثير من التقدم . وقد شاركوا فى استقرار بني عبد الواد ، لكن الهجمات التى عرضت وجود بنى عبد الواد للخطر ، وحرمتهم لفترة من عاصمتهم ، سمحت للقبائل العربية الحليفة لبنى مرين ، بالاستقرار فى وسط الإقليم . وبذلك كان صناع الإصلاح عربا ، ووجب مكافأتهم بسخاء . وقد لاحظ ابن خلدون فى عام ١٩٨٠ م (١٩٨٨ هـ) وتغلب العرب على الضواحى والكثير من الأمصار . وتقلص ظل الدولة عن القاصية ، وارتدادها على عقبها الى مراكزها بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم ، واعطاء اليد فى مفاليتهم ببذل رغائب الأموال ، واقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار » (١٢١)

تبين هذه الشهادة أثر الدور الذى قام به الغزر الهلالى فى النظام السياسي ، ودوره كبكارثة موقوتة ، كما تبين أيضا الوضع المخالف لممالك القرن الزابع عشر ، عن عمالك القرن التاسع ، وتبين عشرون شهادة أخرى خاصة بالجغرافيين ، مدى الحراب الذى نشروه ، والدمار الذى أصابوا به الحياة الاقتصادية ، وزراعة السهول ، والبستنة على مشارف المدن . ورغم ذلك خقد لمبوا دوراً ايجابيا في تطور التجارة ببلاد المغرب الى حد ما . لقد رأينا الخطر الذى ساد فى داخل البلاد منذ وصولهم إليها ، وغلق طرق المشرق الداخليه البرية بما حول نشاط برير صنهاجة نحو البحر . واحترافهم القرصنة على حساب

⁽۱۲) أين خلدون : العبر ٧ : ١٨٦ .

الدول المسيحية ، والتجارة مع نفس هذه الدول ، ثما وقر للمدن الساحلية جزءا كبيرا من مواردها . كانت تونس وبجاية أعشاش للقراصنة ، وقى الوقت نفسه مواني تجارية أمينة ، وساعد وصول اللاجئين الأندلسيين على ازدهار هذه الحياة البحرية . كما تضاعفت وانتظمت العلاقات الاقتصادية بين إفريقية وأوربا المسيحية ، في عهد بني حفص ، وذلك بفضل انشاء قناصل ما وراء البحار (۱۳) . هذه القناصل أنشأها الصليبيون في المشرق ودخلت بلاد البربر في الربع الثاني من القرن الثالث عشر . كانت قنصلية البندقية التي انشئت في الربع الثاني من القرن الثالث عشر . كانت قنصلية البندقية التي هرفناها ، وتأتى من بعدها قنصليات مارسيليا وجنوه وبيزة وصقلية وأراجون ، حتى النرويج عزمت في سئة ۱۲۹۲ م (۱۳۰ هـ) على إرسال وقد لمقابلة المستنصر الحقص لعقد اتفاقيات تجاريه .

وكما كان تطور التجارة البحرية في بلاد البربر الشرقية ، نتيجة غير مباشرة للغزر الهلالي ، كذلك يرجع إليهم الغضل في ظهور حركة الاتصال السهل والمستمر بين بلاد البربر الغربية وواحات إفريقية السوداء ، لأن التنقلات الدورية للبدر الهلالية خلقت إتصالات وسهلت تبادل المواد الغذائية . إنهم يستغلون بدون شك سكان القصور (الواحات) الصحراوية ولكنهم يزودونهم بالقمع الذي ينقلونه من التل (١٤٠) . وفي أسواق الشمال ، يبيعون البلع ، وإنتاج قطيعهم . أما النشاط الاقتصادي الذي شهدناه في القرن التاسع في مدينة تاهرت نتيجة جهود بدو زناتة انتقل في القرن الرابع عشر إلي تلمسان ولكن على نطاق أوسع نتيحة لجهود قوافل البدو الهلاليسة . وتبدر

Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafcides, I, p. 434 . (۱۳) . درسته ۱۸۵۹ من ۱۸۵۹ من ۱۸۵۹ من ۱۸۵۹ من ۱۸۵۹ المیاشی : الرحلة المیاشیة أو ماء المراتد ، العرجمة الفرنسية ۱۸۵۹ من ۱۸۵ من ۱۸ من ۱۸۵ من ۱۸۵ من ۱۸

لنا مدينة تلمسان مدينة غنية ، حيث الحياة السهلة رغم متطلبات حلفائها العرب ، ورغم التهديد الدوري الذي يثقل على كاهل حكامها الذين ينفقون معظم دخلهم . إن تلمسان تقع في تقاطع الطريق المتد من إفريقية شرقا إلى فاس غريا ثم يتجه بعد ذلك نحر المحيط الأطلسي عبر تازة ، والطريق المتد من شاطئ البحر المتوسط شمالا إلى تافيلالت وجورارا والسودان جنويا ، هذا الموقع جعل من تلمسان سوق كبير . كان الطريق شمال _ جنوب دائم الارتياد ، لأن المواد الثمينة لبلاد السودان ، كانت تغذى الأسراق الواقعة عليد ، خصوصا اللهب والمبيد وكذلك المسترعات التي تأتي من أوربا ، عن طريق مواتئ وهران وهنين . ويشير الإدريسي (١٥٠) أنه يكفي يومان من الإبحار · خلوصول من هنين إلى المرية الأسبانية ، التي تصنع الأقمشة الحريرية والخزف . كانت المنسوجات الأوربية تتكلس في القيصرية ، وهي هي النشاط التجاري المغلق بالأسوار ، ويذكرنا بهذا السوق مكيال معياري من الرخام يرجع إلى سنة ١٣٢٨ م (٧٧٨هـ) وسوف يستمر هذا النشاط الإقتصادي حتى القرن السادس عشر . ويقول لنا ليون الأفريقي (١٦) أن تجار تلمسان « يعملون جاهدين بلعل مدينتهم جيدة التموين » ويصفهم لنا كبرجوازيين « مخلصون جدا وشرقاء في معاملتهم التجارية » . وعلى كل فنحن نعرف أن البعض منهم كانت لهم في التجارة نظريات ذات طابع حديث والدليل على ذلك رابطة إخران مكاري الخمس : إثنان منهم يعيشون في تلمسان ، وإثنان آخران أسسا شركة قي ولاته على مسافة ٤٠٠ كيلو متر من تمبوكتو ، أما الخامس فقد استقر في تافيلالت ويقوم بدور الوسيط . كانوا قد مهدوا الطرق ، وحذروا الآبار ،

⁽ ١٥١) الإدريسي : صلة المغرب وأرض السودان والأندلس ص ١٩٧ .

⁽١٦) ليون الاقريقي : وصف اقريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميده ، منشورات جامعة الامام ، الرياض ١٣٩٩ هـ ، ص ٣٩١ .

ونظموا القوافل بين الشركة الرئيسية وفروعها ، وقد استفاد التجار التلمسانيون من ذلك (١٧)

واشتهرت أيضا مدينة قاس عاصمة بنى مرين كعاصمة تجارية ، تقع على الطريق شرق ـ غرب الذى يمر عبر تلمسان - كان لمدينــة قاس سوقها التجارى « القيصرية » حيث تتكلس واردات ما وراء البحار ، وكانت تربطها علاقات تجارية هامة مع غرناطة « آخر عاصمة للإسلام الأسهاني» كما قال Terrasse .

وكما حدث فى القرن التاسع ، أشرقت الحياة فى بلاد البربر فى نهاية العصور الرسطى ، من هذه المدن الثلاث المعروفة بدورها الاقتصادى . ولكن لم تكن تونس أو تلمسان مركزا دينيا ، كما كانت القيروان وتساهرت فى الماضى . لكن مدينة فاس هى التي كانت تستحق هذا الدور ، ونحن نعتقد أنه بجانب النشاط السياسى للمدينة والرغبة فى الاقتراب من مساجد الأدارسة المقدسة ، والانتفاع بسمعتهم الحسنة ، كل ذلك حث بنى مرين على تفضيل الماصمة الإسلامية الأولى (فاس) فى المغرب ، على مراكش ، مركز الامراطوريتين السالفتين .

Ш

الحياة الدينية

لا نستطيع الجزم بأن الدين كان يحتل في بلاد البربر ، مكانة أقل من المكانة ، التي كان يحتلها منذ أربعمائة عسام ، إذ لو رجعنا الى آراء مؤرخيهم ، تراودنا الرغبة في الاعتقاد ، أن الدين كان يسيطر على تصرفات

Bargés, Tlemcen, capitale du royaume de ce nom, p. 208. (14)

ألم المحالم القرطاس (١٨) : أن بنى مرين الأوائل اتخذوا مظهر المرابطين المصلحين ، بل والمظهر الوثنى للقديسين البرابرة الى حد ما . ويقال أن الأمير عبد الحق و كانت له بركة معروفة ، ودعوة مجابة موصوفة ، كانت قلمنسوته وسراويله يتبرك بها فى جميع أحياء زناته ، تحمل الى الحوامل اللواتي صعب عليهن الوضع فيهون الله تعالى عليهن الوضع ويسهل عليهن الولادة ببركته » ويشرح أدق نستطيع أن نقول أن أصلهم البدي وزهدهم الولادة ببركته » ويشرح أدق نستطيع أن نقول أن أصلهم البدي وزهدهم الورع أحيا النموذج الصحراوى المتقشف الذي حققه ابن تاشفين إذ كان عبد الحق ولا يأكل إلا الحلال المحمن من طيب كسبه من لحوم إبله وغنمه وألبانها ، وعما يعانيه بيده من الصيد» . إنهم يستأنفون تراث المرابطين ، نحن لا نستطيع الإقرار بصحة هذه الصورة ، لكن الجدير بالذكر ، هو أن الأمير يبدو لرعاياه ، بالمظهر الذي يروق لهم ، وأنه يجسد المثل الأعلى للحاكم .

كان الحماس الديني في المغرب قربا ، كما كان عليه في إفريقية في عهد علما ، القيروان ، ولكن طرأ على الإسلام المغربي تغيرات ملموسة ، ويتضح ذلك في مدارس تونس وفاس وتلمسان التي قيزت بالجمال ، الذي قد يغضب أي معاصر للفقيد سحنون ، كما اختلفت الأهداف من تأسيس هذه الدور العلميد الفخمه وكذلك دوافع كل من المشتغلين بالتدريس بها والدارسين الذين دفعهم حب المعرفة النزيد لدروس الاساتذه القدامي .

نشأت المدرسة في المشرق ، مثل كل المؤسسات التي أثمرت في بلاد البرير ، كانت قد ظهرت في بلاد فارس خلال القرن الحادى عشر (ه هر) (ولقد شرحنا في بداية هذا الكتاب الطروف التاريخية التي نشأت فيها) ، ومنها

⁽١٨) أبن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٨٥ ، ابن الأحمر : روشة النسرين ، الترجمة القرتسية ، ص ٥١ .

امتدت الى سوريا ومصر والمغرب . ويحدثنا العمرى (١٩) عن مدرسة فى مراكش ـ عاصمة الموحدين ـ خلط بينها وبين مدرسة من المدارس التي عرفها فى مصر . فهى مدرسة للحديث حيث يدرس فيها مذهب المهدي . ولقد تبنت سياسة بناء المدارس للتعليم كل الأسرات البربرية الحاكمة فى القرن الثالث عشر والرابع عشر (٧ ، ٨ هـ) ، مثل بنو حفص رواد هذه السياسة ثم بنو مرين وبنو عبد الواد . ولكن المرينيين ضاعفوا من عدد هذه المدارس ، وبالتسبة لكل من المرينيين والأتراك السلاجقة الذين أنشأوا هذه المدارس ، كانت المدرسة عبارة عن دار للعلوم الدينية ، وخاصة الفقد ، لتزويد الأمير بالموظفين المتعلمين المخلصين وكذلك بالقضاة وأعوانهم . ورغم أن هذه المدارس كانت تدرس المخلصين وكذلك بالقضاة وأعوانهم . ورغم أن هذه المدارس كانت تدرس توفير المصلى للدارسين بها إلا أن تأسيس هذه المدارس لم يكن محبذا من قبل المسلمين المتحسين . إنهم يستنكون الكسب المادى الذي يصبو إليه الطلبة والمدرسون عن طريق تعليم القرآن والحديث على السواء ، وذهب البعض الى القول بأن « المدارس قضت على العلوم المقيقية » (٢٠)

لقد انفتحت المغرب تلقائيا للصوفية (٢١) مع التطور الإسلامي الذي أدى الى ظهور المدرسة ، وتصدر الدولة للتعليم الديني ، فالصوفية استيراد

[.] (۱۹) العرى : مسالك الإيصار ص ۱۳۲ _ ۱۳۳ .

 ⁽۲۰) ابن مريم: البستان في ذكر الاولياء والعلماء يتلسبان ، الترجمة الفرنسية
 سي ۲٤٩ .

L. Massignon, art. Tasawwuf dans l'Encyclopédie de l'Islam; (Y\)
A. Bel, La religion musulmane en Berbérie, I, pp. 305; L'Islam mystique, dans Revue Africaine, 1928.

مشرقی أیضا ، ولکتها استفرقت طویلا لتقصد بلاد المغرب . لم تعرف بلاد قلیربر شئ من الازدهار المبهر ، لزهاد القرن الثامن والتاسع (۲ ، ۳ هـ) ، من حسوفیة عهد خلفاء بغداد ولم تعرف الصوفید إلا فی القرن الحادی عشر والثانی عشر (۵ ، ۳ هـ) ، ربحا نتیجة للتخمر الدیتی الذی نتج عن حرکات قلرابطین والموحدین ، وبالتأکید نتیجة غیر متوقعة ولا مأمولة لأصحاب هذه الحرکات . بالإضافة الی تأثیر سلطان الغزالی ، الذی قام الفقها المرابطون باحراق کتبه ، وقد أشرنا من قبل الی ما أخذه عند المذهب الموحدی ، فانتشار کتاب و إحیاء علوم الدین به فی المغرب والأندلس ، هو بدون منازع واحد من أعظم الأحداث فی تاریخ الإسلام المغربی . لقد بین الغزالی فی کتابه ، أن ألابتعاد عن متاع الدنیا ، وحب الله ، أنفع من الناحیة الروحیة من الطرق المشرقیون ، وبالتقشف والصلاة والتأمل الدائم ، حاول کثیر من الرجال المشرقیون ، وبالتقشف والصلاة والتأمل الدائم ، حاول کثیر من الرجال المراحل متتابعة والتفانی فیه . ولقد توصل البعض الی ذلك وأسعدتهم فرحة مراحل متتابعة والتفانی فیه . ولقد توصل البعض الی ذلك وأسعدتهم فرحة المشمرة ، بل والاتیان بالمجزات ، فوهبهم الضمیر الشعبی هالة الأولیاء .

وكثل هؤلاء الصوفية أحباء الله في بلاد المفسرب هو « سيسلى يومدين » (۲۲)، أندلسي من مقاطعة أشبيلية ، أتى الى افريقية ، وتلقي الميادئ من زاهد بربرى ومات ودفن سنة ١١٩٧ م (٩٩٥هـ) في قرية مجاورة المتبلسان . كانت هذه القرية المعروفة « بالعباد » مخصصة للرجال الأتقياء ومركزا للتدريب الصوفى خلال حياة سيدى بومدين وسوف تستمر بعد فلك .

Bargés, Vie du célébre marabout Cidi Abou Medien, Paris, (YY) 1884; A. Bel, Sidi Bou Medyan et son maitre Ed-Deqqaq á Fés (Mélanges René Basset, Paris, 1923.

كانت الصوقية مادة دراسية منتظمة ، ولا تهدو متنافرة مع تحصيل الدين أو الفقد ، وكان الناس يتلقون العلم في « العباد» ويعيشون في عزلة . وقد زود المكان بالمنشآت الدينية ، بقضل سخا ، بني مرين . وبعد أن استولى السلطان أبر الحسن على تلمسان سنة ١٣٣٧ م (١٣٧٨) ، ضم لضريح سيدى بومدين مسجد كبير ومدرسة وحمامات عامة وملحقات أخرى . لقد أبدى أبو الحسن المريني بهذا العمل تعظيمه الشخصى لحبيب الله ، وربا كان يحاول استرضاء رعاياه الجدد ـ التلمسانيين ـ بتمجيد ذكرى ولى مدينتهم ، إذ كانت حماية المدنيين عنصرا من عناصر سياسة المرينين منذ بداية حكمهم .

إن الصوفية وتعظيم الأولياء الذى هو امتداد لها ، طبعت التدين البربري ابتداءا من نهايـــة العصور الرسطى ، ولم يهرب من سيطرتها أحد ، لا الرؤساء ، ولا الشعب ، ولا أي طبقة من طبقات المجتمع ، ولا أي جزء من أجزاء بلاد البربر . ويحيط بنو حفص الأولياء فى تونس بكل احترام ، كما يقعل بنو مرين فى فاس ويروى ليون الإفريقي « وأصبح كل جاهل يود أن يكون صوفيا ، بنعوى أن ليست هناك حاجة لدراسة المقيدة لأن روح القدس يكون صوفيا ، بنعوى أن ليست هناك حاجة لدراسة المقيدة لأن روح القدس الصوفيه أخية لكل من كان له قلب طاهر » . وعوضا عن ذلك اكتسبت الصوفيه أهبية سياسية وحربية هائلة بانتشارها بين الجمهور بغضل تجنيد أفراد الطرية (٢٣)

سوف تقوم بلاد البربر بصفة عامة ، والمقرب الأقصي بصفة خاصة ، بتنظيم المقاومة ضد البرتفاليين والأسبان بواسطة هذه الطرق الدينية ، إذ بعد أن استماد المسيحيون شهد الجزيره الأيبيرية بأكملها ، وغزوا أرض الإسلام .

⁽۲۳) انظر وصف الريانيا ص ۲۷ ،

L. Rinn, Marabouts et khouan, Alger, 1884; O. Depont et X. Coppolani, Les confréries musulmanes, Alger, 1897.

واستقروا على شواطئ إفريقية استقرارا محدودا ، أصبح الشمال الإفريقى غير مستقر ، لا للمهاجرين العرب ولا لأبناء الوطن من الهربر . بل ولا للفازين من المسيحيين ، إذ كان احتلالهم للساحل غير مستقرا كذلك ، فلم تهق تونس أسهانية ، إلا لمدة تسعة وثلاثين عام ، وبجاية ستة وأربعين عام ، أما وهران فقد بقيت أسهانية لمدة ثلاثة قرون ولم تعد للإسلام إلا سنة ١٧٩١ م فقد بقيت أسهانية لمدة ثلاثة قرون ولم تعد للإسلام إلا سنة ١٧٩١ م عام .

كان الكافر العنيد (المسيحيون) مرابطا في بعض نقاط الساحل ، فإذا أضفنا الى وجوده ، مزاولة المسلمين للقرصنة التقليدية التي يقدم لها الجهاد المقدس الحجة الحميدة ، والتي تطورت مع حكومة الأتراك الى نوع من السياسة الوطنية ، سندرك السمات الثابتة منذ الآن لبلاد البربر الإسلامي والتي كونتها عدة قرون ، فمنذ التقلبات التي توالت بعد الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر (٥هـ) ، ومنذ غزو النورمان للسواحل وظهور المرابطين في المغرب الأقصي ، اتخذ هذا البلد الكبير وضعه القتالي . وأصبح يمثل الإسلام المناضل ، وسيكون في طرف العالم الإسلامي الغربي برج العقيدة الذي لا يتزحن .

IV

الأثر الأندلسي والحضارة الإسبانية المغربية

لقد تأثر المغرب فى نهاية العصور الوسطي بالتأثيرات الأخيرة التي أتت إليه من إسبانيا الإسلامية ، رغم العداء والكره تجاه الأجنبي الكافر . لقد جمع بقايا ماضى جميل ، والصورة التى حاولنا رسمها عن المغرب ، لا تزال ناقصة

إذا لم نذكر الإثراء الذي حصل عليه .

ولقد عرفنا من قبل أن بلاد البربر المتحررة من المشرق قد أصبحت ـ من الناحية الثقافية على الأقل ـ تحت وصاية الأندلس . ولقد وأينا غو « الفن الإسبائي المفرى » ، وهذه التسمية التقليدية تدل على ذلك . فكانت الروابط لا تزال وثيقة ، والمتيادلات مستمرة بين الدول الإسلامية في إفريقية ، ومملكة غرناطة حيث انحصرت الحياة الأندلسية . ولكن حان الرقت ليبقى التهار في الجهاد واحد ، فمع كل تقدم للاسترداد الإسبائي ، يرتد المسلمون نحو مدن وريف بلاد البربر ، للاستقرار فيها بدون أمل للمودة . إنها أرض اللجوء ؛ وأيناها تقوم بهذا الدور بالنسبة للمشرقيين الذين لم يقدم لهم المشرق إقامة مريحة ، وإنها الآن تقوم بهذا الدور من جديد بالنسبة للأندلسيين الرافضين للإقامة تحت السيطرة المسيحية ، رغم التيسير المقدم لهم ، إنهم يأتون للاتضمام الى ذويهم ، وسوف ترى سنة ، ١٩٠١ م (١٩٠١هـ) آخر وأسوأ مأساة لطرد المسلمين الذين اضطروا للارتداد الى المسيحية ، لقد كانت نهاية المسلمين في إسبائيا .

كان معظم هؤلاء المهاجرين من نخية أهل المعنس، أو على الأقل من الطبقات المثقلة ، وكانوا يشكلون مساهمة نافعة ، بالنسبة لحمنارة المالك البريرية ، ولقد وضح هذا التأثير الأندلسي ، بسبب كثافة عددهم والرطائف المقدمة لهم في مأواهم الجديد ، والأصالة الراسخة لمستقبليهم ، وكانت إفريقية أكثر استعدادا في هذا المجال عن المفرييين ،، والمغرب الأقصى كان أكثر استقبالا لحبراتهم من المغرب الأوسط .

وبالمقارنة بين شرق المغرب (إفريقية) والمغرب الأقصى كان المغرب الأوسط ولا يزال حتى يومنا هذا بلدا ريفيا كبيرا ، والمدن به نادرة ، ولا تجد الحضارة أرضا خصبة لنموها ، ومنطقة وهران التى أقام فيها بنو عبد الواد عاصمتهم ،

كانت منطقة سهول صحراوية مرتفعة ، ينتشر الرعاة البدو فيها ويعيشون حياتهم البدوية حتى قرب الساحل. وعلى كل فبنر عبد الواد أنفسهم كانوا من البدر الرحل ، ويعود تحضرهم الى بداية القرن الثالث عشر (٧ هـ) ، ولكن لم تتأثر طريقة حياتهم بهذا التحضر . فالتطور هنا لا يمكن أن يكون إلا جزئيا ويتدرج ، وليس هناك أطرف من سيرة يغمراسن مؤسس الأسرة الحاكمة ، لقد ولد في مكان ما بالصحراء وعاش في الخيام ، وبعد موت أخيه وجد نفسه متقلدا زمام زعامة بدو بني عبد الواد ، ومنذ ذلك الحين عاش في حصن قديم بتلمسان . كان هذا القصر يجاور المسجد الجامع ، ويسكنه من قبل حكام المدينة المرحدين . إختار الرزراء من بين أفراد عائلته ، وكذلك الحاجب ، والمعاونون ، وقد استقبل الوقود ، واستمع للشعر المنظم باللغة العربية خصيصا لمديحه ، وكافأ الشعراء . وحينما مات عن ثلاثة وسبعين عام ، من المؤكد أند لم يتكلم إلا لهجة زناته البربرية ويبدو أنه لم يكن يعرف غيرها. حكى لنا المؤرخون عن بعض أحاديثه بهذه اللهجة التي يعتبرونها وحشية بدائية ، لقد قال للمتملقين الذين نسبوا عائلته لإدريس حنيد النبي : « إذا كان هذا حقيقة ، فسرف يفيدنا عند الله ، ولكن في هذا العالم لا ندين بثروتنا الا لسيوننا » (٢٤) كان يستمد قوته من تماسك عشيرته ، واحتفظ طيلة حياته بمظهر زعيم قبيلة بربرية كبيرة ، كما بقى طابع قصره بتلمسان بدويا حتى في عهد ابند عثمان وحفيده أبي زبان . أما في عهد أبي حس الأول يروى لنا ابن خلدون « هو أول ملوك زناته ، رتب مراسم الملك وهلب قواعده » ، ويذكر أيضا هذا الرأى لأمير عربي الذي يروى أن زناته « كانوا رؤساء باديد ، (٧٥) . يعود هذا التطور الى تأثير الأندلسيين اللاجئين

⁽ Y4) التنسئ ترجمة Barges : إضافة لتاريخ بنى زبان، ملوك تلمسان (Paris 1837) ص٣٠. (Y4) ابن خلدون : العبر ٧ : ١٣٧ .

والمحيطين بأبى حبو (٢٦) منهم عائلة « الملاح » ، الذين كانوا رجال مال ، جا وا من قرطبة ، واختار أبو حبو منهم أربع وزراء على التوالى ، إنهم موالى من من أصل مسيحي ومثقفون ، كان أبرز وأنشط أفراد هذه العائلة هلال القطلاتى الذي كان عبدا عند سلطان غرناطة . وبعد انتقاله الى تلمسان وأصبح من كبار موظفى الدولة ، وأخلت ثروته فى الاتساع فى عهد ابى تاشفين ابن أبى حمو ، لأنه ساعده للوصول الى العرش .

ولقد تجملت مدينة تلمسان في عهد هذا العاهل الجديد ، ونستطيع القول بأن عهده ، شهد نهضة هندسية وعمرانية واسعة ، ويفيدنا ابن خلدون هن ذلك و وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين » (٢٧) والمدرسة التي أسسها ابن تاشفين كانت من أفخم ما شيد في المغرب الأوسط ، ولم تستفد مدينة تلمسان من احتلال المرينيين لها بعكس مساجد ضواحيها ، ومذيئة المنصورة التي بناها المرينيون خلال حصارهم لمدينة تلمسان . ولذلك كان رحيلهم سببا في إهمال ودمار مدينة المنصورة ، وإعادة ازدهار المديئة القديمة تلمسان . ويعتبر أبو حمو الثاني صساحب هذا التجديد ١٣٥٩م القديمة تلمسان . ويعتبر أبو حمو الثاني صساحب هذا التجديد ١٣٥٩م المدينة تلمسان ، وكان معاطا المحم ، والشعراء ، وكان ينظم الشعر وألف رسالة سياسية أدبية عن فن الحكم ، ويفضله رأى قصر المشوار أجمل لياليه ، وذكرى المولد النبوى كانت المحم ، ويفضله رأى قصر المشوار أجمل لياليه ، وذكرى المولد النبوى كانت فرصة سنرية للاحتفال يقدمه السلطان لشعبه ، كان أبو حمو يحكم محاطا فرصة سنرية للاحتفال يقدمه السلطان لشعبه ، كان أبو حمو يحكم محاطا برؤساء قبيلته وكبار موظفى المملكة (٢٨) . كانوا يسمعون قصائد المناسات

⁽²⁷⁾ ابن خلدون : العبر ٧ : ١٤٠ .. ١٤١ .

G. Marçais, Remarques sur les méder- . ۱٤٢ : ۷ ابن خلون : المبر ۲۷) sas funéraires (Mélanges) p. 271 .

⁽۲۸) يحيى بن خلدون : تاريخ بني عبد الواد ترجمة II A. Bel س ٢٠ .

وهم جالسون على البساط والأرائك قى القاعة الكبيرة ، المزينة بساعة حائط الية ، ويضيئها شمعانات من النحاس المذهب ، ويطوف الوصقاء بملابسهم الحريرية المتصددة الألوان ، ومعهم مجامر العطور ، ويرشون الجالسين باء الورد . وفى نهاية الليل تقام الموائد المحملة بالطعام والمشهيات ، وفى النهاية يقوم الجميع بصلاة الفجر وينصرف الأمير . إن الانطباع الذي تتركه لنا هذه القصة ، يدل على إنها ليست لاحتفال قصر قخم وبهى ، بل هي تسلية تقليدية تلائم مجتمع برجرازى ، رقيق ومتدين ومثقف ومعتدل الميول ، ولم يتخلص بعد من بساطة أسلافه . فحياة تلمسان الأمس ، لم تتغيز كثيراً عن حياة المعاصرين لأبى حمو . كان عصر بنى عبد الواد هو عصر ازدهار تلمسان الكبير ، رغم المخاطر التي جعلت من وجود الملكة معجزة دائمة ، وهى لا تحتفظ فقط بالمنشآت المعمارية التي تتوجها ، وتجعلها مدينة فن ، بل بالتقاليد القدية المتعة ، ولا تزال البنات تنشدن باللغة العامية القصائد بالتقاليد القدية المتعة ، ولا تزال البنات تنشدن باللغة العامية القصائد الصغيرة على إيقاع يشبه الرقصات الأندلسية (٢٩٩) . لقد دمغ الأثر الإسبانى ، عادات السكان البربر ، رغم أنه أثر متأخر ومحدود .

أما مدينة فاس ماصمة المرينيين ماقد كانت أكثر اتساعا وسكانها ضعف سكان مدينة تلمسان ، إنها تنتمى الى ماضى إسلامى جليل ، وقد استفادت بالتأثيرات الإفريقية ، قبل أن تصلها التأثيرات الأندلسية . وقد استفاد بنو مرين بهذا التراث بعد أن أصبحوا حكاما للبلاد بجدع الأنف ، ويعقوب هو الذي تمكن من الاستيلاء على الحكم ، وكان معاصرا ليغمراسن ابن عبد الواد . كان بالطبع يحتفظ بذكرى أسلافه ، ولكن لا يبدو عليه طابع الزعيم البدوى وكان لإثنين من أولاده ألقابا بربرية ، وحتى منتصف القرن

W. Marçais, Le Dialecte arabe parlé à Tlemcen, Paris, 1902 (YA) pp. 207 ss.

الرابع عشر (٨هـ) كانت تخصص الأسماء البربرية للأميرات . لقد أتم يمقرب الممل الشيه رسمي كماهل إسلامي ، ألا وهو إنشاء عاصمة له ، هذه العاصمة هي قاس الجديدة .. مدينة بني مرين .. وهي ملحقة رسمية للمدينة الدينية والتجارية للأدارسة . وسيهتم أمراء المفرب الأقصى من بعده بعملية البناء . وكان أكثرهم اهتماما أبو الحسن وابته أبو عنان وتعد هذه الفترة ذروة الأسرة الحاكمة . يذكر ابن مرزوق .. مؤرخ أبي الحسن المريني .. في عدة أبواب المنشآت التي شيدها سيده (٣٠) . يتكلم ابن مرزوق عن أسوار المدن والكباري والتناطر ، وبعد ذلك يتكلم عن المساجد الجامعة والمصلات ، والمستشفيات ، وخصوصا المدارس التي نشرها المرينيون ونحن نعرف الدور الذي قامت به هذه المدارس ، كان العصر غير موات للأدب (ويعلن ابن خلدون إنهم لا يهتمون بالشعر) ، ولكن العلوم التقليدية ازدهرت ، مثل تفسير القرآن وعلوم الدين والفقه والفلسفة والقواعد . كان أبر الحسن المريني محاطا بالعلماء ، ويشارك في مناقشاتهم العلمية ، وبرافقونه في تنقلاته ، ويفسدق عليهم بالامتيازات . كان هذا دليلا على دخله الوفير ، وتوته الحربية ، وسيطرته السياسية . وأثناء غزو إفريقية ، دخل تونس برفقة مجموعة من العلماء ، ولقد تركوا عند الشاب ابن خلدون انطباعا حسنا لدرجة أنه شرع في اللحاق بهم في فاس ، بعد تفكك جيش بني مرين . وقبل الشروم في الرحيل ، كان ابن خلدون قد ارتبط مع عالم منهم استقر في ترنس ، وكان يدعى الآبلي (٣١) رجل دين وفقيد ، وفي نفس الوقت عالم رياضيات وقلسفة ، ويهدر أنه كان ممثلا لهيئته وزمنه ، إن الاسم الذي يحمله يشير الى

⁽٣٠) أين مرؤوق ؛ المستد الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، ص ٣٩٧ . وما يعدها .

⁽٣١) ابن مريم ، البستان في ذكر الأوليّاء ، الترجية القرنسية ص ٢٤٦ .

مدينة آبله الأندلسيه . كانت هذه المدينة مهدا لعائلته . لجأ أجداده الى تلمسان بعد استيلاء المسيحيين على أشهيلية . ولد الآبلى في تلمسان سنة ١٢٨٢ م (١٨٨ هـ) وتركها أثناء الحصار ، وذهب الى مكة للحج ، وعند عودته الى المغرب عاش في تونس وتلمسان ، وأخيرا في فاس الجديدة حيث أصبح من ندماء أبى الحسن .

إن نوائب المغرب الإسلامي ، هي التى أدت الى مولده فى شمال إفريقيا ، وربطت اسمه بأسرة بنى مرين . أما ابن مرزوق وآخرين فتهدو صورهم ثانوية بجوار صورة عبد الرحمن بن خلدون الذى احتل كل الحياة الفكرية العصره والتي ظهرت واضحة عند الحقصيين فى تونس .

دلائل كثيرة تشير الى أن العائلة الحاكمة فى تونس ، قتل بأصلها وأسلوب حياتها ، توعا من الارستقراطية التي تغرض نفسها على الأسرات الحاكمة الأخرى يتقوقها ، عما يجعل هؤلاد الحكام يتمنون الاتصال بها ، وأحد هذه المظاهر هو الإقبال الذي يبديه حكام تلمسان وفاس فى طلب أيدى أميرات بنى حفص لأبتائهم .

فى سنة ١٢٨٢ م (٦٨١ ه.) أرسل يغمراسن نوابا من نهلاء ينى عبد الواد لطلب يد ابنة أخ المستنصر لابنه عثمان ، وهى « إحدى بناته المقصورات فى خيام الخلافة » وتزوجها عثمان بمجرد وصولها الى تلمسان . ويقول ابن خلدون « فكان ذلك مفخرا لدولته وذكرا له ولقومه » (٣٧)

فى سنة ١٣٣٠ م (٧٣١ هـ) خطب أبو سعيد المريني ، الأميرة فاطمة أخت أبى زكريا المفصى (٣٣) ، لإبند أبى الحسن ، السلطان المستقبلي ،

⁽٣٢) اين خليون : المير ٧ : ١٢١ .

⁽٣٣) اين خلدون ، المبر ٧ ، ٣٣٣ .

وجاءت المروس عن طريق البحر مصحوبة بأبيطول وكانت موضع حفارة واستقبال فخم ، وكانت حقائبها محملة على مطايا مسرجة بالحرير واللهب والنضة ، ويشير ابن خلدون الى أنه « احتفل لوافدها ، وأعراسها غاية الاحتفال عالم يسمع مثله فى دولتهم » ، وبعد عشر سنوات ماتت السلطانه فاطمة فى معسكر المرينى عند حصار طريف وحزن أبو الحسن عليها كثيرا ، ويقول ابن خلدون فى هذا الشأن (ع٣) « وبقى في نفسه منها شئ حنينا الى ما شفنته به من خلالها وعزة سلطانها وقيامها على بيتها .. وظفرها فى تصريفها ، والاستمتاع يأصول الترف وللاؤة العيش فى عشيرتها . فسما أمله الى الاعتياض عنها ببعض أخواتها ، وأوقد فى خطبتها » ولقى هذا الطلب استقبالا حارا ، لكن مصير فاطمة لم يقر أميرات بنى حفص ، وأظهر صهر أبى المسن نفورا شديدا لترك ابنه أخرى تفامر فى البلاد المغربية ، لكن السفراء أخيرا الى المغرب ، ومعهم الأميرة عزونة فى مركب عظيم ، وحتى السفراء أخيرا الى المغرب ، ومعهم الأميرة عزونة فى مركب عظيم ، وحتى تقيم العروس فى فاس ، كلف السلطان أبو الحسن جيشا من الفنائين ببناء تصميمه ، ولم يستغرق البناء أكثر من ثمانية أيام .

من البديهى أن هذا النوع من الاتحاد له أثر سياسى منتظر من قبل الحكام البرابرة ، وإنهم يستغلونه فى كثير من الأحيان ، ولكنه يبين أيضا رغبتهم فى شهرة قصورهم ، وتجميل حياتهم الخاصة .

هناك عناصر عديدة تشارك في إحاطة العائلة الحاكمة في ترنس بهالة من الشهرة والنفوة : أولا : أصالة حكامها ، فالحقصيون هم الورثة الأصليون لحلفاء القرن الثاني عشر العظام ، كما أن اسم سلفهم ـ الشيخ أبو حقص ـ له

بيد أميره تونسية . (٣٤) العبر ٧ : ٣٥٣ ، ملحوظة : سيطلب ابن أبو الحسن أبى عقان يد أميره تونسية . Provenzali p. 212 . انظر ابن مربم : البستان ، حياة أبن مرزوق ، ترجمة .

شهرة اسم عبد المؤمن في المغرب ، بل أشهر منه في الأندلس حيث استشهد حفيد له في معركة الأرك المجيدة .

ثانيا : البلد المتميز الذي استقروا فيه منذ عدة أجيال . إن مشرقيا مثل المعري لا يرى في أهل إفريقية ، الخشونة التي يجدها في أهل البربر ، ولأهل إفريقية لطف أخلاق وشمائل بالنسبة الى أهل بر العدوة وسائر بلاد المغرب » (٣٥) . ويمتدح بديهتهم الحاضرة وأخلاقهم الودودة ويهجة معشرهم ، إنها ملامح سيكلوچية لسكان الحضر ، المنتمين لمنطقة انطبعت بطابع الحضارات القرطاجية والرومانية والهيزنطية والإسلامية ، والتي تدين لحكامها المتناليين بالتغيرات المتلاحقة للحياة الحضرية .

رغم كثرة الحكام على مر العصور ، انطبعت مدن إفريتية بطابع الحكام المسلمين ، وتأثرت بهم تأثرا ملموسا ، قادرا على جعل المغاربة ينغعلون به . لقد تعاقب الخلفاء والسلاطين والأمراء الوارد أسمائهم فى هذا الكتاب ، وهم أمراء أغالية وخلفاء فاطميون ، وسلاطين بنى زيرى ، وذلك ابتداء من نهضة القرن التاسع حتى الغزو الهلالى . ولقد ساهموا جميعا فى جعل هذا البلد نشطا ومزدهرا . عندما دخل أبو الحسن المريئى مدينة تونس سنة ١٣٤٧ م (٨٤٧ هـ) أواد مشاهدة و حجر القصر ومساكن الخلفاء ، فطاف عليها ودخل مند الى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية _ الحديقة الملحقة بالقصر _ ، وأمان على بسائينه وجوائزه ، وارتحل من الغد الى القيروان فجال فى نواحيها . ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين ، وزار أحداث العلماء والصالحين . ثم سار الى المهدية ووقف على ساحل المهر ، ونظر فى عاقبة الذين كانوا من قبل أشد قوة وآثارا فى

⁽٣٥) المعرى : مسالك الايصار ص ١٠٣٠ .

الأرض ، واعتبر بأحوالهم. ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير» (٣٦)

إن الذى أثر فى هذا المغربى ، والذى قدم له درسا في التواضع ، وبداية لعالم جديد ، هو كل ما كانت تدين به إفريقية ، لماضيها الروماني وماضيها المشرقى ، بل ولاتصالها بحصر – رغم القطيعة – حيث كانت تحصل عن طريقها على المؤثرات الأسيوية . والعمرى يقول أن هذا الطابع الحضري إلذى يميز شعب إفريقية و وما ذلك إلا مجاورتهم لمصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم لهم...» . ولكن العمرى مصرى ومشكوك فى قبيرة لبلده . ومع ذلك فالطابع المشرقى الصريح المتأثرة به مدينة تونس الحديثة ، والمكانة التى تحظى بها القاهرة فى هذه المدينة ، ... كل هذا يحثنا على الاعتقاد بأن العمرى كان على حق ، وسنقبل عن طيب خاطر ما قاله عن الحركة الحضارية المحسوسة للأندنسيين والتي لا تقل عن الأثر المصرى (٣٧) .

لقد كان الأندلسيون كثيرى العدد في إفريقية ، وارتبط مجيثهم ارتباطا وثيقا ، بتأسيس دولة بنى حفص . فأبو زكريا ... مؤسس الأسرة الحاكمة ... كان واليا لمقاطعة أشبيلية ، وجعلها شبه مملكة قبل تعيينه في بلاد البربر الشرقى ، لمعالجة ثوراتها المتعددة وخلال الوقت الذي قضاه في أشييلية كانت المدينة الأندلسية الكبيرة تمر بأجمل أيامها الأخيرة ، ولما تمكن فرديناند الثالث من انتزاع المدينة في سنة ١٢٤٨ م (١٤٦٦ ه.) حدثت الهجرة الأشبيلية الغفيرة الى بلاد المغرب واتجه الجزء الأكبر من الصقوة الأشبيلية بالطبع الى تونس . نقد وجد المهاجرون في هذه المدينة ، بيئة مضيافة ، كما وجدوا

⁽٣٦) ابن خلدون : المبر ٧ : ٣٥٧ .. ٣٥٨ .

⁽٣٧) عن هذا التأثير الزدوج ، انظر مسالك الابسسار ص ١٠٣ ، ابن خلدون : المقدمسة

الوسيلة لمزاولة نشاطهم في ظل الأسرة الحاكمة الجديدة. وكان من بينهم الننان والمعماري والمزخرف والرسام والمستاني ، اللين أسهموا في نقل التراث الأندلسي ــ المغربي الى إفريقية . وكان من بينهم أيضا المثقفون ورجال الحكومة ، اللين عاونوا في إدارة الدولة . وكان بدون شك من أبرز العائلات المهاجرة عائلة ابن خلدون ، وكان أحد أفراد العائلة ويدعى أبي بكر قد استقر في تونس وأصبح وزيرا للشئون المالية . وابند محمود كان كبيراً للحجاب ، ثم رئيس وزرا - وزاول القيادات الحربية . وكان لمحمد ابن عالم شديد التقوى عبن مفتيا . أما حفيده عبد الرحمن ، فقد ولد في تونس سنة ١٣٣٧ م (٢٢٧ هـ) وهو المؤرخ الفيلسوف الذي نعرفه (٣٨) وعبر حياته الوظيفية المضطربة توصل لكتابة مؤلفه التاريخي الأكثر ثرا - ، الذي نُدان به للثقافة العربية الإسلامية .

وفى الامكان ذكر أكثر من كاتب ، لكنهم لا يملكون عبقرسة صاحب المقدمة » . فقد كان بلاط أبى زكريا وبلاط المستنصر حافلين بالأندلسيين دى القدرة العالية ، كانوا يكونون مجتمعا فخورا بأصالته ، ويزودون القصر التونسى بعطر الأدب والكياسة والتأنق ، وبتعبير أدق كانوا عبارة عن زمرة تتسابق في المصول على انعام الخلفاء ، والتفوق على مجموع المرحدين ، ممثلوا التراث الدينى والمغربى . ويعد ثلاث قرون ونصف كانت تونس والريف التونسي ، هما الللان يستقبلان النصيب الأكبر من المسلمين الأندلسيين الذين طردهم فيليب الثالث . (٣٩)

[.] ومايعتما (٣٨) انظر سيرته اللاتيه بكتابه المبر " التعريف بابن خلدن ٧ . ٣ . و ومايعتما (٣٨) انظر حسنى حسنى عبد الرهاب Coup d'oeil sur les apports ethniques (٣٩) انظر حسنى حسنى عبد الرهاب (٣٩) en Tunisie, dans la Revue tunisienne, 1917, p. 305; G. Marçais, Testour et sa grande mosquée, ibid., 1942. p. 147.

وهكذا ورث هذا البلد القديم (إفريقية) المضارة التى صنعت مجد الإسلام الغربي . بالإضافة الى المضارات التي تراكمت فيها من قبل ، فالأثار التي تركها الاستعمار الفيئيقي والاحتلال الروماني والوصاية المشرقية ، وأخيرا الهجرة الأندلسية التي شكلت صورة إفريقية وساعدت على قييزها عن مقاطعات شمال إفريقية الأخرى ،

الخاتمة

هكذا تبدر لنا يلاد البربر في نهاية عصورنا الوسطى . ودخول الأتراك مسرح الأحداث سيقتح لهذه البلاد بابا آخر للتاريخ . ومع كل قلن يغير هؤلاء المثلون الجدد مسارها بصورة محسوسة كما قعل الفاتحون العرب في القرن المسادس (الأول الهجرى) والمهاجرون العرب في القرن الحادى عشر (هد) ، كما أن السمات التي حاولنا بها تمييز مناطقها الثلاث ستبقى صحيحة الى حد ما حتى العصر الحديث . ولكن كيف وجدت قرنسا هذه المناطق عندما دخلتها ؟ هذا هو ما سوف نبيته في الكلمات الآتية .

كان المغرب الأوسط هو أكثر المناطق الثلاث تأثراً يسبب تنوخل الأتراك ، والقرصنة التى زاولوها لم تكن جديدة على المنطقة لأننا رأينا تطورها بعد الغزو الهلالي . فقراصنة بجاية والمهاجرون الأندلسيون مهدوا الطريق لرؤساء مدينة الجزائر وذلك قبل الأخوة بربروسا واضمحلت مدينة تلمسان وبجاية ، وتناقص سكانها ، بعسد أن كانتا بمثابة عواصم ، كما انحط النشاط الفكرى فيهما . ويخلاف هذه المدن سيبقى المغرب الأوسط حتى سنة ١٨٣٠م (١٢٤٦ هـ) كما كان في نهاية العصور الوسطى ، سيبقى بلدا قروبا كبيرا ينمو جزئيا ، بلدا لمناطق جبلية حيث الحياة الصعية والسهول الصحراوية الغير

صالحة إلا لرعاة الهدو . لقد عطل القهر التركى الحياة الاقتصادية بعد أن أوقفت القيائل العربية نهضتها .

كانت سيطرة الأتراك أقل سوءا في إفريقية ، وتونس على وجد الخصوص ملائة لهم بالكثير ، حيث استقر المبدأ الوراثي منذ بداية القرن الشامن عشر (١٧ ه.) واستفادت تونس من استقرار ، لم تتمتع بد دولة الجزائر (الماصمة) . وعلى كل فأصل هؤلاء الحكام الجدد ، وطد تراثاً لا يزال حيا ، لأنهم كانوا واعين لعملهم وحريصين على صالح شعربهم . إن دولة تونس التي حروت بلاد البربر من المشرق ، ودفعت ثمن الانفصال افتقارا محترما ، بقيت البلاد الأكثر مشرقية ، والأقل بربرية في شمال إفريقية ، ويرجع ذلك الى موقعها الجغرافي وإصرار ماضيها ، والذكري البديهية لعصرها اللهبي ، لقد كانت وبقيت حتى العصر الحديث ، المنطقة التي كانت فيها الثقافة العربية أكثر وسوخا وأكثر انتشارا ، وفي نفس الوقت كانت مدنها ترحب بالتأثيرات

هناك تعارض جغرافى بين تونس والمغرب ، وهذا التعارض لم يقل مع مرور الزمان . يقع المغرب فى الطرف الآخر لشمال إفريقية وله واجهتان بحريتان مثل تونس ، لكن الواجهة البحرية لتونس تربط داخل البلاد بعالم البحر الأبيض والمشرق ، أما الساحل المغربى للمغرب ، فينفتح على المحيط الأطلسى أي على الفراغ (حتى العصر الحديث) . وينظور المشرق ، تعتبر دولة تونس المغرب الأدنى ودولة المغرب هى المغرب الأقصى . بقى المغرب على خلاف تونس الهذا البربري أساسا لأن اللهجات البربرية تفطى أوسع المساحات كما أن الاطارات الاجتماعية القديمة باقية وراسخة . ويعتبر المغرب من الناحية العتصرية والثقافية الهلد الأقل تعريبا لأنه لم يتعرض إلا بطريق غير مهاشر ، عمن طريق التيار الذي تنقله إليه إفريقية أو التيار المعاكس الذي يأتى إليه

من أسبانيسا . ولقد أثرت فيه الحضارة الأندلسية تأثيرا عميقا وبقيت حضارته . لقد ازدهر فن المدن المغربية بالأموال الأسبانية ـ المغربية أيام المرحدين والمرينيين ، وعندما اقتصر المغرب على موارده الخاصة ، تجمد وانحط ، هذا الفن ينطبق عليه الى حد ما الحكم الذى يذكر دائما بأن تدهور المغرب الأقصى بدأ مع بنى وطاس أقارب المرينيين : « بعد بنى مرين وبنى وطاس ، لا يوجد ناس » .

ولم يؤد اختفاء الإسلام الأندلسى الى تدهور حياته الفكرية فحسب ، بل استرداد المسيحية لأراضيها عرقل تطوره . وبينما كانت تونس تنفتح على التأثيرات الأوربية ، كان احتلال الكفار (المسيحيون) للمدن البحرية قد جمل المغرب يصمد في موقفه الدفاعي ، وأهاج عداؤه للأجانب .

بينما أصبحت أسهانيا حاجزا بين المغرب وأوربا ، وضع المغرب قواته الذاتية لمقاومة سيطرة الحكام المشرقيين وبذلك تجنب التبعية العثمانية التى فرضت على المناطق البريرية الأخرى . والموجة التركية التي غطت معظم العالم الإسلامى ، والتى مرت ببلاد فارس واكتسحت الامبراطرية البيزنطية ، واندفعت حتى قيينا ، وغمرت شهه جزيرة البلقان والأناضول ، وسوريا والعراق والعربية السعودية ومصر ، وطرابلس وتونس والجزائر ، هذه الموجة ضعفت وتلاشت أمام الحدود المغربية .

هذه المغامرة الشاذة والرضع المغرافي وطابع السكان البريري ، وهذا التدين الذي بيئت الصفحات السابقة مظاهره ، كل هذا فرض على المغرب مكانة خاصة في العالم الإسلامي ، وجعل منه ملجأ لإسلام سلني وطبعه بأصالة قوية لا تستثنى التغيرات المستقبلية

	tal and a second	
الصقحة	المرمنوع	
٨	_ مقدمة العرجمة	
٠	ہے توطئة	
٧	- المقدمة ؛ تزامن	
	الجزء الأول	
	شمال افريقيا تحت وحاية المشرق	
71	- الفصل الأول : استشراق شمال افريقيا	
41	 I ما عثله المغرب بالنسبة للمشرق 	
۳.	II ما أخله المغرب من المشرق	
۳.	أ خطيوع اليزيز .	
44	ب _ الديانة الاسلامية .	
Ĺ	ج التعريب	
£A	III ــ رد فعل الخوارج	
- القصل العالى: نهضة المغرب في القرن التاسع (القرن الثالث الهجري)		
77	مقدمة	
	I _ علكة الأغالية	
44	أ _ العلاقات مع الخلاقة .	
٧١	ب ہے غزو صفلیۃ ۔ ۔	
YY	جر شعب أقريقية ﴿ تُونَسَ ﴾	

الصقحة	الموضوع
. 44	د ـ الحياة الاقتصادية
1.1	هـ ــ الحياة الدينية والفن الاسلامي
114	II ـ بلاد البربر الحارجية ومملكة تاهرت .
140	III _ بلاد البربر العلوية ونملكة الأدراسة
	- النصل الثالث : الأزمة الفاطمية
101	مقلمة
104	I ـ الفاطميون في بلاد البربر .
107.	أ _ أسباب الانفصال ؛ المذهب الشيعى والسياسة الدينية
174	ب-السياسة الضريبية .
١٧.	جــرد فعل الخوارج وثورة أبي يزيد (صاحب الحمار)
144	د ــ العشرون عام الأخيرة .
	II عملكة الزيربين (الصنهاجيين)
14.	أ _ العلاقات مع القاهرة _ نحو القطيعة .
144	ب ـ شعب أفريقية .
Y.1	جد إلحالة الاقتصادية .
Y11	د ـ الحياة الملكية ، الفن الاسلامي والأدب العربي .

المفعة

الجزء الثانم الغزو الماللم ونتائجه المباشرة

I أ الغزو		
ب ـ الغوضي ا		
جــ تقدم العرد		
II ــ أ ــ المساهمات		
ب_النتائج الا		
III اتجاه صنهاجة نحو البحر الاتفاقيات والاشتهاكات مع		
نورماندی صقل		
l		
بلاد البربر المتحررة من المشرق		
مقدمة : الممالك الي		
عشر الميلاد		
- القصل الأول : المرابطون		
I ــ المهمة الدينية وا		
II الأندلس وتطور		

الصفحة	الموضوع
	- القصل الثانى: الموحدون وقمة المغرب
444	مقدمة
44.	I _ ابن تومرت ومذهب الموحدين
4.6	II _ الحروب والمهمة الدينية للموحدين
W. Y	III _ أهل الذمة وعادات وفن الموحدين
	النصل الثالث: ميراث الموحدين وتدهور المفرب
412	مقدمة
410	I _ الممالك الثلاث في شمال أفريقية
444	II ــ دور العرب
44.	III _ الحياة الدينية
440	IV تأثير الأندلس والحضارة الأسهانية العربية
427	111±_
424	_ النهرس